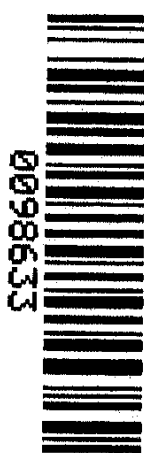


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

في قبوي
قصة اليمّة
كريات شتاء
مشاعر صيف
التمساح



0098633



Bibliotheca Alexandrina



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد السادس

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

- في قبوى
- قصّة أيمّة
- ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
- التمسّاح

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

يضم هذا المجلد السادس من أعمال دوستويفسكى الادبية الكاملة اربعة أعمال هي «فى قبوى» ، «قصة أليمة» ، «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» و «التمساح» .

فى قبوى*

١٨٦٤

يقول الكسندر سولوفييف عن هذا العمل من أعمال دوستويفسكى: « ان هذا الكتاب الغريب هو من أعماق آثار دوستويفسكى ، ان لم يكن أكملها على الاطلاق من ناحية الشكل» ، فأما أن الكتاب غريب فان الشعور بالغربة هو ما تمتلئ به نفس القارئ أثناء قراءته ، اذ يحس أنه ازاء لون من ألوان الكتابة والتعبير لا عهد له بمثلها من قبل ، لا فى أعمال دوستويفسكى التى سبقته ولا فى أعماله التى ستعقبه ، ولا فيما قرأ من أدب سبق دوستويفسكى . وربما أحس القارئ فى بعض ما يقرأ من أدب حديث ببعض ما يحسه عند قراءة هذا الكتاب من الشعور بالغربة ، ولا عجب والحالة هذه أن نرى مدارس أدبية معاصرة كثيرة تدعى أبوة دوستويفسكى لها أو بنوتها لدوستويفسكى ، كما نرى مدارس فكرية تنمى نفسها اليه وكما نرى مذاهب علمية ونظريات سيكولوجية تصل أسبابها بأسبابه ، وذلك كله ما حمل كثيرا من الكتاب والمفكرين والنقاد الذين تعاقبوا بعد دوستويفسكى بما أن دوستويفسكى هو المعلم فى

كل وقت .

وأما عن العمق الذى يشير اليه سولوفييف فليس ينفرد به هذا المؤلف من مؤلفات دوستويفسكى . ان العمق ، العمق النفسى والعمق الفكرى ، هو ما تتميز به أعمال دوستويفسكى جملة ، وان كانت هذه الاعمال متفاوتة فى قيمتها سواء من ناحية العمق أو من ناحية كمال البناء الفنى .

وأما أن هذا الكتاب ربما كان أكمل أعمال دوستويفسكى على

الاطلاق من ناحية الشكل ، أى من ناحية الصياغة والبناء والأداء ، فهذا رأى للاستاذ سولوفيف قد يؤيده بعضهم وقد يرفضه بعضهم ، ولكن مما لا شك فيه أن كل من قرأ أعمال دوستوفسكى الادبية الكبرى ، مثل «الاخوة كارامازوف» و «الجريمة والعقاب» ، و «الأهبل» و «الجن» وغيرها قد تبلغ نفسه من الامتلاء بالشعور بالكمال الشكلي فى تلك الاعمال الى الحد الذى يتساءل معه : فما الذى يعوز «الاخوة كارامازوف» مثلا من كمال البناء ؟

ومهما يكن من أمر فقد كتب دوستوفسكى هذا الكتاب (فى قبوى) متعجلا كل التعجل ، فى فترة قاتمة مظلمة من فترات حياته قضى أكثرها بمدينة «تفير» ساهرا على زوجته المحترمة .

وقد ظهر القسم الاول من هذا الكتاب فى مجلة «العصر» ، عدد كانون الثانى (يناير) ١٨٦٤ ؛ وفى ٢٠ آذار (مارس) كتب دوستوفسكى الى أخيه ميشيل قائلا ان صياغة هذا النص أصعب مما كان يتخيل . ولكنه أضاف الى ذلك قائلا ان القصة جيدة حتما ، وان العنصر الشعري فيها لابد أن يلفظ سائرهما وأن ينقذه . وفى ١٢ نيسان (أبريل) كتب الى أخيه من مدينة تفير يقول ان القصة تكتسب أبعادا لم يكن يتوقعها . وماتت زوجته فى ١٥ نيسان (أبريل) فانقطع عن الكتابة ، ثم استأنف العمل فى أواخر ذلك الشهر نفسه بسان بطرسبرج ، فكان من الممكن أن يظهر القسم الثانى من النص فى عدد نيسان (أبريل) من المجلة ، ولكن ذلك العدد نفسه صدر متأخرا جدا ، فلم يظهر القسم الثانى من هذا العمل الا فى آخر شهر ايار (مايو) .

يعرض علينا دوستوفسكى فى هذه القصة ، ان صح أن يوصف هذا الكتاب بأنه قصة ، يعرض علينا شخصية سلبية ، انسانا يزخر قلبه مرارة ، ويفيض احتقارا للناس ولنفسه . ويصفه دوستوفسكى بأنه واحد من ممثلى جيل يمضى وينقضى . والحق أن بطل القصة أشبه بحالم «مانس» تسددت أهامه وذلت عنه الغشاوة وتحد من الفتنة

والسحر : انه صورة كاريكاتورية لبطل الشاعر بايرون . غير أن فى شخصية هذه القصة أكثر من ذلك: ان نزعة البطل الفردية الجامحة تذكرنا بكيركجارد ونييتشه ، فنحن هنا نتصل بتيار بأسره من الفكر الأوروبى التشاؤمى الذى عرفه القرن التاسع عشر . على أن البطل حين ينبرى

بحماسة وحرارة لمهاجمة نظريات المنفعة والنظريات المادية التي راجت في زمانه رواجاً كبيراً ، إنما ينطق بلسان دوستوفسكى نفسه .

فأما القسم الاول من الكتاب فليس الا نوعاً من حديث الانسان مع نفسه ، أو هو نوع من الاعتراف . هكذا يعرف البطل بنفسه قائلاً : «أنا رجل مريض . . أنا انسان خبيث . لست أملك شيئاً مما يجذب أو يفتن» . ان البطل موظف متقاعد يعيش في عزلة كاملة مطلقة . وهو يحس بأنه مصلب بمرض فظ الاذالك أو العدم أو الشئ صفر ، فمهم ... ف ، فتكلم

ذاته وتحليل مشاعره والنظر الى باطنه ، وهو لعجزه عن العمل يعادى من يعملون ، وهو يحس ، على وجه العموم ، بأنه أذكى من الناس الذين يلقاهم أو يختلف اليهم ، لكنه لصحو ذهنه يشبه نفسه بقارة مفرطة في الوعي تنسحب في أكثر الاحيان الى جحرها وتعتصم به . وان حقداً شديداً ثابتاً يسكن نفس هذا الانسان . انه يرى أن الانسان الفعال يفعل أو يتوقف عن الفعل متى اصطدم بالمستحيل ، أو بما يسميه البطل «جداراً من حجر» . فما هو هذا الجدار ؟ هو قوانين العلم ، القوانين التي تجبرنا على أن نسلم بأن « $2 \times 2 = 4$ » ، وأن نستخرج كل النتائج التي تترتب على هذا الواقع . ولكن البطل لا يقبل هذا الواقع بل يرفضه . ان هذا الواقع لا يحلو له ولا يرضيه . انه يؤثر حرية الشعور على هذه القوانين ، بل ويؤثرها على راحته ، ولا يعدم أن يجد شيئاً من لذة في شعوره بسوئه وخبثه وكسله .

ويتمرد البطل على مذاهب المنفعة والمذاهب المادية ، ويسفهاها . فهو يرى أن من الغباء والبلاهة أن يظن أن الانسان لا يجترح الشر الا لأنه يجهل مصلحته الحقيقية ، وأن الانسان المتنور إنما يرى في الخير منفعته ، فلا بد أن يفعل الخير حتماً . ولا يصعب على البطل أن يبين أن البشر ، في كثير من الظروف ، يهملون منفعتهم الحقيقية ، ويسرون في طريق تناقض مصلحتهم ، وهى طريق تكون في كثير من الاحيان شاقة عسيرة ، فضلاً عن أنها باطلة مستحيلة ، حتى لقد يؤثرن الاضرار التي تنشأ عن سيرهم في هذه الطريق ، لان حماقتهم عجيبة شاذة لا حدود لها . وهب العلم استطاع يوماً أن يبدل المجتمع وأن ينظم الاعمال الانسانية على قواعد محسوبة ، وأن ينشئ حكمة عاقلة ، فسيظل يوجد انسان يهتف قائلاً : ألا فلنقلب هذه الحكمة كلها بركة من أرجلنا أيها السادة ! ألا فلنرسل

الى الشيطان جميع هذه اللوغارتمات لنحيا بعد ذلك على ما يشاء لنا
هوانا • وسيجد هذا الانسان بشرا يقلدونه • ذلك أن حرية الانسان في
التصرف بنفسه هي ما يحتاج اليه الانسان ، مهما يكن هذا الاستقلال باهظ
التكاليف ا

هكذا نرى أن دوستويفسكى يعالج هنا مشكلة خطيرة ماتنفك تلاحقه
وتحاصر فكره : مشكلة ارادة الاستقلال ، مشكلة هذا الظم الشديد الى
الاستقلال ، وهو ظم يؤذي بالاف اذ فر اكثر الاحيان الى طريق الشر أكثر

الانسانية • فالانسان مخلوق غريب الاطوار عامة الى أقصى حد ، حتى
ليمكن أن يعرف بأنه الحيوان الذي يتميز بالعقوق خاصة • فهو اذا وصل
الى السعادة لا يلبث أن يندفع في شذوذ ما ، فاذا هو يدمر نفسه بنفسه،
واذا هو يهوى الى قاع العذاب لا لهدف الا أن تكون له الكلمة الاخيرة وأن
يكون له القول الفصل ، وأن يبرهن لنفسه على أنه انسان ، لا «مسمار في
آلة » • ويترتب على ذلك أن المخلوق الانساني لن يتنازل يوما عن الالم ،
بل بعدد ما عن العذاب ، لان الالم والعذاب أساس وعيه ومصدر

فى الرابعة والعشرين من عمره . لقد كان منذ ذلك الحين كثير الصمت متجهم الطبع يتحاشى الناس ولا يخالط زملاءه فى المكتب الا قليلا ، وكان يكره زملاءه هؤلاء أو يحتقرهم ، رغم أنه ينزلهم فى منزلة فوق منزلته . وكانت حياته تتقلب بين تعاطى المجون تارة والاسترسال فى الاحلام تارة أخرى ، منتقلا من النقيض الى النقيض دفعة واحدة ، فهو اما بطل واما مخلوق شقى، ولا وسط بين هذين الطرفين الأقصيين . وفى ذات صباح يزور

قديمين كانا يتحاشيانه . وكان الثلاثة يتناقشون فى مشروع حفلة عشاء يقيمونها وداعا لرفيقهم الرابع الضابط زفركوف . واستطاع البطل أن يحشر نفسه فى هذه الدعوة ، وارتضى أن يدفع نصيبه من تكاليفها رغم فقره . ولكن المادبة لم تكن الا اذلالا له يستمر ساعات طويلة : استغرب زفركوف حضوره ، وطفق الجميع يتكلمون فى صخب شديد ناسين وجوده، فهم لا يخاطبونه بكلمة واحدة ، ويغضب البطل فيحمل الكأس محاولا أن يشرب نخب زفركوف مع شيء من الاساءة اليه فيأبى زفركوف أن يبالى حتى بهذه الوقاحة تصدر عنه . ويذهب المولون بعد المادبة الى بيت من بيوت الدعارة . وصاحبنا لا يملك المال فهو اذن لا يستطيع أن يتبعهم ، ولكنه يحرص على أن يتبعهم فيقترض مالا من سيمونوف ويهرع مقتفيا أثرهم آملا أن يجثوا على ركبهم أمامه التماسا لصداقته ، أو أن يصفع زفركوف . وتتناهيه عواطف متناقضة ومشاعر متضاربة . حتى اذا وصل الى «هناك» ، كان صحبه قد انصرفوا . فاذا هو وحيد . وهذه امرأة تظهر . وهذا هو ينظر الى نفسه فى المرأة ، فيرى وجهه مشعثا منفرا ، فيقول مخاطبا نفسه : سيان . . . بل ان ذلك ليسعدنى . . . نعم انه ليسعدنى أن أبدو لها منفرا كريها . هذه متعة لى .

وفى الفجر يأخذ يسائلها ، فيحدثها بلذة سادية عن الدفن الذى ينتظر المومسات ، والامراض التى تقرص بهن ، والمصير الحزين الذى يرقبهن . ويطرى الحياة العائلية والحب الزوجى ، ليبرز بذلك مزيدا من الابرار حقارة الحمأة التى سقطت فيها هذه المرأة التى ضاجعها . وهما هو ذا يتحمس وينتشى بأقواله ، والمرأة تلزم الصمت زمنا طويلا ثم اذا هى ازاء هذه البلاغة كلها تجهش باكية على حين فجأة ، وتفرق فى دموعها . وتمد اليه بعد ذلك رسالة حب بعث بها اليها طالب يجهل وضعها . ان لنا تبه ان تترك هذا المكان وأن تعود الى حياة شريفة . . .

وما ان يرجع بطل تلك الليلة الشقية الى بيته حتى يكون قد ندم على ما استرسل فيه من عاطفية رخوة . فهو يخشى أن تجيء اليه ليزا تنشد عونه بغد أن تسرع فأعطاها عنوانه . انه لم يشأ الا أن يقلد ذلك الشخص الذي تحدث عنه شعر نكرا سوف ، ذلك الشخص الراغب في انقاذ فتاة ضائعة . ولكن صاحبنا يشعر بأنه عاجز عن القيام بدور الاحسان هذا . فلما وصلت الفتاة المسكينة الى منزله ، انتابته نوبة عصبية وأخذ يلقي عليها خطابا فيه اساءة واهانة ، ويذكر لها أنه لم يشأ في الليلة السابقة الا أن يذلها لأن كان هو نفسه انسانا مذلا ، وأنه لم تساوره أية رغبة صادقة في انقاذها ، وانما هو أراد أن يمارس سلطته ويجرب قوته في لحظة تسلية ، ثم هو يقر لها أخيرا بدناءته ، ويعترف بأنه ليس الا مخلوقا شقيا . انه يريد أن يكره ليزا ، وأن يطردها . ولكن ليزا تدرك ما لا تستطيع أن تدركه الا امرأة حين تحب فعلا : لقد أدركت ليزا أن أمامها رجلا تعيسا ، فتبقى الى جانبه ، ولكنه هو عاجز عن الندم ، عاجز عن الحب . وهو لا يجد عناء في الاعتراف بذلك . انه يخاف من الحب خوفا من «الحياة الحية» ، وانه ليؤثر الاعتزال في قبوه . وتتركه ليزا أخيرا ، ونجاء البطال أن يلحق بها ضارعا اليها أن تغفر له ، ولكنه لا يستطيع

منه في رسالة بعث بها الى أخيه ميشيل: «ربما كان الاستغناء عن نشر الفصل السابق على الاخير برمته (وهو أهم الفصول لأنه يتضمن الفكرة الرئيسية) خيرا من عرضه على هذا النحو جملا مفككة متناقضة ! ان هؤلاء الرقباء الخنازير قد أجازروا نشر الفقرات التي استهزى فيها بكل شيء حتى لقد يشتمل ظاهرها على زندقة وتجديف ، فلما انتهيت من كل ذلك الى ضرورة الايمان بالمسيح أوقفوني عن الكلام ا » . ان دوستويفسكى يشير هنا الى الفصل الخامس من القسم الثاني ، وهو فصل لا يتألف في الواقع الا من نحو صفحتين ، ومن المؤسف أن الفصل في نصه الاصلى قد ضاع ولم يصل الينا منه شيء ، لان دوستويفسكى لم ينشره في الطبقات التالية بعد أن أصبح في امكانه أن يفعل ذلك . لعل دوستويفسكى قد قدر أن عليه أن يشرح ، بمزيد من العمق والافاضة ، الازمة الروحية التي يعانيها انسان القبو هذا ، وأن يجسد فيه فجر توبة وبشارة انبعاث . وذلك ما سيفعله الكاتب في روايته « الجريمة والعقاب » التي نرى بطلها انسانا معتزلا كذلك ، يحسب نفسه من زهوه وصلفه أنه مختلف عن سائر الناس ، ويلتقى بموسم يفيض قلبها حبا وتضحية وتفانيا .

ان مؤلفات دوستويفسكى ، رغم تنوعها الظاهر ، يربط بعضها ببعض خيط لا يكاد يرى .

قصة اليمة

١٨٦٢

ظهرت هذه القصة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ ؛ وهي تهكم لاذع على البيروقراطية الروسية. أثناء الاصلاحات الكبرى في عهد الكسندر الثاني . لقد وجد في ذلك الزمان جيل من رجال جدد ، رجال مثاليين يدعون الى الاصلاحات اللبرالية صادقين . ولكن دوستويفسكى يصف لنا في هذه القصة ، بتهكم لاذع ، التمزق المضحك الذي يعتمل في نفوس أمثال هؤلاء الرجال ، ويكشف عن النقص في عزيمة البوروقراطيين الذين ينتمون الى هذا النظام الجديد ، ويتخذ دوستويفسكى من الموظف الكبير ، « الجنرال المدنى » ، برالنسكى ،

نموذجا لهؤلاء . ان برالنسكى رجل طموح يتحمس لتيسار النهضة الاجتماعية الذى كان يهز نفوس الناس فى ذلك العصر ، فهو يعد نفسه لبراليا ، وهو يتكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الجديدة ، وهو يدعو الى النزعة الانسانية ، وهو ينادى بحسن معاملة المرءوسين ، قائلا لزميليه اللذين جرى بينه وبينهما الحديث فى منزل أحدهما : اذا كنت أنا انسانا فسوف يؤمن بى الناس ويصدقوننى ، فاذا آمنوا بى وصدقونى وثقوا بالاصلاحات التى أنادى بها وأدعو اليها ، ومن شأن هذا كله أن يحمل جميع الناس أخيرا على أن يتحابوا ويتعانقوا . ولكن هذه الآراء لا تلقى صدى عند زميليه العجوزين « الرجعيين » . ويترك برالنسكى السهرة مساء بعد أن أسرف فى شرب الشمبانيا . وعندئذ تقح له « القصة الأليمة » : انه لم يجد حوذى عربته على الباب ، فاضطر أن يعود سيرا على قدميه ، وهاهو ذا يسمع موسيقى صادرة من أحد المنازل ، فيسأل شرطيا عن هذه الموسيقى ، فيعلم من الشرطى أن موظفا صغيرا اسمه بسلدونيموف يزف الى عروسه . ويتذكر برالنسكى أن هذا الاسم العجيب هو اسم أحد مرءوسيه ، فاذا هو يقرر ، بتأثير الشمبانيا ، أن يدخل منزل بسلدونيموف ، وأن يشارك فى الاحتفال بزفاف مرءوسه ، لأن ذلك سيكون بادرة كريمة نبيلة من جانبه تدل على تواضعه وبساطته ، وتجي برهانا على « نزعته الانسانية » ، وتجلب له سمعة طيبة فيقول عنه الناس انه قاس من حيث هو رئيس ، ولكنه ملاك من حيث هو انسان ويتردد برالنسكى قليلا ، ولكنه مايلبت أن يدخل . اثار دخوله ذهولا عاما شاملا فى أول الأمر . ثم اجلس فى مكان الشرف ، حتى لقد قدمت اليه شمبانيا . ولكن العريس لا يبدو عليه الارتياح والسرور . وها هي ذى البادرة النبيلة التى اراد لها برالنسكى أن تكون دليلا على كرم نفسه ، هاهي ذى تنتهى الى عاقبة وخيمة : لقد أسرف فى الشراب ، فأخذ يتلعثم لسانه فى الكلام على النزعة لانسانية ، وأخذ الشباب من الحضور يتهمون عليه ويستهزئون به ، حتى ليتجرا عليه « صحفى » فيصرخ فى وجهه واصفا اياه بأنه « رجعى » . فيشعر هذا الرئيس اللبرالى الذى اراد أن يبرهن على تواضعه وأن يشد أزر العريسين وأن يثبت العزيمة فى نفسيهما ، بشعر بأنه أصبح هزأة وأضحوكة ، وأنه أذل ، وأن شأنه قد هان فى نظر الحضور . وها هو ذا يسقط مغشيا عليه من فرط السكر لأنه لم يألف أن يسرف هذا الاسراف فى الشراب يوما من الأيام .

ويرقد الموظف الكبير على سرير الزفاف لاستحالة نقله الى منزله ، وتعتنى به أم بسلدونيموف ، المرأة الروسية الطيبة التى يصفها دوستويفسكى وصفا فيه كثير من التعاطف والمودة . ويقضى برالنسكى ليلة من عذاب ، ثم يمضى فى الصباح الى مسكنه وهو أشبه بخرقه بالية ، فيمكث فيه أسبوعا كاملا لا يجرؤ أن يبارحه من شدة شعوره بالخزي والعار ، حتى لقد فكر فى الاستقالة من منصبه والاعتصام بدير من الأديرة راهبا منقطعا عن الحياة . . . ومع ذلك يعود الى مكتبه فى نهاية الأسبوع ، فيجد الأمور تجرى فيه مجراها العادى المألوف ، ويسره أن يعرف هناك أن بسلدونيموف يريد أن ينتقل الى دائرة أخرى . وتنتهى القصة بتهكم لاذع : فحين يعلم برالنسكى بقرار مرءوسه المسكين ، لا يخطر بباله لا أن يعتذر اليه ولا أن يصلح له ما أفسده من أمره ، بل يقتصر على أن يأمر بأبلاغه « أنه لا يريد به شرا ، وأنه مستعد لنسيان كل شيء » . ويهدأ باله وتسكن نفسه ويطمئن روعه حين يقول لنفسه : لا شيء ينفع الا الشدة ، الا الشدة .

ان لبراليتيه لم تكن الا نزوة عابرة ، وبدوة طارئة ، وهيهات أن تصمد نزوة أو بدوة حين تصطدم بالواقع .

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف

١٨٦٣

فى شهر حزيران (يونية) سنة ١٨٦٢ قام دوستويفسكى بأول رحلة له الى الخارج ليستريح من عمله المرهق محررا لمجلة « الزمان » . فمر بألمانيا ووصل الى باريس فلم يمكث فيها الا عشرة أيام ثم سافر الى لندن ، فلبث بها أسبوعين ، وهناك تعرف بالفوضوى باكونين ، وتعرف بالمهاجر هرتسن محرر جريدة « الناقوس » التى كان يجدها المرء فى روسيا حتى على مكتب الكسندر الثانى . وقد كتب هرتسن يقول بعد مقابلته مع دوستويفسكى : « هو انسان ساذج خجول مضطرب بعض الشيء ، لكنه لطيف جدا ، وهو واثق بالشعب الروسى ثقة زاخرة بالحماسة » .

ومن لندن عاد دوستوفسكى الى باريس فبقى فيها أسبوعين آخرين ثم تركها الى جنيف مارا بمدينة بال . وفى جنيف التقى بصديقه نيقولا ستراخوف ، فزار الصديقان إيطاليا معا . وقد كتب ستراخوف بعد ذلك يقول : « لا الطبيعة ولا المباني ولا آثار الفن كانت تعنيه ، فانما كان ينصرف انتباهه كله الى الناس » . ان هذا الغائص العظيم الى أعماق النفوس يلتفت انتباهه كله الى الجماهير وإلى البشر فى الشوارع وفى المسارح وفى المقاهى . انه يحاول أن يفهم سيكولوجية كل شعب أثناء هذه الرحلة الخاطفة التى استغرقت نحو شهرين .

وفى شتاء ١٨٦٢ - ١٨٦٣ نشر دوستوفسكى فى مجلته هذه « الذكريات » التى لا يتحدث فيها عن رحلته الا قليلا ، وانما هو يستخدم هذه الرحلة ليعرض آراءه فى تاريخ روسيا وفى وضعها ، وليتهمك على البلاد التى مر بها ، ليتهاكم على ألمانيا وإنجلترا ، وعلى فرنسا خاصة ، ثم لا يذكر إيطاليا أو سويسرا بخير أو شر .

فبعد أن ينقل إلينا بعض انطباعاته عن ألمانيا فى الفصل الأول ، وهى انطباعات سيئة ، يستهل الفصل الثانى بجملة قالها فونفيزين سنة ١٧٨٧ ، وهى أن «الفرنسى محروم من العقل ، ولو أوتى عقلا لعد ذلك أكبر شقاء يصيبه» . ولكنه بدلا من أن يحدثنا عن فرنسا يأخذ يتذكر روسيا القرن الثامن عشر ، وساداتها الذين يرتدون الزى الفرنسى والذين يختلفون عن سواد الشعب اختلافا كبيرا ، ثم يقول مع ذلك ان أولئك كانوا أقرب الى الفلاح من مثقفى القرن التاسع عشر رغم كل شيء . وبعد هذين الفصلين « النافلين » الزائدين اللذين ينصرف فيهما الكلام الى روسيا ومشكلاتها الراهنة فى ذلك الزمان، ينتقل أخيرا الى الكلام عن فرنسا نابليون الثالث فيصفها وصفا فيه سخرية لاذعة . ويرى بعضهم أن حقد الكاتب على الفرنسيين والانجليز هو الذى أهمل عليه هذه السخرية اللاذعة ، لأن حرب القرم لم يكن قد انقضى عليها الا سبع سنين .

يظهر دوستوفسكى دهشته من كثرة عدد الجواسيس فى فرنسا ، ومن الإفراط فى مراقبة الأجانب نزلاء الفنادق . ويتهم على البورجوازي ويصفه وصفا زائدا بالسخرية ، ويهزأ بوطنية الفرنسيين قائلا انك لن تستطيع أن تنتزع من عقل الفرنسى ، أى من عقل الباريسى (لأن جميع الفرنسيين فى الواقع باريسيون) اعتقاده بأنه أول انسان على وجه

الارض ، رغم أن الفرنسي من جهة أخرى لا يعرف من الارض ، باستثناء باريس ، الا قليلا جدا ، ولا يحرص أى حرص على أن يعرفها .

ويسخر دوستوفسكى من فصاحة البيان وبلاغة اللسان لدى الفرنسيين ، ويرى التعبير عن ذلك فى « الهيئة التشريعية » التى لا تضم الا ستة نواب معارضين ، ويؤتى اليها بالامير بونابارت الذى يسمح لنفسه أحيانا بانتقاد الحكومة . ويسخر من البورجوازي ، من حبه للتملك ، من حاجته الى « التقلب على العشب » ، الى أن يملك منزلا له ، الى أن يرى البحر مرة فى حياته . ويسخر خاصة من الحياة العائلية التى لم يعرفها دوستوفسكى ، والحق يقال ، الا من خلال مسرحيات سكريب وأوجييه وبونسار ، والتى تصور الثلاثي الأبدى : الزوج والزوجة وعشيق الزوجة .

فاذا تكلم عن انجلترا هاله مايراه فيها من ازدحام الناس وسرعة الحياة فكأنه يرى يوم الحشر . لئن كره دوستوفسكى سان بطرسبرج ، لقد كره لندن مزيدا من الكره : سكك حديدية فوق المنازل (وتحتها قريبا) ، فوضى هى النظام البورجوازي فى ذروته ، نهر التاميز المتسمم ، الهواء المشبع بالفحم ، الميادين والحدائق الرائعة مع الأحياء الكالحة المتجهمة مثل حى هوايتشابل ، المزدحم بسكانه الهمج الساغبين الذين يوشكون أن يكونوا عراة ، « المدينة » بملايينها وحركتها وتجاريتها . ان هذا كله يبدو لدوستوفسكى كأنه معبد الاله بعل . وهناك صورتان تخطفان البصر خاصة : صورة النزهات فى هايماركت حيث يلقي المرء مئات من البغايا ، وصورة ليلة الأحد حيث يرى ألوف العمال يسكرون ويعربدون بينما أولادهم يتسكعون فى الشوارع .

والكهنة الانجليز لا يعيشون الا للأغنياء ولا يزورون الفقراء . هذه بلاد لا تؤمن باله ، هذه بلاد يختنق فيها الانسان تحت وطأة المال والحساب . ويتنبأ دوستوفسكى لهذا التقدم البورجوازي بأنه الى أفول وزوال بعد أن بلغ ذروته .

ان الانتقادات اللاذعة التى يوجهها دوستوفسكى الى الرأسمالية الانجليزية تذكر بانتقادات كارل ماركس الذى لم يقرأه دوستوفسكى فى يوم من الأيام . ان دوستوفسكى يشور على الرأسمالية وعلى الروح البورجوازية ثورة ماركس عليهما . وهو يرى أن الاشتراكية الحققة

لا يمكن أن تقوم في الغرب ، لأن الغربي فردى ، فهو لا يقبل أن يضحي بشيء من حريته الشخصية في سبيل الجماعة . ومن المعروف أن لدوستويفسكى مثلاً أعلى في الاشتراكية قائماً على التضحية الإرادية والایمان الروحي ، وحب الآخرين ، والاخوة الانسانية ، والتساند والوفاق البشرى . وقد عبر عن هذا مجملًا في هذه « الذكريات » .

وهو يرى أن الشعب الروسى مفطور على هذه المعانى التى تتطلبها قيام الاشتراكية : أكان هذا نبوءة نبي ؟ ولكن نبوءات دوستويفسكى فى الشئون السياسية لم تصدق كثيرا على وجه العموم . ان هذا الفنان الذى غاص الى أعماق النفس الانسانية وسبر أغوارها ، لم يكن فى أكثر الأحيان مفكرا سياسيا صادق الحدس صادق النبوءة !

التمساح

١٨٦٥

ان هذه الحكاية المضحكة هى آخر عمل يحس فيه القارىء بتأثير جوجول فى دوستويفسكى . انها تذكر بقصة جوجول عن مغامرة « الأنف » العجيبة . وهذا مايعترف به دوستويفسكى نفسه على كل حال . فكما تخيل جوجول فى سبيل الاضحاح أنفا يتخذ وجه انسان ، كذلك تساءل دوستويفسكى ، حين رأى تمساحا جىء به الى مدينة سان بطرسبرج : ما عسى يفعله انسان يبلعه هذا الحيوان حيا ؟ وهكذا ألف دوستويفسكى حكاية مضحكة هى حكاية « التمساح » هذه التى تشتمل مع ذلك على نقد للأفكار التى كانت رائجة حوالى عام ١٨٦٠ . ان بطل القصة ، وهو موظف لى ال . ، يحسد بلا تسامح فى صفوف التمساح : فهو يستطيع أن يعض

هنالك نظرية اقتصادية جديدة ، وأن يلقي محاضرات عن التاريخ الطبيعى فى صالون زوجته الذى يؤخذ اليه التمساح . والموظف الكبير تيموتى سيميونتش الذى تلجأ اليه زوجة الرجل مروعة مزعورة ، يجيبها بأن التمساح لا يمكن أن يبقر بطنه ، لأن صاحبه أجنبى ، ولأن روسيا محتاجة الى رؤوس أموال أجنبية . غير أن جريدتين لهما اتجاه لبرالى تشوهان الوقائع تشويها كاملا : فجريدة « الورقة » تذكر أن رجلا شرها ينتمى الى المجتمع الراقى قد بلع تمساحا . وجريدة « الشعرة » تسلم بأن الرجل

مقيم حقا في جوف التمساح ، ولكنها ترثي لحال التمساح ، وتمضي الى حد الكلام عن « معاملة همجية للحيوانات الأهلية » .

ان هذه الحكاية الخفيفة ماكانت لتحظ . نكده اهتمام له لا أنها اتخذت

ذريعة للتشهير بدوستوفسكي تشهيرا أثر في نفسه تأثيرا كبيرا . فان الجريدة اليسارية « الصوت » التي سماها دوستوفسكي في قصته « الشعرة » (مستفيدا من التشابه اللفظي بين الكلمتين الروسيتين Volos بمعنى الشعرة و Golos بمعنى الصوت) قد نشرت على سبيل الانتقام مقالة تتهم فيها دوستوفسكي بأنه يستهزئ من الفيلسوف تشرنيشفسكي فان الموظف اللبرالي الذي بلعه التمساح في هذه القصة يبدو كأنه رمز الى ذلك الفيلسوف الثوري الشهير الذي سجن في العام الماضي ، وسبق أن عرف النفي الى سيبيريا . والحق أن دوستوفسكي لم يكن قد خطر بباله شيء من هذا قط . لذلك نشر في «يوميات كاتب» (عدد كانون الثاني يناير ١٨٧٣) مقالة عنيفة صاحبة يحتج فيها احتجاجا شديدا على هذا التجنى عليه ، وألح في تلك المقالة الحاحا خاصا على ما يحمله لحصمه السياسي من اعتبار واحترام ، حتى لقد كتب يقول : « كيف يمكن أن يفترض أحد أنني ، أنا الذي عانيت النفي وعرفت سجن الاشغال الشاقة ، أستطيع أن أبتهج بحبس انسان شقي آخر ، وانني فوق ذلك قد كتبت في هذا الموضوع قصة مضحكة ؟ » .

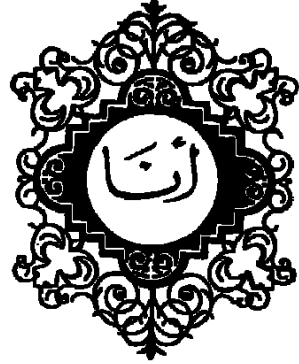
فایقہ پوئی

۱۸۶۴

« في قبوى » ZAPISKI IZ POOPOLIA
نشرت في مجلة « القصة » ، الأعداد : ١ ، ٢ ، ٤ • من
سنة ١٨٦٤ •

هذه « ذكريات » وصاحبها • والذكريات نفسها من صنع الخيال •
 على ن بشرا كخالق هذه الصفحات يمكن أن يوجدوا بيننا ، بل ويجب أن
 يوجدوا بيننا ، بسبب الظروف التي تحكم تكون مجتمعنا • لقد أردت أن
 أظهر الناس ، بقوة تفوق ما ألفنا من قوة ، على طبع من الطباع التي تعيش
 في زماننا هذا • هو واحد من ممثلي الجيل الذي يبقى بعد زواله هو نفسه •
 فأما الجزء الذي عنوانه « القبو » ، ففيه يقدم الشخص نفسه ، ويفصح عن
 اقتناعاته ، ويبدو أنه يوضح أسباب مجيئه ، أسباب ولادته الاجبارية في
 مجتمعنا • وأما الجزء الثاني فهو « الذكريات » الحقيقية لبعض أحداث حياة
 هذا الرجل •

فيدور دوستويفسكى



رجل مريض . . . انا انسان خبيث . لست أملك شيئاً مما يجذب أو يقتن . أحسب أنني اعانى مرضاً في الكبد . على أنني لا أفهم من مرضى شيئاً على الاطلاق ، ولا أعرف على وجه الدقة أين وجعى . وأنا لا أداوى نفسى ، ولا داويت نفسى فى يوم من الأيام ، رغم أنني احترم الطب والأطباء . وانى من جهة أخرى أوّمن بالخرافات الى أقصى حد ، أو قولوا اننى أوّمن بها الى الحد الذى يكفى لاحترام الطب (اننى أملك من الثقافة ما يكفى لأن لا أكون من المؤمنين بالخرافات ، ولكننى أوّمن بها مع ذلك) . لا ، لا ! لئن كنت لا أداوى نفسى ، ان مرد ذلك الى خبث وشر ! لا شك أنكم لا تتنازلون الى حيث تفهمون هذا ، ولكننى أنا أفهمه .

لن أقدر طبعاً أن أقول لكم من ذا الذى قد أضايقه بما فى نفسى من خبث وشر . ولكننى أعلم علم اليقين أنني لن أزعج الأطباء ، ما دمت لا أستشيرهم . وأنا أدرك أكثر مما يدرك أى انسان آخر أنني اذ أتصرف هذا التصرف لا أؤذى الا نفسى ولا ألحق ضرراً بأحد غيرى . ومع ذلك فمن خبث وشر انما أمتنع عن أن أداوى مرضى . اننى مصاب بداء فى الكبد . ألا فليوجعنى هذا العضو مزيداً من الوجع !

وأنا أعيش على هذا النحو منذ زمن طويل ، منذ زهاء عشرين عاماً • انتى الآن فى الأربعين من عمرى • كنت موظفاً • ولكننى لست موظفاً فى هذا الأوان • ولقد كنت موظفاً شريراً • كنت فظاً • وكان يسرنى ويبهجنى أننى كذلك • كنت لا أرتشى • فكان لا بد أن أعوض خسارتى هذه بتلك الفظاظه • (هذه مزحة رديئة ، ولكننى لن أشتطبها • لقد كتبها ظناً منى بأنها ستكون لازعة قارصة • وحين أرى الآن أننى لم أشأ الا أن أجبر نفسى على شئ بشع ، فأتى أدعها - أدع تلك الكلمة - عامداً) • حين كان المراجعون يقتربون من مكتبى ليسألونى عن أمر من الأمور ، كنت أصرف بأسنانى ، وأشعر بلذة لا حدود لها اذا أنا أقفلحت فى أن أذل أحدهم • وكنت أقفلح فى ذلك دائماً على وجه التقريب • كانوا فى أكثر الأحيان أناساً خجلين وجلين : هم نوع معروف من الملتسمين المتوسلين • غير أن بين المتغطرسين منهم رجلاً كنت أكرهه أكثر مما أكره سائرهم • انه ضابط فى الجيش • كان هذا الرجل لا يريد أن يرضخ وأن يذعن بحال من الأحوال ، وكان يحدث بسيفه قرقة لا تليق • وقد ظللت فى حرب معه بسبب هذا السلاح مدة ثمانية عشر شهراً • واتصلت به أخيراً : فمذا هو السفوف مكانه لا ترقع • وهذا

كله قد جرى فى أيام شبابى على كل حال • ولكن هل تعرفون أيها السادة ماذا كان المظهر الأساسى من مظاهر خبثى وشرى ؟ أن أبشع وجه من وجوه ذلك الحبث وذلك الشر هو أننى فى اللحظة التى ينفجر فيها حلقى المسعور ، كنت أشعر شعوراً مخزياً بأن نفسى ليس فيها شئ من خبث أو شر ، وأن غضبى ذاته لا وجود له ، وأننى لا أزيد على التلذذ بترويع عصفير •

يسيل الزيد من فمى غضباً ، ولكن يكفى أن تعطونى لعبة ، أو أن تقدموا الى فنجاناً من الشاى بالسكر ، حتى تهدأ نفسى ، بل وحتى ترقى

نفسى وتحنو • على أن هذا لا يمنعنى من أن أقضم أصابعى حنقاً بعد ذلك ، وأن أعانى الأرق أشهراً من شعورى بالحزى والعار • ذلك من عادائى وأخلاقي •

لا ! لقد كذبت حين زعمت أننى موظف شرير • وذلك كذب مرده الى غضبى • كل ما هنالك أننى كنت أتسلى مع أولئك المراجعين وذلك الضابط ، ولكننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أجعل نفسى شريراً حقاً • سرعان ما كنت أحس بوجود عناصر كثيرة فى نفسى تحول بينى وبين أن أكون شريراً • كنت أشعر بهذه العناصر تزدهم غفيرةً فى كيائى • وكنت أعلم أنها تتحرك فى نفسى منذ الأبد محاولة أن تظهر الى الخارج ، ولكننى لا أسمع لها بذلك قط ، وأتعمد أن أمنعها من الافلات • انها تعذبني الى حد الشعور بالحزى ، الى حد التشنيج • آه • • • لشد ما تضجرنى ! ما أكثر ما تورثنى من متاعب وهموم !

ولكن ألا يترأى لكم ، أيها السادة ، أننى نادى على شئ لا أدري ما هو ، واننى استفزكم لسبب لا أعرفه ؟ لا شك فى أنكم تقدرون ذلك • • • على كل حال ، سياتى عندى أن تظنوا هذا وأن لا تظنوه • • •

لم أستطع أن أصبح أى شئ ، لم أستطع أن أصبح حتى شريراً • لا خبيثاً ولا طيباً ، لا دنيئاً ولا شريفاً ، لا بطلاً ولا حشرة • وأنا اليوم ، فى هذا الركن الصغير ، أختم حياتى ، محاولاً أن أواسى نفسى بعزاء لا طائل فيه ، قائلاً ان الرجل الذكى لا يفلح قط فى أن يصبح شيئاً ، وان الغبى وحده يصل الى ذلك • نعم ، وا أسفاه ! ان انسان القرن التاسع عشر يجب أن لا تكون له عزيمة ، ان انسان القرن التاسع عشر مكره على أن لا يكون له طبع قوى • أما الانسان الذى له شئ من ذلك ، أما الانسان الفعّال ، فهو فى جوهره محدود لا قيمة له • ان الأربعين التى عشتها قد رسخت هذا الاقتناع فى نفسى • ذلك أن عمرى

أربعون عاماً ؟ والأربعون أليست الحياة كلها ؟ أليست هي الشيخوخة منذ الآن ؟ انه لما ينافى اللباقة ويجافى الأخلاق ويهبط بالمرء الى حضيض الصغار أن يعيش أكثر من أربعين عاماً • من ذا الذى يعيش أكثر من أربعين عاماً ؟ هلا أجبتكم بصراحة ! سأقول لكم أنا : ان الحمقى والأوغاد هم الذين يعيشون أكثر من أربعين عاماً • لأجهرن بذلك لجميع أولئك العجائز ، لجميع أولئك الشيوخ المحترمين ، لجميع تلك الرؤوس التى اشتعلت شيئاً ، فصارت كالفضة لونا وتطيت بالعمور • لأجهرن بذلك صائحاتاً أمام العالم كله • ان من حقى أن أقول هذا الكلام ، لأننى سأحيا أنا حتى السنة الستين من العمر ! حتى السنة السبعين ! سأصل الى الثمانين ! انتظروا ! لأسترد أنفاسى !...

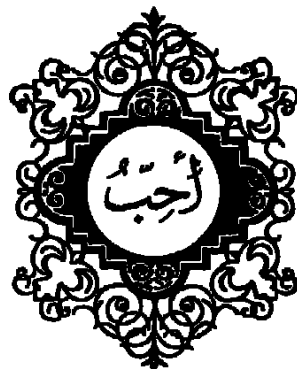
أتظنون ، أيها السادة ، أننى أريد أن أضحكم ؟ فى هذا تخطئون أيضاً • أنا لست رجلاً مرحاً فكهاً ، كما أبدو لكم ، أو كما يمكن أن تظنوا • ولكن اذا خطر ببالكم ، متى ضقتم ذرعاً بهذه الثروة (وانى لأحس أنكم ضقتم بها ذرعاً) ، اذا خطر ببالكم أن تسألونى : من أنت حقاً ؟ لأجبتكم : اننى معاون فى مدرسة • وقد التمت لنفسى عملاً لأنه كان على أن أقيم أودى (تلك كانت غايتى الوحيدة) ، فلما ورثت فى العام الماضى عن رجل يمت الى بقربى بعيدة ، ستة آلاف روبل ، أسرعت أستقيل من وظيفتى ، واستقررت فى ركنى • كنت أقيم فى هذا الركن منذ زمن طويل ، وما زلت مقيماً فيه الى الآن • غرفتى ديمية ، قدرة ، تقع فى آخر المدينة • خادمتى امرأة قروية ، عجوز تبلغ من الرداءة حد الحب والشر ، وهى فوق ذلك كريهة الرائحة دائماً • يقولون لى ان مناخ بطرسبرج مضر بصحتى ، وان الحياة فى العاصمة باهظة النفقات بالقياس الى مواردى التى لا يكاد يكون لها وجود • اننى أعلم ذلك ، أعلمه أكثر من جميع أولئك الناصحين

الذي ملكه من خفة شدة ، وحكمة عظيمة ، ولكن أبقى في بطرسبرج

ولن أترك بطرسبرج في يوم من الأيام • ولن أسافر قط ، لأن ...
وما قيمة أن أسافر أو أن لا أسافر ! ...

على كل حال ، ما هو الشيء الذي يجد المرء في الحديث عنه
أكبر متعة ؟

- الجواب : أن يتحدث عن نفسه •
- حسناً • سأحدث اذن عن نفسي •



الآن أن أعلمكم ، أيها السادة ، سواء أردتم أن
تسمعونى أم لا ، لماذا لم أستطع أن أصبح حتى
حشرة • لأقولنّ لكم جاهراً صريحاً اتنى
حاولت مراراً أن أجعل من نفسى حشرة •
ولكننى لم أستطع أن أكون جديراً بهذا • أحلف لكم بمغلف الأيمان
أيها السادة أن الاسراف فى ادراك الأشياء والشعور بها مرض ، مرض
حقيقى ، مرض كامل • ان ادراكاً عادياً هو ، من أجل حاجات الانسان ،
أكثر من كاف • ان نصف الادراك أو ربع الادراك الذى هو نصيب
المخلوق المثقف فى قرننا التاسع عشر هذا الشقى ، أكثر من كاف ،
ولا سيما اذا كان هذا المخلوق قد أوتى سوء الحظ ، فأقام فى مدينة
بطرسبرج • على سبيل المثال : يكفى كفاية تامة ذلك الجزء من الادراك
الذى يعيش به رجال العمل أولئك الذين يعدون أناساً كاملين • أراهن
على أنكم تظنون فى التباهى والتبجح والمفاخرة ، وتتخلون اتنى أعمد
الى الفكاهة على حساب رجال العمل ، وأنها فكاهة رديئة كريهة ، وآتتى
أُتصرف تصرف صاحبى الضابط ذاك الذى كان يقرقع سيفه • ولكن من
ذا الذى يمكن أن يتباهى أيها السادة بأمراضه ، وأن يتخذها سبيلاً الى
التفاخر ؟

ما قد أقامه كل من هذه الناس ، فمما في ذلك ، هناك الذي لم يكن هذا

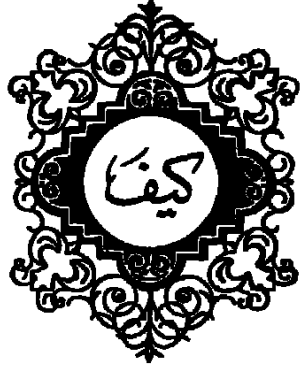
بأمراضهم ؟ وأنا أزدحم بأمراض أكثر من أي إنسان آخر ، أعترف بذلك . على أنني مقتنع اقتناعاً جازماً بأن زيادة الوعي ليست وحدها مرضاً ، بل بأن كل وعي مرض . أؤكد هذا . ولكن فلندع ذلك الآن . قولوا لي : لماذا يتفق لي ، كأنما على عمد ، في الدقيقة التي أكون فيها أقدر ما أكون على ادراك الفروق المرفقة ، على ادراك « كل ما هو جميل ورائع » - ألم يكن الناس يتكلمون هكذا في الماضي - لماذا يتفق لي في تلك الدقيقة نفسها ، في تلك اللحظة نفسها ، لا أن تخطر ببالى أعمال مخالفة للأدب فحسب ، بل أن أقترف هذه الأعمال أيضاً ؟ جملة القول : إن جميع الناس يجترحون تلك الأعمال ، ولكنها إنما توافيني أنا حين أدرك أن عليّ أن لا أقوم بها

فعلى قدر ادراكى للخير ، على قدر ادراكى « لكل ما هو جميل ورائع » * ، يكون غوصى في الوحل ، وتكون قدرتى على أن أضيق نفسى فيه تضيقاً كاملاً . ولقد كان الطابع الأساسى لهذه الحالة أنها لا تبدو عرضية طارئة . فكأنها حالتى العادية الطبيعية ، وكأنها ليست مرضاً أو آفة ، لذلك فقدت كل رغبة في محاربة هذه الآفة ، وأوشكت أخيراً أن أعتقد (ولعلنى اعتقدت بذلك حقاً) أن هذه الحالة هى حالتى العادية الطبيعية السوية فعلاً . ولكن ما أكثر الآلام التى عانيتها في تلك المعركة أول الأمر ! وكنت لا أقدر أن الآخرين لا يمكن أن يعيشوا ما كنت أشعر به ، لذلك أخفيت هذه الحصلة الخاصة من خصالى طوال حياتى ، أخفيت سرّاً من الأسرار . كنت أشعر بالحزى والعار (ولعلنى ما زلت أشعر بذلك حتى اليوم) ، وكنت أغلو في كل شيء غلوّاً يبلغ من الشدة أننى كنت أحس بنوع من لذة خفية ، شاذة ، دنيئة ، متى عدت الى ركنى الصغير ، في ذات ليلة قدرة من ليالى بطرسبرج ، مقتنعاً في ضميرى بأننى

ارتكبت في ذلك اليوم ، مرةً أخرى ، عملاً حقيراً ... وأنّ تدارك هذا الماضي مستحيل . وكنت في قرارة نفسي ، في دخيلة سريرتي ، أتعذب عذاباً وأتمزق تمزقاً يبلغان من القسوة أن مرارتي تستحيل أخيراً الى عذوبة مخزية لعينة ، ثم تستحيل بعد ذلك الى لذة ، نعم الى لذة ، الى متعة ! ألح على هذا . وانما أنا أتكلم عن هذا الأمر لأعرف هل يشعر الآخرون بلذات من هذا النوع ! سأشرح لكم : لقد كانت اللذة ، في هذه الحالة ، تنشأ عن ادراكى الواضح ، المسرف في الوضوح ، لذتي ... كانت تنشأ عن احساسى باتنى بلغت حداً أقصى ، فأنا أقول لنفسي : ان وضعك كريحه ، ولكن لا يمكن أن يتغير . لم يبق لك من مخرج . لن تصبح رجلاً آخر ؛ فحتى لو أوتيت الزمن اللازم لتغير نفسك ، ولو أوتيت الايمان الكافي بضرورة التغير ، فانك أنت نفسك لن تريد هذا ، وهبك أردته ، فلن تفعل شيئاً ، لأن الانسان ربما كان لا يستطيع أن يغير نفسه . ولكن النقطة الأهم - وتلك غاية الغايات حقاً - هي أن ذلك كله انما يتم وفقاً لقوانين طبيعية أساسية من قوانين الادراك الواسع ، ووفقاً للعطالة المشتقة من تلك القوانين ، والترتبة عليها . والنتيجة هي أنك لن تعجز عن تبديل نفسك فحسب ، بل ستكون كذلك عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن العمل والرد . ان الادراك الواسع يقول لي مثلاً : « طبعاً ، أنت انسان دنيء وغد » ، كما لو كان يواسي انساناً منحطاً أن يعرف أنه منحط ... ولكن كفى ! ... ما أكثر هذه الثمرات التي لا تفسر شيئاً ! ... كيف نفسر تلك اللذة فعلاً ؟ بماذا نعللها ؟ سأوضح لكم الأمر ، سأمضي الى النهاية ... فانما أنا أمسكت القلم لهذا الغرض ...

اليكم هذا المثال : أنا امرؤ أتصف بكثير من حب النفس . أنا كثير الشك ، سريع التأذى ، كأحدب ، أو كقزم . ومع هذا تمر بي ساعات لو حدث لي فيها أن أضع فلربما أسعدني ذلك كثيراً . اننى أتكلم

جاءاً لا هازلاً : ان فى وسعى أن أكتشف فى هذا نوعاً من اللذة ، هى
لذة اليأس طبعاً • ان اليأس يشتمل على أقوى اللذات ، ولا سيما حين
ندرك ادراكاً واضحاً أنه لا مخرج منه • وهل هناك ، فى حالة الصفة ،
ما هو أدعى الى الانسحاق من هذا الشعور بأن المرء قد جعل فى مأزق
لا مخرج له منه ؟ وكيف عاجلت الأمر ، فأنا المسئول عن كل شيء أخيراً .
وأكثر من ذلك أننى مسئول دون أن أكون قد قارفت أى خطيئة • لأن
الأمر قد جرت وفقاً لقوانين الطبيعة • أنا مسئول أولاً لأننى أذكرى من
جميع من حولي (لقد عددت نفسى دائماً أوفر ذكاء من أفراد بيتي ،
وصدقوني اذا قلت لكم اننى كنت أشعر من ذلك بخجل فى بعض
الأيام ، لذلك ظللت طول حياتي أنظر الى الناس نظرة مواربة ، ولم
أستطع يوماً أن أصدق اليهم وأنفوس فيهم) • وأنا مسئول أخيراً ،
لأننى اذا كان لى شيء من السماح فعلاً ، فان شعورى بأن هذه
السماحة لا جدوى منها ولا نفع فيها لا بد أن يفاقم ألمي • اذ فيم تكون
هذه السماح قد أفادتني : انها لم تفدني لا فى العفو والمغفرة ، لأن
الذى أهانتني انما يكون قد ضربني وفقاً لقوانين الطبيعة ، والمرء لا يغفر
لقوانين الطبيعة ؟ لا ولا أفادتني فى النسيان ، لأن كون الاهانة أمراً
طبيعياً لا يمنعها أن تبقى اهانة • وهبني أردت أن لا أكون سمحاً كريماً ،
هبني أردت أن انتقم من الشخص الذى أهانتني ، فأننى لن أستطيع أن
انتقم من أحد ، لأننى لن أعزم أمري على ذلك حتماً ولو شئت • أما لماذا
لن أعزم أمري ، فسأقول لكم فى هذا الشأن كلمتين •



تجرى الأمور لدى أولئك الذين يقدرّون أن ينتقموا ، وأن يدافعوا عن أنفسهم بوجه عام ؟ حين تستحوذ روح الانتقام على أنفسهم ، فليس يبقى فيهم مجال لغير هذه الرغبة • انهم يهجمون الى أمام قُدُماً ، خافضين قرونها كيرانٍ مهتاجة ، ثم لا يقفون عن الركض الا حين يعترضهم جدار • يجب أن نقول في هذه المناسبة ان هؤلاء السادة ، أعني هؤلاء الناس البسطاء المنطلقين على السجية ، أعني رجال العمل ، يمتحون أمام الجدار ، ويدعون صادقين كل الصدق- ليس الجدار في نظرهم ما هو في نظرنا نحن الذين نفكر فلا نعمل : ليس الجدار في نظرهم حجة وعذراً وتعلة • ليس في نظرهم حجة مناسبة لأن ينكصوا على أعقابهم ، وهي حجة لا نصدقها نحن على وجه العموم ، ولكننا نستغلها فرحين • لا • • • هم ان أذعنوا فانما يدعون راضين • الجدار في نظرهم تهدئة • هو لهم حل أخلاقي ، نهائي ، وربما صح أن أقول انه حل غيبي • على أننا سنعود الى الكلام عن هذا الجدار •

ان ذلك الرجل البسيط المنطلق على السجية هو في نظري الانسان السوء ، الذم ، فكنت ، فيه الطسعة أمنا الخمداء ، حيث تلطفت فحملتنا نداء

على الأرض • انتى أحسد ذلك الانسان • لست أنكر أنه غبى • ولكن ما أدراكم ؟ لعل الانسان السوى يجب أن يكون غيباً • بل لعل هذا جميل جداً • ومما يسوغ هذا الافتراض عندى مزيداً من التسويغ أننا اذا نظرنا الى نقيض الانسان السوى ، أى الى الانسان المرهف الوعى والادراك ، الانسان الذى لم يخرج من حضن الطبيعة ، بل من اميق (قد يكون هذا من الصوفية والغيبة أيها السادة ، ولكننى مبال أيضاً الى هذا التصور) ، وجدنا هذا الانسان الخارج من اميق يبلغ من الامحاء أحياناً أمام نقيضه ويبلغ من الرضوخ له أنه رغم كل رهاقة وعيه وادراكه يصل هو نفسه الى أن يعد نفسه فأرة صغيرة لا أكثر • قد يكون فأرة تنعم بقدر كبير من حسن البصيرة ، ولكن ذلك لا ينفى أنه فأرة لا انسان ، أما الآخر فهو انسان حقاً • يترتب على ذلك أن ... الخ الخ • ولكن أنكى ما فى الأمر أنه هو نفسه فأرة صغيرة ! ما من أحد يطالبه بهذا الاعتراف • وذلك شئ هام جداً •

فلننظر قليلاً فى هذا الفأر الصغير فاعلاً • لنفرض أنه أهين هو أيضاً (انه يشعر فى جميع الأحيان تقريباً أنه مهان) ، وأنه يطمع فى الانتقام • من الجائز أن يجمع فى نفسه غضباً أشد أيضاً من غضب « رجل الطبيعة والحقيقة » • ومن الجائز أن تكون الرغبة الحقةرة الدنيئة لديه فى أن يرد الشر بالشر لمن أهانه رغبة عنيفة تأكله أكلاً ، وربما كانت هذه الرغبة لديه أعنف منها لدى « رجل الطبيعة والحقيقة » * ، لأن هذا الأخير ، بما يتصف به من غباء طبيعى ، يعد انتقامه عملاً عادلاً كل العدل ، فى حين أن الفأر الصغير لا يمكن أن يسلم بعدالة هذا العمل ، لأنه يملك وعياً أبصر • ولكن ها نحن أولاء وصلنا أخيراً الى الفعل نفسه ، الى الانتقام • ان الفأر الشقى قد استطاع ، الى جانب الدناءة الأولى ، أن يجمع حوله ، على صورة شكوك وترددات ، دناءات أخرى

كثيرة ، وأن يضمَّ الى المسألة الأولى مسائل أخرى لا يمكن حلُّها بحال من الأحوال ، وتبلغ من الكثرة أنه ، مهما يفعل ، يكون قد أنشأ من حوله ركائماً قدراً عفناً من الاضطراب ، وأحاط نفسه بمستقع من وحل هو تردداته وشكوكه وبلبلته وجميع البصاق الذي يطره به رجال العمل الذي يعيشون من حوله ويحكمون عليه وينصحون له ويضحكون منه ملء حلوقهم وأشدائهم •

ولا يبقى له عندئذ ، بطبيعة الحال ، الا أن يترك كل شيء متظاهراً بالاحتقار ، والا أن يغيب في جحره مجللاً بالحزى والعار • وهناك ، في قبوه القدر العفن ، لا يملك صاحبنا الفأر الصغير ، المهان المصعوق المهزأ ، الا أن يفطس على مهل في حنقه البارد ، السموم الذي لا يتغد ولا يفيض • سوف يظل على مدى أربعين عاماً يتذكر الاهانة التي تحمّلها ، يتذكرها بأخزى تفاصيلها ، مضيفاً الى هذه التفاصيل في كل مرة تفاصيل أخرى أشد خزيًا منها ، مستثيراً نفسه في خبث وشر ، مؤججاً نار خياله مزيداً من التأجيج • ولسوف يشعر هو نفسه من ذلك بالحجل ، ولكنه سيظل يتذكر جميع التفاصيل ، ويستعرض جميع الظروف واحداً واحداً ، ويتخيل ظروفًا جديدة بحجة أنها كان يمكن أن تقع ، ولن يفتر شيئاً البتة •

وربما حاول أن ينتقم ، ولكنه يحاول ذلك خلسة ، يحاوله قليلاً قليلاً ، يحاوله خفية ، دون أن يشق أية ثقة لا بحقه في الانتقام ولا بنجاحه في الانتقام ، مدركاً ادراكاً قوياً أن المحاولات التي يقوم بها من أجل أن ينتقم ستجلب له هو من العذاب والألم أكثر مما ستجلب منهما للشخص الذي يحاول أن ينتقم منه والذي قد لا يشعر بمحاولاته هذه ولا يلاحظها • وسيظل صاحبنا يتذكر هذا كله حتى حين يرقد على

فراش الموت ، مضيئاً اليه ما تراكم على المبلغ من فوائد مركبه ، وعندئذ... ولكن هذا نفسه ، أعني هذا الخليط الكريه البارد برودة الجليد ، هذا الخليط من اليأس والأمل ، هذا الانتقار المقصود المتعمد ، هذا الاندفاع أثناء الحياة ، هذا الشعور بعدم وجود أى حل - وهو شعور واضح ولكن صاحبنا يشك فيه دائماً - هذه العقدة المؤلفة من رغبات لم يكتب لها التحقق فارتدت الى نفس صاحبها ، ومن قرارات محمومة عنيفة اتخذها الرجل على أنها قرارات أبدية لا نكول عنها ولكنه لم يلبث أن ندم على اتخاذها ، أقول ان هذا كله هو بعينه عصارة تلك اللذة الغريبة التي أشرت اليها منذ قليل ؛ وهى لذة تبلغ من الرهافة والدقة فى بعض الأحيان ، وتبلغ من الغياب عن الوعي والهرب من الادراك أن الناس العاديين - أو حتى أولئك الذين يملكون أعصاباً متينة قوية - لا يفهمون منها شيئاً البتة . وربما أضفتم الى ذلك ساخرين : « بل أن أولئك الذين لم يُصَفَّعوا فى يوم من الأيام لا يفهمون منها شيئاً البتة أيضاً » . وهكذا تُسمعوننى ، فى رفق وكياسة وأدب ، أنبئى قد صُفَّعت فى يوم من الأيام ، وأننى أتكلم عن سابق خبرة ومعرفة . أراهن على أن هذا قد جال فى خاطركم ودار فى خلدكم . ولكن اطمئنوا يا سادتى : اننى لم أُصَفَّع قط ؛ ثم ان ما قد يجول فى خاطركم ويدور فى خلدكم بهذا الصدد لا يعينى ولا يهمنى بحال من الأحوال . ولعلنى أنا الذى آسف على أننى لم أوزع على الناس الا قدراً قليلاً جداً من الصفعات أثناء حياتى . ولكن كفى ! لا أريد كلمة واحدة حول هذا الموضوع ، مهما يكن شائهاً لكم !

وهأنذا أتابع الكلام ، بهدوء ، عن الناس الذين يملكون أعصاباً متينة قوية ، فلا يذوقون بعض المذات المرهفة . ان هؤلاء السادة ، رغم أنهم يجأرون كالثيران فى بعض الأحوال ، ورغم أن هذا يشرفهم كثيراً ، فهم كما سبق أن قلت يذعنون أمام المستحيل ويرضخون

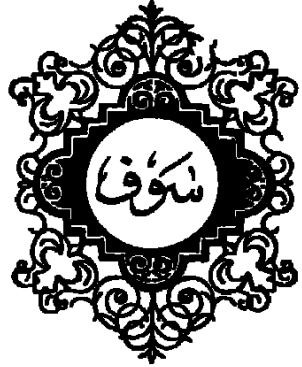
ويُسمحون ! وإذا قلنا المستحيل فقد قلنا جداراً من حجر ! ولكن ما هو هذا الجدار ؟ هو القوانين الطبيعية بداهة ، هو ثمرات العلوم الدقيقة ، ونتائج الرياضيات ، فإذا برهن لكم مثلاً على أنكم من سلالة القروذ * ، لم يكن يجديكم أن تصعزوا وجوهكم ، وكان عليكم أن تقبلوا هذا وأن تسلموا به . وإذا برهن لكم على أن قطرة واحدة من شحمكم أنتم يجب أن تكون أغلى عندكم وأعزّ على أنفسكم وأثر في قلوبكم من مائة ألف من البشر أقرانكم ، وأن هذا بعينه هو ما تؤدي إليه جميع الفضائل ، وجميع الواجبات ، وجميع ما إلى ذلك من خيالات وأوهام ، لم يكن لكم حيلة في دفع هذه الحقيقة وجود هذه الواقعة ، وإنما كان عليكم أن تسلموا بذلك لأن $2 \times 2 = 4$ ، فذلك من الرياضيات . حاولوا قليلاً أن تناقشوا !

لسوف يهتفون عندئذ قائلين : « عفواً ، انكم لا تستطيعون أن تحتجوا : ان $2 \times 2 = 4$ ؟ والطبيعة لا تحفل بدعاواكم ولا تكثر لزاعمكم . انها لا تهتم برغباتكم ، وليس يعينها كثيراً أن لا توافقكم قوانينها ، فأنتم مضطرون أن تقبلوها كما هي ، وأن تقبلوا كل ما ينحدر منها ويترتب عليها . ان الجدار جدار . . . » ، الخ الخ ! ولكن فيم تعينني قوانين الطبيعة والرياضيات يارب ، اذا كانت هذه القوانين وهذه المعادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، لا ترضيني ولا تعجبني ؟ صحيح أنني لن أستطيع أن أحطم هذا الجدار بجيئي اذا كانت قواي لا تكفي لهذا العمل . ولكنني أرفض أن أذل أمام هذا الحاجز لمجرد أنه جدار من صخر وأن قواي غير كافية !

لكن هذا الجدار يمكن أن يمدني بهدوء ويزودني بطمأنينة ، لأن المرء يستطيع أن يتصالح مع المستحيل لمجرد أن هذا المستحيل قائم على حقيقة أن « $2 \times 2 = 4$ » . آه . . . ذلك أبطل الأباطيل ! . . .

وانه لأشق من ذلك وآلم من ذلك كثيراً أن تفهم كل شيء وأن
تعي جميع الاستحالات ، وأن تدرك جميع جدران الصخر ، ثم تأبى أن
تذل أمام أية استحالة من هذه الاستحالات ، أمام أى سور من تلك

نتائج مؤسسة فيما يتعلق بذلك الموضوع الابدى وهو نصيبك أنت
فى المسئولية عن جدار الصخر هذا رغم أن من الواضح الى حد البدهة
أنك لا شأن لك به ولا دخل لك فيه ؛ وأن تنتهى تبعاً لذلك الى أن
تغطس فى عطالتك صامتاً ، ولكن صارفاً بأسنانك من اللذة ، مقدراً مع
ذلك أنك لا تملك حتى أن تثور وتتمرد على أى شخص ، اذ ليس هناك
أحد على وجه الاجمال ، ولن يكون هناك أحد ، فما ذلك الا مهزلة ،
ما ذلك الا خدعة ، ما ذلك الا هراء ، ولست تعرف شيئاً ولست تعرف
أحدًا ، ولكنك ، رغم جميع تلك الخدع ، ورغم كل ذلك الجهل ، تتألم
وتتعذب ، وكلما قلّ فهمك ازداد ألمك وازداد عذابك •



تصيحون ضاحكين : « ها ! ها ! ها ! اذا كان
الأمر كذلك ، فلتجِدَنَّ شيئاً من لذة حتى في
وجع الأسنان » . فأقول لكم :

— طبعاً ! ان في وجع الأسنان لذة : لقد
عانيت وجع الأسنان شهراً بكامله ، فأنا أعرف ماذا أقول . ان الانسان
لا يتوجع صامتاً حين يكون في أسنانه مرض . انه يشن . ولكن أنيه
تعوزه الصراحة . ان في الأئين شيئاً من المكر . والأمر كله انما يكمن
هنا . ان الأئين يعبر عن لذة الشخص الذي يتألم . فلو لم يشعر
المريض بشيء من اللذة ، لكف عن التوجع والشكوى . ذلكم مثال
ممتاز يا سادتي ، وسأوضحه .

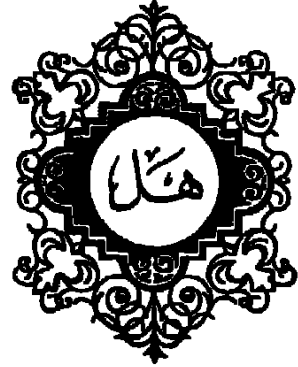
ان الأئين يعبر أولاً عن ادراككم الذليل لكون ألكم لا جدوى
منه ولا طائل تحته البتة ، ولكونه مشروعاً من وجهة نظر الطبيعة ، التي
تبصقون عليها طبعاً ولكنها تؤلكم مع ذلك هادئة بغير احساس ولا تأثير .
والأئين يعبر ثانياً عن أنكم تفهمون أن العدو غير موجود ، ولكن الألم
موجود مع ذلك ، وأنكم رغم جيع من يسمون فاجنهايم * ، انما أنتم عبيد
أسنانكم ، فاذا حلا لانسان أن يوقف أوجاع أسنانكم توقفت أوجاع
أسنانكم ، أما اذا قرر غير ذلك تركها توجعكم ثلاثة أشهر أخرى ؟ واذا
رفضتم الرضوخ وأصررتم على الاحتجاج لم يكن لكم من سسل الى

الغزاء الا أن تصفحوا وجوهكم أو أن تحطموا قبضات أيديكم على الحائط. ان هذه الاساءات والاهانات التي تسيل الدماء ، وهذه السخريات الصادرة لا أدري عمّن ، هي بعينها التي تولد ذلك الاحساس بالمتعة الذي يبلغ أحياناً مبلغ اللذة القصوى .

يا سادتي ، أرجوكم أن تصيخوا بأسماعكم مرةً الى أنات رجل مثقف من القرن التاسع عشر يعاني ألم الأسنان منذ يومين أو ثلاثة أيام ، وذلك حين يأخذ يثن لا كما كان يثن في اليوم الأول ، أي لا لأنه موجع فحسب ، لا كما يثن فلاح جافى الطبع غليظ القلب ، بل كما يثن انسان مثقف لمستة الحضارة الأوروبية ، كما يثن انسان « انفصل عن الأرض التي ولد فيها وانفصل عن مبادئ قومه » ، على لغة أهل هذا الزمان . ان أنات هذا الرجل تصدر عنه خيثة حائقة لا تنقطع في نهار ولا في ليل . هو يعلم حق العلم مع ذلك أنها لا تعود عليه بأى نفع . وهو يعلم أكثر مما يعلم أى انسان آخر أنه يثير من حوله ويفضهم ويحنقهم ويعذبهم ويعذب نفسه دون أن يجنى من ذلك أى نفع . هو يعلم أن الناس والأسرة الذين يتوجع أمامهم أصبحوا لا يشعرون الا بالاشمزاز من شكواه ، وأنهم أصبحوا لا يصدقونها ، وأنهم يفهمون أن في وسعه أن يثن بطريقة أخرى ، أن يثن أنيناً أقرب الى البساطة ، أنيناً لا تصاحبه هذه التدرجات ، ولا ترافقه هذه الأوضاع المصطنعة كلها ، وأنه يغالى ويبالغ مكرراً ودهاءً وخبثاً رأيتم ؟ الا ان هذه المذلة البصيرة هي التي تتوى فيها اللذة . فكأن الرجل يقول : « آ . . . أنا أزعجكم ، أنا أمزق قلوبكم ، أنا أحرم أهل الدار كلهم من النوم ! أحسن . . . لا تناموا ! اعلموا أن في أسناني ألماً ! لم أبق في نظركم ذلك البطل الذي كنت أدعى أنني هو . ما أنا الآن الا رجل ردىء ، ما أنا الآن الا انسان طالح ! أحسن ! بل انه ليسعدني أن تكشفوني أخيراً . هل تشق أناثي

على أنفسكم ، هل تضايقكم وتزعجكم ؟ لا خير ... اليكم اذن مزيداً منها ! ، ،

ايها السادة ، أما زلتم لا تفهمون ؟ نعم ، فمن أجل أن تستطيعوا ادراك لطائف هذه اللذة الحسية ، لا بد أن يكون وعيكم قد بلغ درجة كبيرة من العمق . أتضحكون ؟ يسعدني هذا كثيراً . ان أمازيحي أيها السادة رديئة حتماً ، فهي مضطربة متشابكة ، وهي سيئة الوقع في الأسماع . ومرد ذلك كله الى اننى لا أعتبر نفسى ، لا أقدرها قدراً كبيراً . ولكن هل فى وسع انسان يعرف نفسه ، أن يعتبر نفسه ولو قليلاً ؟



فى وسع انسان تعلق باكتشاف نوع من اللذة
فى الشعور بمذلة نفسه ، هل فى وسع هذا
الانسان حقاً أن يظل يحس باحترام نفسه ؟
ان ما أقوله الآن لا تعليه على ندامة تافهة ، أو
توبة سخيّة ، فأنا على وجه العموم أكره أن أقول : « اغفر لى يا بابا ،
فلن أعود الى هذا قط ! » ، لا لأننى عاجز عن النطق بهذه الكلمات ،
بل ربما كان عكس ذلك هو الصحيح ، أى لاننى قادر على ذلك أكثر
مما يجب •

ولقد كنت ، بما يشبه العمد ، أقحم نفسى فى أمور لا شأن لى بها
البتة ، ثم اذا أنا - وهذا أنكى وأدهى - أرقُ واعترف وأبكى وأتوب ،
فاتتهى الى خداع نفسى آخر الأمر طبعاً ، ولكن دون تظاهر كاذب ، لأن
قلبي هو الذي كان يردد : له هذه المكائد القذرة •

وليس يسعُ المرءُ فى هذه الحالة أن يؤاخذ قوانين الطبيعة ، رغم
أن هذه القوانين قد سببت لى مضايقات كثيرة أثناء حياتى • انه ليشق على
نفسى أن أتذكر هذا كله ، ولقد كان شاقاً فى حينه أيضاً على كل حال •
دقيقةً أخذ ، وأدرك حانقاً ان ذلك كله له يكن الا كذباً ، لم يكن إلا

كذباً ذمياً ، لم يكن الا تمثيلاً منحطاً - أعنى تلك الندامة والتوبة ،
ذلك الحنان والترقق ، تلك الأيمان المغلظة على أن أحيا حياة جديدة •

فاذا سألتهموني لماذا كنت أعذب نفسي هذا التعذيب ، لماذا كنت أمزق نفسي ذلك التمزيق ، قلت لأنني كان يضجرني كثيراً أن أبقى مكتوف اليدين . فلهذا انما كنت أسترسل في اصطناع تلك الأوضاع الكاذبة .
 أؤكد لكم أن الأمر كان كذلك . ارصدوا أنفسكم جيداً أيها السادة ، تلاحظوا أن الأمور تجري على هذا النحو بعينه . كنت أتخيل مغامرات ، وأخلق حياة وهمية لأعيش على هذا النحو أو ذاك . كم من مرة ، مثلاً ، اتفق لي أن أهين نفسي عامداً لغير ما سبب : أنت تعلم حق العلم أنه ليس هناك ما يوجب أن تغضب ، وأنتك تستثير غضبك وتستفز حقك عامداً ، ولكنك تبلغ من استتارة غضبك واستفزاز حقك أنك تفلح أخيراً في الوصول الى حالة الغضب صادقاً كل الصدق .

كنت أحب هذه الحكايات وأميل الى هذه المشكلات دائماً ، فبلغت من ذلك حداً فقدت معه كل سيطرة على نفسي آخر الأمر . وقد أردت أن أجبر نفسي ، مرةً أو مرتين ، على أن أصبح عاشقاً . حتى لقد تألمت وتعذبت ، أؤكد لكم ذلك أيها السادة . ان المرء لا يصدق ألمه في قرارة نفسه ، حتى ليكاد يضحك منه ويستهزئ به ، ولكنه يتألم مع ذلك ، تألماً واقعياً جداً يشعر بنار الغيرة ، ثور نائوته ، يطيش صوابه ، يخرج عن طوره وليس لهذا كله من سبب الا الضجر أيها السادة . ان العطالة تسحقنا سحقاً . والعطالة هي الثمرة الشرعية ، الثمرة الطبيعية للوعى : فمن كان واعياً كتف يديه عالماً بما يفعل . لقد سبق أن تكلمت عن هذا . وأعود الآن فأكرر ثم أكرر بالحاح : ان جميع الرجال البسطاء الصادقين ، ان جميع الرجال الفعالين انما هم فعالون لأنهم غلاظ الفكر ليسوا على شيء من تفوق العقل .

كيف السبيل الى شرح هذا ؟ اليكم الشرح : انهم بسبب ضيق فكرهم يحسبون الأسباب الثانوية المباشرة أسباباً أولى ، فيتخيلون بسهولة

وسرعة ، أكثر من الآخرين ، انهم وجدوا العلل الراسخة الوطيدة الأساسية التي يقوم عليها نشاطهم ، فيهدأون ويطمثون . وهذا الشيء الرئيسى . ذلك أنه لا بد للمرء حتى يستطيع أن يعمل وينشط ، لا بد له من أن يصل أولاً الى طمأنينة تامة ، وأن لا يحتفظ بأى شك . ولكن أتتى لى أن أصل الى طمأنينة الفكر هذه ؟ أين عسانى أجد المبادئ الأساسية التى أستطيع أن أبنى عليها ؟ أين هى قاعدتى ؟ أين أستطيع أن أفسدها ومن أين آتى بها ؟

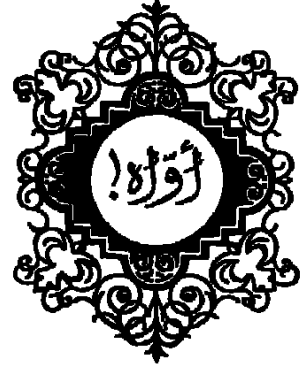
اننى أمارس التفكير . معنى هذا أن كل علة تستتبع عندى على الفور علةً أخرى بعدها ، علةً أعمق من الأولى ، علةً أساسية أكثر من الأولى ، وهكذا دواليك الى غير نهاية . ذلكم هو جوهر التفكير ، ذلكم هو جوهر كل وعى . ها نحن نجد أنفسنا مرةً أخرى أمام قوانين الطبيعة . والنتيجة ؟ هى نفسها دائماً ، تذكرونها ! لقد حدثكم منذ قليل عن الانتقام . (لا شك أنكم لم تدركوا الأمر ادراكاً جيداً) . يقال : ان الانسان ينتقم ، لأنه يعد ذلك عدلاً . فهو اذن قد وجد المبدأ الأساسى الذى كان ينشده : العدل . وهو يشعر اذن بطمأنينة كاملة ، فينتقم هادئاً كل الهدوء ، وهو يظفر بالانتقام ظفراً تاماً ، لاقتناعه بأنه يقوم بعمل عادل شريف . ولكننى ، أنا ، لا أرى فى ذلك لا عدلاً ولا خيراً . فاذا حاولت اذن أن أنتقم كان ذلك من جانبى شراً محضاً . صحيح أن الغضب الحائق قد ينتصر على جميع هذه الترددات ، وقد يستطيع أن ينوب مناب تلك العلة الأساسية ، لا لشيء الا لأنه لا يمكن أن يعد هو تلك العلة الأساسية . ولكن ما حيلتى اذا لم أكن شريراً بقدر كاف ؟ (لقد أشرت الى هذا منذ البداية) .

ان غضبى يخضع لنوع من التحليل الكيميائى ، بسبب تلك القوانين اللعينة نفسها ، أعنى قوانين الوعى . فما ان أميز الموضوع الذى ينصب

عليه كرهى حتى يتبدد هذا الموضوع ، فاذا البواعث تزول ، واذا المسئول يختفى ، واذا الاهانة لا تبقى اهانة ، وانما تصير ضربة من ضربات القدر ، تصير الى شئ يشبه وجع الأسنان، تصير الى شئ ليس ذنباً اجترحه أحد . ولا يبقى لى من عزاء حينذاك الا أن أحطم قبضتى يديّ على الحائط . فلأنتى استحال علىّ أن أجد العلل الأولى ، أعدل اذن عن الانتقام باحتقار مصطنع وازدراء مفتعل . آه . . . ليت الانسان يستطيع أن يتقاد لعاطفته انقياداً أعمى ، دون أى تفكير ، دون بحث عن أية علة ، مبعداً عن نفسه كل وعى ، ولو الى حين ! اذن لاختلف الأمر عندئذ اختلافاً كبيراً . أحبّ أو أبغض ، العنّ أو عبد ، ولكن لا تبقى مكتوف اليدين ! وغداة غدٍ - هذه آخر مهلة - ستحتقر نفسك لأنك خدعتها ومكرت بها عامداً بها عامداً . والنتيجة أخيراً : فقاعة صابون ، عطالة .

آه يا سادتي ! لعلنى لا أعد نفسى على جانب عظيم من الذكاء الحارق الا لأنتى طوال حياتى لم أستطع أن أبدأ شيئاً ولا أن أنهى شيئاً . فما أنا اذن الا ثرثار لا يؤذى ، انسان ثقيل مكدر ، مثلنا جميعاً . ولكن ما حيلتى أيها السادة اذا كان القدر الوحيد الذى كُتب على كل انسان ذكى هو أن يثرثر ، أى أن يصب ماءً فى غربال !

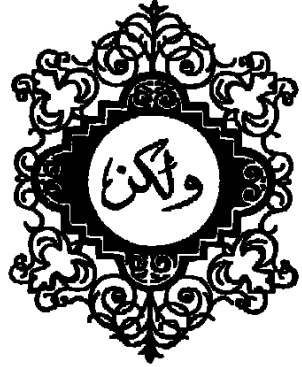
٦



ليتني لم أكن الا كسولاً ! لشد ما كنت سأحترم
نفسى عندئذ ! لأننى كنت سأرى أتنى قادر على
أن أكون كسولاً فى أقل تقدير ، أن تكون لى
على الأقل مزية محددة معينة أنا منها على يقين •

سؤال : من أنت ؟ جواب : كسول ! ما كان أحلى أن أرائنى أسمى
هكذا ! أنا اذن معرف تعريفاً ايجابياً • أنا اذن يمكن أن أوصف بنعت ،
أن يقال عنى شىء ••• « كسول ! » - هذا لقب ، هذه وظيفة ، هذه
يا سادتى مهنة ! لا تضحكوا ! الأمر كذلك • كان سيحق لى عندئذ أن
أكون عضواً فى أول نادٍ بالعالم ، وكنت سأقضى وقتى كله فى احترام
نفسى • لقد عرفت سيداً كان كل عجبته وزهو طوال حياته هو أنه ذواقه
يجب خمور بوردو ويحسن معرفتها • كان يعد هذه المزية فضيلة ثمينة
جداً ، وكان لا يساوره أى شك فى نفسه • فمات وضميره ليس مطمئناً
فحسب ، بل ومتصراً أيضاً ، ولقد كان على حق • كنت سأختار لنفسى
رسالة : كنت سأصبح كسولاً وأكولاً ، لا أكولاً عامياً بل أكولاً
محباً للمباهج ، مهتماً « بكل ما هو جميل ورائع » • ما رأيكم ؟ اتنى
أفكر فى هذا منذ زمن طويل • ان « الجمال والروعة » يثقلان على كاهلى
كثيراً منذ أصبحت فى الأربعين من العمر • منذ أصبحت فى الأربعين
من العمر ، أما قبل ذلك فكان يمكن أن يختلف الأمر كل الاختلاف !

كنت سأهتدي فوراً الى صورة من صور النشاط ثلاثم طبعي : مثلاً ،
أشرب نخب جميع الأشياء « الجميلة الرائعة » . كنت سأنتهز كل فرصة
من أجل أن أشرب نخب « الجمال والروعة » ، بعد أن أسكب دمعة
في كأسى . وكنت سأجعل جميع الأشياء « جميلة ورائعة » . كنت
سأكتشف « الجمال والروعة » حتى في القذارات التي لا يُجحد أنها أقذر
القذارات طراً . كنت سأثر عبرات لا تقل غزارة عن تلك التي تتساقط
من اسفنجة . فاذا رسم أحد الرسامين ، مثلاً ، لوحةً جديدة بالرسام
جى * ، سارعت أشرب نخب هذا الرسام ، لأننى أحب كل ما هو
« جميل ورائع » . واذا نظم أحد الشعراء قصيدة عنوانها « كما يروق
لكل انسان » * ، سارعت أشرب نخب كل انسان ، لأننى أحب « الجمال
والروعة » . وسيجلب هذا لى احترام جميع الناس . وسأطالب به ،
هذا الاحترام . وسألاحق بغضبي وسخطي كل من يمنعه عنى . أحيا
فى هدوء وطمأنينة ، وأموت فى عظمة وأبهة . أليس هذا فاتناً ؟ أليس
هذا أخاذاً ؟ وكنت سأربى كرشاً يبلغ من الضخامة وأنفاً يبلغ من
السمنة ، ووجهاً تبلغ ذقنه من السعة ، أن كل انسان سيهتف حين يرانى
قائلاً : « هذا انسان له وجود واقعى حقاً ، هذا انسان ايجابى ! » .
لكم ما شئتم ، ولكن لا شك فى أنه يحلو للمرء أن يسمع الناس يقولون
عنه مثل هذه الأشياء فى عصرنا هذا الذى جوهره السلبية الى
أقصى حد .



ما هذا الا أحلام ذهبية •

آ ... قولوا لى : من ذلك الذى أعلن
أول من أعلن ، من ذلك الذى نادى أول من
نادى بأن الانسان لا يرتكب أفعالاَ دنيئة الا لأنه
لا يدرك مصالحه نفسها ، فاذا أثرتنا عقله وبصرناه بمصالحه الحقيقية ،
مصالحه السليمة ، سارع يكف عن القيام بأعمال دنيئة ، وأصبح على الفور
انساناً خيراً طيباً شريفاً ، لأنه وقد استنار بالعلم وأدرك مصالحه
الحقيقية ، سيجد فى الخير منفعة نفسها ؟ واذا كان المرء لا يعمل ضد منفعته
عامداً ، فسيكون اذن مضطراً الى فعل الخير اضطراراً ؟ قولوا لى : من
ذلك الذى نادى بذلك أول من نادى ؟ أوه ! ألا انه لطفل ، طفل
لا أكثر ، طفل ساذج غر ! ...

هل اتفق للانسان ، فى يوم من الأيام ، خلال هذه الألوف من
السنين ، أن لا يعمل الا وفقاً لمصلحته ؟ فما قولكم اذن بتلك الملايين
من الوقائع التى تشهد بأن البشر ، مع ادراكهم لمصلحتهم ، ينبذون هذه
المصلحة الى المحل الثانى ، ويسسرون فى طريق آخر مختلف كل
الاختلاف ، طريق ملء بالمصادفات زاهر بالمخاطر ؟ وهم رغم هذا غير
مضطرين الى ذلك اضطراراً ولا هم مجبرون عليه اجباراً ، وانما يبدو
انهم يريدون عامدين أن يتكبوا الطريق الذى يُدكَون عليه ، وأن

يرسموا بحريتهم ، على ما يشاء هواهم وتحب نزواتهم ، طريقاً آخر مليئاً بالمصاعب ، طريقاً عجيبياً مستحيلاً غامضاً لا يكاد يُعرف أو يدرك . ان هذا يدل على أن هذه الحرية هي في نظرهم أكثر فتنة وجاذبية من مصالحهم ! ما المصلحة ؟ هلاًّ حددتم لى تحديداً دقيقاً ما هي مصلحة الانسان ؟ وما قولكم اذا وُجد يوماً أن المصلحة الانسانية في بعض الحالات يجب أن لا تقوم على تمنى خير من الخيرات ، بل على تشدان شر من الشرور ؟ اذا صح هذا وأمكن أن تعرض حالة كهذه الحالة ، فقد انهار اذن كل شيء . ما رأيكم ؟ هل يمكن أن تعرض حالة كهذه ؟

أتضحكون ؟ اضحكوا أيها السادة ، ولكن أجيئوا ! هل أُنحيت المصالح الانسانية احصاءً دقيقاً ؟ أليس هناك مصالح لا تدخل في أى تصنيف من التصنيفات التي تضعونها ، ولا يمكن أن تجد لها فيها مكاناً ؟ ذلك أنكم ، فيما أعلم أيها السادة ، قد وضعتم سجل المصالح الانسانية على أساس الأرقام الوسطية التي تقدمها الاحصاءات والمعادلات « الاقتصادية العلمية » ، فقلتم ان المصالح الانسانية هي الثراء ، وراحة البال ، والحرية ، وهلم جرا . فاذا نبذ أحد الناس هذا ، عامداً عانداً ، كان ينبغي أن يعد في نظركم (وفي نظري أنا أيضاً على كل حال) امرئاً جاهلاً أو مجنوناً ، أليس كذلك ؟ ولكن هذا هو الأمر الذي يثير الاستغراب والدهشة حقاً : لماذا يُغفل جميع هؤلاء الاحصائيين والحكماء ومجبي البشر ، لماذا يغفلون في حساباتهم للمصالح الانسانية ، لماذا يغفلون عنصراً من العناصر ويسقطونه من هذه الحسابات دائماً ؟ انهم لا يريدون حتى ادخاله في معادلاتهم ، وبذلك تجيء النتائج التي ينتهون اليها كاذبة غير صادقة . وليس هذا بالأمر الصعب مع ذلك . فلماذا لا نكمل القائمة ، لماذا لا ندخل فيها ذلك العنصر ؟ الحق أن الصعوبة ناشئة عن أن هذا العنصر الخاص جداً لا يمكن أن يجد له مكاناً في أى تصنيف ، ولا أن يُسجّل في أية قائمة . اليكم

مثالا على ذلك : لى صديق ... ها ... تذكرت ... انكم تعرفونه
أيضاً • فهو صديق جميع الناس •

حين يتها هذا السيد لأن يعمل ، فانه يبدأ بأن يشرح لكم شرحاً واضحاً جداً ، بعبارة جميلة كبيرة ، كيف يجب عليه أن يعمل حتى يجيء عمله مطابقاً للعقل والحقيقة • ليس هذا فحسب : انه سيناقش بحرارة ، وبحماسة ، المنافع والمصالح الانسانية ، الواقعية السوية السليمة ؛ وسيتهكم على عماوة الأغبياء الحمقى الذين لا يهتمون لا بمصالحهم الحقيقية ولا القيمة الحقيقية للفضيلة • ولكن ما أن ينقض ربع ساعة ، ربع ساعة على وجه الدقة والتمام ، حتى نراه يقوم بعمل سخيف من الأعمال أو يرتكب حماقة من الحماقات ، دون أى سبب يحض على ذلك غير اندفاع داخلي أقوى من جميع اعتبارات المصلحة والمنفعة ؛ فاذا هو اذن يعمل على نقيض جميع القواعد التي كان قد ذكرها ، على نقيض العقل ، على نقيض مصالحه ، على نقيض كل شيء ... أحب أن أنبهكم من جهة أخرى الى أن صديقي شخصية جماعية ، فمن الصعب والحالة هذه أن ندينه وحده • والى هذا انما أردت أن أصل أيها السادة ! أليس هناك شيء هو في نظرنا جميعاً أعز وأغلى وأثمن من أعز مصالحنا وأغلاها وأثمنها ؟ أليس هناك شيء كهذا حقاً ؟ بتعبير آخر (حتى لا نخالف المنطق) : أليس هناك منفعة (تلك التي يُغفلونها من الحساب كما قلنا منذ قليل) هي في نظرنا أهم من سائر المنافع ، وأثمن منها جميعاً ، منفعة يرضى الانسان في سبيلها ، اذا لزم الأمر ، أن يعمل على نقيض جميع القواعد ، أى على نقيض العقل ، مضحياً من أجلها بشرفه وراحته وهدوئه وسعادته ، أى مضحياً في سبيلها بالأشياء الجميلة المفيدة ، لا يحملها على ذلك الا نشدان شيء واحد هو أغز عنده من سائر الأشياء ، وهو في نظره المنفعة العليا والمصلحة القصوى •

قد تقولون لى : « نعم ، ولكن الأمر ما يزال أمر منفعة ومصلحة » .
 عفواكم ! يجب أن نشرح القضية • اتنا لا نستطيع أن نخرج من المسألة
 وأن نحل المشكلة بجناس لفظى • ان ما يتميز به ذلك الشيء هو أنه
 يهدم جميع التصنيفات ويقلب جميع المذاهب التى بناها أصدقاء الجنس
 البشرى فى سبيل سعادة الانسان ؛ اى انه عائق وحاجز • ولكن قبل أن
 اسمى لكم ذلك الشيء أريد أن أخاطر شخصياً ، فأؤكد بجرأة
 وجسارة أن جميع هذه المذاهب الجميلة ، وجميع تلك النظريات التى
 تطمح فى أن تشرح للانسانية مصالحها الحقيقية بغية أن تصبح الانسانية
 على الفور فاضلة نبيلة فيما تبذل من جهود لبلوغ تلك المصالح المزعومة ،
 أقول ان ذلك كله ليس الا استدلالات منطقية ، نعم استدلالات منطقية
 صرفة ! وما مثل الاعتقاد بأن تجديد النوع الانسانى يمكن تحقيقه عن
 طريق تبصير النوع الانسانى بمصالحه الحقيقية ، الا كمثل الاعتقاد مع
 « باكل »* بأن المدنية تلتطف طبع الانسان فاذا هو يصبح أقل تعطشاً الى الدماء
 وأقل ميلاً الى الحرب شيئاً بعد شيء • ان الانسان يحب المذاهب المبنية
 والاستدلالات المنطقية جداً يبلغ من القوة أنه مستعد لأن يقلب الحقيقة
 عامداً ، مستعد لأن يغمض عينيه ويسد أذنيه أمام الحقيقة ، لا لشيء الا أن
 يسوِّغ الاستدلال المنطقى الذى يقوم به •

وانما ضربت هذا المثل لأنه مقنع • انظروا حولكم ! ان الدم يسيل
 غزيراً ، بل يسيل فى فرح كأنه شمبانيا • انظروا الى قرننا التاسع عشر
 هذا الذى عاش فيه « باكل » ! انظروا الى نابوليون ، نابوليون الآخر ،
 الكبير ، وانظروا الى نابوليون اليوم ! انظروا الى أمريكا الشمالية واتحادها
 الذى قام الى الأبد* ! انظروا الى شلفز فيج - هولشتاين الكاريكاتورى* ..
 ما الذى تلتطفه المدنية فينا ؟ ان المدنية لا تزيد على أن تمنى فينا تنوع
 الاحساسات ... ولا شيء غير ذلك • وبفضل نمو هذا التنوع ، قد يحدث

أن ينتهى الانسان الى أن يكتشف فى الدم نوعاً من اللذة ؛ حتى لقد حدث هذا منذ الآن .

هل سبق أن لفت نظر كم أن أرفع المتعطشين الى الدماء انما كانوا فى جميع الأحيان سادةً متمدين جداً لا يقاس بهم أمثال آتيل وأمثال ستكا رازين * جميعاً ؟ ولئن كان هؤلاء السادة لا يبرزون برون الآخرين ، فلأن عددهم كبير ، ولأننا نصادفهم كثيراً ، ولأننا اعتدنا رؤيتهم وألفناهم . ولكن اذا لم تكن المدنية قد جعلت الانسان أشد عطشاً الى الدم ، فما لا شك فيه أنها جعلت تعطشه الى الدم أخبث وأجبن . ففى قديم الزمان كان الانسان يرى أن من حقه أن يسفك دمأ ، فكان اذا سفك دم من يشاء من الناس ، يفعل ذلك هادئ البال مرتاح الضمير . أما اليوم فنحن نسفك الدماء مثلما كان يسفكها الأقدمون بل أكثر منهم ، رغم أننا نعد سفك الدم عملاً سيئاً . فهل هذا أفضل ؟ اقصّلوا فى الأمر بأنفسكم ! يقال أن كليوباتره (اغفروا لى هذا المثال المستمد من التاريخ الرومانى) كانت تسلى بغرس ابر فى صدور العبيد ، وكانت تجد لذة كبيرة حين تسمعهم يصرخون وحين تراهم يتلوون . ستقولون لى ان ذلك كان يحدث فى عصر همجى بعض الشيء ، وان عصرنا هذا همجى هو أيضاً ، لأن الناس ما يزالون يفرسون ابراً فى الأجساد ، وان الانسان رغم انه أصبح فى هذا الزمان يدرك الأمور ادراكاً أوضح من ادراكه لها فى الزمان القديم ، لم يستطع بعد أن يألف اتباع قواعد العقل والعلم ؛ ولكنكم واثقون بأنه سيألف هذا متى تحرر تحرراً تاماً من بعض الميول السيئة ، ومتى استطاع العقل والعلم أن يعيدا تربية الطبيعة الانسانية وأن يوجهاها فى طريق الرشاد . أتم واثقون بأن الانسان سيكف يومئذ عن خداع نفسه عمداً ، وسيستحيل عليه يومئذ أن يريد معارضة مصالحه السليمة بارادته .

بل هناك ما هو أكثر من ذلك : فإن العلم - فيما تقولون - سيعلم
الانسان يومئذ (وفي رأيي أن هذا هو منذ الآن ترف زائد) أنه لم يملك
فى يوم من الايام لا ارادة ولا نزوات ، وأن ليس مثله على وجه
الاجمال الا كمثل اصبع بيسانو أو دواسة أرغن ، فهو يفعل ما يفعل
لا وفقاً لارادته بل وفقاً لقوانين الطبيعة ، فيكفى اذن أن نكتشف
هذه القوانين ، ولا يمكن أن يعد الانسان عندئذ مسئولاً عن أفعاله ،
وستصبح الحياة سهلة عليه الى أقصى حدود السهولة . لأن جميع الأفعال
الانسانية سيتمكن حسابها حساباً رياضياً على أساس تلك القوانين ، كما
فعل العلماء ذلك فى اللوغارتمات ، بدقة تبلغ جزءاً من مائة ألف جزء ؛
ستسجل فى تقاويم ، أو ستؤلف فيها كتب ضخمة من نوع معاحنا

الموسوعية ، كتبٌ يُحسب فيها كل شيء ويتبأ فيها بكل شيء على نحو
يلبغ من الاتقان أنه لا تبقى بعد ذلك مغامرات ، بل ولا تبقى أفعال .

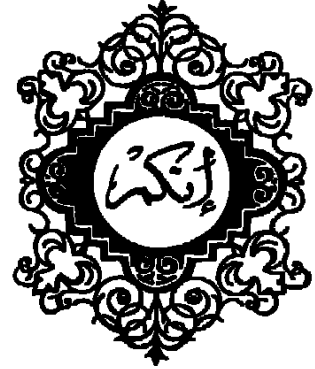
وعندئذ - أتم تكلمون الآن - سنرى قيام علاقات اقتصادية جديدة
تحدد هي أيضاً بدقة رياضية ، فاذا بجميع المشكلات تزول فوراً ، لسبب
بسيط هو أن جميع الحلول تكون قد اكتشفت . وعندئذ سيبنى قصر
كبير من الكرسنال * . عندئذ سنرى « طائر النار » بيتنا ... انا
لا نستطيع طبعاً أن نضمن (أنا الآن أتكلم) أن ذلك لن يكون مملاً
املاً رهيباً (ما عسانا نفعل اذا كان كل شيء محسوباً ومحددًا من
قبل) . ولكن جميع الناس سيكونون فى مقابل ذلك على جانب عظيم من
الحكمة . آه من الملل ! آه من الضجر ! بش السأم ناصحاً ! ان السأم
هو الذى يحملنا على أن نفرس فى اللحم ابراً من ذهب ... ولكن هذا
ليس أقدم ما فى الأمر . ان ما هو أخطر من ذلك (ما زلت أتكلم أنا) هو
أننا نجد سعادة عظيمة فى أن يكون بين أيدينا ابر : ان الانسان غيبى ،
غيبى غباءً فظيعاً ، بل قولوا انه ليس غيباً بقدر ما هو عاق ، حتى ليستحيل

أن نعر على من هو أشد عقوقاً من الانسان • لذلك لن يدهشني البتة أن أرى حينئذ سيداً من السادة خالياً من الأنافة والكياسة • رجعي • الوجه ساخر الهيئة • يهب واقفاً وسط تلك السعادة والهناء • واضعاً قبضتي يديه على خاصرتيه • قائلاً : هيه أيها السادة • ألا رمينا في التراب • بركلة واحدة • كل هذه السعادة العاقلة • لا شيء الا أن نرسل هذه اللوغارتمات جميعها الى الشيطان • وأن نستطيع استئناف حياتنا على ما يشاء لنا خيالنا وهوانا ؟ وهذا كله لن يكون شيئاً ذا بال • وانما أقطع ما في الأمر أن ذلك الرجل سيجد حتماً مؤيدين ومريدين • هكذا خلق الانسان • ومرد ذلك كله الى شيء صغير غاية الصغر • شيء يمكن اهماله اهمالاً تاماً فيما يبدو : مرد ذلك كله الى أن الانسان • أياً كان • يتطلع في كل زمان ومكان الى أن يعمل وفقاً لارادته لا وفقاً لأوامر العقل والمصلحة • وارادتكم يمكنها بل و • يجب عليها • أحياناً (هذه الفكرة فكرتي أنا شخصياً) أن تناقض مصالحكم • فارادتي الحرة •

الحساب • تلکم هي المصلحة التي هي أغلى وأثمن من سائر المصالح • والتي لا يمكن أن تجد لها مكاناً في تصنيفاتكم • والتي تحطم جميع المذاهب وجميع النظريات ألف جزء •

من أين استمد حكمائنا هذا الرأي القائل بأن الانسان في حاجة الى تلك الارادة السوية الفاضلة التي لا أدري ما هي ؟ لماذا تخيلوا أن الانسان يصبو الى ارادة عاقلة نافعة ؟ ان الانسان لا يتوق الا الى ارادة

٨



تقاطعوننى قائلين : « ها ! ها ! ها ! ولكن الارادة
لا وجود لها » فقد استطاع العلم منذ الآن أن
يشرح الانسان تشريحاً يبلغ من العمق أننا
أصبحنا نعلم أن الارادة وما يسمى بحرية

الاختيار ليسا الا »

— عفواً يا سادة ! لقد كنت أستعد أنا نفسى لأن أبدأ بهذا الكلام .
حتى لقد شعرت بخوف ، أعترف لكم بذلك : لقد هممت أن اهتف قائلاً
ان الارادة رهن بما لا يدري الا الشيطان ما هو وأن هذا ربما كان
خطأً موفقاً كل التوفيق ، ولكننى فكرت فى العلم ، فمضت على لسانى ،
وفى تلك اللحظة انما قاطعتمونى . فاذا استطعنا فى الواقع أن نكتشف
معادلة جميع رغباتنا ، وجميع نزواتنا ، أى اذا استطعنا أن نكتشف
المصدر الذى تنبع منه ، والقوانين التى تحكم ظهورها وتطورها ، واذا
عرفنا كيف تتكاثر وتتوالد ، وما هى الأهداف التى تسعى اليها فى هذه
الحالات أو تلك ، الخ ، كان من الجائز أن يكف الانسان عندئذ فوراً عن
أن يريد . وليس هذا جائزاً فحسب ، بل هو محقق مؤكد أيضاً . فآية
لذة يمكن أن يجدها الانسان فى أن لا يريد الا وفقاً لجداول حساب ؟
بل ليس هذا كل شئ . أيضاً : ان الانسان سيسقط عندئذ توتاً الى صف
مسمار فى آلة . ما غيب . نكون انسان بلا رغبة ولا ارادة ، ان لم يكن

مسماراً في آلة أو شيئاً من هذا القليل ؟ ما رأيكم ؟ لننظر في الاحتمالات
الممكنة : أيمن أن يحدث هذا أم لا ؟

ستقولون :

- هم ... ان رغباتنا تخطيء في كثير من الأحيان لأننا نخطيء
في حساب قيمة مصالحنا ومنافعنا . فنحن انما يتفق لنا أن نريد أموراً
سيئة لأننا نظن بمساعدة الغباء أننا بذلك نقرب مما نعدده ذا فائدة كبيرة
ومنفعة عظيمة . ولكن متى شرح لنا كل شيء ، متى تم ترتيب كل شيء ،
متى تم ترتيب كل شيء وتحديد كل شيء (وذلك جائز جداً ، لأن
من السخف ومن الغباء أن نظن أن بعض قوانين الطبيعة ستبقى الغائراً
مستغلقة على الفهم) فعندئذ لن يبقى هنالك محل لما يسمى رغبات بطبيعة
الحال . فإذا نشب صراع بين رغباتنا وعقلنا ، كان في وسعنا أن نفكر
لا أن نريد ، لأنه يستحيل على انسان عاقل أن يرغب في أمور سخيفة ،
وأن ينقض العقل عامداً ، وأن يسعى الى إيذاء نفسه بنفسه ...
وما دامت جميع الرغبات وجميع استدلالات الفكر يمكن أن تُحسب
سلفاً ، لأننا نكون قد اكتشفنا قوانين ما يسمى بحرية الاختيار ، فسيكون
من الممكن في ذات يوم (ولست أمزح) أن نضع شيئاً يشبه أن يكون
قائمة أو ثبوتاً ، وأن نرجع في ارادتنا الى هذه القائمة أو الثبت . لنفرض
أنه برهن لي في يوم من الأيام على أنني اذا أريت أحد الناس قبضة
يدي ، فانما أنا أفعل ذلك لأنني لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك ،
ولأنني كان لا بد لي أن أقبض يدي على هذا النحو نفسه . فما هي
الحرية التي لا أزال أملكها ، ولا سيما اذا كنت أنا نفسي عالماً وكنت
أحمل شهادة جامعية ؟ انني أستطيع أذن أن أحسب حياتي على مدى
ثلاثين سنة سلفاً . خلاصة القول : اذا تحقق هذا فلن يكون علينا ان
نفعل شيئاً غير أن نفهم . وينبغي لنا أن نكرر على مسامعنا ، بوجه عام ،

دون ما أسف أو حسرة ، أن الطبيعة ، فى هذه اللحظة وفى هذا الطرف بعينه ، لا تهتم بنا أى اهتمام ، ولا تكثرث لنا البتة ، وأن علينا اذن أن نقبلها كما هى لا كما يزينها لنا خيالنا ، فإذا كنا نتوق فعلاً الى المعادلات ، والى التقاويم ، والى الاميق ، فليس علينا الا أن نقبل الاميق ونسلم به ونرتضيه ، فان لم نفعل استغنى الاميق عن رضانا به وتأيدنا له كل الاستغناء .

نعم ، ولكن فى هذا الموضع بعينه انما تبدو لى الصعوبة . واعذرونى اذا أنا أخذت أتفلسف هذا التفلسف . لا تنسوا اننى فى الأربعين من عمرى ، وأننى قضيت الأربعين فى قبوى . اسمعوا يا سادتى ، ان العقل شىء ممتاز رائع . ذلك أمر لا يمكن جحوده . ولكن العقل هو العقل ، وهو لا يرضى فى الانسان الا ملكة التفكير العقل ، أما الرغبة فهى تعبر عن مجموع الحياة ، أى عن الحياة الانسانية كلها ، بما فيها العقل ووساوسه . ورغم أن حياتنا ، فى تعبيرها عن نفسها على هذا النحو ، تكتسى فى كثير من الأحيان مظهرأ رديئاً جداً ، فذلك لا ينفى أنها الحياة ، لا استخراج الجذر التربيعى .

ولأضرب بنفسى مثلاً : أنا أريد أن أحيا طبعاً ، بغية أن أرضى ملكة الوجود فى جملتها ، لا بغية أن أرضى ملكة التفكير العقلى وحدها ، التى لا تمثل الا جزءاً من عشرين جزء من القوى القائمة فى نفسى . ما الذى يعرفه العقل ؟ ان العقل لا يعرف الا ما تعلم (ولعله لن يعلم شيئاً غير هذا فى يوم من الأيام ، وليس ذلك عزاءً ولكن ما ينبغى أن نخفيه) ، أما الطبيعة الانسانية فانها تفعل بكل ثقلها ان صح التعبير ، مستخدمة كل ما تظمه وتشتمل عليه ، بشعور وغير شعور . قد ترتكب أكاذيب ، ولكنها تحيا .

أحسب يا سادتى أنكم تنظرون الى شىء من الازدراء والاحتقار :

انكم ترددون على مسامعي أنه يستحيل على انسان متوّر مثقف ، يستحيل على انسان المستقبل أن يرغب عامداً فيما ينقض مصالحه وأن يريد ما يتنافى مع منافعه • وائى أوافقكم فى هذا كل الموافقة : نعم ، هذا صحيح صحة رياضية • ولكننى أعود فأكرر على مسامعكم للمرة المائة قولى : ان هناك حالة ، حالة واحدة ، قد يريد فيها الانسان ، عامداً ، أن ينشد ما هو مخالف لمصلحته ، وأن يسعى الى ما يبدو له غباء وبلاهة وسخفاً ، لا لشيء الا أن يتحرر من الاضطرار الى اختيار ما هو نافع ولائق • ذلك أن هذه السخافة ، هذه النزوة ، قد تكون يا سادتى أنفع شيء فى نظرنا على وجه الأرض ، ولا سيما فى بعض الأحوال • حتى لقد تكون هذه المنفعة أعلى من سائر المنافع ، ولو كانت تحمل إلينا أذى واضحاً ، وكانت تناقض أسلم النتائج التى ينتهى إليها استدلالنا العقلى وتفكيرنا المنطقى • ذلك أنها تصون لنا وتحفظ علينا الشيء الذى هو أعز عندنا وأعلى فى نظرنا من سائر الأشياء ، ألا وهو شخصيتنا ؟ فان بين الناس من يؤكدون أن هذا بعينه هو أئمن ما نملك • قد تريد الارادة أحياناً أن تكون على اتفاق مع العقل ، لا سيما حين لا يكون فى هذا الاتفاق غلو وحين يُستفاد منه استفادة معتدلة • وقد يكون هذا نافعاً خليقاً بالتحديد والتأييد • ولكن الارادة فى كثير من الأحيان ، بل وفى أكثر الأحيان ، ترفض فى عناد أن تكون على اتفاق مع العقل ،

بالتحديد والتأييد جداً ؟

لنسلم أيها السادة بأن الانسان ليس غيباً • والواقع أننا لا نستطيع أن نقول ان الانسان غيب ، اذ لم يكن غيباً فى ذات الامر ، يمكن أن نعد

هو التعريف التالي : كائن يمشى على قدمين وعاقى • وليس هذا كل شيء بعد : ليست هذه الآفة آفته الرئيسية ، وانما آفته الرئيسية أنه سوء الطبع ، وأنه احتفظ بسوء طبعه هذا منذ عهد الطوفان الكبير الى العهد السلفىجهولشتاينى من تاريخنا • واذا قلنا سوء الطبع فقد قلنا طيش السلوك ، فمن المعروف منذ زمان طويل أن الأمرين مرتبطان وأن أحدهما مشتق بالآخر • حاولوا أن تلقوا نظرة على تاريخ الانسانية : ماذا ترون ؟ قد تقولون : نرى فحامة وروعة ! نعم ، هذا جائز • ان تمثال رودس وحده يمثل شيئاً عظيماً • وليس عيباً أن صاحبنا السيد آنايفسكى* يذكر لنا أن بعضهم يرى أن هذا التمثال هو من صنع القوى الطبيعية • وقد تقولون : اتنا نرى تنوعاً كبيراً • حقاً ، ان هناك شيئاً من تنوع : يكفى أن نلقى نظرة على مختلف الأزياء الموحدة الكبرى، العسكرية والمدنية ، خلال العصور وعند شتى الشعوب ، عدا أنواع الثياب الأخرى ، حتى نفتح بذلك • ان هذا كله متنوع تنوعاً يخلب الألباب ، ويتيه فيه الفكر ، ولا يصمد لاغرائه مؤرخ • وقد تقولون اتنا نرى تشابهاً ورتابة ! ممكن • فالتناس في الواقع لا يزيدون على أن يقتلوا • اقتلوا أمس ، ويقتلون اليوم ، وسيقتلون غداً • حقاً أن فى هذا اسرافاً فى التشابه والرتابة ، اعترفوا بذلك •

أى أننا نستطيع أن نقول عن التاريخ العام كل شيء ، نستطيع أن نقول عنه كل ما يعنى على البال ويدور فى الخيال • ولكن يستحيل علينا أن نقول عنه انه مطابق للعقل : ان لساننا سيتلعثم منذ تنطق بأول حرف من هذا الكلام • وما الذى نلقاه فى كل يوم أيضاً ؟ اتنا نلقى كل يوم أناساً يظهرون لنا عقلاء حكماء ، أناساً يحبون الانسانية ، ويهدفون الى أن يعيشوا حياة تستوحى العقل وتستلهم مبادئ الشرف بغية أن يؤثروا فى أقرانهم بالقدوة الحسنة وأن يبرهنوا لهم على أن فى وسع الانسان أن

يلتزم فى حياته جانب الحكمة • ولكن ماذا يحدث عندئذ ؟ انكم تعرفون
أن عدداً من محبى الحكمة هؤلاء ينتهى بهم الأمر عاجلاً أو آجلاً الى
أن يخونوا أفكارهم وأن يتورطوا فى قصص فاضحة !

فماذا يمكن أن تتوقع من الانسان ، ماذا يمكن أن تتوقع من هذا
الكائن الذى أوتى هذه الصفات العجيبة ؟ حاولوا أن تغدقوا عليه جميع
خيرات الأرض ؟ أغرقوه فى السعادة اغراقاً ؟ لبوا حاجاته الاقتصادية
تلبية تبلغ من الكمال أن يصبح فى غير حاجة الى شىء غير أن ينام ويأكل
فاخر الحلوى ويفكر فى الوسائل التى تكفل استمرار التاريخ العام ...
فماذا يحدث عندئذ ؟ أن الانسان ، حتى فى هذه الحالة ، سينقاد لعقوبه ،
وسينساق مع حاجته الى تلويث نفسه ، فيرتكب حقارة من الحقارات من
باب الشكر وعرفان الجميل ! ... حتى لقد يجازف بفاخر حلواه ،
فيسعى الى أخطر الحماقات ، وأضر السخافات ، لا لغرض الا أن يمزج
تلك الحكمة الايجابية الوضعية بمنصر خيالى شاذ مؤذ • تلك أحلام وهمية
وغباوات تافهة يريد المحافظة عليها لا لهدف الا أن يبرهن لنفسه (كما
لو كان ذلك ضرورياً الى هذه الدرجة حقاً) على أن البشر بشر وليسوا
أصابع بيانو تتنازل قوانين الطبيعة أن تعزف عليها وتلعب بها ، وهى تعزف
عليها وتلعب بها فى براعة تبلغ من الحنق أنه لن يبقى من الممكن فى
المستقبل القريب أن يريد الانسان أى شىء دون الرجوع الى التقاويم
والاعتماد عليها • وهب أن الانسان ليس الا اصبع بيانو ، وهبك استطعت
أن تبرهن له على ذلك برهاناً رياضياً ، فانه لن يعود الى الصواب ولن
يلتزم جانب الحكمة والرشاد ، بل سينظر يرتكب حماقة من الحماقات ،
لا لشيء الا أن يدل على عقوبه ويستمر فى اتقياده لنزوته ؟ وقد يوغل
فى التخريب ، وينحدر الى السديم والفوضى اذا أعوزته الوسائل
الأخرى ؟ فاذا هو يسبب ضروراً لا أدري ما هى ، ولكنه لن يستلهم

فى آخر الأمر الا ما يعن² بباله ويأمره به خياله ، ثم اذا هو يصب على العالم لعنته ؟ واذا كان الانسان لا يملك شيئاً الا أن يلعن (وهذه ميزته التى ينفرد بها من دون سائر الحيوانات) ، فسيحقق بذلك أهدافه ويبلغ غايته ، وهى الاقتناع بأنه انسان وليس مسماراً فى آلة .

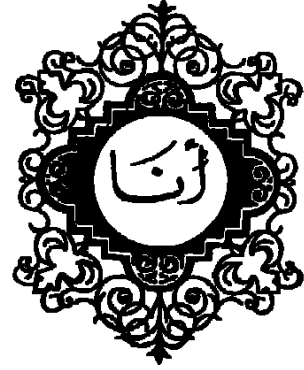
فاذا قلت لى ان السديم والظلمات والقوضى واللغات ، اذا قلت لى ان ذلك كله أيضاً يمكن حسابه سلفاً ، فتكون امكانية هذا الحساب وحدها قادرة على أن تشل اندفاع الانسان ، ويتسنى للعقل عندئذ أن ينتصر مرةً أخرى اذن ، قلت فان الانسان لا تبقى له والحالة هذه الا وسيلة واحدة من أجل أن يعمل بوحى رأسه ، ألا وهى أن يفقد عقله عامداً ، وأن يجنّ جنوناً تاماً .

أنا من ذلك على يقين . أنا أضمن لكم أن هذا ما سيحدث . اذ يبدو أن الهم الأكبر الذى كان يشغل الانسان فى جميع الأزمان هو أن يبرهن لنفسه بغير انقطاع على أنه انسان لا جزء من آلة . كان الانسان يجازف فى سبيل هذا بجلده ، ولكنه كان يظفر بأن يبرهن لنفسه عليه . كان يعيش حياة سكان الكهوف ، ولكنه كان يبرهن لنفسه على ما يريد البرهان لها عليه . فكيف بعد هذا لا نغبط أنفسنا ولا نهنى أنفسنا على أننا نصل الى هذه المرحلة ، وعلى أن الارادة ما تزال متوقفةً على ... لا أدري ماذا ؟

قد تصحح هذا قائلين (اذا كتب ما تراه ان تولد في هذا في هذا)

فى وجهى (ان أحداً لا يخطر بباله أن يحرمنى من ارادتى ، وان هذه الجهود كلها ليس لها من هدفٍ الا أن ترتب الأمور على نحو يمكن ارادتى أن تكون من تلقاء نفسها ، وبمبادرتها هى ، على اتفاق مع مصالحى السوية ، مع القوانين الطبيعية ، مع علم الحساب .

دعونا من هذا الكلام أيها السادة ! ما عسى يبقى من ارادتي حين
لا يكون عليَّ أن لا أرجع الا الى جداول الحساب ، وحين لا يبقى الا
« $2 \times 2 = 4$ » ؟ ان 2×2 تساوي 4 دون أن تتدخل في هذا ارادتي •
وانما تريد الارادة شيئاً آخر •



يا سادتي أمزح طبعاً؛ بل انني لأعلم أن أمازيحي
ليست حسنة جداً • ولكن هذه الأمازيح ليست
أمازيح فحسب • ولعلني أمزح وأنا أصرف
بأسناني غيظاً • يا سادتي ، هنالك أسئلة ترهقني
من امري عسراً ، وتعذبني تعذيباً : فساعدوني في حلّها • أنتم مثلاً
تريدون أن تحرروا الانسان من عاداته القديمة ، وأن تصلحوا ارادته
على ما توجهه حقائق العلم ومبادئ العقل • ولكن كيف عرفتم أن الانسان
ستطيع ، يجب عليه أن يصلح ؟ من أين نستنتج أن ارادته الانسانية

للانسان حقاً ؟ ما مصدر هذا الاقتناع الراسخ لديكم بأن من الخير للانسان
دائماً أن لا يعارض مصالحه السليمة السوية الواقعية التي يضمنها الاستدلال
و تكفلها الحساب ؟ لسنا هذا في آخ الأمر الا افتراضاً فقط ضمني

طرقاً جديدة في جميع الاتجاهات • ولكن ربما كان هذا نفسه هو السبب في انه يريد احساناً ان يوارب ويتملص ، لا شيء الا لانه « محكوم عليه » أن يرسم طريقاً ، ولأن الانسان العامل الفعال ، مهما يكن غياً ، يحزر في بعض الأحيان أن الطريق يؤدي دائماً الى « مكان ما » ، وأن اتجاه الطريق ليس هو الأمر الهام ، وانما الأمر الهام هو أن الطريق يفضي الى مكان ما ، حتى لا يخطر ببال الطفل الحكيم العاقل أن يحتقر مهنة الهندسة التي يعمل فيها ، ويستسلم للكسل الذي هو أبو الآفات جميعاً كما هو معلوم • صحيح أن الانسان يحب كثيراً أن يبنى وأن يشق طرقاً ، ذلك أمر لا جدال فيه ؟ ولكن لماذا نرى الانسان يحب الهدم والفوضى كذلك جداً يبلغ هذا المبلغ من القوة ؟ هلأً قلتم لي لماذا ؟ ولكنني أحب أنا نفسي أن أقول بضع كلمات في هذا الموضوع •

أليس جائزاً أن يكون مرد هذا الحب القوي للهدم والفوضى لدى الانسان (والانسان يحب الهدم والفوضى أحساناً ، ذلك أمر لا جدال فيه) أليس جائزاً أن يكون مرد ذلك الى أن الانسان يخشى بفريرته أن يبلغ الهدف وأن يتم الصرح الذي يبنيه ؟ ما يدريكم ؟ لعل الانسان لا يحب هذا الصرح الا من بعد ، لا من قرب • لعل الانسان يحلو له أن يبنيه لا أن يعيش فيه ، ولعله مستعد أن يتركه « للحيوانات الداجنة » * : للنمل ، للشيء ، النخ • والنمل من جهته له أذواق أخرى • ان للنمل في هذا المضمار مبنى آخر يتحدى المصور هو قرية النمل •

ان النمل المحترم انما بدأ بقرية نمل ، ولعله سينتهي في آخر المطاف من عمله بقرية نمل ؟ وذلك أمر يشرف ما يبذله من جهد دائب ، وما يبديه من حسن عمل • ولكن الانسان كائن متقلب الرأي ، وربما كان ، كلاعب الشطرنج ، لا يحب الا العمل نفسه ، لا الهدف الذي يجب بلوغه • ومن يدري ؟ (ليس هناك ضامن) ، ربما كان

الهدف الوحيد الذى تسمى اليه الانسانية هو هذا الجهد وحده ، هذا العمل وحده . وبتعبير آخر : قد لا يكون للحياة هدف خارجى هو ذلك الهدف الذى لا يمكن أن يكون طبعاً الا « $2 \times 2 = 4$ » ، أى لا يمكن أن يكون الا معادلة . وهذه المعادلة يا سادتى هى مبدأ موت لا مبدأ حياة . ومهما من أمر فان الانسان قد خشي دائماً معادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، هذه ، وأنا أيضاً أخشاه .

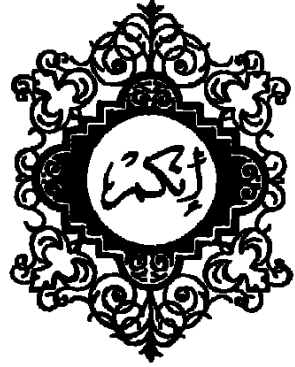
صحيح أن الانسان لا يهتم الا بالسعى وراء معادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، وهو فى سعيه وراءها يجتاز محيطات ويعرض حياته لمخاطر . ولكنى أحلف لكم على أنه يخاف من الوصول اليها ، ويتهب ادراكها ادراكاً واقعياً ، ذلك أنه يحس أنه متى وصل اليها لم يبق له شيء يعمل . ان العمال حين ينهون عملهم يتقاضون أجرهم ويذهبون الى الحمامة ، وقد يختمون ليلتهم مع الشرطة ، فيسبغون هذا أسبوعاً على الأقل . ولكن الى أين يذهب الانسان ؟ مهما يكن من أمر ، فالتا نلاحظ فى الانسان ، على الدوام ، شيئاً من الضيق كلما وصل الى هدف من تلك الأهداف . انه يحرص على الاقتراب من الهدف ، ولكنه متى وصل اليه أصبح غير راضٍ . ذلك أمر مضحك حقاً . الخلاصة أن الانسان قد كوّن تكويناً مضحكاً جداً ، انه مكوّن تكويناً يبعث على الضحك مثلما تبعث عليه نكتة قائمة على الجنس اللفظى . ولكن كيف دار الحال ، فان « $2 \times 2 = 4$ » شيء لا يحتمل ولا يطاق . وفى رأى أن معادلة « $2 \times 2 = 4$ » تنفرس فينا بوقاحة . انها تضع يديها على خاصرتيها وتعرض طريقنا وتبصق فى وجوهنا . أنا أسلم بأن « $2 \times 2 = 4$ » ، شيء عظيم . ولكن اذا كان لا بد من البناء على كل أمر من الأمور ، فالتى أقول لكم ان معادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، هى أيضاً فى بعض الأحيان شيء جميل جداً ، فان جداً .

ثم ، فيم اقتناعكم هذا الراسخ الذي لا يتزعزع ولا يتزعزع ، فيم اقتناعكم هذا الجازم القاطع بأن الشيء الطبيعي السوى ، الشيء الايجابي الوضعي ، الشيء الذي يكفل الرخاء والراحة والدعة هو وحده ضروري؟ وبتعبير آخر : أليس يخطئ العقل في تقديراته ؟ جائز أن الانسان لا يحب الراحة والرخاء والدعة وحدها . جائز أن الانسان يحب الألم والعذاب أيضاً . أليس جائزاً أن يكون الألم مفيداً للانسان كفائدة الدعة سواء بسواء ؟ ان الإنسان يأخذ في التوله بالألم أحياناً . ذلك واقع . ولا حاجة بنا البتة الى أن نستشير التاريخ العام في هذا الأمر ، وأن نستفتيه فيه . اسألوا أنفسكم ، اذا كنتم بشراً ، واذا كنتم قد عشتُم ولو قليلاً . أما اذا سألتُموني رأيي الشخصي ، فأننى أقول لكم انه من غير اللائق بالانسان أن لا يحب الا الدعة والراحة والرخاء . أهذا خير ؟ أهذا شر ؟ لست أدري . ولكنه ممتع جداً في بعض الأحيان أن يحطم المرء شيئاً ما . لست أدافع هنا عن الألم أو عن الدعة ؛ وانما هي رغبتى أنا ، وتزوتى أنا ، واننى لأصرُّ على أن تكفل لى وأن تُضمن اذا وجب الأمر . أنا أعلم أن الآلام في التمثيلات الهزلية مثلاً غير مقبولة ؛ لا ولا يمكن قبولها في قصر من كريستال : ففي الألم شك وريب ، وانكار ونفى . ولكن ما عسى يكون قصر من الكريستال يمكن الشك فيه ، وأنا على يقين من الانسان لن يتنازل يوماً عن الألم الحق ، أى عن التحطيم . والفوضى والسديم .

الألم ! ألا انه لهو السبب الوحيد للشعور ، والعلة الوحيدة للوعى ! صحيح أننى أعلنت لكم في البداية أن الوعى هو في رأيي من أكبر عيوب الانسان ومن أعظم آفاته . ولكننى أعلم أن الانسان يحبه ، وأنه لن يرتضى أية لذة من اللذات بديلاً له . الوعى ، مثلاً ، أعلى

كثيراً من « $2 \times 2 = 4$ » ، وبعد « 2×2 » ، لا يبقى بطبيعة الحال شيء ، لا يبقى شيء نعمله ، لا ولا يبقى شيء نعرفه . الأمر الوحيد الذي يبقى لنا عندئذ هو أن نسد حواسنا الخمس وأن نفرق في التأمل . صحيح أننا بالوعي نصل الى نتيجة مماثلة ، أى الى القعود عن الفعل ، ولكننا نستطيع على الأقل ، عندئذ ، أن نلهب أنفسنا من حين الى حين ، وذلك يشحذ فينا الفكر والروح على كل حال . ذلك رجعي جداً ، ولكنه يظل خيراً من لا شيء !... .

١٠



تؤمنون بقصر الكريستال الذى لا يتهدم الى
الأبد ، والذى لا يمكن للمرء أن يمد له لسانه
ساخراً ، ولا أن يريه قبضة يده خلسة . ولئن
كنت أنا أشك فى قصر الكريستال وأحذر منه ،
فلعل ذلك لا يرجع الا الى أنه من كريستال ، وأنه لا يتهدم ، وأن المرء
لا يستطيع أن يمد له لسانه ولو خفية وخلسة .

انظروا : لنفرض أنني لا أملك ، بدلاً من قصر الكريستال ،
الا خمّ دجاج ؛ ولنفرض أن السماء أمطرت . اننى قد أتلل الى خمّ
الدجاج اتقاءً للمطر ، ولكنى مع اعترافى بما لحّمّ الدجاج علىّ من فضل ،
لأنه وقانى من المطر ، لن أعدّ خمّ الدجاج هذا قصراً . انكم تضحكون ،
وانكم تقولون لى ان خمّ الدجاج والقصر يتساويان فى مثل هذه الحالة .
فأقول لكم : هذا صحيح ، اذا كان الانسان لا يحيا الا فى سبيل أن لا تبلىه
مياه الأمطار .

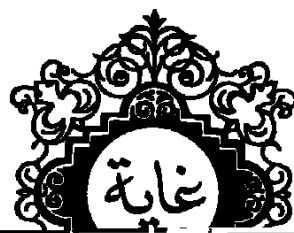
ولكن ما حيلتى اذا كنت قد وضعت فى رأسى أن الانسان لا يحيا
فى سبيل هذا فحسب ، وأن الانسان اذا كان يريد أن يحيا ففى قصر من
الكريستال انما يجب أن يسكن ؟ تلك ارادتى ، تلك رغبتى . ولن
تفلحوا فى انتزاع هذه الارادة من نفسى الا حين تستطيعون أن تبدلوا
رغباتى . فهياً بدّلوها ان كنتم قادرين ، هياً اعرضوا لى هدفاً آخر ، هياً

قدموا لى غاية أخرى ، هيّا اعطونى مثلاً أعلى آخر ! ولكنى بانتظار ذلك ، أرفض أن أعد خمّ الدجاج قصر كريستال • قد لا يكون قصر الكريستال الا خرافة ، وقد ترفضه قوانين الطبيعة ، وقد أكون اخترعته اختراعاً من باب الحماسة والغباء تدفعنى الى ذلك عادات مخالفة للعقل تعودها أبناء جيلنا ! ولكن ما قيمة هذا الكلام اذا كان قصر الكريستال هذا موجوداً فى رغباتى ، وما دام باقياً ما بقيت رغباتى • أظن أنكم ما زلتم تضحكون ! فاضحكوا ما شاء لكم هواكم أن تضحكوا ! سوف أقبل جميع السخریات ، ولكنى سأرفض أن أقول اننى شعبان حين أكون ما أزال جائعاً • لن أكتفى بتسوية ، لن أقبل حلاً وسطاً ، لن أقبل صفراً يتكرر الى غير نهاية ، لا لشيء الا لأنه مطابق للقوانين الطبيعية ، وأنه موجود فى الواقع فعلاً • لن أقبل أن تتوج رغباتى بأن أستأجر ، بأجر زهيد ، لمدة ألف عام ، بيتاً من آجر عليه اسم طيب الأسنان فاجنهايم • حطموا رغباتى ، اقلبوا مثلى الأعلى ، قدموا لى هدفاً أفضل ، فأتبعكم حينذاك • قد تقولون انى لا أستحق منكم عناء الاهتمام بأمرى • ولكنى سأجيبكم عندئذ بمثل ما تقولون • اننا نتناقش جادين ، فاذا لم تنزلوا الى حيث تلتفتون الىّ وتولونى اتباهكم ، فلن يبكىنى هذا • ان لى قبوى •

ولكن ألا فلتيس يدأى اذا أنا حملت الى ذلك البيت ولو آجرة واحدة ، ما ظللت أوجد ، وما ظللت أرغب ! لا تقولوا لى اننى قد تنازلت أنا نفسى منذ قليل عن قصر الكريستال لسبب واحد هو اننى لن أستطيع أن أخرج له لسانى ساخراً • لئن قلت هذا الكلام ، فما ذلك لأننى أحب اخراج لسانى كل هذا الحب • ولعل ما يثير حنفى هو أن مبانيكم جميعها ليس فيها واحد الا ويمكن أن يخرج له المرء لسانه • بالعكس : اننى مستعد لأن أقطع لسانى عرفاناً بالجميل اذا رُتبت الأمور ترتيباً

لا أشعر بعده برغبة في أن أخرج لساني • مهما يكن من أمر ، فليس
يعنني أن يكون هذا مستحيلاً ، وأن لا يكون بدٌّ من الاكتفاء بالبيوت
المكتراة بأجر بخس ! ولكن لماذا تجيش في نفسي تلك الرغبات ؟ أيكون
الهدف من تكويني على هذا النحو هو أن ألاحظ أن هذا التكوين ليس
الا مزحة دميعة ؟ أيكون هذا هو الهدف حقاً ؟ لا أظن ذلك !

ولكن هل تعرفون ما سأقوله لكم ؟ اننى مقتنع بأننا ، نحن أهل
الأقيّة ، يجب أن نُلجِمَ • ان انسان القبو قادر على أن يمكث صامتاً
في قبوه أربعين سنة ، ولكنه اذا خرج من جحره انطلق خارجاً من صمته ،
وأخذ يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم



الغايات يا سادتي أن لا يفعل المرء شيئاً البتة •

.....

لا تعملون شيئاً ، ثم جئت أزورك في قبوكم بعد انقضاء هذه المدة ، لأرى ما الذى صرتم اليه ؟ وددت لو رأيتمكم هنالك ! هل يمكن أن يترك انسان وحيداً بلا شاغل مدة أربعين عاماً ؟

ربما قلتم لى وأنتم تهزون رموسكم باحتقار : « ولكن أليس هذا مخزياً ؟ أليس هذا ذلاً وعاراً ؟ أنت ظالمى الى الحياة ، ولكنك تريد أن تحل جميع مسائل الحياة باشكالات منطقية . ويا له من عناد ! ويا لها من وقاحة فوق هذا ! ولكنك مع ذلك خائف . أنت تقول سخافات راضياً وترتكب وقاحات معجياً ، ولكنك خائف من هذه السخافات والوقاحات ، فأنت تعتذر عنها . تزعم أنك لا تخشى أحداً ، ولكنك تلتبس رضى الناس وتنشد عطفهم . تؤكد أنك تصرف بأسنانك غيظاً ، ولكنك فى الوقت نفسه تمزح وتتندر لتضحكنا . تعلم أن أقوالك الجميلة ليست جميلة ، ولكنك تبدو شديد الرضى عن كلامك ، كثير الإعجاب بأدبك . جائز أن تكون قد تأملت ، ولكنك لا تحترم أملك أى احترام . فى أقوالك شيء من حقيقة ، ولكن يعوزها الحياء والحفر . غرورك التافه المسكين يجعلك تحمل حقيقتك الى الميدان وتعرضها فى السوق ، وتلقيها أمام الناس عرضةً للسخريات . فى نفسك شيء تريد أن تقوله ، ولكن الخشية تجعلك تبلغ الكلمة الأخيرة ، لأنك تملك وقاحة ولكنك لا تملك شجاعة . أنت تمتدح وعيك ، ولكنك غير قادر الا على التردد ، ذلك لأنك ، رغم أن عقلك يعمل ، متسخ القلب بالفحش ملوث النفس من الفجور ، وما لم يكن القلب صافياً طاهراً فلا يمكن أن يكون الوعى بصيراً ولا كاملاً ! يا لك من مشعبد مهرج ! كذب ! كذب ! كذب ! كذب ! ، ، .

هذه الكلمات كلها أنا الذى قلتها طبعاً . انها هى أيضاً آتية من القبو صادرة عنه . خلال أربعين عاماً ظلمت أصبح بسمعى الى هذه

الأحاديث من خلال شق صغير • أنشأتها بنفسى ، اذ لم يكن هناك شيء آخر أعمله • كان سهلاً علىّ اذن أن أحفظها على ظهر القلب ، وأن ألبسها نوباً أدبياً •

ولكن هل صدقتم حقاً أنني سأنشر هذا الكلام كله ، وأقدمه إليكم لتقرأوه ؟ واليكم هذا الأمر الذى لا أفهمه : لماذا أخطبكم بقولى « أيها السادة » ، كما لو كنتم قرائى ؟ ان هذه المسارّات التى أستعد للافضاء بها هنا ، لن تُنشر ، ولن تُقدّم الى أحد ليقرأها • أنا على الأقل لا أملك من القوة قدرأ كافياً لأن أفعل هذا ، لا ولا أرى أنه ضرورى من جهة أخرى • ولكن اسمعوا : لقد بدت لى بدوة ، وراودتنى نزوة أريد أن أحققها مهما كلف الأمر • اليكم الموضوع :

ان بين الذكريات الذى يختزنها كل منا ، ذكريات لا نرويها الا لأصدقائنا ؟ وان بينها ذكريات أخرى لا نعرف بها حتى لأصدقائنا ، ولا نردها الا على أنفسنا ، بل ولا نردها على أنفسنا الا سرأ • ولكن هناك ذكريات أخرى يرفض الانسان حتى أن يعترف بها لنفسه • وكل انسان شريف أمين قد اختزن أثناء حياته قدرأ كافياً من هذه الذكريات ، حتى ليتمكننى أن أقول ان عدد هذه الذكريات يكون على قدر ما يتصف به الانسان من الشرف والأمانة • أنا على كل حال لم أقرر الا منذ مدة قصيرة أن أعيد تذكر بعض مغامراتى القديمة ، وكنت أقبل ذلك أتحاشاها شاعراً بشيء من القلق • والآن ، حين أستعيد هذه الذكريات وأريد أن أسجلها ، أمتحن نفسى فأتساءل : هل يمكن أن يكون المرء صريحاً وصادقاً ، تجاه نفسه على الأقل ، وهل يستطيع أن يقول لنفسه كل الحقيقة ؟ يحضرنى فى هذه المناسبة أن الشاعر هاينى يؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك « سير ذاتية » صحيحة ، وان الانسان يكذب دائماً حين يتحدث عن نفسه • وفى رأيه أن روسو قد خدعنا حتماً

فى كتابه « الاعترافات » ، بل وانه خدعنا عامداً ، من باب حب الظهور •
 اننى موقن من أن هاينى على حق : اننى لأفهم حق الفهم ان المرء يمكن
 أن يقترب جرائم فظيعة لا لسبب غير حب الظهور ، واننى لأفهم أيضاً
 ما يمكن أن تكون هذه العاطفة • ولكن هاينى كان يقصد الاعترافات
 للناس • أما أنا فأتى أكتب لنفسى وحدها ؟ وأعود فأقول الآن مرة أخرى
 الى الأبد : اذا كان يبدو على أنى أخاطب القارىء ، فما ذلك الا طريقة
 أعمد اليها التماساً لمزيد من السهولة • هذه صورة ، هذا شكل ، شكل
 أجوف • أما القراء فلن يكون لى قراء قط • سبق أن قلت هذا •

ولا أريد أن يزعجنى شئ فى كتابة ذكرياتى • لن أتقيد بأى
 ترتيب ، ولن أراعى أى نظام • لن أزيد على أن أسجل ما أتذكره •
 ولكن قد يكون فى وسعكم أن تقبضوا علىّ وتسألونى : « لو كان
 صدقاً ما تدعيه من أنك لا تفكر فى قرائك ، فعلام تعلن - كتابة على
 الورق أيضاً - أنك لن تتقيد بأى ترتيب ولن تراعى أى نظام ، وأنتك
 ستسجل ما يخطر ببالك ، الخ ؟ علام تقدم هذا التبرير ؟ وفيما تسوق هذا
 الاعتذار ؟

سوف أجيبكم عندئذ قائلاً :
 - هكذا !

على أن هذا حالة سيكولوجية هامة شائقة • من الجائز أن أكون
 جباناً لا أكثر • ولكن من الجائز أيضاً اننى أتصور أمامى جمهوراً حتى
 لا أحل بقواعد اللباقة أثناء الكتابة • ومن الجائز أن يكون هنالك بواعث
 من هذا القيل تبعده بالألوف •••

غير أن هناك سؤالاً آخر أيضاً : لماذا شرعت فى الكتابة أصلاً ؟
 اذا كنت لا أكتب لجمهور ، أفلا أستطيع أن أستحضر ذكرياتى دون أن
 أضعها على ورق ؟

فملا • ولكن هذه الذكريات ستكتسى مظهراً فيه مزيد من الأبهة حين تُثبَّت على ورق • ان في هذا مهابة وجلالاً • سوف يحسن رأيي في نفسي ، وسوف وجود أسلوبى • ثم ان من الممكن أن يحمل الى هذا شيئاً من التخفف والسلوى والعزاء • أنا اليوم ، مثلاً ، ترهقنى ذكرى بعيدة ارهاقاً شديداً • لقد انبثقت فى ذهنى واضحة جداً منذ بضعة أيام ، وهى تلاحقنى وتطاردننى الى الآن بلا هوادة ولا مهادنة ، كلحن من تلك الألحان الموسيقية التى تشبث بك ولا تريد أن تدعك • ولا بد لى من التخلص من هذه الذكرى • عندى ذكريات من هذا النوع تُعدُّ بالمئات • ولكن واحدة من هذه الذكريات تستيقظ فى بعض الأحيان فجأة ، وتمسك بخناقى • فيخيل الىّ - لا أدري لماذا - اننى قد أتححر منها اذا أنا كتبتها • فلماذا لا أحاول ؟

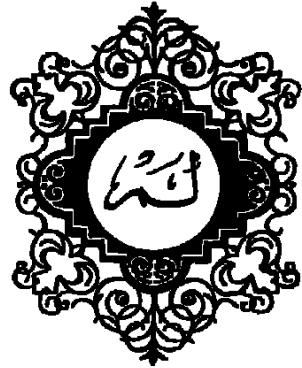
ثم اننى ، أخيراً ، أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا أعمل شيئاً قط • فاذا كتبت ذكرياتى كنت أقوم بعمل • والعمل ، فيما يقال ، يجعل الانسان طيباً شريفاً • فهذه اذن فرصة تعرض لى ...

الثلوج تتساقط اليوم كيباً كثيفة مصفرة نصف ذائبة • وقد تساقطت أمس وأمس الأول أيضاً • أحسب أن هذا الثلج الذائب هو الذى ذكرنى بالقصة التى أصبحت ذكرها لا تبارحنى • لذلك سأضع لقصتى هذا العنوان : « بمناسبة الثلج الذائب » •

بمناسبة الثلج الذائب

حين استطاعت حرارة كلماتي المؤثرة *
 أن تنتشل من هوة الضلال المظلمة ،
 نفسك التي سقطت الى هاوية عميقة ؛
 وحين زحرت نفسك بآلام حادة ،
 فلعننت الرذيلة التي فتنتك في الماضي
 وتلويت لوعة واسفا وحسرة ؛
 حين عاقبت ضميرك ،
 وقصصت على كل ماجرى قبل
 وتنكرت لحياتك السالفة
 ثم دفنت وجهك في يديك ،
 وامتلا قلبك هولا وخزيا ،
 فاخذت تبكين على حين فجأة ..

نكرا سوف



يكن عمري أكثر من أربعة وعشرين عاماً في ذلك الأوان . وكانت حياتي عندئذ على ما هي عليه الآن : قاتمة ، مضطربة ، فوضى ، معترلة ، اعتزلاً متوحشاً . لم تكن لي علاقات ، حتى لقد كنت أتحاشي أن أكلم أى إنسان ، ولا يخطر ببالى إلا أن أختبئ في ركني . وكنت أثناء الساعات التي أقضيها في المكتب أحاول أن لا أرفع عينيّ نحو أحد ؟ ولكنني كنت ألاحظ تماماً أن زملائي يعدونني امرءاً متفرداً شاذاً ، وكان يخيّل إليّ أيضاً أنهم ينظرون إليّ بشيء من النفور والكراهية . كنت أتمسك في بعض الأحيان : لماذا أنا الشخص الوحيد الذي يتخيل أن الناس ينظرون إليه نظرة فيها نفور وكراهية ؟ كان أحد الموظفين قبيح الوجه مجدور البشرة ، وكأنه لص من قطاع الطرق ، فلو كان وجهي دميماً دمامة وجهه اذن لما تجرأت حتى على أن أظهر للناس . وكانت بزة موظف ثانٍ من الموظفين تبلغ من الاتساع أن المرء يشعر براحتها الكريهة متى كان على مقربة منه . ومع ذلك لم يكن يبدو على أحد من هؤلاء السادة أنه يشعر بخجل لا من وجهه ولا من بزته ولا من طبعه . كانوا لا يتخيلون أن من الممكن أن ينظر إليهم أحد نظرة فيها استمزاز . وهبهم تخيلوا ذلك ، فأنهم لا يابهنون له ولا يكثرنون به ، اللهم إلا أن يكون من جانب رؤسائهم .

يتراعى لى الآن أنتى بسبب غرورى المفرط ويسبب شدة ما أطلبه من نفسى ، كنت أنظر الى نفسى فى كثير من الأحيان بنوع من استياء حائق قد يبلغ حد الاشتزاز . وعلى هذا النحو اتما وصلت الى اقناع نفسى بأن الآخرين ينظرون الىّ هذه النظرة نفسها . كنت أكره وجهى ، مثلاً : كنت أرى أنه يفتقر الى النبيل ، وأنه يعبر عن شيء من جبن وخسة ودناءة . وذلكم هو السبب فى أنتى حين كنت أعمل فى المكتب صاحاً ، كنت أبذل جهداً كبيراً فى سبيل أن اصطنع وضع الانطلاق والاستقلال ، مخافة أن يظنوا بى الجبن والحقارة ، وكنت أحاول أن أسبغ على وجهى كل ما يمكنى اسباغه عليه من نبل ورفعة ، قائلاً لنفسى : « ليس وجهى جميلاً ، فلا أقل من أن يكون نبيلاً ، معبراً ، وأن يكون على وجه الخصوص ذكياً جداً ، . وكنت أعلم علم اليقين ، واحسرتاه ، أن وجهى لن يستطيع أن يعبر عن هذه الأمور الجميلة فى يوم من الأيام . ولكن الشيء الرهيب المرعب حقاً هو أنتى كنت أرى وجهى غيباً بليداً . لقد كان يمكن أن أكنفى أخيراً بالذكاء ، وأن استقنى به عما عداه ، حتى لقد كان يمكن أن أقبل أن يعبر وجهى عن الضعة والחסنة ، شريطة أن يكون ذكياً ذكاء خارقاً .

وطبعى أنتى كنت أبغض جميع موظفى الدائرة ، من أولهم الى آخرهم ، وكنت أحتقرهم جميعاً . ولكنتى كنت فى الوقت نفسه أخشاهم جميعاً ، فيما أظن . حتى لقد كان يتفق لى أن أضعمهم فوقى وأن أنزلهم فى منزلة أعلى من منزلتى . وتلك أمور تحدث لى دائماً على حين فجأة : فأنا تارةً أحتقر الناس ، وتارةً أرفع شأنهم وأعظم قدرهم . ما من انسان شريف مثقف يمكن أن يكون مغروراً ما لم يكن متشدداً مع نفسه كثير المطالب تجاهها حتى ليحتقرها فى بعض الأحيان احتقاراً يبلغ حد الكره والبغض . ولكنتى أنا ، أيةً كانت مشاعر الاحتقار

والاحترام ، كنت أغض طرفي وأخفض بصرى أمام كل انسان • حتى
لقد كنت أحاول القيام بتجارب فى بعض الأحيان • أترانى أستطيع أن
أحتمل نظرة فلان أو فلان من الناس ؟ وكنت ألاحظ فى كل مرة أتنى
مضطر الى أن أغض طرفي وأخفض بصرى • وكان هذا يعذبني تعذيباً
يبلغ حد الجنون •

وكنت أتصف كذلك بخوفٍ مرضي من أن أكون مضحكاً ؛ ولهذا
السبب انما كنت أحب أن أنصاع للروتين انصياعاً ذليلاً فى كل مايتصل
بالحياة الخارجية ، وكنت أهوى أن أسير فى الطريق المهدد الذى يسير
فيه سائر الناس ، ويروغنى ما قد ألاحظه فى نفسى من رغبة فى الابتعاد
عن هذا الطريق • ولكن كيف كان يمكننى أن أقاوم ؟ لقد كان ذكائى
نامياً نمواً عظيماً يبلغ حد المرض ، كما ينبغى أن يكون ذكاء رجال هذا
العصر ؛ أما هم فقد كانوا جميعاً أغبياء ، وكانوا يتشابهون تشابه
الحراف • ولئن كنت الوحيد الذى يعد نفسه جباناً ، وعبدًا ، فلعل سبب
ذلك هو أن ذكائى كان أنمى من ذكائهم •

على أن هذا لم يكن مجرد وهم منى : لقد كنت فى واقع الأمر
وحقيقة الحال جباناً وعبدًا • أقول هذا دون أن أشعر منه بأى حرج •
ان كل انسان شريف فى عصرنا هذا لا بد أن يكون جباناً وعبدًا • تلك
حالته الطبيعية • أنا مقتنع بهذا اقتناعاً عميقاً • هكذا خلق ، ولهذا
رُكِّب • وليس ذلك ظاهرة ينفرد بها عصرنا ، وتتعلق بتضافر ظروف
خاصة • ففى جميع الأزمان كان الرجل الشريف جباناً وعبدًا •
واذا اتفق له أن يصطنع الشجاعة فما ينبغى له أن يباهى بذلك وأن يفاخر
لأنه سرعان ما سيأخذ بعد ذلك بالتباكى • هذا قانونه الأبدى • الحمير
والبغال وحدهم شجعان ، بعض الشجاعة من جهة أخرى • وهؤلاء
لا يستحقون منا عناء الالتفات اليهم ! انهم لا شأن لهم البتة •

هناك ظرف آخر كان يعذبني بغير انقطاع : كنت ألاحظ أنني لا أشبه أحداً ، وأن أحداً لا يشبهني . فكنت أقول لنفسي : « أنا وحيد وهم جميع » ، وأخذ أفكر .

واضح من كل هذا أنني لم أكن بعدُ الا صيياً .

ولكن كان، حدث لـ، في بعض الأحيان، مفاجيء . لشيء ما كان،

الذهاب الى المكتب يشق على نفسي ! كانت هذه المشقة تبلغ من الشدة في بعض الأحيان أنني أرجع الى البيت مريضاً تماماً . ولكنني ما ألبث أن أدخل فجأة في فترة أخرى تتميز بالريية وقلة الاكترات وعدم المبالاة (ان كل شيء يحدث عندي فترات فترات) ، فاذا أنا أسخر من شدة صرامتي وكثرة احتقاراتي ، وأتهم نفسي بالرومانسية . أمس كنت لا أريد أن أخاطبهم ، ولكنني اليوم أتحدث معهم ، وأحاول أن أصادقهم . ان كل نفوري قد تبدد بما يشبه السحر . من يدري ؟ لعل هذا النفور لم يخالجنى في يوم من الأيام ، ولعلني اصطنعه اصطناعاً مستمداً من قراءة الكتب . انني لم أستطع حتى الآن أن أحل هذه المشكلة وأن أجيب عن هذا السؤال . حتى لقد اتفق لي مرة أن شددت اليهم بصداقة حميمة . فكنت أزورهم ، فتلعب بالورق ، وتشرب الحمرة ، وتحدث عن الدرجات والعلاوات . . . ولكن اسمحوا لي هنا أن أفتح قوسين مستطرداً بعض الاستطراد .

قلماً يوجد بيننا ، نحن الروس ، على وجه العموم ، أناس من أولئك الرومانسيين الأغبياء الألمان ، أو الفرنسيين خاصة ، الذين يحلقون في كواكب أحلامهم ، ولا يفعلون عليها شيئاً ولو اهتزت الأرض تحت أقدامهم ، ولو هلكت فرنسا على التاريس ! انهم لا يتغيرون أبداً ، حتى ولا من قبال اللاقة والكلاسة . بل يظلون بصدوحهم بأناشيدهم

السماعية الى آخر يوم ، لأنهم أغبياء . عندنا نحن ، على أرضنا روسيا ، لا يوجد أمثال هؤلاء البلهاء . ذلك معروف . وهو بعينه ما يميز بلادنا عن البلاد الأجنبية . ليس عندنا اذن أناس لهم تلك الطباع المثالية على حالة الحماة ان صح التعبير . ان النقاد والكتاب الصحفيين في العصر السالف قد أوهمهم خيالهم الغبي أن أمثال كونستانجوجلو والعم بطرس ايفانوفتش * هم مثلنا الأعلى ، فاعتقدوا أن روائينا الرومانسيين محلقون في الأحلام الرائعة تحليق رومانسيي ألمانيا أو فرنسا .

بالعكس : ان طبع الرومانسي في بلادنا يختلف كل الاختلاف عن طبع زملائه الأجانب ، وما من وحدة من وحدات القياس الأوروبية يمكن

هي كلمة قديمة محترمة يعرفها جميع الناس) . ان السمة البارزة المسيطرة في طبع الرومانسي عندنا هي أنه يفهم كل شيء ، ويرى كل شيء ، يرى رؤية لا تقل وضوحاً عن رؤية اشد العقول ايغالا في الواقعية وتشبهاً بالوضعية ، بل تزيد عليها وضوحاً . صحيح أن الرومانسي عندنا لا يطأطئ رأسه للواقع ، ولكنه لا يحتقر الواقع أيضاً . وهو يخضع وينصاع اذا وجب الخضوع والانصياع . ان الهدف العملي النافع المفيد (كمعاش حسن ، ووسام جميل ، ومنزل أتيق) لا يغيب عن بصره أبداً ، بل هو يميزه من خلال جميع الحماسات ، ومن خلال جميع دواوين الشعر العاطفي الغنائي . ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ بمثله الأعلى في الجمال والروعة ، مع محافظته على نفسه في هذه المناسبة ذاتها ملفوفاً بالقطن كجوهرة ثمينة في سبيل مصلحة ذلك الجمال نفسه وتلك الروعة نفسها ان الرومانسي عندنا انسان واسع الى أقصى حدود السعة ، وهو أوغد الأوغاد ، أؤكد لكم ذلك . . . فأنا أعرفه حتى من تجربتي الخاصة . ولكن هذا كله لا يتعلق الا بالرومانسي الذكي . ماذا أقول ؟

ان الرومانسى ذكى دائماً • وانما أردت أن ألفت نظركم الى أنه ان وجد بين الرومانسين عندنا عدد من الأغبياء ، فهؤلاء لا يحسبون ، لأنهم يصيرون منذ زهرة العمر الى ألمان حقاً ، فيستقرون أخيراً فى مكان ما من الغابة السوداء بألمانيا (شفارتسفالد) أو يستقرون فى سويسرا ، حفاظاً على جوهرتهم سليمة لا يمسهأ أذى ولا ينالها سوء •

ولأضرب مثلاً بنفسى : لقد كنت أكره مشاغلى صادقاً أكبر الصديق ، ولئن لم أبصق عليها ، فلأنتى كنت مضطراً أن أذهب الى المكتب فى سبيل أن أقبض راتباً • لاحظوا أنتى كنت أذهب الى المكتب مهما يكن من أمر ! ان الرومانسى عندنا يؤثر أن يفقد عقله (ونادراً ما يحدث له ذلك على كل حال) على أن ير كل وظيفته ان لم تعرض له وظيفة أخرى . لن يستطيع أحد أن يحمله على التخلي عن مكانه ولو ركلاً بالأرجل ؛ وكل ما يمكن فعله فى أكثر تقدير ، اذا هو فقد عقله تماماً ، هو أن يُحبس فى مستشفى من مستشفيات المجانين ، فيمثل هنالك دور ملك اسبانيا * •

ولكن الذين يفقدون عقولهم انما هم النحاف الشقر المخشون ، على حين أن عدداً لا حصر له من الرومانسين يبلغون أعلى الرتب • وان تنوع مواهبهم يبلغ حداً خارقاً • ولشد ما يسهل عليهم أن يوفقوا بين المواطنين المتناقضة والاحساسات المتضاربة ! لقد لفت ذلك نظرى وخطف انتباهى وعزائى وواسانى منذ ذلك الحين ! ولهذا يوجد بيننا هذا العدد الغير كله من « الطبائع الواسعة » التى تحتفظ بمثلها الأعلى حتى فى سقوطها الأخير • ورغم أن هؤلاء لا يحركون حتى اصبعاً واحدة فى سبيل هذا المثل الأعلى ، ورغم أنهم أوباش من قطاع الطرق حقاً ، فانهم يظلمون شرفاء فى نفوسهم الى أقصى حد ، ويظلمون يحترمون مثلهم الأعلى الذى يتحدثون عنه والدموع فى أصواتهم •

نعم يا سادتي ، لا يوجد الا عندنا انسان يمكن أن يكون أوغد الأوغاد ثم هو شريف في نفسه ، شريف الى حد الروعة ، ولكن دون أن يكف بسبب ذلك عن أن يكون مسكيناً تافهاً . أعود فأقول : انه يخرج دائماً من بين صفوف الرومانسين عندنا غشاشون يلبسون من البراعة والحلق (اننى استعمل هنا كلمة « الغشاش » بمعنى فيه مداعبة) ويظهرون من قوة الحبس الواقى ووفرة المعارف العملية ما يجعل الناس ورؤساءهم يفركون أعينهم دهشةً واستغراباً .

نعم ، ان التوع والسعة فينا خارقان حقاً ، والله وحده يعلم ما الذى سيخرج منهما أيضاً ، وما الذى يشتران به للمستقبل ! ليس هذا النسيج بردىء فى الواقع ! ما رأيكم يا سادتي ؟ اذا كنت أقول هذا فليس يدفعنى الى قوله عاطفة وطنية مضحكة . ثم انكم تتخيلون مرةً أخرى أننى أمزح . . أنا واثق بأنكم تتخيلون هذا . أو لعل العكس هو الصحيح : لعلكم تظنون أننى أتكلم جاداً . مهما يكن من أمر ، فالرأيان كلاهما يشرّفانى يا سادتي ، وهما كلاهما يسرّانى على حدٍ سواء .

ولكن اغفروا لى هذا الاستطراد .

لم أكن استطيع ، بطبيعة الحال ، أن احتمل علاقات الصداقة مع زملائى زمنياً طويلاً . فسرعان ما كنا نفترق افتراقاً عاصفاً ، حتى لقد كنت أكف عن تحيتهم - وتلك ثمرة من ثمرات قلة خبرتى ونقص تجربتى - فاذا بكل شيء بيتنا ينتهى ! على أن هذا لم يحدث لى الا مرةً واحدة ، لأننى كنت متوحداً على الدوام .

وفى بيتى كنت أعكف على القراءة أكثر الوقت . فبذلك كنت أحاول أن أطفىء بالتأثرات الخارجية ما كان يغلى فى نفسى بغير انقطاع . والتأثرات الخارجية الوحيدة التى كنت أملك الحصول عليها انما تأتىنى

من القراءة • فكانت هذه التأثيرات تساعدني كثيراً والحق يقال : فهي تهز نفسي ، وتسري عني ، وتعذبني • ولكنني كنت أصل الى لحظة أتعب فيها منها ، وأشعر بالحاجة الى أن أعمل ، فكنت أغرق عندئذ في معجون صغير قدر مراء متخف • كان خنقي المتصل وغيظي المستمر يجعلان أهوائي جامحة حارة واخزة • وكانت اندفاعاتي المحمومة تؤدي بي الى نوبات عضوية تصاحبها دموع وتشنجات • لا شيء حولي يستطيع أن يفرض عليَّ احتراماً له وأن يجذبني اليه • كان قلق غامض يجتاح نفسي ويفرقني في لحيه • كنت أشعر بظماً هستري الى التناقضات والتعارضات والتضاربات ، فكنت ألقى بنفسي الى الفسق والمجون •

لست أقول هذا كله لأبريء نفسي ••• ومع ذلك !••• لا ! انني أكذب • فانما أنا أردت أن أعذر • ولكنني لنفسي انما أسوق هذه الملاحظة • انني لا أريد أن أكذب • لقد قطعت على نفسي عهداً بذلك •

كنت أتسلل الى عند النساء خلصةً ، وأنا أشعر بعارٍ لا يبارحني قط ، حتى في أحط اللحظات ، فيغيظني ويخرجني عن طوري الى حد الجنون • منذ ذلك الحين كانت نفسي تحمل في ذاتها قبوها • كنت أخاف خوفاً شديداً قوياً أن يصادفني وأن يعرفني أحد ، فكنت لذلك أذهب الى أحقر المواخير وأقذرها •

وفي ذات مساء ، بينما كنت أمر أمام مطعم صغير ، شهدت من خلال النوافذ المضاء معركةً بعصى البلياردو بين لاعبين ، ورأيت أحدهم يرمى من النافذة • لو قد شهدت ذلك في لحظة غير تلك اللحظة ، اذن لشعرت منه بتقزز ، ولكنني كنت في تلك اللحظة على حال نفسية خاصة جعلتني أحسد ذلك السيد الذي طُرد تلك الطردة على هذا النحو • وقد بلغ شعور الحسد هذا من القوة في نفسي أنني دخلت المطعم وولجت الى

صالة البلياردو ، قائلاً لنفسى : « من يدري ؟ قد أثير أنا أيضاً شجاراً طيباً كذلك الشجار فأفلح فى أن أحملهم على القائي من النافذة ! » •

لم أكن سكران ، ولكن ماذا تريدون ؟ لقد أفقدنى الضجر والسأم والقلق والخوف عطفى فصرت كالمجنون • ولكن الذى حدث هو أننى لم أستحق حتى أن أرمى من النافذة ، فخرجت دون أن أفلح فى الاقتال مع أحد •

ذلك أن ضابطاً قد ردّنى منذ البداية •

لقد وقفت قرب مائدة البلياردو ، وأخذت أزعج اللاعبين وأنا لا أعرف منهم أحداً • وأراد الضابط أن يمر ، فأمسكنى من كتفى ، وأبعدنى دون أى شرح ، دون أن ينطق بكلمة ، ومرّ كأنتى لا وجود لى • كان يمكن أن أغفر له لطمات يكيلها لى ، ولكن الشيء الذى لم أطق احتماله هو أنه أبعدنى صامتاً بغير كلام •

لقد كنت على استعداد لأن أهب كثيراً فى سبيل أن أظفر بمشاجرة نظامية ، باقتال لائق ، باختصاص أدبى ان صح التعبير • ولكننى عوملت كما تعامل ذبابة • كان الضابط طويل القامة ، وكنت أنا قصيراً هزيراً •

والله كما لا أقدر إلا أن أفسح المجال لأحد

من الأيام ، رغم أنني كنت طوال حياتي أخاف ، أفعال ، أخاف ، المصالح .

ولكن حسبكم ضحكاً ! إن لهذا تفسيراً . إن عندي تفسيرات لجميع الحالات .

أوه ! ليت ذلك الضابط كان واحداً من أولئك الناس الذين يرتضون أن يقتلوا في مبارزة ! ولكن لا ! إنه واحد من أولئك السادة (وقد زال نموذجهم منذ زمن طويل وأسفاه !) الذين يؤثرون أن يستعملوا عصيًّ البلياردو أو أن يشتكوا إلى رؤسائهم على أن يتبعوا طريقة الملازم بيروجوف الذي حدثنا عنه جوجول * . إن هؤلاء لا يقتلون في مبارزة ، ولا سيما حين يكون شأنهم مع أمثالنا نحن معشر المدنيين الساكنين . انهم يعدون المبارزة أمراً غير لائق ، يعدونها موضحة فرنسية ، يعدونها دليلاً على روح لبرالية . ولكن هذا لا يمنعهم ، ولا سيما إذا كانوا طوال القامة أقوياء الجسم ، من أن يهينوا غيرهم في سخاء .

ليس الخوف هو الذي حملني على الانصراف ، بل الغرور والخيلاء . لم أخف من طول قامة هذا الضابط الذي أهانتني ، ولا من اللطمات التي كان يمكن أن تُكّال لي ، ولا من أن أُطرد بالقائي من النافذة . ليست الشجاعة الجسمية هي التي أعوزتني ، ولكن شجاعتى الروحية هي التي لم تكن كافية . لقد خفت أن يأخذ جميع الحضور بالضحك مني إذا أنا رفعت صوتي محتجاً وكلمتهم بلغة أدبية أقول جميع الحضور ، ابتداءً من ذلك الضابط الوقع وانتهاءً بذلك المستخدم المتبشّر الوجه الفاسد الدم القذر الياقة الذي كان يحوم حول اللاعبين منهمكاً . ذلك أن المرء في بلادنا لا يستطيع أن يتكلم عن « نقطة الشرف » (لا عن الشرف ، بل عن « نقطة الشرف ») * ، إلا إذا هو استعمل لغة أدبية . أما باللغة العادية فلا يستطيع المرء أن يبحث نقطة الشرف وأن يناقش فيها . كنت على

يقين كامل (هأتم أولاء ترون أن الرومانسية لا تنفي الحب الواقعي)
 من أنهم سيفطسون من فرط الضحك ، وان الضابط لن يكتفى بأن
 يضربني ، وانما هو سيجعلني أدور حول البلياردو ركلاً برجليه ، ثم قد
 يشفق عليّ بعد ذلك فيلقيني من النافذة • واضح أن هذه القصة الشقية
 لا يمكن أن تنتهي معي أنا الا على هذه الصورة •

وقد التقيت بهذا الضابط مراراً بعد ذلك في الشارع ، فلاحظته
 وأحسنت ملاحظته • ترى هل عرفني هو ؟ لا أدري ! أغلب الظن أنه
 لم يعرفني • أستنتج ذلك من بعض القرائن • أما أنا فكنت أتفحصه بكرة
 شديد ، وحق مسعور • ودام ذلك عدة سنين • نعم يا سادتي ! بل كان
 كرهى يزداد حدة وشدة مع الزمن • أخذت في أول الأمر أجمع بعض
 المعلومات عن شخصه خفية • وقد كلفني ذلك عناءً كبيراً ، لأنني لم
 أكن أشرف أحداً ، لم أكن أعرف هراً • ولكن حدث في ذات مرة ،
 بينما كنت أتبعه من بعيد ، مقتفياً أثره ، أن ناداه أحد باسمه في الشارع •
 وهكذا عرفت ماذا كان اسمه • وفي مرة أخرى ، رتبته جثم بته ،

واستطعت بقرشين أن أعرف من البواب في أى طابق يسكن ، ومع من
 يسكن ، الى آخر ما يمكن أن يُعرف من بواب •

وفي ذات صباح ، خطر ببالي ، رغم أنني لم أُنعن قبل ذلك بالأدب
 يوماً ، أن أصف هذا الضابط وصفاً هجائياً ، وأن أرسم لشخصيته
 صورة كاريكاتورية ، وأن أتخذه بطلاً لقصة • وغرقت في هذا العمل
 سعيداً به ، فوصفت بطلي وصفاً سيئاً ، وصورته في صورة بشعة ،
 وصبغته بألوان قاتمة ، حتى لقد أسرفت في التجني عليه • ولم أبدل
 اسمه في أول انقصة الا تبديلاً يسيراً جداً ، فاذا قرأ أصدقاؤه هذه
 القصة كان لا بد أن يعرفوا أنه هو المقصود فيها فوراً • وأرسلت قصتي
 الى مجلة « حوليات الوطن » * ، ولكن الموضة الأدبية التي كانت رائجة

فى ذلك الحين لم تكن موضة القصص الهجائى ، فلم يُتَحَ لقصتى أن
تشر ، واستأت من ذلك استياءً شديداً •

و كنت فى بعض الأحيان أكاذ اختق غضباً وسخطاً وحقاً ؛ حتى
لقد قررت أخيراً أن أدعو عدوى الى المبارزة ، فدبجت رسالةً جميلة
جداً أتوسل اليه فيها أن يعتذر لى ، فاذا رفض أن يعتذر بادرت فأشرت
اشارة واضحة جداً الى موضوع المبارزة • وقد بلغت فى تدبيج الرسالة
من حسن الاتقان وجودة الصياغة أن الضابط لو كان يملك ذرة من
الشعور « بالجمال والروعة » اذن لأسرع الى حتماً ، فارتضى على عنقى
وقدم لى صداقته ، ولكن ذلك مؤثراً فى النفس أبلغ التأثير ، ولعشنا
سعداء ، سعداء غاية السعادة !... ان هيته الجميلة المهيبة كانت ستحمينى
من أعدائى ، وان ما أنعم به أنا من ذكاء ، وما أملكه من أفكار وآراء ،
كان سيكفل لى أن أؤثر فيه تأثيراً يضى على النفس سمواً ونبلاً •
ما أكثر الأشياء التى كان يمكن أن نفعلها ! تصوروا أن هذا جرى بعد
وقوع الحادثة بستين ، وأن التحدى الذى فكرت فيه كان قد انقضى أوانه
فهو الآن سخيف مضحك رغم كل ما بذلته من حذق وبراعة فى سبيل
تعليل واخفاء ما يتصف به من أنه قد فات أوانه • ولكننى أحمد الله
(اننى ما زلت الى يومنا هذا أحمد الله داعم العينين شكراناً وعرفاناً) على
أننى لم أبعث الرسالة • ان رعدة تسرى فى جسمى متى تصورت ما كان
يمكن أن يحدث لو بعثتها •

ثم ... ثم أفلحت فجأة فى الانتقام لنفسى على نحو بسيط عبقري •
وضعت فى ذهنى فكرة ...

شديدة ونوبات أوجاع فى الكبد • ولكن لعل ذلك بعينه هو ما كنت أشده وأبتغيه فى تلك الأماكن • فكما تفعل حشرة من الحشرات ، كنت أندسُ بين المارة على نحو كريه بشع ، متحياً عن الطريق للجنرات وضباط الحرس والفرسان والسيدات الجميلات • وكنت أشعر بتقلصات حقيقية تقبض قلبى ، وبرعدات تسرى فى ظهري ، متى تصورت حقارة ملابسى ، ومتى تخيلت ما لا بد أن يكون فى شخصى الصغير المضطرب القلق من مظهر الضعة والعامية • انه لمذاب حقيقى وذل فى كل لحظة ما كان يثيره فى نفسى شعورى الواضح بأننى لم أكن بين تلك الأنافات الا ذبابة ، الا ذبابة كريهة ، ذبابة تفوق هؤلاء الناس طبعاً من حيث الذكاء والنبل ، ولكنها مهانة دائماً ، مذلة بغير انقطاع ، مضطرة الى التنحى فى كل حين •

لماذا كنت أذهب الى شارع نفسكى ؟ لماذا كنت أسعى وراء ذلك العذاب وأشده وأبتغيه ؟ لا أدرى • ولكنى كنت أشعر بأننى منجذب نحوه فأهرع اليه كلما استطعت الى ذلك سبيلاً •

كنت اذن منذ ذلك الحين أحس بنوبات التلذذ التى تكلمت عنها فى الفصل الأول • ولكن هذا الاغراء قد ازداد قوة بعد حادثتى مع الضابط • وفى شارع نفسكى انما كنت ألقاه فى أكثر الأحيان • هناك انما كنت أستطيع أن أعجب به • كان هو ايضاً يتنزه فى شارع نفسكى أيام الأعياد • وكان يتنحى كذلك للجنرات والشخصيات العليا ، ويتسلل بينهم تسلل سمكة صغيرة ؛ أما اذا كان الأمر أمر أشخاص من نوعى أو أنظف قليلاً ، فانه كان يدوسهم دوساً ، فهو يسير اليهم قدماً كأنهم لا وجود لهم ، ولا يتنحى لهم بحال من الأحوال • وكان يأكلنى حنقى وغيظى حين أراه مقبلاً ، ولكننى أتحوّل عن طريقي فى كل مرة ، ممثلاً النفس غضباً • كان يؤلمنى أن لا أستطيع ، حتى فى الشارع ،

أن أقف على قدم المساواة معه ؟ وكنت أسأل نفسي أحياناً ، في وسط الليل ، وقد تشنجت من فرط الغضب : « لماذا تكون أنت المتنحى دائماً ؟ لماذا أنت ؟ ما من قاعدة هنالك • ليس هذا مكتوباً في أى مكان • أنا أفهم أن يكون ثمة اقتسام ومشاطرة ، كما يحدث هذا بين أناس محترمين : يتنحى هو ، وتنحى أنت ، وتمران كلاكما على احترام متبادل • • مهما يكن من أمر ، فقد كنت أنا الذى أتحول عن طريقي دائماً ، أما هو فكان لا يلاحظ حتى هذا الأدب والتهذيب من جانبي • وهذه فكرة رائعة تخطر على بالي في ذات مرة • قلت لنفسي : « ماذا لو تجاسرت أن لا أتنحى له ، عامداً ، عانداً ، حتى ولو دفعني ؟ ما عسى يحدث حينئذ ؟ » • واستولت على هذه الفكرة الجريئة شيئاً بعد شيء ، وبلغت من قوة استيلائها على أنى أصبحت لا أستطيع منها فكاً • أصبحت لا أنفك أحلم بهذا اللقاء بيني وبينه ، وأصبحت أكثر من ذهابي الى شارع نفسكي بغية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفي حين سأصرف • واجتاح الفرح نفسي • صرت كلما فكرت في مشروعى مزيداً من التفكير ، ازداد اقتناعاً بأنه يمكن تحقيقه • أخذت أحدث نفسي قائلاً : « لن أدفعه دفعةً قوية بطبيعة الحال - لقد أحسن الفرح الى وطان من حدى - ولكنى لن أتحاشاه • ستنصدم ، ولكن دون أحداث ألم شديد • يكفي أن تتلامس كتفانا ، يكفي هذا حتى تراعى الواجبات وتُصان الكرامة » •

وعزمت أمرى أخيراً ، واتخذت قرارى • ولكن التحضيرات استغرقت زمناً طويلاً • كان على كل شيء أن أكون حسن الهندام أثناء تلك العملية ، فكان لا بد أن أعنى اذن بملبسى • « اذا حدثت فضيحة مثلاً (ان الجمهور في مثل تلك الساعة يكون من أكثر الناس أناقة هندام : الأمير د • • • الكونتيسة ، جميع الكتاب) ، فيجب أن

تكون حسن الملبس ؟ ان ذلك يجعل لك مهابة ، ويضعك على قدم المساواة فوراً مع أى انسان ، • ذلك ما كنت أحدث به نفسى • ولهذا اقترضت سلفةً على رواتبى واشتريت من عند تشوركين قبةً وقفازين سوداوين • بدا لى أن القفازات السوداء أحسن وقعاً وأكثر رصانةً من القفازات الليمونية اللون التى خطرت ببالى فى أول الأمر ثم رأيت أنها صارخة • فكأنتى أريد بها أن ألفت الانتباه الىّ • • هكذا عدلت عن شراء قفازين بلون الليمون • وكنت قد أعددت منذ مدة طويلة قميصاً أنيقاً له أزرار من عاج • ولكن حالة معطفى تطلبت اعدادات طويلة • لم يكن ذلك المعطف بشعاً مسرفاً فى البشاعة على وجه الاجمال ، وكان يوفر لى دفئاً كافياً • ولكنه كان مبطناً بقطن ، وكانت ياقته من فراء الفأر كمعاطف الخدم • فكان لا بد من ابدال هذه الياقة مهما كلف الأمر ، ومن تركيب ياقة من فراء الكستور كذلك التى يلبسها الضباط • مضيت أطوف بالتاجر ، واستطعت أخيراً بعد مساع مخففة وجهود عقيمة أن أعثر على نوع من كستور ألمانى قدرت أنه لن يكون باهظ الثمن • ان الكستور الألمانى ، رغم أنه ليس متيناً ورغم أنه سرعان ما يسوء مظهره ، يبدو حسناً حين يكون جديداً • وأنا لم أكن فى حاجة اليه الا لهذه المناسبة وحدها • سألت عن الثمن فاذا هو باهظ مع ذلك • فقررت عندئذ أن أبيع ياقتى المصنوعة من فراء الفأر ، وأن اقترض المبلغ الذى ما يزال يعوزنى ، وهو فى نظرى مبلغ ضخم ، أن أقترضه من أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، رئيس المكتب الذى أعمل فيه ، وهو انسان لطيف دمث ، لكنه جدى وعملى ، وكان قد أوصاه بى خيراً رجلٌ من علية القوم منذ تعيينى فى وظيفتى •

كنت أعانى هذا بشديداً وألماً رهيباً : كان يبدو لى أن من أكبر العار والحزى أن أسأل أنطون أنطونوفتش مالاً • ولبثت ليلتين أو ثلاث

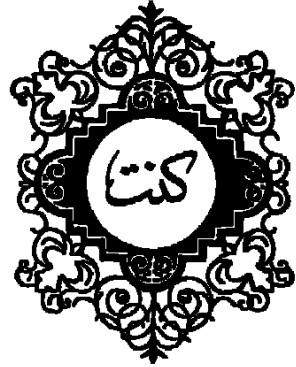
ليال لا يعرف جفناى الى الغمض سيلاً • وكنت أثناء تلك المدة كلها
لا أنام الا قليلاً جداً على كل حال • واتقبتنى حمى ، واتقبض قلبي
انقباضاً شديداً ، ثم أخذ يشب فى صدرى على حين فجأة ، يشب ، ويشب ،
ويشب •••

.....

غدا كل شيء مهيباً • حلّ الكستور الجميل محلّ فراء الفأر
البشع ، وشرعت أرتّب ، شيئاً بعد شيء ، مراحل عملى • ليس يستطيع
المرء أن يعمل منذ أول لقاء طبعاً • فلا بد من انتهاز ظرف مناسب ، لا بد
من التمهيد والصبر • ولكن بعد بضع محاولات عقيمة أخذت ألبس من

أمرى واتخذ قرارى فجأة وأنا على بعد ثلاث خطوات من عدوى •
 أغمضت عيني ••• وتصادمنا ، كنفًا بكتف ••• لم أتنح شبراً واحداً
 ••• ومررنا متحاذيين كما يمر ندان ••• ولم يقم هو بأى حركة ، حتى
 أنه لم يلفت رأسه ، وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً • ولكننى على يقين من
 أن ذلك لم يكن منه الا وضعاً مصطنعاً • وما زلت على يقين من ذلك الى
 يومنا هذا • وقد أوجعتنى الصدمة أكثر مما أوجعته طبعاً ، فهو أقوى منى
 جسماً وأصلب عوداً • ولكن هدفى قد تحقق كله • لقد أتممت كرامتى :
 لم أتنح شبراً واحداً وأجبرته على أن يعاملنى معاملة الند للند على
 رموس الأشهاد • فلما عدت الى بيتى كنت أحس بأننى تأرت تأراً تاماً
 لكل ما عانيته من مذلات • أصبحت أسبح فى الفرح • انتصرت • أخذت
 أغنى أحياناً ايطالية •

لن أصف لكم طبعاً ما حدث بعد ذلك بثلاثة أيام • اذا كنتم قد
 قرأتم الفصل الأول ، ، القبو ، ، فانه يكون سهلاً عليكم أن تتخللوا
 ما حدث • لقد نُقل الضابط بعد ذلك الى مكان آخر لا أدرى أين •
 اتى لم أراه منذ أربعة عشر عاماً • ما الذى عمله الآن ذلك صاحب
 العزيز ؟ من تراه يدوس ؟



إذا انتهت فترة الفجور والفسق أشعر باشمئزاز شديد وتقزز حاد ، وكنت أحس بالندم وعذاب الضمير ، ولكنني كنت أطردهما ، لأنهما يثيران في نفسي غثباناً . ومع ذلك فقد ألفت الأمر وتعودته قليلاً قليلاً . كنت أعتاد كل شيء ؛ أو قولوا بتعبير أصح وأدق انني كنت لا أعتاد ، وإنما أرتضى أن أحتمل كل ما يقع وأن أصبر على كل ما يحدث . ولكن كان لي مخرج أنزع اليه هو أن أهرب الى آفاق « الجمال والروعة » ، بالحلم طبعاً . كنت أغرق في الأحلام غرقاً جنونياً ، طوال ثلاثة أشهر ، قابلاً في قبوى . وصدقوني إذا قلت لكم انني كنت في أثناء تلك اللحظات لا أشبه في شيء ذلك السيد الذي كان يخطط لمعطفه ياقةً من فراء الكستور الألماني ، مضطرب القلب كدجاجة . كنت أستحيل فجأة الى بطل ، فلو طلب صاحبي الضابط ذاك أن أستقبله لرفضت استقباله في تلك اللحظات ، وما كان ليخطر ببالي هذا كله على كل حال

فماذا كانت تلك الأحلام ، وكيف كانت تكفيني وترضيني ؟ انه ليصعب عليّ أن أشرح ذلك في هذه الأيام . ولكنني أعلم أنني كنت عندئذ مكتفياً راضياً . ثم ان هذه الأحلام تكاد تكفيني حتى في هذا

الأوان • كانت تلك الأحلام تكتسى صوراً عذبة أسرة فور انتهاء نوبات فسقى وفجورى ، حينما توافيني وسط آلام الضمير ودموع الندامة ولعنات النفس وحماسات القلب • يميناً لقد كانت تمر بى لحظات تبلغ من قوة الامتلاء وكمال السعادة أن كل سخرية كانت تخرس ، فلا يبقى فى نفسى الا الايمان والأمل والحب • وفى مثل ذلك الأوان انما كنت اقتنع اقتناعاً أعمى بأننى بفضل معجزة من المعجزات ، بفضل ظرف من الظروف الخارجية ، سوف تزول من أمامى جميع المصاعب ، وسوف تهدم جميع الأسوار ، وسوف ينفسح لى ميدان عمل نافع جميل ، عمل يتصف خاصة بأنه « يمكن أن يتحقق » (لم أعرف فى يوم من الأيام ما عسى يكون ذلك العمل ، ولكن الأمر الأساسى فى نظرى هو أنه عمل متأهب لأن يتحقق كل التأهب) • وكنت عندئذ أرى نفسى مالىء الدنيا ،

مشاغل الناس ، أكلافهم ، حملاهم ، وعلمهم ، كمالهم ، الخلد

السبب أننى كنت فى الحياة الواقعية أكتفى بهذا الدور الثانوى هادئاً كل الهدوء • اما أن أكون بطلاً واما أن لا أكون شيئاً ، فلا وسط فى نظرى ، وذلك بعينه هو ما ضيعنى ، لأننى حين كنت أغوص فى الوحل كنت أعزى نفسى متذكراً أننى فى لحظات أخرى كنت بطلاً ، فكان البطل يضىء على الوحل اشراقاً مهابته ، وسطوع عظمتة : انه لمحظور على الانسان العادى أن يغوص فى الوحل ، أما البطل فانه يخلق فى ذرى تبلغ من العلو أنه لن يستطيع أن يتسخ اتساخاً كاملاً ، ففى وسعى اذن أن أتدحرج فى

مسقطة شعاعاً شاحباً ، ولكنها تعجز مع ذلك عن تبديد رغباتى وإزالة شهواتى حتى لكأنها تحرضها مزيداً من التحريض وتثيرها مزيداً من الاثارة ، بسبب ما تظهره من تضاد وتناقض هما أشبه بتوابل تجعل للطعام مذاقاً شهيماً . ان هذه التوابل تتألف من تناقضات وتبايع وتحليلات موجعة أليمة ، فهذه العذابات كلها ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، تضيف الى فجورى طعاماً حاداً محرقاتاً ، بل وتسبغ عليه شيئاً من معنى . الخلاصة أن تلك الاندفاعات انما كانت تقوم حق القيام بدور توابل لذينة بغية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفى حين سألتصرف . النكهة طيبة الطعم حتى أن ذلك كله كان لا يخلو من بعض العمق . والا فهل كان يمكننى أن أقبل فجوراً عادياً ودعارة تافهة بسيطة صادقة يترسل فيها موظف صغير ، وأن أحتمل هذه الفظاعة راضياً هادئاً ؟ كلا لقد كنت أدخر فى جعبتى دائماً طريقة نبيلة وأسلوباً رفيعاً فى مواجهة الأشياء والنظر الى الأمور .

لكن ما كان أعظم من حسرتى ، ذلك الحب الذى كنت

أشعر بنبضه فى نفسى أثناء استرسالى فى تلك الأحلام ، حين كنت أفرّ الى آفاق « الجمال والروعة » ! ورغم أن هذا الحب كان أخيلة خارقة وأوهاماً عجيبة ورغم أنه كان لا ينصب قط على أى شئ إنسانى ، فلقد كانت تفيض به نفسى فيضاً يبلغ من الوفرة أننى كنت أصبح فى غير حاجة الى ذلك التحقق الذى يكاد يكون نافلة لا قيمة لها ولا جدوى منها . وكان كل شئ ينتهى انتهاءً موفقاً جداً على كل حال . فكنت ألتفت ، فى كسل وتوان ولذة ، الى الفن ، أى الى الصور الجميلة والأشكال البديعة الجاهزة المهيأة تستمد من الشعراء والروائيين وتلائم جميع الحاجات وجميع المطالب فى سهولة ويسر .

هأنذا مثلاً انتصر على الكون بأسره فاذا بجميع الناس يسجدون

أمامى على التراب مضطرين الى الاعجاب بفضائلى الكاملة ولكنى أغفر لهم جميعاً ؟ أو هأنذا ، وقد أصبحت شاعراً مرموقاً وموظفاً فى قصر القصر ، أهيم غراماً وأصبح عاشقاً • وهأنذا ألتقى ملايين لا حصر لها ولا عدّ ، فأبادر الى تقديمها هديةً للنوع الانسانى ، معترفاً أمام الشعب المحتشد بكل ما أتصف به من عيوب مخزية ، ولكنها ليست عيوباً عادية بطبيعة الحال وانما هى عيوب فيها شيء من « جمال وروعة » ، عيوب فيها شيء « بايرونى » من نوع مانفرد • وهام أولاء جميعاً يذرفون الدموع ويعانقوننى ويقبلوننى (ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا أغبياء بلهاء) ، وهأنذا أمضى حافى القدمين جائعاً ساغباً أبشّر بالأفكار الجديدة وأفصح الرجعيين فضحاً كاملاً فى أوسترلتنس ! ثم يعزف نشيد : انه العفو العام • يوافق البابا على أن يترك روما وأن يذهب الى البرازيل • ثم تقام حفلة رقص لايطاليا كلها فى « فيللا » بورجيز التى تقع على شاطئ بحيرة كومو ، لأن البحيرة قد نُقلت الى ضواحي روما لهذه المناسبة خصيصاً • وبعد ذلك يعجى مشهد عظيم فى الأدغال ، النخ النخ ! ••• كأنكم لا تعرفون هذا كله حق معرفته ! •••

سيتولون لى انه لغباء وعار أن أحلم بهذا كله بعد الدموع الغزيرة وحالات الوجد التى اعترفت بها أنا نفسى • ولكن لماذا يكون هذا عاراً يا سادتى ؟ أتصورون حقاً أننى أستحى من هذا كله ، وأن أحلامى أشد غباءً مما وقع لكم أنتم فى حياتكم أيها السادة ؟ ثم ••• صدقونى اذا قلت لكم ان الأمور كانت مرتبةً على أحسن نحو ، لأن بحيرة كومو لم تكن وحدها مسرحاً لكل شيء ••• ولكنكم على حق مع ذلك : هذا غباء ، هذا عار ! غير أن أنكى ما فى الأمر أننى أسوّغ نفسى أمامكم • وهذه الملاحظة الأخيرة شر من ذلك أيضاً • ولكن كفى ! قد لا يفرغ المرء من هذا قط لأن المزيد من الانحدار ممكن دائماً •

وكنت لا أستطيع أن أواصل الاسترسال في الأحلام على هذا النحو أكثر من ثلاثة أشهر متتالية ، ثم أشعر بحاجة لا تقاوم الى معايشرة الناس . وكان هذا يعنى أن أزور رئيس مكتبي أنطون أنطونوفتش سيتوشكين . كان هذا الرجل ، فى حياتي ، هو الشخص الوحيد الذى قامت بنى وبينه صلات مطردة . وذلك أمر ما يزال يدهشنى الى يومنا هذا . ولكنى كنت لا أذهب إليه الا حين تكون أحلامى قد أوغلت فى البعد حتى أصبحت أحب أن أعانق الانسانية بأسرها . فكان لا بد لى عندئذ من أن ألقى انساناً واحداً على الأقل ، من لحم ودم . على أن أنطون أنطونوفتش كان لا يزور الا فى يوم الثلاثاء ، فذلك هو اليوم الذى يستقبل فيه الناس ، فكان على اذن أن أوقف بين ظمئى الى معانقة البشر وبين ذلك اليوم بعينه .

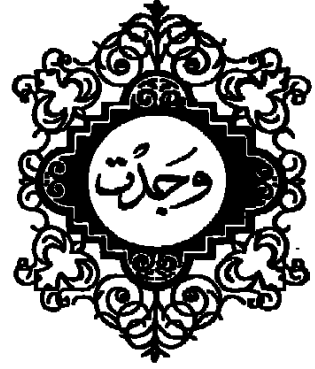
كان أنطون أنطونوفتش هذا يقيم فى شارع « الأركان الخمسة » ، وكان بيته يقع فى الدور الثالث ، ويتألف من أربع غرف صغيرة جداً ، واطىء سقفها ، فقيرة المظهر ، مصفرة اللون . وكان له ابتتان وعمة تهيء المائدة وتخدم الضيوف . والبتتان تبلغ احدهما من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وتبلغ الثانية أربعة عشر . وكان أنف كل منهما أقنى . كانت هاتان البتان تيران فى نفسى الحجل والوجل كبيراً ، لأنهما لا تكفان عن التهامس ، وتطلقان ضحكات مخنوقة من حين الى حين . ان رب البيت يستقر عادةً فى حجرة عمله جالساً على كنبه كبيرة من جلد ، أمام مائدة مستديرة ، فى صحبة سيد محترم هو موظف من موظفى وزارتنا . لم ألتق هنالك فى يوم من الأيام بأكثر من شخصين أو ثلاثة أشخاص لا يتغيرون . والحديث انما يدور على مناقصات وجلسات ومرتببات وتعيينات . ويتحدث المتحدثون عن صاحب المعالي ، ووسائل الارضاء وما الى ذلك . ولقد كنت أصبر على البقاء مع هؤلاء الناس كحطبة خلال

ثلاث ساعات ، لا أجسر ولا أستطيع أن أكلمهم فى أى أمر • كنت أحس أننى عدت فأصبحت غيباً بليداً ، وكان العرق يتصبب منى ، وكنت أشعر أننى سأصاب بشلل • ولكن ذلك كان يعود علىّ بنفع ، فأتى ما ان أرجع الى منزلى حتى أكون قد عدلت ، الى حين ، عن رغبتى فى ضمّ الانسانية كلها بين ذراعىّ •

وكان لى صاحب آخر أيضاً هو سيمونوف ، أحد رفاقى القدامى فى المدرسة • وكان فى وسعى ، على كل حال ، أن أعثر على عدة أشخاص من قدامى رفاق المدرسة فى بطرسبرج ، ولكنى كنت قد انقطعت عن رؤيتهم ، حتى لقد كففت عن تَحِيَّتِهِمْ فى الشارع ؛ وربما كان حرصى على تحاشيهم وتجنبهم وقطع الصلة بجميع ذكريات طفولتى الكريهة هو الذى جعلنى ألتحق بوظيفة فى وزارة أخرى • لعنة الله على تلك المدرسة ، وعلى تلك السنين القاسية التى عشتها فيها كما يعيش سجين فى سجن ! الخلاصة ... • لقد قطعت الصلة بجميع رفاق المدرسة منذ أنهيت دراستى ، وأصبحت لا أحبى منهم الا اثنين أو ثلاثة ، وكان أحد هؤلاء سيمونوف هذا الذى لم يكن يتميز فى المدرسة بشئ • وكان حلو الحصال متساوى المزاج ، ولكنى كنت أحترمه لما يتمتع به من استقلال الطبع واستقامة الخلق • حتى اننى لا أعتقد أنه كان غيباً غباء شديداً جداً • وقد عشنا معاً لحظات جميلة • ولكن علاقاتنا الحسنة لم تدم طويلاً ، لأن نوعاً من ضباب قد غشيها على حين فجأة • ومما لا شك فيه أن ذكراها كانت تزعج سيمونوف الذى كان يخشى دائماً أن تعود صلاتنا الى ما كانت عليه • حتى لقد كنت أحس أنه ينفر منى بعض النفور ويشمئز بعض الاشمئزاز ، ولكنى لعدم تأكدي من ذلك كنت ما أزال أذهب اليه بين الفينة والفينة •

وهنا ذا أعجز فى ذات يوم من أيام الخميس عن احتمال العزلة

مزیداً من الاحتمال، فأتذكر سيمونوف لعلمي بأن منزل أنطون أنطونوفتش
 مغلق في أيام الخميس • وفيما أنا أصعد السلم المؤدى الى مسكنه في الدور
 الرابع ، اذا بي أتصور أن حضوري سيزعج هذا السيد ، وأتنبأ أخطأت
 اذ فكرت في المجيء اليه • ولكن لما كانت أمثال هذه الخواطر لا تزيد على
 أن تحضني على التماس المواقف الملتبسة الحرجة ، فقد دخلت عليه دون
 تفكير ، وكنت قد انقطعت عن زيارته منذ سنة •



عنده اثنين من قدامى رفاقي في المدرسة • كان يبدو عليهم أنهم يتكلمون في أمر هام • لم يظهر أحد من الرفيقين أي اهتمام بدخولي الذي كان يدعو الى الاستغراب حقاً ، لأننا لم نكن قد التقينا منذ سنين • كان واضحاً أنهما يعداني شخصاً تافهاً لا قيمة له البتة ، كذباً • لم أكن أعمل هذه المعاملة في المدرسة ، رغم أنني كنت فيها مكروها • ولقد أدركت على كل حال أنهما لا بد أن يحتقراني بسبب اخفاقي في الحياة والعمل ، وكذلك بسبب مظهرى الزرى ، بسبب ثيابى العتيقة البالية التى كانت فى نظرهم دليلاً واضحاً على عجزى ، وعلامة جليلة على ما أنا فيه من حال بائسة • ومع ذلك لم أكن أتوقع أن أحتقر احتقاراً واضحاً هذا الوضوح كله • أما سيمونوف فقد ظهرت عليه دهشة شديدة من دخولى • على أنه قد دُهِش من زيارتى مراراً قبل ذلك • وشعرت من هذا كله بضيق وخرج • وجلست منزعجاً بعض الانزعاج ، وأخذت أصغى الى ما كانوا يقولونه •

كانوا يتناقشون بلهجة جادة ، بل وبشيء من الحرارة ، فى موضوع حفلة عشاء وداعية كان هؤلاء السادة يريدون أن يقيموها معاً لواحد من رفاقهم اسمه زفر كوف ، وهو ضابط سيسافر الى الأقاليم • كان السيد زفر كوف أحد رفاقي فى المدرسة هو أيضاً ، وكنت قد أخذت أكرهه منذ

ذلك الحين ، ولا سيما في الصفوف العليا . انه حين كان طفلاً صغيراً لم يكن الا صيياً مهذباً مرحاً يحب الجميع . أما أنا فلم أكن أحبه ، لا لسبب الا أنه كان مهذباً . وكانت دراسته منذ البداية متعثرة ، وأصبح نادداً كسلاناً في الدراسة مع الوقت . ومع ذلك أنصرت الدراسة

بنجاح ، لأنه كان ذا سند يحميه . وفي ختام حياته الدراسية ورث أرضاً ومائتي قن ؛ واذ كنا جميعاً فقراء تقريباً فقد أخذ يصطنع بيننا مظاهر العظمة . لقد كان زفر كوف في ذلك الحين صيياً تافهاً ولكنه كان طيب القلب مع ذلك . ورغم أن عواطف الشرف ومشاعر الكرامة كانت تتخذ في مدرستا في بعض الأحيان صوراً عنيفة فيها كثير من التفاخر الكلامي ، فإن جميع التلاميذ ، باستثناء عدد قليل منهم ، قد أخذوا يتقربون منه ويتوددون اليه ، فكان هذا يحضه على اصطناع المزيد من مظاهر التعاطف . ولكن لئن كانوا يدورون جميعاً حوله ويحتفلون به ، فإن ذلك لم يكن منهم سعياً الى فائدة وشهداً لمنفعة ، بل لمجرد أن الطبيعة قد خصته نعمها وأغدقت عليه . ثم ان جميع التلاميذ كانوا يعدون زفر كوف

هو ما كان يفيظني خاصة . كنت أكره الصوت الحاد في كلامه الممتلئ دائماً بالثقة ، وكنت أكره كلماته الفكاهية التي كان يبدو راضياً عنها كل الـ . ولكنها كانت غسة سخيفة ، رغم أنه حينه في كلامه متحلاً ، غير

الصبر) ، ولما يمتنى نفسه بالقيام به من مبارزات • ما زلت أتذكر أنني قطعت صمتي في ذات مرة ، فشاجرت زفر كوف مشاجرة عنيفة ، وذلك حين كان يحدث رفاقه عن مغامراته الغرامية القريبة ، فوصل من الاقتان الى درجة أصبح فيها أشبه بكلب صغير يتدحرج في الشمس ، فأعلن فجأة أنه لن يفوت أية فلاحه من الفلاحات الصبايا في أراضيه ، لأن ذلك « حق من حقوق السيد على ألقانه » ، فاذا تجاسر الفلاحون فاحتجوا جلدهم بالسياط وضاعف الضرائب على هؤلاء « الأوغاد الملتحين » • صفق رفاقنا الجبناء لكلامه • فابتريت أنا أهاجمه هجوماً عنيفاً ، لا من باب الشفقة على البنات وآبائهم ، وإنما لمجرد أن هذا الانسان الحشرة قد صفقوا له ذلك التصفيق • وقد انتصرت في تلك المرة • ولكن زفر كوف كان رغم غباوته مرحاً ووقحاً ، فاستطاع أن يجتذب الضاحكين الى صفه ، وبلغ من النجاح في ذلك أن انتصاري لم يكن كاملاً في حقيقة الأمر : فقد أصبح الضاحكون يضحكون عليّ أنا • وقد انتصر عليّ مراراً بعد ذلك ، دون خبت أو شر ، وإنما مازحاً ضاحكاً • أما أنا فكنت ألزم الصمت احتقاراً وازدراء • وحين أنهينا دراستنا تودد الى بعض التودد ، فلم أرفض هذا التودد ، لأنه قد أَرْضَى غروري ، ولكننا لم نلبث أن افترقنا افتراقاً طبيعياً • وسمعت بعد ذلك عن نجاحه ضابطاً ، وعن « الحياة المرحية » التي كان يعيشها • ثم علمت شيئاً آخر هو ترقّيه السريع • وأصبح اذا رآني في الشارع لا يحينني ، فقدّرت أنه لا يريد أن يعرّض سمعته لسوء بالقاء التحية على امرئ يبلغ من الضعة ما أبلغ • وقد رأيته مرة في المسرح أيضاً ، في شرفات الدور الثالث ، مزدان الصدر بالأوسمة منذ ذلك الحين ، منهمكاً حول بنات جنرال عجوز • ثم لم أره بعد ذلك خلال ثلاث سنين • وقد تغير أثناء هذه المدة تغيراً

كبيراً ، ولكنه رغم سمته الشديدة ، قد احتفظ بجمال وجهه وأناقته
حر كاته وآدابه • وأغلب الظن أنه سترهل حين يبلغ من عمره الثلاثين •
ان زفر كوف هذا هو الذى عيّن اذن فى الاقاليم ، وهو الذى يريد
رفاقه أن يقيموا له حفلة عشاء وداعية • وهم لم يقطعوا علاقاتهم به ، رغم
أنهم لا يعدون أنفسهم أنداداً له ، أنا واثق من ذلك •

ان أحد ضيفى سيمونوف يسمى برفتشكين • انه روسى من أصل
ألماني ، قصير القامة له وجه قرد • وهو غبى يسخر من جميع الناس ،
وقد كان ألد أعدائى فى المدرسة منذ الصفوف الدنيا • انه متحذلق وقع
يتظاهر بفرط الحساسية وشدة الشعور بالكرامة ، ولكنه ليس فى حقيقته
الا جباناً رعيدياً • وكان واحداً من أولئك المعجبين بزفر كوف ، يتقرب
منه ويتزلف اليه ويتملقه ، وذلك لهدف عملى نفعى ، فكثيراً ما كان
يقترض منه بعض المال •

أما الثانى ، واسمه ترودوليوبوف ، فليس فيه أى شىء بارز يلفت
النظر • هو عسكري فارع الطول ، قوى البنية ، بارد الوجه • ولئن كان
شريفاً مستقيماً ، فانه يحترم النجاح أياً كان ، وينحنى له ، ولا يجيد
الكلام فى شىء غير التعينات والترقيات وما الى ذلك • وهو يمت الى
زفر كوف بقراءة بعيدة ، وكان ذلك يصفى عليه فى نظرنا شيئاً من مهابة ،
مهما يظهر هذا سخيلاً • وكان ينظر الى نظرتة الى شخص تافه لا قيمة
له ، ولكنه يعاملنى معاملة مقبولة محتملة ، ان لم أقل رقيقة مهذبة •

قال ترودوليوبوف :

— فاذا كان ما سيدفعه كل واحد سبعة روبلات ، كان المجموع
واحداً وعشرين ما دمنا ثلاثة • وبهذا المبلغ نستطيع أن نصيب عشاءً
مناسباً • ولن يدفع زفر كوف شيئاً بطبيعة الحال •

فأجاب سيمونوف قائلاً :

- طبعاً ، ما دمنا ندعوه الى العشاء دعوة •
فتدخل برفتشكين يقول بلهجة متعالية وقحة ، كخادم سفيه يتباهى
بأوسمة سيده :

- كيف تستطيعون أن تصدقوا أن زفر كوف يقبل أن تدفع النفقات
وحدنا ؟ سوف يقبل دعوتنا من باب اللباقة والكياسة ، ولكنه سيأمر لنا
بشمبانيا ، بست زجاجات حتماً •

قال ترودوليوبوف الذى لم يظن الا الى عدد الزجاجات :

- ست زجاجات ؟ هذا كثير على أربعة أشخاص •
وقال سيمونوف الذى اختير منظماً للحفلة ، قال يلخص الموضوع :
- نحن اذن ثلاثة ، فاذا أضفنا زفر كوف كان المجموع أربعة •
والمبلغ واحد وعشرون روبلاً ؟ والمكان « فندق باريس » ، والموعد غداً
فى الساعة الخامسة •

هتفت أقول منفعلاً بعض الانفعال وأنا أشعر بشيء من اهانة
ألحقت بى :

- لماذا واحد وعشرون ؟ اذا عدتمونى أنا كان المبلغ لا واحداً
وعشرين روبلاً بل ثمانية وعشرين •

لقد خيل الى اننى اذا عرضت نفسى على هذا النحو فجأة فلا بد
آن أحدث أثراً حسناً ، ولا بد أن أنتصر عليهم بسخائى وكرمى ،
ولا بد أن ينظروا الى نظرة اعجاب •

- أتريد حقاً أن تشاركنا ؟

كذلك سألتى سيمونوف مستاءً ، وكان يتحاشى أن ينظر الى لأنه
كان يعرفنى على ظهر القلب •

أغاضنى أن يعرفنى هذه المعرفة الكاملة • فهتفت أقول بصوت أجش :

– لم لا ؟ يخيّل الىّ أنتى كنت رفيقه أيضاً ، واننى لأعترف لكم بأننى قد ساءنى أن لا يُحسب حسابى وأنّ أُنحىّ جانبا •

تدخل ترودوليوبوف يقول فى خشونة :

– أين كان يمكننا أن نعر عليك ؟

وأضاف يقول وقد احتقن وجهه :

– ثم انك لم تكن على علاقة طيبة بزفر كوف فى يوم من الأيام •
غير أنتى كنت قد اندفعت وتورطت فقلت بصوت مرتعش ، كأن الأمر على جانب عظيم من خطورة الشأن :

– أحسب أنه ليس يحق لأحد أن يقضى فى هذا الأمر •• ولعلنى ،
لأننا لم نكن على علاقة طيبة ، انما أريد الآن أن •••
قال ترودوليوبوف ساخراً :

– من ذا الذى يستطيع يوماً أن يفهمك ••• وأن يفهم أفكارك
العالية ؟•••

قال سيمونوف يحسم الأمر وهو يلتفت نحوى :

– سنسجل اسمك • غداً ، الساعة الخامسة ، فى « فندق
باريس » ، ••• لا تنس فتخطى •••

قال فرفتشكين بصوت خافت وهو يومئ لسيمونوف الىّ :

– والمال ؟

ولكنه توقف عن الكلام فجأة ، لأن سيمونوف نفسه انزعج •

قال ترودوليوبوف وهو ينهض :

ـ كفى ! ما عليه الا أن يأتي اذا كان يرغب في ذلك الى هذا الحد .

فقال فرفتشكين حائقاً أشد الحلق :

ـ ولكن الجو سيكون جوَّ أصدقاء • ليس هذا اجتماعاً رسمياً ،
ومن الجائز أن لا نكون راغبين في حضورك ...

وخرج الرجلان • حتى أن فرفتشكين لم يسلم على حين خرج •
أما ترودوليوبوف فانه انحنى برأسه انحناء خفيفة دون أن ينظر الى •

وبقيت وحدي مع سيمونوف ، فكان يبدو عليه الاضطراب والحيرة
والضيق والارتعاج ، وكان ينظر الى نظرة غريبة ؛ ثم انه لم يجلس
ولا دعاني أن أجلس •

ثم قال بسرعة وخجل :

ـ همّ ••• نعم ••• الموعد غداً ••• هل تدفع المال اليوم ؟ اننى
ألقى عليك هذا السؤال من باب التأكد •

فاحمر وجهى غضباً • ولكننى ، وقد احمر وجهى غضباً ، تذكرت
اننى مدين لسيمونوف بمبلغ خمسة عشر روبلاً منذ عهد قديم موغل
فى القدم ، وذلك أمر ما نسيتَه فى يوم من الأيام على كل حال •
قلت له :

ـ لا بد أن تقدر يا سيمونوف أننى حين جئت الى هنا لم أكن أتنبأ
بأن ••• ويؤسفنى أننى نسيت أن •••

ـ نعم نعم ، لا ضير ••• ستدفع غداً • أنا لم أقل ما قلت الا لأعلم
على وجه اليقين أنك ••• أرجوك أن •••

وتوقف عن الكلام ، وأخذ يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً ، بينما كان يزداد ضيقه وانزعاجه ، وكان يقرع أرض الغرفة بكعبيه قرعاً قوياً .

سأله بعد بضع دقائق من صمت :

— ألسـت أحـجزك عن الخـروج ؟

فأجاب يقول كمن يثوب الى نفسه فجأة :

— لا ، لا ...

ولكنه أضاف يقول خجلان بصوت المعتذر :

— الحق أن علىّ أن أذهب الى ... ليس المكان بعيداً عن هنا ...

فهتفت أقول وأنا أتناول قبعتي بحركة منطلقة لا يدري الا الله من أين وافقتي :

— أوه ! ولكن لماذا لم تذكر لي ذلك ؟

فكرر سيمونوف يقول وهو يشيعني بانهماك لا يناسبه :

— ليس المكان بعيداً عن هنا ... هو على مسافة خطوتين لا أكثر .

وصاح يقول لي على السلم :

— اذن الى الغد ... الساعة الخامسة تماماً .

وكان يبدو عليه أنه سعيد حقاً بانصرافي . أما أنا فكنت مغتاضاً مخفياً .

تباً لي ! ما كان أغناني عن التورط في هذه الحكاية ! وأخذت أصرف باسنانني وأنا أقطع الشارع بخطى كبيرة . ومن أجل من ؟ من أجل هذا التحذير زفر كوف ! لن أذهب حتماً ! انني أبصق عليه ! لا شيء يجبرني

على الذهاب الى الموعد • سأنبئ سيمونوف بذلك فى رسالة أبعث بها
إليه •

ولكن الشئ الذى كان يؤجج حلقى هو أننى كنت أعلم أننى
سأذهب الى الموعد ، وأننى سأحث خطاى إليه على قدر ما فيه من مجافاة
للعقل ، وقرب من السخف الذى يبعث على الضحك !

على أن هناك عائقاً واقعياً جداً ، هو أننى لا أملك مالا • كان كل
ما معى تسعة روبلات على أن أدفع سبعة منها فى الغد لخدمى آبولون
الذى كان يأكل على نفقته طبعاً •

وأنا أعرف طبع آبولون ، وأعرف أننى لا أستطيع أن أستمهله وان
أحمله على الانتظار • لا بد أن أحسبك فى يوم من الأيام عن هذا

الوعد ، عن هذا الطاعون ! - ومع ذلك كنت أعلم أننى لن أدفع له
أجره ، وأننى سأذهب الى العشاء •

رأيت فى تلك الليلة أحلاماً فظيعة • ولا غرابة فى هذا ، فقد
عذبتنى طوال نهارى ذكرى سنى المدرسة التى كانت لى بمشابة سجن
خائق • كان قد أودعنى فى تلك المدرسة أقرباء بعيدون ، أقرباء كنت
رهناً بهم وعالة عليهم ، ثم لم أرهم بعد ذلك ولا عرفت عنهم شيئاً قط •
لقد ألقونى فى تلك المدرسة يتيماً يشعر بالألم والعذاب منذ ذلك الحين ،
طفلاً حالماً صموتاً يلقي على كل ما حوله نظرات متوحشة • واستقبلنى
رفاقى بسخرىات خبيثة شريرة ، لأننى لم أكن أشبه أحداً منهم • ولكننى
لم أستطع أن احتمل السخرىات ، ولم أستطع أن أفهم بسهولة كما كان
يألف بعضهم بعضاً • فأخذت أكرهم اذن منذ البداية ، وانطويت على
نفسى فى خيلاء وجلة جريحة لا حدود لها • كانت فظاظتهم تثير فى نفسى
التمرد • كانوا يضحكون ضحكاً ساخراً مستهتراً ، من وجهى ومن

مظهري الأخرق الثقيل • ولكن ما كان أشد الغباء الذى يبدو فى وجوههم هم ! ان الوجوه فى مدرستنا كانت تتغير وتنحط ، فسرعان ما تغبر عن بلاهة • ما أكثر الاطفال الحسان الذين رأيتهم يدخلون هذه المدرسة ! فما هى الا بضعة سنين حتى كانت تكتسى وجوههم طابعاً منفراً كريهاً • كنت منذ السادسة عشرة من عمرى أفرس فيهم قوى الاستطلاع مظلم النفس : فكانت تفاهة آرائهم وسخافة اهتماماتهم وحماسة أحاديثهم وبلادة ألبابهم ، كان ذلك كله يخطف بصرى ويشير دهشتى • واذ كانوا يعجزون عن فهم بعض الأشياء الهامة جداً ، واذ كانوا لا يتبهون أى انتباه الى أمور خاصة جداً ، فقد أصبحت أعد نفسي ، رغم ارادتى ، أعلى قدراً وأرفع منزلة • ولم يكن ذلك منى ثمرة الكرامة الجريئة والغرور المهان ! ناشدتكم الله أن لا تزعجونى بذلك الاعتراض الذى شبعتنا منه حتى أصبح يثير فىنا الغشيان وهو القول بأننى كنت لا أزيد على أن استرسل فى الأحلام وأغرق فى التهاويل ، بينما كانوا ، هم ، يملكون الاحساس بالواقع منذ ذلك الحين • لا ! لقد كانوا لا يفهمون شيئاً ، وكانوا لا يملكون أى احساس بالواقع ••• ويميناً لقد كان هذا بعينه هو ما يغيظنى فيهم أكثر من أى شئ آخر • بالعكس : كانوا يستقبلون أوضح واقعة من الوقائع على أغبى نحو خيالى ، ولو كانت تلك الواقعة تفاقماً الأعين ان صح التعبير ؟ وكانوا قد اعتادوا منذ تلك السن أن لا يحترموا الا النجاح وأن لا ينحوا الا له • كانوا يسخرون سخرأ غيباً قاسياً من كل ما هو حق وعدل متى كان مهجوراً مُذلاً • كانوا يحترمون الرتب أكثر مما يحترمون الذكاء ، وكانوا منذ السادسة عشرة من أعمارهم لا يحلمون الا بمناصب لا تقتضيهم عملاً • لا شك أن غباوتهم كان لها دخل كبير فى هذا ، وكذلك القدوات السيئة التى أحاطت بهم فى طفولتهم وشبابهم • ولكن لا شك أيضاً أن فى هذا جانباً خارجياً وأوضاعاً

استخفافٍ واستهتارٍ مصطنعة ، فكانت نضارة شبابهم تتراءى بالشفافية رغم كل شيء من وراء انحطاطهم في بعض الأحيان • ولكن نضارتهم هذه نفسها لم تكن جذابة فيهم ، لأنها كانت تتجلى بنوع من الشهوانية الفظة الغليظة . فكنت أكرههم وأمقتهم ، رغم أنني ربما كنت شراً منهم وأخبت . وقد بادلونى كرهاً بكره ومقتاً بمقت ، وكانوا لا يخفون حتى اشمئزازهم منى • ولكننى كنت قد كفت عمن التفكير فى صداقتهم ، وأصبحت ، خلافاً لذلك ، لا أطلع الا الى اذلالهم •

ومن أجل أن أتخلص من سخرياتهم أخذت أجد واجتهد ما وسعنى الجد والاجتهاد ، فأصبحت فى المدرسة بين الأوائل ، وفرضت بذلك عليهم مهابتى ؛ وأدركوا جميعاً على وجه التقريب أنني قد قرأت كتباً ما كان فى وسعهم أن يعرفوها بعد ، وأتتني أفهم أموراً كانت ماتزال غريبةً عنهم كل الغرابة (أموراً لا شأن لها بدروسنا الخاصة) • لاحظوا ذلك بدهشة ساخرة ، ولكنهم أصبحوا يهابوننى ويراعون حرمتى ، لا سيما وأن ما حصلته من معارف قد لفت الى أنظار معلمينا أيضاً • فانقطعت السخريات اذن ، غير أن الكره ظل باقياً ، وقامت بيننا علاقات باردة رسمية •

وضقت ذرعاً أنا نفسى آخر الأمر : لقد أصبحت أشعر مع انقضاء السنين بحاجة الى أن أمضى الى البشر وأن يكون لى أصدقاء • فحاولت أن أتقرب من بعض رفاقى • ولكن علاقاتنا كان فيها دائماً شيء مزيف مصطنع كاذب ، فسرعان ما انتهت وانقطعت • ومع ذلك أصبح لى صديق فى ذات مرة • ولكن نفسى كانت طاغية مستبدة منذ ذلك الحين ، فكنت أريد أن أسيطر على فكره سيطرة تامة ، وكنت أريد أن أفرض عليه احتقار من يحيطون به ، وكنت أطلب منه أن يقطع الصلة ببيئته قطعاً حاسماً فيه كثير من الأنفة والكبرياء • فأرعبته صداقتى الجامحة العنيفة

هذه ، وروَّعته الى حصد الدموع ، الى حد التشنيج • وكان فتى ساذج الطبع جواد النفس كريم الخلق • فما ان وهب لى ذاته كاملة حتى كرهته ونبذته • فكأننى لم أكن فى حاجة اليه الا من أجل أن أحقق نصراً ومن أجل أن أصبح سيِّده • ولكننى لم أستطع أن أتصر عليهم جميعاً • وكان صديقى هذا لا يشبه أحداً منهم ، وانما كان استثناءً نادراً •

وما ان أنهيت دراستى حتى كان أكبر همى أن أترك المهنة التى تهيأت لها ، وذلك حتى أقطع جميع الصلات وأحطم جميع الروابط ، وحتى أستطيع أن ألعن الماضى وأن أهيل عليه التراب ••• ولا يدرى الا الشيطان لماذا ظلت أذهب بعد ذلك الى سيمونوف هذا •

استيقظت فى صباح الغد مبكراً ، فنهضت عن سريري مضطرباً أشد الاضطراب ، كأن موعد العشاء قد أزف فوراً • ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لا بد أن يحدث فى ذلك اليوم نفسه ، بل وأنه سيحدث فى ذلك اليوم نفسه تبدل أساسى وتغير جذرى فى حياتى • ولعل مرد ذلك الى قلة التعود • ومهما يكن من أمر ، فأننى كنت طوال حياتى أتوقع دائماً ، عند حدوث أى حادث مهما يكن تافهاً ، أتوقع أن يقع لحياتى تبدل أساسى وتغير جذرى •

وذهبت الى المكتب كما كنت أذهب اليه كل يوم ، ولكننى غادرته قبل موعد مغادرته بساعتين ، بغية أن أستعد وأن أتهيأ • قلت لنفسى : « يجب خاصة أن لا أصل أول الواصلين ، حتى لا يتخللوا أننى نافذ الصبر » • ولكن كانت تشغلنى كذلك هموم أخرى كثيرة غير ذلك الهم ! وبلغت فى ذلك من الاضطراب ما أعينى وأوهن قواى الى أقصى حدود الوهن •

نظفت حذاءى مرة أخرى : ما كان لآبولون أن يرضى بحال من الأحوال أن يلمعها لى مرتين فى يوم واحد ، لاعتقاده بأن ذلك يثبت الاضطراب والفوضى فى عمله . ومن أجل أن أنظف حذاءى مرة أخرى اضطررت أن أختلس الفرشاة من حجرة المدخل اختلاساً حتى لا يلاحظ آبولون أننى أتولى تنظيف حذاءى بنفسى فيزدرينى ويحتقرنى . ثم فحصت ملابسى تفصيلاً فلاحظت أن كل شىء كان عتيقاً بالياً مهترئاً . ذلك أننى قد تعودت فرط الإهمال حقاً ! لعل بزتى كانت ما تزال حسنة لائقة ، ولكن لم يكن فى وسعى أن أذهب الى العشاء مرتدياً بزة . والأنكى

أتنبأ منذ تلك اللحظة أن هذه البقعة ستذهب بتسعة أعشار مهابتى . ولكننى كنت أعلم أيضاً أن التفكير على هذا النحو فيه حطة وصغار ، وعامية وابتذال . . . » على أن الأمر الآن ليس أمر تفكير ، فأنما نحن أمام الواقع وجهاً لوجه ، ، كذلك كنت أقول لنفسى ، غير أننى كنت أفقد شجاعتى مزيداً من فقد شيئاً بعد شىء . كنت أعلم حق العلم أننى أبالغ وأغالى وأضخم جميع هذه الأمور تضخيماً جنونياً . ولكن ما حيلتى ؟ لقد أصبحت لا أسيطر على نفسى ، وكانت الحمى تهزنى هزاً قوياً .

طفقت أتخيل ، بكثير من الكمد واليأس ، تلك اللهجة المتعالية الباردة التى سيستقبلنى بها ذلك الوغد زفر كوف ، وطفقت أتخيل تلك النظرة التى ستلقبها بـ « ده ليه ده فـ مليئة باحتقار غـ لا مناصر منه ؟

وطفقت أتخيل كذلك تلك الضحكة الوقحة التى سيضحكها ذلك الانسان

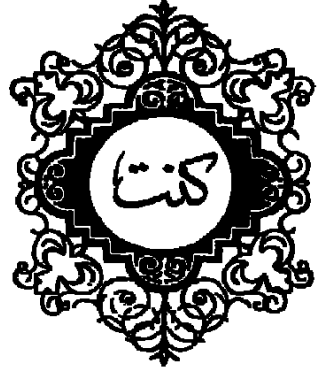
أن أمكت في بيتي فلا أمضى الى العشاء • ولكن هذا بعينه كان أصعب من كل ما عداه • اتنى حين أشعر بانجذاب من هذا النوع أندفع الى النهاية وأتردى تردياً كاملاً • فلو قد أحجمت اذن لظللت طوال حياتى أسخر من نفسى وأتھكم عليها قائلاً : « ها ••• لقد خفت ، خفت من الواقع ، نعم خفت ! » • وأنا انما كنت أريد تقيض ذلك ، كنت أرغب رغبة محمومة فى أن أبرهن لذلك الوبش التافه أننى لست جباناً رعيداً الى الحد الذى يبدو • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : لقد كنت أحلم ، وأنا فيما أنا فيه من حمى شديدة ، أن أغلبهم جميعاً ، ان انتصر عليهم ، ان أفتهم ، أن أجبرهم على أن يحبونى ، أن يحبونى على الأقل « لسمو فكرى وحدة ذهنى التى لا سبيل الى جحودها » • وسيتركون زفر كوف : فيبقى وحيداً ، صامتاً ، شاعراً بالحزى والحجل ، فأسحقه • وربما قبلت بعد ذلك أن أصلحه ، فنشرب معاً ، ونرفع الكلفة بيننا ، ومتخاطب بصيغة المفرد •

ولكن الشيء الذى يحقنى ويهينى أكثر مما يحقنى ويهينى أى شيء سواه ، هو أننى كنت أعلم ، كنت أعلم تمام العلم أننى لست فى حاجة الى شيء من هذا كله ، واتنى لا أرغب البتة فى أن أسحقهم وأن أنتصر عليهم وأن أفتهم ، وأننى أول من لا يرضى أن يدفع قرشاً واحداً فى سبيل الحصول على هذه النتيجة اذا حصلت عليها • رباه ! ما أكثر ما تضرعت الى الله أن تنقضى تلك الأمسية بأقصى سرعة !

ودنوت من النافذة وأنا أشد ما أكون قلقاً وغماً لا سبيل الى وصفهما ، وفتحت خوضتها ، وحاولت أن أشق ببصرى الحجاب الكثيف من الثلج الذائب الذى كان يتساقط كيباً كبيرة •

• أخذت آ دقت ساعة الحفرة الصغيرة القديمة المعلقة على الجدار ،

دقّت الخامسة بصوت أبجّ أجش ؛ فتناولت قبعتى ، وتسلفت الى الخارج محاولاً أن لا أنظر كثيراً الى آبولون الذى كان ينتظر راتبه منذ الصباح ولكنه لغباوته لم يشأ أن يكون أول من يتكلم فيه • واستأجرت عربة جميلة بالخمسين كوبكاً الأخيرة التى كانت معى ، فوصلت الى « فندرق باريس » كما يصل سيد عظيم •



أعلم منذ أمس أنني سأكون أول الواصلين •
 ولكن الأمر ليس هذا الآن •
 لم يقتصر الأمر على أنني لم أجد أحداً
 منهم ، وإنما لقيت كذلك عناءً كبيراً في الاهتداء
 الى الحجرة المحجوزة لنا • ولم تكن الأغطية قد وضعت على الموائد بعد •
 ما معنى هذا ؟ وعلمت من الخدم بعد أسئلة كثيرة أن العشاء قد أوصى به
 للساعة السادسة لا الساعة الخامسة ، ثم أكد لي مدير الخدمة هذا بعدئذ •
 انزعجت أنا نفسي من القاء تلك الأسئلة عليهم • وكانت الساعة لا تعدو
 الخامسة وعشرين دقيقة • لو كانوا قد غيَّروا الموعد لكان عليهم أن
 ينبئوني بذلك على الأقل ، فلهذا انما وجدت مصلحة البريد ؟ كان
 ينبغي لهم أن لا يعرفوني لهذا الهوان أمام نفسي وأمام ... الخدم !
 وجلست • وجاء الخادم يضع غطاء المائدة ، فزاد وجوده حقى وغضبى •
 وفي نحو الساعة السادسة ، جىء بشموع ، زيادةً على المصابيح التى
 كانت تضىء الحجرة • غير أن الخادم لم يخطر بباله أن يجىء بالشموع
 منذ وصولي • وفي الحجرة المجاورة كان يتعشى سيدان ، كلٌ على مائدة
 مستقلة ، وكلٌ صامت مظلم الوجه عابس الأسارير • ولكن ضجةً
 كبيرة كانت تُسمع آتيةً من الصالونات الكبيرة ، حتى لقد سمعت
 صرخات وضحكات وصيحات بلغة فرنسية رديئة ركيكة تتبادلها جماعة

كبيرة تضم رجالاً وسيدات • شعرت بتقزز • قلما عرفت في حياتي لحظات أمقت الى نفسي من تلك اللحظات ، حتى أتني حين وصلوا في الساعة السادسة تماما مجتمعين ، وجدتنى مستعداً لأن أستقبلهم استقبال المنقذين والمخلصين ، ونسيت في اللحظة الأولى أن على أن أظهر شيئاً من الاستياء •

دخل زفر كوف أول الداخلين كأنه رئيس العصابة • وكانوا جميعاً يضحكون ولكن زفر كوف رفع رأسه حين أبصرني ، وأقبل على دون تمجل ، متبخرأً تبخر امرأة مفناج ، ومدَّ الى يده بحركة ودود ، ولكن بغير مبالغة ، مع نوع من التهذيب المتأنى هو التهذيب الذي يلاحظ في شخصية رفيعة المقام ؟ وكان ، وهو يمد يده الى يده ، كمن يحمي نفسه من خطر ما • كنت أتخيل ، على خلاف ذلك ، أنه سيأخذ يضحك ضحكاً حاداً صارخاً متى ظهر ، كما كان يفعل ذلك في الماضي ، وأنه سيطلق مزحة من مزحاته التافهة على عهدي به • وكنت أهيب نفسي لهذا منذ الأمس • ولكنني لم أتوقع منه البتة لهجة تبلغ هذا المبلغ من تكلف التواضع واصطناع التهذيب المتعالي المتكبر • أهو يعد نفسه اذن أعلى قدراً مني الى هذا الحد ، من جميع النواحي ؟ ولقد كان يهون الأمر لو أنه اصطنع هذه اللهجة التي يصطنعها السادة العظماء في سبيل اذلالى ؟ فلو أنه فعل ذلك لكان في وسعى أن أقابله بما يقابلني به • ولكن ماعساى أفعل اذا كان لم يخطر بباله البتة أن يهينني ، وكان كل ما في الأمر أنه قد وقع في وهمه الغبي أنه أرفع مني منزلة وأسمى قدراً الى الحد الذي لا يستطيع معه أن يخاطبني الا بهذه اللهجة التي يخاطب بها العظيم من يرعاهم ويحميهم من الناس ؟ فما ان قام في ذهني هذا الافتراض ، حتى أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً •

بدأ كلامه يقول متغماً صوته ، ماطاً كل كلمة من كلماته ، وذلك أمر لم يكن يفعله في الماضي :

- علمت ، على دهشة منى ، أنك رغبت أن تشارك في عشائنا هذا ! لقد أصبحنا لا نلتقى في الآونة الأخيرة • كنت تتحاشانا وتتجنب لقاءنا • ولقد أخطأت في هذا : فلسنا أناساً رهيئين الى الحد الذي قد يتراعى • على كل حال ، يسعدني جداً أن نصل ما اذ • • قد • • طلع ! • •

قال ذلك ثم تحول عنى ليلقى قبعته على مسند النافذة باهمال •
وقال ترودوليوبوف سائلاً :

- هل انتظرت مدة طويلة ؟

فأجبه بصوت عالٍ وغيظ يندر بانفجار قريب :

- أنا هنا منذ الساعة الخامسة على ما اتفقنا عليه بالأمس •

فاتجه ترودوليوبوف الى سيمونوف يسأله :

- ألم تبلغه أننا أخرنا الموعد ؟

فأجاب سيمونوف يقول :

- لا • • • نسيت •

ولكنه لم يظهر أى أسف ، حتى لقد أغفل أن يعتذر لى ، وخرج يصدر أوامره •

صاح زفر كوف يقول ساخراً :

- أأنت هنا منذ ساعة اذن أيها الفتى المسكين ؟

ذلك أن هذا الأمر لا بد أن يبدو لعقله مضحكاً الى أبعد حد •

ولم يلبث فرفتشكين الحقيز أن حذا حذوه فضحك ضحكته البشعة الحادة
المجلجلة • لكأنه كلب صغير • لقد بدوت له مضحكاً الى أبعد حد !

انطلقت أقول وقد أخذ غيظي يشتد مزيداً من الاشتداد :

- ليس في هذا ما يبعث على الضحك • تلك خطيئتهم هم
لا خطيئتي أنا ! لقد أغفلوا أن يبلغوني تأخير الموعد ! ••• هذه •••
هذه ••• حماقة لا أكثر ! •••

جمعهم ترودوليوبوف يقول مدافعاً عنى في سذاجة :

- بل أكثر من حماقة • انك رقيق مسرف في الرقة • تلك فظاظة
••• ولكنها غير مقصودة طبعاً ••• كيف يغفل سيمونوف أن يبلغه تأخير
الموعد ؟ هه ؟

قال فرفتشكين :

- لو صُنع بي أنا هذا ، لكنت ' •••
- لكنتَ أمرت بشيء ، أو لشرعت تتناول عشاءك دون أن تنتظر
أحدًا •

بهذا قاطعه زفركوف • فقلت بلهجة قاطعة :

- كان في وسعي أن أفعل هذا دون أن تأذنوا به • وإذا كنت قد
انتظرت ، فلأن •••

هنا دخل سيمونوف قائلاً :

- الى المائدة أيها السادة • كل شيء مهياً • أنا أضمن الشمبانيا •
انها مثلجة تماماً •

ثم التفت نحوي فجأة وقال لي دون أن ينظر الى :

— لم أكن أعرف عنوانك ، فأين كان يمكن أن أعرّ عليك ؟
كان واضحاً أنه ناقم علىّ ، وأنه قد ظل يفكر في ماضينا طوال
أمس •

وجلسوا وجلست • كانت المائدة مستديرة • ووجدتني على يمين
ترودوليوبوف وعلى يسار سيمونوف • وكان مكان زفركوف أمامي •
وقد جلس الى جانبه فرفتشكين قريباً من ترودوليوبوف •

استمر زفركوف على الاهتمام بي فسألني :

— قل لي ... أأنت ... في الوزارة ؟

انه وقد رأى اضطرابي ، تخيّل جاداً أنه لا بد من ايناسي
وتشجيعي ان صح التعبير • قلت لنفسي وقد شعرت بالحنق يجتاحني
ويستبد بي : « أهو يريد أن أرميه بزجاجة على رأسه ؟ » • لعل
اهتياجي السريع الشديد هذا انما يرجع الى قلة التعود •

قلت بصوت متقطع :

— نعم ... أنا ملحق بالدائرة •

— وهل تجد في ذلك مزايا وفوائد ؟ قل لي : ما الذي حملك على
هجر مشاغلك القديمة ؟

— سئمتها • • هذا كل شيء • • •

قلت ذلك وأنا أمتطّ كلامي أكثر منه ثلاث مرات • أصبحت لا أكاد
أسيطر على نفسي • ألقى علىّ سيمونوف نظرة ساخرة • وتوقف
ترودوليوبوف عن الطعام وتفرس في وجهي مستظلاً منعجياً •

انتفض زفر كوف انتفاضة خفيفة • ولكنه تظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً •

- وراتبك ؟

- أى راتب ؟

- أجورك !

- أهذا امتحان ؟

ولكننى ذكرت له مع ذلك راتبى وقد اصطنع وجهى بحمرة رهيبة •

قال زفر كوف بلهجة وقور :

- مبلغ ضئيل •

وزاد فرفتشكين على ذلك فقال بوقاحة :

- من كان راتبه ضئيلاً هذه الضالة ، لا يسمح لنفسه بعشاء فى

مطعم •

وأضاف ترودوليوبوف يقول جاداً :

- فى رأى أن هذا بؤس !

وقال زفر كوف ، ولكن دون خبث أو مكر فى هذه المرة ، بل بنوع

من شفقة وقحة ، وهو يتفرس فى ، وينظر الى ردائى :

- وما أشد ما أصابك من نحول ! ما أكثر ما تغيرت !

وقال فرفتشكين ضاحكاً فى سخرية :

كذلك ! هل هذا قساضط ، منذ الآن !

فصحت أخيراً أقول :

— اعلم أيها السيد اننى لست مضطرباً البتة ، هل تسمع ؟ أنا أتعشى
« فى المطعم » على نفقتى ، من جيبي ، بمالى أنا ، لا بمال غيرى ، لاحظ
هذا يا سيد فرفتشكين !

— كيف ؟ من ذا الذى لا يتعشى هنا على نفقته وبماله ؟ ماذا تريد
أن تقول ؟

كان فرفتشكين قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، ونظر الى نظرة
فيها خنق قوى •

شعرت أننى بالغت وأسرفت فقلت :

— قلت هذا هكذا ... وانى لأحسب على كل حال أن الأفضل أن
تحدث فى أمور أقرب الى العقل والذكاء •

— أتريد أن تبهرنا بعقلك وذكاؤك ؟

— لا تقلق : لا جدوى من هذا هنا !

— ما هذا الذى تهرف به أيها السيد ؟ أتراك فقدت عقلك تماماً
فى ذلك المكتب الذى تعمل فيه ؟ أتراك جئت ؟

صرخ زفركوف يقول بصوت فيه تسلط واستبداد •

— كفى أيها السادة ! كفى !

وجمعهم سينمونوف يقول :

— ما أغبى هذا كله !

وقال ترودوليوبوف بفظاظة متجهماً الى وحدى :

— هذا غباء كبير حقاً ! لقد اجتمعنا هنا كما يجتمع أصدقاء ،
لنودّع رفيقنا الطيب ، فأخذتم تتشاجرون • أنت الذى طلبت أن تشاركنا
العشاء ، فلا تعكر صفونا ولا تشوش انسجامنا !

وصاح زفر كوف :

— كفى ! كفى ! هلاًّ كففتم أيها السادة ! حقاً ليس هذا بمحمود !
أوثر أن أقص عليكم الآن كيف أوشكت أن أتزوج أمس الأول •

وما هو ذا ، هذا السيد ، يأخذ يقص علينا حكاية سخيّة غيبة ،
لا شأن لها طبعاً بزواج ولا لهو ، وانما هى وسيلة اتخذها ليحدثنا عن
جنرالات وكولونيلات ورجال من مجلس النواب ، يكاد يمثل بينهم
الدور الأول ويكاد يحتل بينهم المقام الأكبر • وطفق الحضور يقهقهون
استحساناً وطرباً ، حتى لقد أخذ فرفتشكين يشن من فرط ابتهاجه أنيناً •

لقد هجرنى الجميع ، وأصبحت وحيداً مُذلاًّ مسحوقاً •

قلت لنفسي : « رباه ! أهذا هو المجتمع الذى يناسبنى ؟ وما أغبى
ذلك الدور الذى مثله أمامهم منذ قليل ! ولكننى أسرفت فى التسامح مع
هذا النذل فرفتشكين ! يتخيل هؤلاء البلهاء أنهم يشرفونى باجلاسى الى
مائدتهم ، ولا يخطر على بالهم أنتى أنا ، نعم أنا ، أنا الذى أشرفهم
بالجلوس الى مائدة معهم ! لقد أصابنى تحول ! وهذا الرداء الذى
أرتديه ! أوه ! قبّح هذان السروالان ما أبشعهما ! ان زفر كوف قد
لاحظ البقعة الصفراء عند الركبة فوراً • لم يبق لى الا شيء واحد
أستطيع أن أعمله : أن أنهض عن المائدة ، فأتناول قبعتى وأخرج دون
أن أنطق بكلمة واحدة ••• فبذلك أظهر لهم احتقارى • وسأكون
فى القند مستعداً لأن أبارز ! يا للجناء ! ليست الروبلات السبعة هى

ما آسف عليه ... ربما ظنوا ذلك ... شيطان يأخذهم ! اننى غير
آسف على الروبيلات السبعة • سأصرف حالاً ! • •

ولم أتحرك من مكاني طبعاً •

وفى سيل أن أغرق حزني وشعبي أخذت أعب من صنوف
الحمرة كثوساً كبيرة ، فسرعان ما سكرت لأننى لم أعتد ذلك • وكان
غيطى يزداد ويشد • وخطر ببالي فجأة أن لا أنصرف الا بعد أن أهينهم
على أوقع نحو • يجب أن اختار اللحظة المناسبة ، فأعرفهم بقيمتى •
سيقولون بعد ذلك انه مضحك ، ولكنه ذكى ذكاءً خارقاً ! ...
الخلاصة ... شيطان يأخذهم ! ...

طفت على المائدة بنظرة وفحة مضطربة • ولكن كان يبدو أنهم
نسوني كل النسيان • الجو « عندهم » صاحب مرح • ما يزال زفر كوف
يهذر • أصصت بسمعى • كان زفر كوف يتكلم عن سيدة جميلة عرف
كيف يحسن مداورتها فاذا هى أخيراً تصارحه بحبها (كان يكذب
طبعاً) ؟ وقد ساعده فى هذه الحكاية واحد من أصدقائه الحميمين هو
أمير شاب فى سلاح الفرسان اسمه كوليا ويملك ثلاثة آلاف نفس •

- ولكن أين ذلك الفارس كوليا الذى يملك ثلاثة آلاف نفس ؟
اتنا لا نراه هنا ! لماذا لم يجيء لتوديعك ؟

أطلقت هذا الكلام فى وسط الحديث ، فخيم صمت طويل •
وأخيراً تنازل ترودوليوبوف فاتبه الى ورشقى بنظرة احتقار
وقال لى :

- أنت سكران تماماً •

وكان زفر كوف يتفرس فى صامتاً كفرسه فى حشرة عجبية •
غضضت عيني • وأسرع سيمونوف يصب الشمبانيا فى الأقداح •

رفع ترودوليوبوف كأسه ، واقتدى به الآخرون ، الا أنا ؟ وقال
يخاطب زفر كوف :

— كأسَ صحتك ، ورحلتك الموفقة السعيدة • كأسَ ذكريات
سنيننا الماضية أيها السادة ! كأسَ مستقبلنا !

وشرب الجميع ، واسرعوا يماثقون زفر كوف ويقبلونه • لم
أتحرك ، وظلت كأسى أمامى ملأى •

زأر ترودوليوبوف وهو يلتفت نحوى بهيئة مهددة متوعدة :

— وأنت ؟ ألا تشرب ؟

— أريد أن أقول كلمتى أنا أولاً ، يا سيد ترودوليوبوف ، وبعد
ذلك أشرب !

دمدم سيمونوف يقول هامساً :

— يا للجرب القدر !

نهضت عن كرسيى ورفعت كأسى • كان بى حمى ، وكنت أستعد
لأمر خارق ، دون أن أعرف على وجه الدقة ما الذى سأقوله • هتف
فرفتشكين يقول :

— حتماً ! الآن انما سنسمع أقوالاً ذكية آخر الأمر !

كان زفر كوف ينتظر جاداً كل الجدة ، مدركاً ما سيحدث • وبدأت
كلامى فقلت :

— يا سيدى الليوتنان زفر كوف ، اعلم أننى أمقت الجمل الرنانة
والعبارات الطنانة ، وأحتقر الذين يقولونها ، وأكره البزات الأنيقة •
تلك نقطة أولى • أما النقطة الثانية فإليك هى ...

رأيتهم يضطربون جميعاً على مقاعدهم •

– النقطة الثانية هي أنتى أكره المجانين المستهترين الداعرين •
والنقطة الثالثة هي أنتى أحب الحقيقة ، أحب الصدق ، أحب الاستقامة
(كنت أستمّر فى الكلام استمراراً يشبه أن يكون آلياً ، وأشعر بهول
يجمدنى تجميداً ، ولا أدري كيف أتجاسر فأقول هذا الكلام) •••
أحب الفكر يا سيد زفر كوف ، أحب أن يكون الرفاق رفاقاً صادقين
يتعاملون تعامل أُنْدَاد متساوين • هيم ••• هيم ••• ولكن لِمَ لا ؟
سأشرب أنا أيضاً كأس صحتك يا سيد زفر كوف • افتن الصبايا
الشركسيات ، وأقتل أعداء الوطن ، و ••• كأس صحتك يا سيد
زفر كوف !

نهض زفر كوف فحيانى وقال :

– لك أجزل الشكر !

كان يشعر بأنه أٌهين اهانةً بالغة ، حتى لقد انكفأ وجهه وشحب
لونه •

أعول ترودوليوبوف قائلاً وهو يضرب المائدة ضربةً قويةً عنيفةً
بقبضة يده :

– شيطان يأخذه !

وصرخ فرفتشكين يقول بصوته الحاد :

– لا بل انه يستحق أن يُحطَّم بوزة !

وجمجم سيمونوف :

– يجب طرده •

وعندئذ هتف زفر كوف يقول فى عظمة وأبهة ليوقف السـخط
الشامل :

ـ لا كلمة ولا حركة أيها السادة • شكرآ لكم جميعآ • ولكنى
سأعرف كيف أبرهن له على قيمة أقواله فى نظرى •

اتجهت الى فرفتشكين وقلت له بلهجة وقور :

ـ ياسيد فرفتشكين ، غداً تتحاسب على الأقوال التى تفوهت بها !
فأجبنى فرفتشكين قائلاً :

ـ ماذا ؟ مبارزة ؟ بكل سرور •

ولكن يظهر أننى حين ألقىت هذا التحدى كنت مضحكآ الى حدٍ
جعلهم جميعآ ينفجرون مقهقهين ، وينقلبون على كراسيهم من شدة
الضحك ، ومنهم فرفتشكين نفسه •

قال ترودوليوبوف باشمئزاز :

ـ طبعآ طبعآ ... دعوه ! ... لقد أخذ منه السكر كل مأخذ •

وعاد سيمونوف يجمعهم قائلاً :

ـ لن أغفر لنفسى قط أننى أشركه •

قلت لنفسى وأنا أمسك زجاجة ملأى : « هذا أوان أن أرميهم
بزجاجة على رؤوسهم » ، ولكنى سكبت كأسآ ، وحدثت نفسى قائلاً :
« لا ... الأفضل أن أبقي الى النهاية ... لو أخليت لكم المكان لأسعدكم
ذلك كثيراً أيها السادة ! لا ... لن أنصرف بحال من الأحوال ! سأبقى
عامداً ، وسأظل أشرب ، لأبرهن لكم على أننى لا أولى هذا كله أى
اهتمام ، ولا أقيم له أى وزن • سأبقى وسأشرب ، لأننا فى كاباريه ،

ولأنتى دفعت حصتى • سَأبقى حيث أنا ، وسأظل أشرب ، لأنتى لا أعدكم
الا خشياً مستديقاً ، لأنتى لا أعدكم الا كائنات لا وجود لها ... سأشرب ،

هم ...

ولكننى لم أعنّ • وانما حاولت أن لا أنظر الى أحدٍ منهم •
واصطفت هيئة طليقة وأوضاعاً غير متحرجة ، وانتظرت نافذة الصبر أن
يبادثنى الكلام • ولكنهم لم يكلمونى وا أسفاه ! ومع ذلك ما كان أقوى
رغبتي فى أن أصالحهم ، فى تلك اللحظة نفسها ! ودقت الساعة الثامنة ،
ثم التاسعة • وتركوا المائدة ، واستقروا على الأريكة • واستلقى

أحرص على أن أبرهن لهم أنني أستطيع الاستغناء عنهم ، ومع ذلك كنت أقرع أرض الحجرة بكمبي عامراً • ولكن ذلك لم يجدني شيئاً • انهم لم يلتفتوا الى أي التفات • وصبرت • ظللت أذهب وأجىء أمامهم كالملكوك ، من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، من الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة : « أنا أمشي لأننى يحلو لى أن أفعل ، وما من أحد يستطيع أن يمنعنى من ذلك » • كذلك قلت لنفسي • وقد توقف الخادم عدة مرات لينظر الى مستظلاً متعجباً • أصابنى دوار من كثرة الذهاب والاياب ، وخيّل الى فى بعض اللحظات أنني أهذى • بللنى العرق ثلاث مرات أثناء تلك الساعات الثلاث ؛ وثلاث مرات جف عرقى جفافاً كاملاً •

وشعرت فى بعض اللحظات بما يشبه طعنات السكين قسوة حين كانت تشق ذهنى تلك الفكرة الرهيبة وهى أنني سأظل أتذكر دائماً ، باشمئزاز ومذلة وهوان ، بعد عشر سنين ، بعد أربعين سنة ، هذه الدقائق التى هى أنذل وأسخف وأفطع ما عرفت فى حياتى من لحظات • حقاً لقد كان من المستحيل أن يُذلّ امرؤ نفسه اذلالاً يفوق هذا الاذلال خبثاً وشرّاً ، وقصداً وتعمداً • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً ، ولكننى أواصل سيرى من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة • وكنت أقول بينى وبين نفسي فى بعض اللحظات ، مخاطباً فى ذهنى أعدائى الجالسين على الأريكة : « آه ... ليتكم تعرفون على الأقل ما أنا قادر عليه من عواطف وأفكار ! ليتكم تعرفون مدى ما أملك من ذكاء ! » • ولكن أعدائى كانوا يتصرفون تصرفاً من لا يشعر بوجودى البتة ! مرة واحدة التفتوا نحوى ، حين أخذ زفر كوف يتحدث عن شكسبير ، فأطلقت أنا ضحكة احتكار • وكانت ضحكى تبلغ من الزيف والحُبث والشر أنهم قطعوا حديثهم فجأة ، وأخذوا يتابعون ، بكثير من الانتباه والجد ، خلال

دقيقة أو دقيقتين ، سبرى حذاءَ الجدار من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، « دون أن ألتفت اليهم أى التفات » • ولكننى لم أظفر من ذلك بطائل ، فانهم لم يخاطبوني بكلمة واحدة ، وما انقضت دقيقتان حتى نسونى من جديد • دقت الساعة الحادية عشرة •

هتف زفر كوف يقول وهو ينهض :

ـ والآن ، أيها السادة ، تذهب جميعاً الى « هناك » •

فقال الآخرون مؤبدين :

ـ طبعاً ، طبعاً •

التفتُ فجأة نحو زفر كوف • كنت قد بلغت من الانسحاق والتحطم أننى أصبحت مستعداً لكل شيء ، حتى للانتحار ، فى سبيل أن أفرغ من هذا الأمر •• كان بى حمى • ان شعرى المبتل بالعرق يلتصق بجبهتى ، وصدغى •

قلت بלהجة حازمة :

ـ زفر كوف ، أنا استغفرك • واستغفرك أنت أيضاً يا فرفتشكين ، واستغفركم جميعاً ، جميعاً • لقد أسأتُ اليكم جميعاً •

قال فرفتشكين بصوته النجيل الوقع :

ـ ها ها ••• أنت خائف من المباراة •

شعرت بطعنة فى قلبى •

ـ لا ••• ليست المباراة هى ما أخشاه • اننى مستعد لأن أبارزك غداً ، بعد أن تتصالح ؟ بل اننى لأصر على هذا • ولا تستطيع أن

ترفض • أريد أن أبرهن لكم على أن المباراة لا تخيفني • أنت تطلق
الرصاصة أولاً ، ثم أطلق أنا في الهواء •

قال سيمونوف :

– يسليه هذا الكلام !

وقال ترودوليوبوف :

– سخافات !

وقال زفركوف باحتقار :

– هلاً تركتنا نمر ! انك تسد طريقنا • ماذا تريد أخيراً ؟

كانت وجوههم جميعاً قد احتقنت دماً ، وكان عيونهم تسطع • لقد
شربوا كثيراً • قلت :

– أنا أنشد صداقتك يا زفركوف • لقد أسأت إليك ، لقد أهنتك ،

ولكن ...

– أهنتي ؟ أنت أهنتي ؟ أهنتني أنا ؟ اعلم أيها السيد أنك لن

تستطيع أن تهينني بحال من الأحوال ، في يوم من الأيام ...

وقال ترودوليوبوف يختم الكلام :

– وكفى هذا ! امض ! هياً بنا نحن !

صاح زفركوف يقول :

– ستكون أولييا لي أنا أيها السادة • هذا متفق عليه ، مفروغ منه •

أليس كذلك ؟

– طبعاً ، طبعاً ، بلا جدال ! ...

بقيت هنالك مهان الكرامة مسحوق النفس • وخرجت العصابة
صاحبةً ضاجة • أخذ ترودوليوبوف يغني أغنية سخيفة بلهاء • وتأخر
سيمونوف قليلاً عن صحبه ليوزع « البقاشيش » على الخدم • فرأيتني
أتقدم منه بغتةً وأقول له يائساً :

— سيمونوف ، اعطني ستة روبلات •

فنظر الى مذهبول العقل مضطرب العينين : كان هو أيضاً سكران •
سألني :

— ماذا ؟ أتريد أن تذهب معنا « الى هناك » ؟

قلت :

— نعم •

فقال بلهجة قاطعة وهو يتسم ابتسامة احتقار :

— ليس معي مال •

واتجه نحو باب الخروج • فأمسكته من حافة معطفه • كان ذلك
كابوساً حقيقياً •

— سيمونوف ! رأيت معك مالا فلماذا تمنعه عني ؟ أنا شقي ؟
حذار أن تمنع عني المال ! ليتك تعلم ، ليتك تستطيع أن تعلم لماذا أطلب
منك هذا المال ! ان مستقبلي كله مرهون به ، وان خططي كلها
موقوفة عليه •

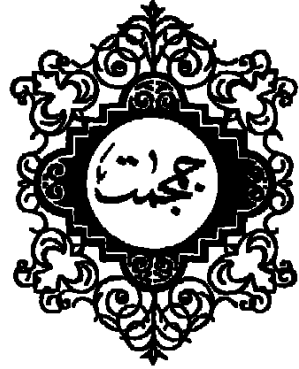
أخرج سيمونوف المال من جيبه ورماه الى رمية على وجه التقريب
وهو يقول لي بخشونة وقسوة :

— خذّه اذا كنت قد بلغت هذا المبلغ من قلة الكرامة •

وأسرع يلحق بصحبه •

لبث لحظةً وحدي • ما أشد الفوضى من حولي ! نفايات موائد ،
أقداح مخطومة ، خر مسفوح ، أعقاب سجائر !... خنق القلق قلبي ،
احتار دخان السك ، أس • ملح ، خادماً • لقد رأيت كل شيء ،

يقبّلون قدميَّ ، واما أن ••• واما أن أصفع زفر كوف !...•••



أقول وأنا أهبط السلم مهرولاً : « هذا هو الصراع مع الواقع اذن ... هذا هو الصراع مع الواقع أخيراً • ليس الأمر الآن أمر سفر البابا الى البرازيل ، ولا أمر حفلة رقص على

شاطيء بحيرة كومو ! » •

ثم دمدمت أقول : « يا لحماقتك اذ تسخر من هذا في هذه اللحظة • لما يضع كل شيء بعد ، فلا خير اذن ! » •

كانوا قد غابوا فلا أثر لهم • ولكنني كنت أعرف أين أعثر عليهم • رأيت عربية زحافة منعزلة ، عربية من تلك العربات التي تعمل ليلاً • ان الحوذى يرتدى معطفاً من صوف يغطيه ثلج ذائب يوشك أن يكون دافئاً • والجو رطب خانق • والحصان الصغير الأحلس مشمت الرأس وقد غشيتة كذلك طبقة من ثلج • وكان الحصان يسعل • انني أتذكر ذلك تذكرًا واضحاً كل الوضوح • أسرعت نحو العربية ، ولكن ما ان رفعت قدمي لأدخلها حتى تراءت لي صورة سيمونوف وهو يرمى الى المال ، فاذا بهذه الصورة تهدمني تهديماً ، واذا بي أتهالك فأسقط في داخل العربية سقوط كيس •

هتفت أقول : « نعم ، هناك أشياء كثيرة سيكون عليّ أن أفقدى بها

ذلك كله • ولكننى سأقديه ... أو أهلك فى هذه الليلة نفسها •
هيا ! • •

سارت بى العربة • الأفكار تفور وتغلى فى رأسى هوجاء مجنونة •
« سوف يضرعون الى ملتسمين صداقتى جثواً على الركب •
ما هذا الا سراب ، سراب غيبى ، رومانسى ، خيالى ، ما هو الا حفلة
الرقص تلك نفسها على شاطئ بحيرة كومو • أنا « مضطر » اذن الى أن
أصفع زفر كوف • على أن أصفعه • تقرر هذا اذن : « أنا راكض اليه
لأصفعه • هيا ... مزيداً من السرعة ! » •

شد الحوذى زمام الحصان •

تابعت أخطب نفسى قائلاً : « ما ان أدخل حتى أصفعه • هل
على أن أقول بضع كلمات من باب التمهيد لصفحه ؟ لا ... بل أدخل
وأضربه • سيكونون قد اجتمعوا كلهم فى الصالون • وسيكون هو
جالساً على الديوان مع أولمبيا • لعنت أولمبيا • لقد استهزأت يوماً
بوجهى ، حتى لقد رفضت أن تتبعنى • سأجرها من شعرها ، وسأشد
أذنى زفر كوف • لا بل الأفضل أن أمسكه من أرنبة أنفه فأجبره على أن
يدور فى الصالة • قد يسرعون الى عندئذ ليضربونى وليرمونى الى
خارج • بل ان هذا لمؤكد محقق • لا ضير ! ... سأكون أنا الذى
ضربه أولاً • سأكون أنا البادى ، وهذا وحده كافى فى مقاييس
الشرف • سيكون جبينه قد تلتطخ بالعار ، فاذا أراد أن يغسل اللطخة ،
فلن يجد بداً من قبول المبارزة • سيكون مضطراً الى مبارزتى • ليس
يهمنى أن يهجموا على • ليس يهمنى هذا • يا لهم من أناس عقوقين !
سوف تكون لطمات ترودولوبوف قوية قوة خاصة : انه قوى جداً •

ذلك على يقين • ولكن لا ضير ! ليس يهمنى هذا • لقد عزمت أمري ،
فأنا مستعد لكل شيء • يجب أن تفهم عقولهم التي تشبه عقول الخراف ،
يجب أن تفهم أخيراً جانب الفاجعة والمأساة في هذه القصة • حين
سيجروني نحو الباب سأصرخ قائلاً لهم انهم أقل قيمة من خنصرى -
أسرع أيها الخوذى ، أسرع مزيداً من الاسراع !

انتفض الخوذى ، وحرك سوطه • كان فى صرختى شيء من
توحش حقاً •

« سوف تبارز عند مطلع الصبح • هذا مقرر • أما مكتبى فقد
انتهيت منه • ولكن من أين نأتى بمسدسات ؟ الأمر بسيط : سوف
أطلب سلفةً على مرتباتى فاشتري مسدسات ؟ ليس لى أصدقاء ؟ الأمر
بسيط أيضاً (قلت ذلك وأنا اشتد حماسة واندفاعاً) ! ان أول عابر ألقاه
فى الشارع وأطلب منه أن يكون شاهدى ، سيكون مضطراً الى أن يقبل ،
كاضطراره الى أن ينتشل من الماء انساناً يفرق • ان أكثر الحلول اغراباً
فى الشنوذ مقبولة فى مثل هذه الحالات • فلو طلبت الى مديرى أن
يشهد هذه المباراة لما وسعه أن يرفض ذلك اذا كان على شيء من روح
الفروسية ، ولوجب عليه أن يكتم السر • وأنطون أنطونوفتش • • • »

ولكننى فى تلك اللحظة نفسها أدركت بوضوح وجلاء وضياء ،
أكثر من أى انسان فى هذا العالم ، كل ما تشتمل عليه افتراضاتى هذه من
بشاعة تدعو الى الاشمئزاز وسخافة تبعث على الضحك ، ورأيت ظهر
القضية ، غير أن • • •

- مزيداً من السرعة أيها الخوذى ، اضرب أيها الوغد ! اضرب !
فقال لى رجل الشعب البسيط ، قال لى بلهجة شاكية :
- آه • • • سيدى ! • • •

فاذا أنا أشعر ببرد كبرد الجليد يسرى في جسمي .

« ولكن أليس الأفضل . . . أليس الأفضل أن أعود رأساً الى البيت ؟ آه ! رباه ! لماذا تورطت في هذا العشاء ؟ ولكن . . . مستحيل . . . مستحيل . . . أنسى الساعات الثلاث التي قضيتها ذاهباً آيماً من المدفأة الى المائدة ومن المائدة الى المدفأة ؟ لا . . . ان عليهم هم أن يدفعوا ثمن تلك الساعات الثلاث ! ان عليهم أن يخلصوني من لطخة العار هذه !

— اضرب أيها الحوذى !

« ماذا لو أسلموني للشرطة ؟ لا . . . لن يجسروا . سوف يخشون الفضيحة . وماذا لو رفض زفر كوف مبارزتي اظهاراً لاحتقاره ؟ أنا واثق بأنه سيرفض مبارزتي . ولكنني سأبرهن لهم عندئذ . . . سوف أركض في هذه الحالة الى محطة الخيول لحظة سفره ، فأمسكه من ساقه ، وأنزع معطفه حين يركب العربية ، وأغرس أسناني في يده فأعضه : « انظروا الى أى مدى يستطيع اليأس أن يدفع بالانسان ! ، « قد يضربني عندئذ على رأسي ، وقد ينهال عليّ الآخرون من ورائي . ولكن لا ضير ! . . . سوف أصرخ قائلاً لجميع الناس : « انظروا الى هذا الصبي الذي يسافر ليغوى الشركسيات وبصقتي على وجهه ! ، «

« وبعد ذلك يكون كل شيء قد انتهى طبعاً . سيكون مكتبي قد زال من على سطح الأرض . سأعتقل ، وسيُحكم عليّ ، وسأُطرد من الوزارة ، وسأُسجن ، وسأُنفي الى سيبيريا . ليكن ما يكون . ما هذا . . . بعد خمسة عشر عاماً ، جاء : بطلق سراحه ، فأضرب في الأرض ،

بأساً رث الثياب ، سوف أهتدي الى آثاره ، سوف أعرّ عليه في مدينة من المدن بالأقاليم ، ويكون قد تزوج وسعد وأنجب بنتاً أصبحت في ريعان الصبا . . . سأقول له : انظر أيها الشيطان الرجيم ! انظر الى خديّ

الحاسفين والى أسماى البالية ! لقد فقدت كل شيء : السعادة ،
 والوظيفة ، والفن ، والعلم و « الحية » ... وذلك كله بسببك أنت •
 هذه مسدسات • لقد جئت لأفرغ مسدسى ... وأنا ... أغفر لك •
 وعندئذ سأطلق الرصاص فى الهواء ، ثم أمضى دون أن أخلف أثراً •
 تأثرت من هذا تأثيراً قوياً بلغ بى حد البكاء ، على شعورى الكامل ،
 فى تلك الدقيقة نفسها ، بأننى قد استمددت هذا من « سيلفيو » * ومن
 مسرحية « الحلقة التكرية » التى ألفها ليرموتوف • وفجأة شعرت بخجل
 حاد وخزى لاذع دفعنى الى أن استوقف الحصان ، فأخرج من العربى ،
 وأظل على هذه الحال فى وسط الشارع لحظة ، غارق القدمين فى الثلج •
 كان الحوذى ينظر الى مدهوشاً وهو يزفر زفرات عميقة •

ماذا كان ينبغى أن أعمل ؟ يستحيل أن أذهب الى هناك ؟ فأننى
 لا أجد من هناك شيئاً • ولكن ... كذا ... أنأتىك الأميرة

ما هى عليه ، فان هذا لا يمكن أن يطاق ... رباه ! كيف يمكننى أن
 دع هذا الأمر ؟ أأدعه بعد كل تلك الاهانات !

صحت أقول وأنا أندفع الى العربى من جديد •
 « لا ... هذا قدرى ! اسرع ، أسرع ، هلم ! » •
 ومن شدة نفاد صبرى ، لطمت الحوذى فى ظهره بقبضة يدى •
 هتف الحوذى يقول :

— ماذا دهالك ؟ لماذا تضربنى ؟

ومع ذلك ضرب حصانه بسوطه ضربة قوية ، فأخذ الحصان
 يسرع •

كان الثلج يتساقط سبائخ كبيرة • وكنت قد حللت أضرار معطفى ،

لأن أموراً أخرى تشغل بالي وتستأثر بتفكيرى • كنت قد نسيت كل شيء ، لأننى قررت أن أصفعه ، وأنا أشعر مرتاعاً بأن هذا سيحدث لا محالة ، فوراً ، فما من قوة تستطيع أن تقف الأحداث بعد الآن • المصابيح المنعزلة تلتهم كابيةً فى ضباب الثلج كأنها مشاعل دفن • الثلج قد نفذ تحت معطفى وردنجوتى ، وتراكم تحت رباط عنقى وأخذ يذوب هنالك • ولكنى لم أتدثر : ألم يضع كل شيء ؟

ووصلنا أخيراً • وثبت من العربية كالمجنون ، وصعدت الدرجات القليلة وأخذت أقرع الباب بقدمى ويدي • كنت أشعر بضعف شديد فى الساقين ، ولا سيما فى الركبتين • وسرعان ما فُتح الباب ، كأن قدومى كان منتظراً (الواقع أن سيمونوف كان أبلغ أهل المحل أن زائراً آخر قد يجيئ ، اذ لا بد فى هذا المحل من الإبلاغ لاتخاذ بعض الاحتياطات • المحل نوع من « متجر للملبوسات » قد أغلقته الشرطة بعد ذلك ، وهو فى الواقع متجر أثناء النهار ، غير أن فى وسع المرء أن يقضى فيه الليل اذا أوصى به أحد) • اجتزت الدكان المظلمة مسرعاً ، ودخلت صالون الاستقبال الذى كنت أعرفه حق المعرفة ولم يكن يضيئه فى ذلك الحين الا شمعة واحدة • ثم ما لبثت أن توقفت مدهوشاً مذهولاً : لم يكن ثمة أحد •

سألت :

- أين هم ؟

ولكنهم كانوا قد انصرفوا واقتربوا •

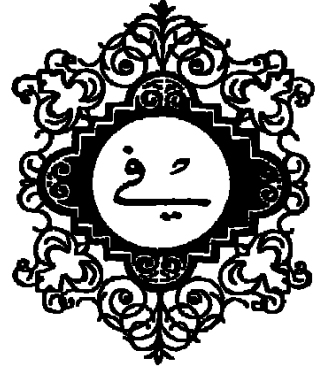
كانت صاحبة المحل واقفة أمامى وعلى شفيتها ابتسامة بلهاء • لم تكن هذه المرأة تجهلنى •

وبعد لحظة ، انفتح الباب ودخل داخل •

لم التفت الى أحد ، وأخذت أسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، وأنا أحدث نفسي ، فيما أظن . كان يتراءى لي أنني أفلت من الموت ، فكان كياني كله يهتز طرباً ويتفتح فرحاً . فلو قد وجدته لصفقته حتماً . أنا من ذلك على يقين مطلق . ولكنهم انصرفوا جميعاً لقد زال كل شيء لقد تغير كل شيء . نظرت حولى . لم أكن قد استطعت بعد أن أعي كل ما جرى . رفعت عيني نحو الداخل الذي دخل منه هنيهة ، رفعت عيني نحوه ذاهلاً ، فلمحت وجهاً فتياً ، نضراً ، شاحباً بعض الشحوب ، له حاجبان داكنان مستقيمان ، ونظرة جادة فيها شيء من دهشة . سرعان ما أعجبنى هذا . لو قد ابتسمت لكرهتها واحتقرتها . تفرست فيها مزيداً من التفرس وأنا أبذل شيئاً من جهد : كنت ما أزال أجد عناء في استجماع أفكارى . كان في هذا الوجه تعبير ساذج طيب ، ولكنه جادٌ جداً غريباً . أنا على يقين من أن هذا التعبير يسىء اليها في هذا المحل ، وأن أحداً من هؤلاء البلهاء لم يلاحظه . على أنني لا أستطيع أن أقول انها على جانب عظيم من الجمال ، رغم أنها فارعة الطول بضة الجسم حسنة التكوين . وكانت ملابسها بسيطة . شعرت بعضة قوية في قلبي ، ودنوت منها .

وفي تلك اللحظة ذاتها رأيت نفسي في المرآة . كان وجهي منقلباً ، فبدأ لي كريهاً منفراً : ان فيه صفرةً وشرّاً وحنقاً . وكان شنعوى مشعشعاً . حدثت نفسي قائلاً : « هذا أحسن . . . يسرنى أن أكون كذلك . نعم ، يسرنى أن أبدو لها منفراً ، يلذ لي هذا ! » .

٦



الجهة الثانية من الحاجز ، أخذت ساعة حائط
تحشرج أو تسعل : لكأن صوتها صوت انسان
أمسك خنقه وشُدَّ شُدًّا قويا . وأعقبت تلك
الحشرجة الطويلة رنات حادة مزعجة ما ان
يسمعا المرء حتى يتصور انساناً يندفع متوثباً على حين فجأة . هي
الساعة الثانية بعد منتصف الليل .
ثبت الى رشدى . لم أكن نائماً ، ولكنى كنت فى حالة تشبه
الوسن .

الظلام يكاد يكون كاملاً فى الغرفة الواطئة الضيقة التى تملؤها
خزانة كبيرة للثياب ، وعلب كرتون ، وملابس مبعثرة ، وأسمال بالية ،
حتى ليتعذر على المرء أن يتحرك فيها من فرط ازدحامها بتلك الأشياء .
وكانت بقية الشمعة المشتعلة فى أحد الأركان توشك أن تذوب كلها ،
فهى لا تبعث الآن الا أشعة باهتة كابية . فما هى الا دقائق حتى يعم ظلام
تام حالك .

ثبت الى رشدى بسرعة . تذكرت كل شئ دفعة واحدة بغير
جهد ، كأن ذكرياتى كانت لا تنتظر الا أن أصحو حتى تسرع الى
وتتكاثر على . ثم اتنى ، حتى حين كنت فيما يشبه الوسن ، كان فى
نفسى شئ لم يبارحنى ، شئ هو أشبه بنقطة لا أستطيع أن أنساها وعليها

بالانزعاج شبيهاً بما يحسه المرء حين يدخل قبواً رطباً خانقاً • تراءى
لى أنه ليس طبعياً أن لا تأخذ هاتان العينان بتفحصى الا الآن ، وفى هذه
اللحظة بعينها • وتذكرت أيضاً أننى خلال الساعتين اللتين انقضتا لم
أبادل كلمة واحدة مع هذه الانسانة ، لا ولا رأيت أن ذلك ضرورى •
بالعكس : كنت قد وجدت فى هذا الصمت لذة • ولكننى أدركت فى
تلك اللحظة سخافة وبشاعة الدعارة التى تشرع فوراً ، على نحو فظ
خالٍ من الحشمة والحياء ، فيما ينبغى أن يكون ثمرةً للحب يجنيها المحب
فى النهاية • نظر كل منا الى الآخر على هذا النحو مدة طويلة • ولكنها

• ليزا •

• صوت

ق- كم: مخاطب نفسه وأنا أصاب ذراعيَّ، واء قدالة، وأحدق.

الى السقف ، بحركة مكتبة حزينة :

لماذا لم يلقه في هذا الموضع الثالث ؟ ولماذا لم يلقه في

• النفس من حزن •

لم تجب • هذه قسوة يضيق بها المرء • عدت أسألها ملتبساً نحوها
وبى شيء من غضب :

...أأنت من هنا؟

• y _

— من أين أنت ؟

أجابت تقول على مضض :

• من ریجا •

— هل أنت أَلْمَانَة ؟

— لا بل روسية ♦

— هل تقسمين هنا منذ مدة طويلة ؟

- أين ؟

• - في هذا المحل

— منذ أسوعين •

أصبح صوتها يتقطع مزيداً من التقطع • وكانت الشمعة قد انطفأت،
فأصبحت لا أميّز وجهها •

— هل لك أب وأم ؟

— نعم ... لا ... نعم •

— أين هما ؟

— هناك في ريجا •

— ماذا يعملان ؟

— لا شيء يستحق الذكر •

— كيف هذا ؟ ما هما ؟ ما حالتهما ؟

— من متوسطي الحال •

— هل كنت تسكنين معهما ؟

— نعم •

— ما عمرك ؟

— عشرون سنة •

— لماذا تركتهما ؟

— هكذا ...

ان كلمة « هكذا » هذه كانت تعني : « دعني وشأني » لقد ضقت
بأسئلتك ! •

• وعدنا الى الصمت •

لا يدري الا الله لماذا لم انصرف • أنا أيضاً كنت أشعر بمزيد من
الضيق والقلق شيئاً بعد شيء • وها هي ذي صور أحداث ذلك اليوم
الذي انقضى تأخذ تتخاطر في ذاكرتي فوضى من تلقاء نفسها دون أى
جهد أبذله • وتذكرت على حين فجأة منظرأ شهدته في الشارع حين
كنت ذاهباً الى المكتب مشغول البال مهموم النفس •

— رأيت الناس في هذا الصباح يخرجون تابوتاً ، فكادوا يقلبونه •

قلت هذه الكلمات بصوت عال دون أن أتبه الى ذلك ، ودون أن
يخطر ببالي أن استأنف الحديث معها ، فكأننى لم أقل ما قلته عامداً •

سألتنى :

– تابوتاً ؟

– نعم ، فى سينايا * • أخرجوه من قبو •

– من قبو ؟

– نعم ، من غرفة فى قبو ••• من منزل سىء السمعة •• ما أكثر
ما كان يحيط بالمنزل من أقذار !••• قشور ، نفايات ••• ورائحة
العفونة تفوح كريهة ••• شىء فظيع !•••

وساد الصمت •

ثم عدت أقول لا لشيء الا أن لا أسكت :

– أمر مزعج أن يُدفن أحد فى هذا اليوم !

– لماذا ؟

– البرد ••• الرطوبة •••

• وتناوبت •

قالت فجأة بعد برهة من صمت :

– ما قيمة هذا ؟

– كيف ؟ هذا شىء محزن (وتناوبت مرة أخرى) • لا بد أن
حفارى القبر قد أصابهم مرض ، لأن الثلج بللهم ••• ولا شك أن حفرة
القبر قد امتلأت ماءً •

سألتنى بنوع من الاستطلاع والتعجب ، ولكن بלהجة فيها مزيد من
التقطع والمباغنة اللذين لاحظتهما فى لهجتها منذ قليل :

— لماذا تقدّر أن الحفرة لا بد أن تكون قد امتلأت بالماء ؟

شعرت فجأة بشيء يستيقظ في نفسي • قلت :

- كيف لا تعرفين هذا ؟ ان ارتفاع الماء لا يقل عن ثلاثة أشبار •
- ما من حفرة جافة في مقبرة فولكوفو •

— لماذا ؟

- لماذا ؟ لأن الأرض ملأى بالماء • الغدران في كل مكان
- والتابوت يوضع في الماء رأساً • رأيت هذا مراراً •

(الحق أننى لم أر هذا في يوم من الأيام ، ولا ذهبت الى مقبرة فولكوفو * مرة واحدة ، ولكننى سمعت من يتكلم عن هذا الأمر) •

قلت لها :

— أنت لا يهيك حقاً أن تموتى ؟

فأجابت تقول وكأنها تدافع عن نفسها :

— لماذا يجب أن أموت ؟

— ستموتين في يوم من الأيام ، وستموتين كما ماتت تلك المرأة التي حدثتك عنها ... انها هي أيضاً « بنت » ... وقد ماتت بمرض السل •

— لو كانت « بنتاً » لماتت في المستشفى ...

قلت لنفسي : « هي تعلم هذا اذن • قالت « بنتاً » ولم تقل « فتاة » •

أجبتها قائلاً :

— كانت مدينة لقوادتها بـمال كثير • وظلت تعمل حتى لفظت آخر أنفاسها تقريباً ، رغم أنها كانت مريضة بالسل • ان الحوذيّين الذين كانوا هناك قد تحدثوا في هذا مع الجنود • لعلمهم أصحابها القدامى • كانوا

يضحكون ويتأهبون لشرب كأس من الخمر فى الكاباريه احتفاء بذكرها
(هنا أيضاً لفقت وزوقت كثيراً) •

وساد صمت ، صمت عميق • لم تقم حتى بحركة صغيرة • قلت :
- والمستشفى ؟ هل الموت فيه أفضل ؟

أجابت :

- سيان ••• الأمران واحد •••

ثم أضافت متبرمة :

- ولكن لماذا يجب أن أموت ؟

- لا الآن ، بل فى المستقبل •

- ما يزال الوقت طويلاً •••

- لا تتخيلي هذا ! أنت الآن فتية جميلة نضرة ، والناس هنا
يقدرونك لهذا • ولكنك ستغيرين تغيراً كبيراً بعد سنة واحدة ، سوف
تذبلين !•••

- بعد سنة واحدة ؟

أجبتها ملحاً مصرراً فى خبث وشر :

- على كل حال ، لن تكون قيمتك بعد سنة كقيمتك اليوم •
سوف تتركين هذا المنزل الى منزل آخر أدنى منه • فما ان تنقضى سنة
أخرى حتى تتركى المنزل الثانى الى منزل ثالث ••• حتى اذا انقضت
ست سنوات أو سبع انتهيت الى غرفة فى قبو بميدان سينايا • وهذا كله
لا يعد شيئاً ذا بال ••• وانما الشر كل الشر أن يلم بك مرض •••
مرض فى الصدر أو مرض آخر ••• اذا أصابك برد ••• والمرض
يتفاقم ويستفحل فى ظروف حياة كالحياة التى تعيشينها ، فاذا هو
لا يتركك ، ثم اذا أنت تموتين •

- سأموت ، ثم ماذا ؟

بهذه الكلمات رشقتني حادثة ، واختلج جسمها اختلاجة مفاجئة .
قلت :

- سيكون هذا أمراً محزوناً .

- هل في حياتي ما آسف عليه .

- الحياة نفسها .

وساد صمت .

- هل كان لك خطيب ؟

- ما شأنك أنت وهذا ؟

- أنا لا أستجوبك . فقيم يعني هذا الأمر ؟ لماذا تفضيبن ؟ لا شك

أنك قاسيت متاعب كثيرة . وهذا لا شأن لي به . ولكنني أشعر بشفقة . . .

- على من ؟

- عليك .

دمدمت تقول بصوت خافت :

- لا داعي الى الشفقة .

ومرة أخرى اختلجت اختلاجة مفاجئة .

أغاظني منها هذا . كيف ؟ أأكون لطيفاً معها ثم هي . . .

قلت :

• لكن ماذا تظنين ؟ أتجسسين أنك في الطبقة القهري ؟

- لست أظن شيئاً البتة .

- هذا بعينه هو ما يؤسف له . . . هذا بعينه هو ما يحز في النفس .

عودى الى نفسك قبل أن يفوت الأوان • لم يفت الأوان بعد • انك
ما زلت شابة جميلة • ففي وسعك أن تحبى وأن تتزوجى وأن تسعدى ••

قالت بلهجة خشنة :

— ما كل المتزوجات سعيدات !

— طبعاً ، ما كلهن سعدات • • لكن أعيد معاً هذا القلم خلى

اننى اعرفها ... ناهيك عما عدا ذلك • لعلك لن تفهمينى • ولكن
قولى لى : لا شك أنك مدينة للقوادة بمال ، أليس كذلك ؟

لم تجبىنى ، وظلت تصغى الى صامتة ، فتابعت أقول رغم ذلك :

- أرايت اذن ؟ هذه سلسلة أولى تقيدك • ولن تتحررى منها فى
يوم من الأيام • سيرتبون الأمور ترتيباً يضمن لهم هذا • فكأنك بعث
روحك للشيطان ... وما يدريك ؟ لعلنى لا أقل عنك شقاء ... لعلنى
لا أغوص فى الوحل الا لأنسى عذابى ! بعض الناس يشربون الخمر
التماساً للنسيان ... وأنا أجيء الى هنا لهذا الغرض • قولى لى : أهذا
خير ؟ لقد تضاجنا ... ولم تبادل كلمة واحدة ... وبعد أن انتهى
كل شيء انما اخذت تنفرسين فى كمتوحشة ، وأخذت أنظر اليك أنا
أيضاً • أهكذا يكون الحب ؟ أهكذا ينبغى أن يكون الاتحاد بين الرجل
والمرأة ؟ هذا يدعو الى الاشتزاز ، لا أكثر ...

قالت بصوت متعجل قاطع :

- نعم !

ان تعجلها هذا فى اطلاق كلمة « نعم » قد أدهشنى • اذن لقد
كانت هذه الفكرة تدور فى رأسها حين كانت تنفرس فى منذ قليل • هى
اذن قادرة على أن يكون لها أفكار • ألا ان الأمر قد أصبح شائقاً ! ...
هنالك اذن شيء من التقارب • ان من الممكن جداً توجيه نفس شابة الى
هذا الحد •

كدت أفرك بديّ فرحاً •

وأصبحت اللعبة تغرينى مزيداً من الاغراء شيئاً بعد شيء •
قدّمت رأسها نحوى ، وأسندته على ذراعى • هذا ما خيّل الى

في الظلام • أتراها تتفرس فيّ ؟ لشد ما أسفت على أنني لا أستطيع أن أرى عينيها ! وكنت أسمع تنفسها العميق •
سألتها بلهجة فيها شيء من التسلط منذ الآن :
- لماذا جئت الى هنا ؟
- هكذا !

- ما كان أجمل الإقامة في بيت الأبوين مع ذلك ! ما أكثر ما في بيت الأبوين من دفء وراحة ! كان ذلك البيت عشك الأمين •
- فما قولك اذا ذكرت لك أن حياتي فيه كانت أسوأ من حياتي هنا ؟

قلت لنفسي : « يجب أن أجد اللهجة المناسبة • بالكلام العاطفي لن أجنى شيئاً كثيراً » •
على أن هذه الفكرة لم تزد على أن ومضت في فكري وميضاً سريعاً ثم زالت • أحلف لكم أن تلك المرأة قد شاقنتني حقاً • ثم انني كنت موهناً ضعيفاً ، وكنت مؤهباً للشعور بعواطف كريمة يسهل كثيراً أن يرافقها المكر •

أجبت بسرعة أقول :

- لا أحد ينكر هذا • كل شيء يمكن أن يحدث • أنا متأكد مثلاً من أن اهانة قد لحقت بك ، وأن اساءة قد نالتك ، وأنهم «هم» المذنبون في حقك ، وأن الخطأ ليس خطأك بل خطؤهم • لست أعرف شيئاً عن تاريخك ، ولكن لا شك أن فتاة مثلك لا تدخل الى هنا راضية مختارة • دمدمت تقول بصوت لا يكاد يُسمع ، ولكنني سمعته :

- ماذا تعني بقولك « فتاة مثلي » ؟

ها ... انتى أتملقها • هذا جبن • ولكن قد يكون فى ذلك خير
كثير ...

صمتت • قلت لها :

- اسمعى يا ليزا • سأضرب لك بنفسى مثلاً • لو قد كان لى أسرة
أثناء طفولتى ، لما كنت اليوم على ما أنا عليه • انتى كثيراً ما أفكر فى هذا
الأمر • مهما تكن حياتك فى أسرتك شقية ، فإن أباك وأمك ليسا عدوين
لك على كل حال ... ما هما عنك بغريبين • لا بد أن يعبرا لك عن
حبهما مرةً فى السنة على الأقل • أنت هناك تشعرين بأنك فى منزلك •
أما أنا فلم تكن لى أسرة ، ولعل هذا هو السبب فى انتى بلغت هذا المبلغ
من ... انعدام الاحساس •

انتظرت من جديد •

قلت لنفسى : « لعلها لا تفهم • انه لشيء مضحك أن أسدى إليها
دروساً فى الأخلاق ! » •

استأنفت كلامى بصوت عال وأنا أحاول أن لا أواجه الأمور
مواجهة مباشرة ، وأتظاهر بأننى لا أتكلم الا لأسليها :
- لو كنت أباً وكان لى ابنة لأحيتها أكثر مما أحب ابناً • أنا
وانق بذلك •

أعترف لكم بأن وجهى قد احمر •
سألتى :

- لماذا ؟

آ ... هى اذن تصغى الى كلامى • قلت :

- لا أدرى يا ليزا • عرفت فى الماضى أباً قاسياً عاتياً ولكنه يركع
أمام ابنته • كان يقبّل قدميها ويديها ولا يكف عن الاعجاب بها • اذا

كانت ترقص في حفلة رقص ، لبث هو خمس ساعات طوال في مكان واحد لا يحوّل عنها بصره • كان كالمجنون بسببها • لست أفهم هذا • كان يسهر في الليل حين تنام ، ويأتى إليها أثناء رقادها فيقبلها ويباركها • وكان بخيلاً على غيرها ، وكان هو نفسه يرتدى رديجوتاً متسخاً ، أما معها فهو لا يبالي النفقات مهما تكن باهظة • كان يهدى إليها هدايا ثمينة ••• فإذا أظهرت رضاها عنها وسرورها بها شعر بفرح لا حدود له ! ان الآباء يحبون بناتهم أكثر مما تحبهن الأمهات • والبنات يسعدن في منزل الأب على وجه الاجمال • ما أحسب أنتى أَرْضَى أن أزوج ابنتى لو كان لى ابنة •

قالت وهى تبسّم ابتسامة خفيفة :

- عجيب ! لماذا ؟

- لغيرتى عليها ••• حقاً ! كيف يمكن أن تقبل شخصاً غريباً ؟ كيف يمكن أن تحب أحداً أكثر مما تحب أباه ؟ هذا أمر يؤلمنى بصورة • تلك سخافات طبعاً ، ولا بد أن يرتد المرء الى الصواب آخر الأمر • ولكن يخيّل الىّ اننى قبل أن أزوّجها سأتعب خاطبيها وأستبعدهم واحداً بعد آخر ، الى أن أزوّجها مَنْ تحبه مع ذلك آخر الأمر • والرجل الذى تحبه البنت هو بعينه الرجل الذى يكرهه أبوها أكثر مما يكره من عداة •

• من الآن كذا ••• ما لك للصائت التى تقع فى الأمر بسبب هذا ؟

- بين الآباء من يسعدهم أن يبيعوا بناتهم ، لا أن يزوجهن زواجاً شريفاً •

آ ••• هذا هو الأمر اذن !•••

واستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

– ذلك ، يا ليزا ، لا يحدث الا فى الأسر التى كتبت عليها اللعنة ،
الأسر التى لا تعرف الله ولا تعرف الحب • وحشما يغيب الحب يغيب العقل
أيضاً • صحيح أن أسراً كهذه الأسر موجودة ، ولكن كلامى لا ينصرف
إليها ولا ينصب عليها • اتنى أدرك الآن أنك لم تكونى سعيدة فى بيت
أهلك ما دمت تقولين هذا الكلام • نعم ••• أنت شقية حقاً ••• هم
••• ان الفقر هو سبب جميع هذه الشرور بوجه عام •

– هل تجرى الأمور على غير هذا النحو فى منازل الأثرياء ؟ ان
الشرفاء يعيشون سعداء حتى فى الفقر •

– هم ••• نعم ••• ربما ••• وهناك شىء يا ليزا ، هو أن
الانسان لا يتنبه الا الى ألمه ، أما سعادته فلا يتوقف عندها ولا يلتفت اليها •
ولو فكر الانسان فى سعادته ، لوجد أن لكل مرحلة من مراحل حياته
خطأ منها ••• فكيف اذا جرت جميع الأمور فى الأسرة مجرى حسناً ،
فباركها الله ، وكان الزوج طيباً ، وكان يُعنى بك وكان لا يتركك !
ما أسعد الحياة فى الأسرة حينذاك ، ولو تسلسل اليها شىء من شقاء •
أليس يتسلسل الشقاء الى كل مكان ؟ اذا تزوجت فى يوم من الأيام ،
فلربما عرفت ذلك بنفسك • ثم فلتنظر فى الأوقات الأولى من حياتك
مع الرجل الذى تحبين • ما أعظم سعادة هذه الأوقات ! ما أعظم
سعادتها ! وهذا يحدث دائماً • حتى المشاجرات تنتهى بينكما نهاية
حسنة فى تلك الأوقات • من النساء من يسعين الى مشاجرة أزواجهن
على قدر ما يحينهم • أوكد لك ذلك • لقد عرفت امرأة من هذا
الطراز • لسان حالها يقول : « أحبك كثيراً • واذا كنت أعذبك فلكى
تشعر بذلك • • • هل تعرفين هذا يا ليزا ؟ قد يحدث أن يعذب أحد
أحدًا لا لشيء الا لأنه يحبه • النساء يفعلن هذا والمرأة تقول بينها وبين
نفسها أثناء ذلك مخاطبةً رجلها الذى تحبه • سوف أبلغ من قوة حبك

وكثرة ملاطفتك بعد هذا ، أننى لا آثم اذا عذبتك الآن ! » • الجميع يتقاسمون الفرح فى الدار ، ويسودهم جو المرح والشرف ، ويرفرف عليهم الامن والسلام • ان بعض النساء غيورات • فاذا خرج الرجل لم يطقن احتمال ذلك • أنا أعرف امرأة كانت تتصرف هذا التصرف • انها تشب من سريرها فى الليل وتسرع لترى اليس زوجها الان مع فلانة فى مكان كذا ؟ ما هذا بالامر المستحسن • والمرأة تعرف ذلك • وهى تتالم وتحكم على نفسها وتدين سلوكها • ولكن ماذا تريدن ؟ انها تحبه ! ... ولكن ما أحلى المصالحة بعد مشاجرة ! ما احلى أن تستغفره أو أن تغفر له • انهما كليهما يشعران بالسعادة حينئذ ، كأنهما قد التقيا منذ لحظة ، أو كأنهما قد تزوجا منذ هنيهة ، وكان حبهما انما بدأ الآن ... وما من أحد ، ما من أحد يجب ان يعرف ما يحدث بين الرجل وامرأته اذا كانا متحابين حقاً • مهما يتشاجرا فما ينبغى أن يحتكم أحد منهما حتما الى أمه ، وما ينبغى لهما أن يقصا على أحد شيئاً مما وقع بينهما ؛ ما ينبغى أن يحتكما الا الى نفسيهما • الحب سر الهى يجب أن يظل مخبأ عن أعين جميع الناس ، مهما يحدث من أمر ، ومهما يقع من خلاف • ذلك خير وأبقى ، ذلك أنبل وأقدس • بهذا يزداد الاحترام المتبادل ، وما أكثر الأشياء التى تُبنى على الاحترام المتبادل ! اذا قام الزواج على الحب ، فلماذا يجب أن يموت هذا الحب ؟ هل يتعذر حقاً بقاء هذا الحب حياً ؟ انه لمن البادر أن يتعذر ذلك • كيف يمكن أن يتعذر ذلك اذا كان الرجل طيب القلب شريف النفس ؟ صحيح أن الحب الأول ينقضى ، ولكن حباً آخز سيعقب الحب الأول ، حباً أسمى كثيراً من الحب الأول ، حباً يوحد النفسين ، ويجعل كل شيء مشتركاً بينهما ، فلا تخفى أحدهما عن الأخرى سراً ؛ فاذا جاء الأولاد بدا كل شيء عندئذ جميلاً ، حتى أصعب المصاعب ، شريطة أن يوجد الحب

وأن توجد الشجاعة • العمل نفسه زاهر بالفرح ، وانه ليفرح الانسان ان يحرم نفسه من الحبز في سبيل أن يهبه للأولاد • لان الاولاد سيحبونك لهذا في المستقبل • ولنفسك اذن انما تكتزين وتدخرين • ويكبر الاولاد ، فتشعرين انك لهم قدوة ، وأنتك سندهم • حتى اذا وافتك المنية حملوا بعدك الأفكار والعواطف التي أخذوها منك ، فاذا هم قد خلقوا على صورتك • هذا يملى عليك اذن واجباً خطيراً • كيف لا يتحد الابوان اتحاداً أقوى واثق ما دام الامر كذلك ؟ يقال ان الاولاد مشقة وعناء • كذب القائل • الاولاد فرحة الهية • هل تحبين الاطفال الصغار يا ليزا ؟ أنا أعبدهم عبادة • • • تصوّري • • • تصوّري وليداً بلون الورد يرضع من ثدى • • • أى زوج لا يذوب قلبه حناناً حين يرى امرأته تحتضن ابنه بذراعيها ؟ • • • طفل صغير بلون الورد ، بض الجسم ، يتمطى ، يتسسم ، يلعب • • • قدمان صغيرتان • • • يدان صغيرتان سميتان • • • أظافر صغيرة نظيفة تبلغ من الصغر أنها تبعث على الضحك • • • عينا صغيرتان يبدو منذ الآن انهما تفهمان كل شيء • • • وهو اذ يرضع يربت على ثديك • • • ويعبث • • • ويشدك • • • حتى اذا اقترب الأب انقلب الى وراء ، ونظر الى أبيه ، وأخذ يضحك • يا له من منظر مضحك ! ثم يعود الصغير الى ثدى أمه ويستأنف الرضع • وسوف يعرض الثدي في مرة أخرى حين تنبت أسنانه ، وسوف يرشق أمه في الوقت نفسه بنظرة مأكرة فكأنه يقول لها : « هل أحسست ؟ لقد عضضتك ! .. » . أليست هي السعادة ، أليست هي السعادة الكاملة أن يكونوا جميعهم معاً : الأم والأب والطفل ؟ ان الانسان يمكن أن يغفر أموراً كثيرة في سبيل هذه اللحظات • لا يا ليزا : على المرء ، قبل أن يتهم الآخرين ، أن يتعلم هو نفسه الحياة !

قلت بيني وبين نفسي مخاطباً ليزا : « بهذه اللوحات انما يجب

التأثير فيك ، ، قلت ذلك بيني وبين نفسي رغم أنني قد تكلمت صادقاً كل
الصدق مخلصاً كل الاخلاص ، أحلف لكم ... ثم اذا بي أحمرُّ على
حين فجأة . تساءلت : « ما عساي أفعل اذا هي انفجرت ضاحكة ، أين
عساي أدس نفسي حينذاك ؟ » وأحنقتني هذه الفكرة . كنت في نهاية
خطابي شديد الاحتياج ، وهأنا ذا الآن أشعر من ذلك بغضاضة تجرح
كبريائي . واستمر الصمت . وددت حتى لو أدفعها عني ...
بدأت تتكلم فقالت :

— مالك تتكلم مثل ...

ثم أمسكت عن انعام كلامها .

ولكنني كنت قد أدركت كل شيء . هناك أمر آخر كان يختلج
في صوتها : ان المرء لا يلاحظ في صوتها الآن ما كان يلاحظه منذ قليل
من جفاء وعناد ، بالعكس : ان في صوتها الآن عاطفة رقيقة ، يبلغ
ما تشتمل عليه من الحفر والحشمة والحياء أنني شعرت أمامها على حين
فجأة بخجل وخزي ، وأحسنست أنني مذبذب آثم .

سألتها باستطلاع رقيق :

— ماذا ؟

— انك ...

— ماذا ؟

— لكأنك تقرأ في كتاب ...

تصورت من جديد أن في صوتها شيئاً من سخرية .

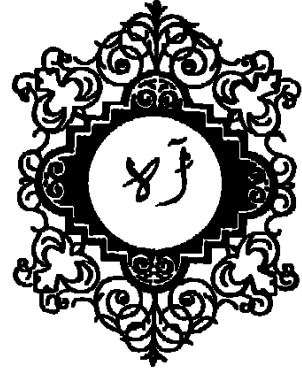
جرحتني هذه الملاحظة جرحاً بالغاً أليماً . لقد كنت أتوقع شيئاً

آخر .

لم أدرك أنها كانت تخفى عواطفها تحت ستارٍ من لهجة ساخرة ،
 وأن هذا هو المكر الأخير الذى تعمد اليه القلوب الزاخرة حياءً وخفراً ،
 القلوب المنعزلة المتوحدة ، حين يريد أحد أن يقتحمها اقتحاماً مباغتاً
 عنيفاً ، فاذا هى تأبى الاستسلام مستكبرةً متعاليةً ، واذا هى تخشى أن
 تظهر ما تضرره من عواطف • كان يكفى أن ألاحظ ما ظهر عليها من
 تردد ووجل حين استأنفت جملةً عدة مرات قبل أن تعزم أمرها على
 النطق بها ، كان يكفى أن ألاحظ ذلك حتى أدرك كل شيء • ولكننى
 لم أحزر شيئاً ، واجتاحتنى عاطفة شريرة •

قلت لنفسي : « مهلاً ! انتظر قليلاً ! » •

٧



يا ليزا ! أنا أقرأ في كتاب ؟ صحيح أنتي
لا علاقة لي بالأمر ، ولكنني أشعر باشمئزاز •
ثم ان الأمر يهمني • لقد استيقظت روحي في
هذا المساء • أصبح أنك لا تحسین هنا بتقزز
عميق ؟ ألا ان للعادة تأثيراً خارقاً • الشيطان وحده يعرف الى اين يمكن
أن تؤدي العادة بالانسان ! أتعتقدین حقاً بأنك لن تهرمی قط ، وبأنك
ستظلین جميلة ، وبأنهم سيحتفظون بك هنا دائماً ؟ لست أكلمك عن
وحل هذا المكان • ولكن اليك ما سأقوله لك عن حياتك في هذه الدار:
أنت الآن فتية ، وأنت الآن نضرة ، وان لك الآن لروحاً وعواطف •
ولكن هل تعلمين أنتي حين صحوت منذ قليل ، قد آلتني أن أجد نفسي
بالقرب منك ؟ ان الرجل لا يسقط في حماة هذا المكان الا وهو في حالة
سكر تام • أما لو التقيت بك في مكان غير هذا المكان ، وكنت تعيشين كما
يعيش الشرفاء من الناس ، لكان من الممكن لا أن أغازلک فحسب ، بل
وأن أهيم بحبك أيضاً ، ولكان من الممكن أن تسعدني منك لا كلمة
فحسب ، بل نظرة واحدة أيضاً • كان من الممكن أن انتظرك على الباب ،
أن أقضي ساعات راکعاً أمامك ، كان من الممكن أن أعدك خطيبتی وأن
أؤمن بأن هذا يشرفني كثيراً • ما كان لي عندئذ أن أتجراً فأدنس
طهارتك ولو بالخيال • على حين أنه يكفيني هنا أن أصفر لك حتى

تهرعى الىّ وحتى تكونى مضطرة أن تتبعينى شئت أم أبيت • فلست أنا رهن مشيئتك بل أنت رهن مشيئتى • حين يلتزم أحقر فلاح بالقيام بعمل من الأعمال ، فانه لا يبيع نفسه كاملةً على كل حال ، وهو يعلم عدا ذلك أنه مستعبد الى حين ؟ أما أنت فمستعبدة الى الأبد • هلاً فكرت قليلاً فيما تبيعينه هنا ، هلاً فكرت قليلاً فيما تسلمينه للعبودية فى هذا المكان ؟ انه روحك وجسمك معاً ! لقد أصبحت لا تملكين أن تتصرفى بروحك • انك تسلمين حبك لأول سكران عابر ، ليدوسه بقدميه • مع أن الحب هو كل شيء • الحب جوهرة غالية ، الحب كنز الفتاة و ثروتها • ان من الناس من لا يحجمون عن التعرض للموت وعن بذل النفس فى سبيل أن يظفروا بهذا الحب • أما هنا فهل لهذا الحب من اعتبار ؟ لقد اشتريت جسماً وروحاً فى هذا المكان • وما حاجتهم الى حبك وقد استطاعوا أن ينالوا منك كل شيء حتى بدون حب ؟! • ما من اهانة أبلى من هذه الاهانة فى حق فتاة ، فهلاً فهمت هذا ؟

• سمعت من يقول انهم يتملقونكن هنا أيتها الحمقاوات ، فيأذنون لكنّ بعشاق تعاشرنهم معاشرة الخلان • ألا ان هذا لهزل وكذب • انهم يضحكون عليكم فتصدقنهم • هل صحيح أن خليلك يجبك حقاً ؟ أنا لا أصدق هذا • كيف يمكنه أن يجبك وهو يعلم أنهم سينادونك فاذا أنت مضطرة أن تتركه لتمضى الى رجل آخر ؟ ألا انه لو بش حقير ونذل دنيء اذا هو ارتضى هذا ! وهل فى وسعه أن يحترمك ولو قليلاً من الاحترام ؟ ماذا يجمع بينكما ؟ انه يسخر منك ، ويسرق مالك فوق ذلك • هذا هو حبه كله • ويا للسعادة اذا هو لم يضربك • وقد يضربك على كل حال • اطلب من خليلك ، اذا كان لك خليل ، أن يتزوجك •

لسوف ينفجر ضاحكاً أمام أنفك ، هذا اذا لم يبصق فى وجهك أو لم يصفعك • وهو نفسه لا يساوى أكثر من قرشين مثقوبين • هلا تساءلت

لماذا دفنت حياتك هنا ؟ أمن أجل أن يسقوك قهوة ويقدموا لك طعاماً ؟
ولكن ما هي غايتهم من اطعامك ؟ ألا انه ما كان لفتاة أخرى ، ما كان
لفتاة شريفة أن تستطيع ابتلاع لقمة من طعامهم ، لأنها تدرك غايتهم من
اطعامها . أنت مدينة للقوادة منذ الآن . وسيزداد دينها عليك وسيربو
يوماً بعد يوم ، وسيظل يزداد ويربو الى آخر أيامك ، الى أن يأتف منك
زبائنك ويعرضوا عنك مشمئززين . وسيحدث هذا قريباً . لا تتقي
بشبابك . الزمان يجرى هنا سريعاً . سوف تطردك يومئذ شر طردة .
ولكنها قبل أن تطردك ستلاحقك بالملامات والاهانات والشتائم ، كأنك لم
تهبى لها شبابك وصحتك ، وكأنك لم تبيعها روحك . سوف تقول انك
تسبين لها الدمار والحراب ، كأنك قد سرقت مالها ورميتها الى حضيض
البؤس . ولا تنتظري من أحد عوناً . ان رفيقاتك سيهوين على ظهرك
هن أيضاً ، مDAHنة للقوادة ، لأنهن جميعاً مستعدات في هذا المكان ،
قد فقدن منذ زمن طويل كل شفقة وكل وجدان . ان فيهن جنساً
وحقارة . وليس على وجه الأرض اهانات أقدر ولا أسوأ ولا أقسى من
الاهانات التي سيغمرنك بها . سوف تفقدين هنا كل شيء ، حتى دون
أن تلاحظي ذلك : سوف تفقدين صحتك وشبابك وجمالك وآمالك .
فما ان تبلغى الثانية والعشرين من عمرك حتى يكون مظهرك قد أصبح
مظهر امرأة في الثلاثين أو يزيد . وعليك أن تحمدى الله اذا أنت لم
تصابى بداء عضال ! لعلك تتخيلن أنك لا قومين هنا بأى عمل ، وأن
أيامك كلها أعياد . ألا ان عملك هنا لعمل مرهق ، عمل من أعمال
نزلاء سجون الأشغال الشاقة . ليس هناك عمل أسوأ من هذا العمل .
ان القلب لينوب دموعاً من شدة عذابه بمثل هذا العمل !

« ولن تجسرى أن تقولى كلمة ولا نصف كلمة حين ستطردين من
هذا المكان . ستصرفين كما لو كنت قد ارتكبت جريمة . ستهيين الى

منزل ثانٍ ثم الى منزل ثالث ، ثم الى منازل أخرى ، حتى ينتهى بك المطاف الى سينايا • وهناك سيضربونك : ان الصفعات هنالك ملاطقات • لن يستطيعوا أن يلاعبوك هنالك قبل أن يلكموك بضع لكلمات • هل تتصورين أن ذلك المكان ليس فظيماً الى هذه الدرجة ؟ ما عليك اذن الا أن تزوريه مرة فتعرفى الحقيقة بنفسك •

« لقد رأيت واحدة من تلك البنات هنالك على الباب فى ذات يوم من أيام رأس السنة • ان زميلاتنا أنفسهن قد طردنها الى الخارج على سبيل المزاح ، من أجل أن « يجلدنها الصقيع » قليلاً ، لأنها كانت تسرف فى البكاء • طردنها ثم أغلقن الباب • وفى الساعة التاسعة من الصباح كانت سكرى سكرأ تماماً قد تشعث شعرها وكادت تعرى ، وامتلاً جسمها بآثار الضرب : كان وجهها شديد البياض من المساحيق ، ولكن عينيها غائرتان والدم يسيل من أنفها وفمها • ان حوزياً من الحوزيين هو الذى جعلها على هذه الحال • كانت جالسة على درجات السلم الحجرى ، تمسك بيدها سمكة مملحة • وكانت تبكى وما تنفك تجمجم بكلمات غامضة عن مصيرها وتضرب السلم بسمكتها • وكان يحتشد حولها ويسخر منها حوزيون وجنود سكارى •

« أتظنين أن مصيرك لن يكون كمصيرها ؟ أنا أيضاً أود أن أظن ذلك • من يدري ؟ لعل هذه المرأة التى تحمل السمكة المملحة قد وصلت هى نفسها الى هنا منذ عشر سنين أو منذ ثمانى سنين ، لا يعلم أحد من أين ، وصلت نضرة كطفل ، بريئة طاهرة تجهل كل شئ عن الشر ، ويحمر خداه من كلمة • ولعلها كانت فى الماضى تشبهك : لعلها كانت شديدة الكبرياء سريعة التأذى لها هيئة كهية ملكة ، ولعلها كانت مقتنعة بأن السعادة الكاملة تنتظر الرجل الذى سيحبها وتوجه • فهأت ذى ترين كيف كانت خاتمتها !

« ما قولك اذا تذكرت هذه المرأة ، أثناء سكرها وتشعث شعرها وضربها درجات السلم بسمكتها المملّحة ، ما قولك اذا هي تذكرت الماضي : اذا هي تذكرت السنين الطاهرة التي قضتها في منزل أهلها ، وتذكرت المدرسة وابن الجيران الذي كان يترقبها في الطريق ويحلف لها ليحبها الى الأبد ، ويعدها بأن يقف عليها حياته ، فاذا هما يتعهدان على أن يبقى جبهما خالداً وعلى أن يتزوجا متى أصبحا في سن الزواج ؟

« آه يا ليزا ! لسوف يكون حظك سعيداً اذا أمكنك أن تموتى هنالك في ركن بالقبو مئة سريعة بمرض السل كما ماتت الأخرى . انك تتكلمين عن المستشفى . ليتك تُنقلين الى المستشفى . ولكن ماذا اذا كنت مدينة للقوادة ، وكانت القوادة في حاجة اليك ؟ ان السل داء يطول أمره ، فما هو حمى طارئة تخطف الحياة خطفاً . المريض بالسل يظل الى آخر لحظة يأمل أن يكون في صحة حسنة ويؤكد أنه في صحة حسنة . انه يعزى نفسه . . . والقوادة تجنى من هذه الحالة النفسية نفعاً . ان الأمر هو على ما وصفت . لقد بعثها روحك ، وما تزالين مدينة لها فوق ذلك بمال ، فلم يبق لك بعد هذا حق في الكلام .

« حتى اذا جاءت ساعة الاحتضار أعرض الجميع عنك ونسوك ، اذ لا يبقى لهم فيك مأرب ، ولا يبقى لهم فيك نفع . حتى أنهم سيلومونك على أنك ما تزالين تشغلين مكاناً كبيراً ولا تموتين بسرعة . فاذا اشتد بك الظمأ سقوك ، ولكنهم يسقونك عندئذ شاميين ، قائلين : ألا فطست أخيراً أيتها الحفيرة ! انك تحرميتنا بأنينك من النوم ! وانك تثيرين في زبائتنا الاشمئزاز والتقزز . » هذه هي الحقيقة . لقد سمعت هذه الملامات بأذني .

« سوف يلقون بك شبه مئة الى ركن من القبو هو أكثر أركانها

قذارة ورطوبة وظلاماً • فما هي الحواطر التي ستمر في رأسك وأنت راقدة هنالك على الأرض وحيدة ؟

« حتى اذا مت أخيراً لمُوك بيد كارهة وهم يدمدمون متذمرين متململين قد نفذ صبرهم • لن يباركك عندئذ أحد ، ولن يتنهد أحد حين يفكر فيك ••• فانما المهم أن يتخلصوا منك بأقصى سرعة ! سيشترون تابوتاً حقيراً يضعونك فيه ، ثم ينقلونك على نحو ما نقلوا في هذا الصباح تلك الشقية التي ماتت في قبور بميدان سينايا • فمتى فرغوا من ذلك مضوا يشربون كأساً في كاباريه !••• وستكون حفرة قبرك مملوءة بالوحل والأقذار والثلج الذائب • انهم لن يزعجوا أنفسهم من أجلك أنت • « هياً يا فانيا ، أنزلها من هنا ! هذا مكتوب عليها • مكتوبٌ عليها أن تكون ساقاها هنا أيضاً مرفوعتين ••• شدّ الحبل يا غبي ! » - « حسن هكذا » - « ألا ترى أنها راقدة على الجنب • انها من مخلوقات الله على كل حال ! » - « هياً ••• حسنٌ هكذا ••• اجرف التراب » •

« ولن يتشاجروا طويلاً في سبيلك • سوف يدفنونك تحت طبقة رقيقة من طين رطب أزرق ، ثم يندفعون متجهين الى الكاباريه ! تلك هي نهاية ذكراك على الأرض • سوف يجيء الى القبور الأخرى أبناء وآباء وأزواج • أما قبرك أنت فلن تُسمع عنده زفرة ، ولن تسكب عليه دمة ، ولن يتذكره أحد • ما من أحد سيجيء اليك في يوم من الأيام • سيُمحى اسمك من على وجه الأرض ، فكأنك لم توجد ولم تولد • لا شيء الا الوحل ، لا شيء الا مستقع !••• وربما ارتطمت بغطاء تابوتك ساعة يستيقظ الأموات في الليل ، وهتفت تقولين : « دعوني أخرج أيها الناس الأخيار ! أريد أن أرى النور ! لقد عشت دون أن أعرف من الحياة شيئاً » فانما كنت خرقه ملقاة على الأرض يمسح بها

المارة أقدار أقدامهم • لقد شربوا حياتي هناك في سينيا ، في الكاباريه !
دعوني أعيش مرةً أخرى على الأرض أيها الناس الطيبون ! •

أصبحت لا أسيطر على نفسي من شدة الانفعال ، وهذه تشنجات
في حلقى تقطع كلامي على حين فجأة ••• نهضت مرتاعاً ، وملت برأسي
خائفاً مثل القلب ، وأصخت بسمعي : لقد كان هنالك ما يدعو الى
الاضطراب !

كنت قد شعرت منذ مدة طويلة أنني قد قلبت نفسها وحطمت
قلبيها • وكنت كلما ازددت اقتناعاً بذلك ازددت رغبةً في بلوغ الهدف
كاملاً وتحقيق النصر سريعاً • كان لعب الكلام يستهويني • على أن الأمر
لم يكن لعباً فحسب •••

كنت أعلم أن في أقوالى ثقلاً وخرافة واصطناعاً ، وأن كلامي
يشبه أن يكون « قراءة في كتاب » • ولكن ذلك لم يهمني • كنت أعلم
أنها ستفهمني ، وأن أسلوب الكتب هذا سيعينني هو نفسه في أن أحقق
معها نجاحاً كبيراً • ولكنني حين وصلت الى هذا الهدف شعرت بخوف •

لم تقع عيناى قبل الآن في يوم من الأيام على منظر يمثل ما كان
يمثله منظرها عندئذ من يأس رهيب ! كانت راقدةً على الفراش ، قد
دفنت وجهها عميقاً في وسادتها وعانقت الوسادة بيديها ، وأخذ الشهيق
يمزق صدرها • ان جسمها القتيّ يرتعش ويتنفّض متشنجاً وان دموعها
تخنقها وتنطلق على حين فجأة آهات وصرخات ، فإذا هي عندئذ تدفن
رأسها في الوسادة بمزيد من القوة ، لأنها لا تريد أن يطلع أحد في هذا
المنزل على دموعها وأن يعرف آلامها • وكانت تعض وسادتها وتعض
ذراعها عضاً شديداً يفجر منها الدم (لاحظت ذلك فيما بعد) ، وكانت

أصابعها تقبض على شعرها المبعثر ، وكان تستमित فى سبيل أنفاسها وأن
تبقى على شفتيها مطبقتين •

أردت أن أكلمها وأن أطلب منها أن تهدىء روعها ، ولكنى لم
أجرؤ أن افعل ، ثم اذا أنا ارتعش اتعاشاً قوياً وأصبح فى حالة أشبه
بالهلع ، وأطفق أَلَمْ أمتعى بالتلمس على حين فجأة من أجل أن أهرب •
كان الظلام حالكاً ، فلم أستطع رغم جميع جهودى أن أفرغ من لم
أمتعى بسرعة • وعثرت أصابعى بغتةً بعلبة كبريت وعثرت بشمعة
كاملة على منضدة صغيرة قرب علبة الكبريت • فما ان أضاء نور الشمعة
الغرفة حتى وثبت ليزا ، وجلست على أريكتها وحدقت الى بنظرة بلهاء
وابتسامة تشبه أن تكون ابتسامة انسان مجنون • جلست الى جانبها
ووضعت يديّ على يديها • ثابت الى نفسها • وامتدت ذراعاها نحوى
كأنما لتمسكنى ، ولكنها لم تجرؤ أن تفعل ، فما لبثت أن خفضت رأسها
ببطء •

قلت :

— ليزا ، صديقتى ، لقد أخطأت فى حقك ، سامحني ، اغفرى لى •
ولكنها ضغطت يديّ بأصابعها ضغطاً بلغ من القوة أننى صمت •
لقد أدركت أننى لم أقل ما كان ينبغى أن أقوله •

— اليك عنوانى يا ليزا • زورينى فى يوم من الأيام •

دمدمت تقول بلهجة جازمة ، ولكن دون أن ترفع رأسها :

— سأجىء •

— والآن أنصرف ••• وداعاً ! الى اللقاء •••

ونَهَضَتْ ، فنهضت هى أيضاً ، ولكنها احمرّت ، وفيما هى

ترتعى ارتعاشاً قوياً تناولت عن كرسىٍ منديلاً لفّت به عنقها وكتفها حتى الذقن ؛ حتى اذا فرغت من ذلك ابتسمت ابتسامة خجلى ، واحمرت من جديد ، وحدّقت ، الى نظرة غريبة • كنت أتألم ، ولم يكن لى الا همٌ واحد هو أن أنصرف بسرعة فأغيب •

قالت لى فجأة ونحن فى الدهليز قرب الباب ، قالت لى وهى تستوقفنى ممسكةً طرف معطفى :

— انتظر لحظة !

ومضت راکضة • لا شك أنها تذكرت شيئاً تريد أن تُرينيه • كانت عيناها تسطعان ، وكان خداها بلون الورد ، وكانت شفثاها بتسمان • ما هو الأمر ؟ انتظرت رغم ارادتى • فما هى الا دقيقة حتى عادت وفى نظرتها معنى طلب الصفح والمغفرة • كان وجهها قد تبدل • ليست نظرتها الآن مظلمة ريّابة عنيدة • ان فى عينيها ضراعة واستعطافاً ، وعذوبة ورقة ، وان فيهما كذلك شيئاً من الحجل ، ومن الحنان ، ومن الثقة • هكذا ينظر الأطفال الى من يحبونهم حين يهتمون أن يطلبوا منهم شيئاً • ان عينيها الشهابوين الصافيتين الجميلتين الزاخرتين بالحياة تجيدان التعبير عن الحب والكره كليهما على حد سواء •

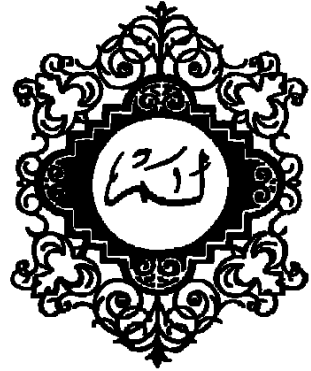
وفى صمت — كما لو كنتُ انساناً فذاً لا بد أن يفهم كل شيء دون شرح — مدّت الى ورقة • ان فرحاً ساذجاً يشبه أن يكون فرح طفل قد أضاء وجهها فى تلك اللحظة • فضضت الورقة • هى رسالة بعثها اليها طالب طبٍ أو شاب آخر يصارحها فيها بحبه بأسلوب يشتمل على شيء من البهرجة والتزويق ، ولكنه يشتمل كذلك على كثير من الاحترام • لا أتذكر الآن عبارات الرسالة ، ولكننى أتذكر أنها ، رغم أسلوبها المتفخم ، تشف عن عاطفة صادقة يستحيل أن تكون مزورة • فلما

فأغتربت من قناعة المسألة التي تظلم نظام ادعاء وأنها تحديق إلى

ويبضع كلمات سريعة لكنها زاخرة بالفرح والاعتزاز ، ذكرت لي
أنها حضرت سهرة راقصة عند أسرة محترمة ه أسرة محترمة جداً جداً ،
لا يعرف أحد من أفرادها عن شيئاً على الإطلاق حتى الآن ، ...
(ذلك أنها لا تعيش في هذا المحل الا منذ زمن قريب ... على سبيل

وسبب اعتبارها لنفسها ... لقد تذكرتها في تلك اللحظة لتفتخر أمامي
بهذه الكلمة ، لعلو قدرها في نظري ، لأقرأ هذه السطور فأهشها بها
وأغبطها عليها !

لم أقل شيئاً • صافحتها وانصرفت • كنت استعجل الانصراف •
عدت الى منزلى سائراً رغم أن الثلج الذائب ما يزال يهطل كتلاً
كبيرة • كنت مهدود القوى خائر العزيمة مسحوق النفس متردد الفكر
حائر الارادة • ولكن الحقيقة كانت تظهر من وراء تردد الفكر وحيرة
الارادة : كانت حقيقة دمية أشد الدعامة !



أقبل تلك الحقيقة بسرعة • وحين استيقظت
 فى الصباح بعد بضع ساعات من نوم ثقيل
 كالرصاص ، استعرضت ذكريات الأمس
 فأدهشتنى تلك « العاطفية المائعة » التى أظهرتها
 تجاه ليزا ، وأدهشتنى أحاديثنا تلك كلها عن « الشقة والشرف » • كيف
 أمكن أن أنقاد ذلك الانقياد الرخو لمثل تلك النوبة العصبية التى لا تجدر
 الا بامرأة ضعيفة ؟ ألا ان ذلك لأمر يثير الاشمئزاز ويبعث على التقزز !
 ولماذا أعطيتها عنوانى ؟ ما عسانى فاعلاً اذا هى جاءت ؟ أوه ! ألا فلتأت
 اذا شئت أن تأتى ! لا ضير •••

ولكن الشئ الهام الأساسى ، طبعاً ، هو أن أتصرف بسرعة لأسترد
 سمعتى فى نظر زفر كوف وسيمونوف مهما كلف الأمر • ذلك هو الأمر
 الوحيد الهام الخطير ••• وقد شغلنى هذا الأمر فى ذلك الصباح فنسيت
 ليزا نسياناً تاماً •

كان يجب علىَّ أن أردَّ الى سيمونوف دينه قبل كل شئ • فقررت
 أن أعمد الى اتخاذ اجراء يائس ، هو أن اقترض من أنطون أنطونوفتش
 خمسة عشر روبلاً بالتمام والكمال • وشامت المصادفة أن يكون أنطون
 أنطونوفتش رائق المزاج مشرق النفس فى ذلك الصباح ، فأعطانى المبلغ
 منذ طلبته ، فبلغت من شدة الفرح وأنا أوقع له سند استلام المبلغ اتنى

حكيت له ، منبسط النفس طلق اللسان مهملاً غير متحرج ، عن « حفلة القصف » التي أقمتها مع بعض الأصدقاء في « فندق باريس » توديعاً لرفيق من رفاق المدرسة - نعم لماذا لا أقول له هذا ؟ - واندفعت في الكلام قائلاً : « هو ! هو ماجن رهيب ... دللته الحياة ... سليل أسرة عريقة طبعاً ... على جانب عظيم من الثراء ... لامع في وظيفته ... فكه ... لطيف ودود ... متعجل - مع النساء طبعاً ، هه ؟ شربنا نصف دسته من زجاجات الشمبانيا فوق ما كنا نزمع أن نشرب » • هكذا اندفعت أقول في يسر وسهولة وانطلاق ، بلهجة مريحة ، راضياً عن نفسي كل الرضى سعيداً بها كل السعادة •

فلما عدت الى منزلى شرعت أدبج رسالة الى سيمونوف • ما زلت الى الآن معجباً بالأسلوب المضحى الصريح الودود الذى كتبت به تلك الرسالة • أنه اسلوب لا يحسنه الا « جنتلمان » • اتهمت نفسى في تلك الرسالة اتهاماً كاملاً ، على نحو بارع كريم نبيل ، دون أن أضمنها أية كلمة زائدة نافلة • اعتذرت اليه عما بدر منى « اذا كان يجوز لى أن أعتذر » ، وألححت خاصة على أتنى لم أعود شرب الخمر ، فلذلك سكرت سكرأ تاماً منذ الكأس الأولى التى احتسيتها قبل وصولهم ، بين الخامسة والسادسة (هذا ما زعمته !) • وقلت اتنى أتوجه بالاعتذار الى سيمونوف خاصة ، ولكننى أرجوه أن يبلغ الآخرين هذه الشروح ، ولا سيما زفر كوف الذى يترأى لى أتنى أسأت اليه وأهنته « فهذا ما أتذكره الآن كحلم من الأحلام » • وأعربت عن أسفى لعجزى عن الذهاب اليهم بنفسى للاعتذار ، بسبب ما أعانيه من صداع شديد ، وخاصة بسبب ما أشعر به من خجل !

وسرّتنى سروراً عظيماً ما لاحظته فى الرسالة التى جرى بها قلمى عفواً ، من « خفة » بل ومن « اهمال » (وهو اهمال مهذب على كل

(حال) • ان هذه الحقة وهذا الاهمال سيفهمانهم أكثر من أى شيء آخر
 فى هذا العالم أنتى أنظر الى كل تلك « القصة السخيفة التى جرت
 بالأمس » نظرة استعلاء • انتى ، أيها السادة ، لم أَسحق كما قد
 تتوهمون . بالعكس : انتى لا أنظر الى هذا الأمر كله الا نظرة «جنتلمان»
 يحترم نفسه بهدوء ورصانة • « ان لسنّ الشباب ضروراته وأحكامه » •
 قلت لنفسى وأنا أعيد قراءة الرسالة : « ألا ان فيها كذلك لشيئاً
 ارستقراطياً • لماذا ؟ لأننى رجل مثقف ، لأننى رجل ذكى ! ما كان
 لغيرى أن يعرف كيف يخرج من المأزق ، أما أنا فقد خرجت منه ،
 وهأنا ذا ألهو من جديد • انظروا كيف يكون المرء ابن زمانه ، متقفاً
 ذكياً ! على أن هذا كان ذنب الحمرة التى شربتها !... لا ... ليس
 هذا صحيحاً كل الصحة • أنا لم أشرب خمرة حين كنت انتظرهم بين
 الساعة الخامسة والساعة السادسة • لقد كذبت على سيمونوف ، كذبت
 بوقاحة ، ولست أشعر من ذلك بخجل ... »

على انتى لا أبالى بهذا كله بل أبصق عليه • فانما المهم هو أن
 أخرج من الأمر •

وضعت فى الظرف ستة روبلات ثم ختمته وطلبت من آبولون أن
 يحمله الى سيمونوف • فلما علم آبولون أن فى الظرف مالاّ شعر بشيء
 من الاحترام ورضى أن يحمل الظرف الى العنوان الذى ذكرته له •

وفى المساء خرجت أتنزه • كنت ما أزال أشعر بصداع ودوار •

ولكن مشاعرى وخواطرى أخذت تختلط وتضطرب بمقدار ماكان
 الليل يهبط والظلام يتكاثف • كان فى نفسى ، فى قرارة قلبى ، فى أعماق
 ضميرى ، شيء لا يريد أن يموت ، شيء يتجلى فى قلق غريب • أخذت
 أتجول فى أكثر الشوارع ازدحاماً بالناس وامتلاءً بالحركة : شوارع

ميسثناسكيا ، شارع سادوفايا ، نواحي حديقة يوسوبوف • كنت أحب أن أتجول في هذه الشوارع خاصة عند نهاية النهار ، حين تكون زاخرةً بالخلق من مارة عابرين وتجار وأصحاب عائدين الى منازلهم بعد فراغهم من العمل وقد ظهرت في وجوههم علائم التعب • ان الشيء الذي كنت أحبه خاصة هو هذه الحركة المتبدلة في الحياة اليومية • غير أن هذا الاضطراب قد أثار أعصابي مزيداً من الاثارة في هذه المرة • أصبحت لا أستطيع السيطرة على نفسي • كان شيء ما يستيقظ في نفسي استيقاظاً مؤلماً موجعاً ولا يريد أن يسكن ويهدأ • رجعت الى الدار مضطرب النفس والفكر • لكأن ضميري مثقل بجريمة ارتكبتها •

كان يعذبني تصوري أن ليزا ستجىء • شيء غريب : بين جميع ذكريات الليلة البارحة ، كانت ذكرى ليزا بارزة مستقلة ، وكانت ترهقني ارهاقاً خاصاً • كنت عند هبوط المساء قد انقطعت عن التفكير في كل ما عدا ليزا ، وكنت من جهة أخرى ما أزال راضياً عن رسالتي الى سيمونوف ، حتى اذا تذكرت ليزا زال رضاي واعتكرت نفسي ، فكان يخل الى أن سبب عذابي انما هو ليزا •

كنت أقول لنفسي بغير انقطاع : « ما عساني فاعلاً اذا هي جاءت ؟ طيب ... فلتجىء ... ما عليها الا أن تجىء ! ... هم ... ان الشيء المزعج خاصة هو أنها ستترى كيف أعيش • لقد مثلت أمامها بالأمس دور البطل ، والآن ... آه ... أخطأت حين اندفعت ذلك الاندفاع • ان هذا المسكن بائس • وكيف رضيت أن أذهب الى المطعم للعشاء بهذه الثياب ؟ ما أحقر هذه الأريكة المنجدة بقماش مشمّع ، الممزقة المهترئة ، التي يخرج قشها من كل جهة ! ما أبشع ثوب المنزل هذا الذي ارتديه ! انه خرقة رثة بالية ! ... سوف ترى ليزا كل هذا • وسوف ترى أبولون • لا شك أن هذا الحيوان أبولون سوف يهينها • سوف ينتحل

أى عذر لاهاتها ، ولو فى سبيل اغاظتى • أما أنا فسأخاف ، على عادتى
فى الخوف • سوف أتهزز أمامها وأتلفف بشوبى وأبتسم وأكذب •
يا للفظاعة ! ولكن هذا ليس كل شئ : هناك ما هو أخس وأحقر !
نعم ! سيكون على أن أضع ذلك القناع الكاذب من جديد ! • • • • •
احمر وجهى احمراراً شديداً •

« الكاذب ؟ أكان قناعاً كاذباً ؟ لقد تكلمت بالأمس مخلصاً كل
الاخلاص • اننى اتذكر هذا • كان يهزنى انفعال صادق • كنت أريد أن
أوقظ فى نفسها عواطف كريمة نبيلة طيبة • ومن الخير أنها بكت • ان
للبياء أثراً حسناً • »

ولكننى لم أفصح مع ذلك فى تهدئة نفسى • ولبث طوال المساء ،
حتى بعد الساعة التاسعة ، أى حتى بعد الساعة التى يمكن أن تأتى فيها
ليزا ، لبث لا أنقطع عن التفكير فيها وعن رؤيتها بالحىال على نحو
ما تبدت لى البارحة فى لحظة خاصة أثرت فى نفسى تأثيراً شديداً ،
وهى اللحظة التى أشعلت فيها عود الكبريت فأضاء نوره وجهها الشاحب
ونظرتها الأليمة وابسامتها المتكلفة المريرة • ألا ما أكثر ما كان فى تلك
الابتسامة التى تبعث على الشفقة من افتعال وتوتر ! ولكننى كنت ما أزال
أجهل أننى سأظل خمسة عشر عاماً أتذكر ليذا خلالها على هذه الصورة ،
مبتسمة تلك الابتسامة نفسها ، تلك الابتسامة المفتعلة التى تبعث على
الشفقة •

وفى الغداة كنت مستعداً لأن أنظر الى كل ما جرى على أنه ترهة
من الترهات ضخمتها أعصابى المريضة تضخيماً كبيراً • لقد كنت أدرك
حق الإدراك تلك الآفة من آفات طبعى وكنت أخشأها كثيراً ، فكنت
لا أبرح أردد قائلاً : « اننى أبالغ دائماً ، وهذه علتى وبلواى » • ولكننى

كنت أقول لنفسي مع ذلك : « ستأتي ليزا ... لا شك في أنها ستأتي » .
كانت هذه العبارة هي اللازمة التي أختتم بها جميع خواطري • وقد بلغت
الاعتناء بهذا أكثر من أي شيء آخر في حياتي .

وغيظ مسعور ، فإذا أنا أطفق راكضاً في الغرفة صائحاً : « ستأتي حتماً » .
ان لم تأت اليوم فستأتي غداً • سوف تكشفني ! أوه ! تبا لرومانسية
القلوب الطاهرة ! أوه ! هذه خسة ! أوه ! يا لتفاهة هذه النفوس
العاطفية السخيفة ! كيف لا أدرك هذا ؟ كيف لا أدرك هذا ؟ • ولكنني
كنت ما ألبث أن أتوقف وقد بلغ مني الاضطراب كل مبلغ •
قلت لنفسي : « لقد كفتني كلمات قليلة وقصيدة قصيرة ، قصيدة
هي من جهة أخرى كاذبة مخترعة ملفقة ، فقبلت حياة بأكملها رأساً على
عقب • يا للأرض العذراء ! » •

وكان يخطر ببالي أحياناً أن أذهب إليها بنفسي فأذكر لها كل شيء
وأطلب منها أن لا تجيء إليّ • ولكن ما ان تراودني هذه الفكرة حتى
يجتاحني حنقٌ يبلغ من الشدة أنني أتصور أن من الممكن أن أسحق
« ليزا اللعينة » هذه لو رأيته ، أن أطردها وأبصق عليها وأطردها
وأضربها •

وانقضى يوم ، ثم انقضى يوم ثانٍ فثالث ولم تجيء ليزا • وكنت
استرد رباطة جأشي على وجه عام بعد الساعة التاسعة من المساء ، حتى لقد
كنت أسترسل عندئذ في أحلام عذبة ممتعة : « هأنذا ، مثلاً ، أنقذ ليزا
بمجرد التحدث إليها حين تجيء إليّ » • • • • • أنني أتقفها وأنشئها • وألاحظ
أخيراً أنها تحبني ، انها تحبني حباً عنيفاً ، فأتظاهر بأنني لا ألاحظ
ذلك (لماذا أتظاهر بهذا التظاهر ؟ لا أدري • • • • • ربما كان ذلك عن
ميلٍ إلى اصطناع العواطف الجميلة) • وها هي ذى ، آخر الأمر ،
ترتمي على قدمي مضطربة مرتعشة باكية ، فتقول لي أنني منقذها

ومخلصها وانها تحبني أكثر من أى شئ فى هذا العالم ، فيأخذني ذهول وأقول لها : « أنت تتخيلين حقاً يا ليزا أنتى لم ألاحظ حبك ؟ لقد رأيت كل شئ وأدركت كل شئ ، ولكننى لم أجرو أن استولى على قلبك لأننى كنت أؤثر فيك فكنت أخشى أن تقسرى قلبك قسراً على الاستجابة لحبى وأن يضطرك العرفان بالجميل الى أن تحرّضى فى نفسك حباً قد لا يكون له وجود . كنت لا أريد ذلك ، والا كنت أسيطر وأستبد وأسلك سلوكاً لا يجعل بي أن أسلكه (الخلاصة أنتى كنت استرسل هنا فى عاطفيات مرهقة لطيفة تبلغ غاية النبل ، عاطفيات «أوربية» حقاً على طريقة جورج صاند) . أما الآن فأنت لى أنا ، أنت من صنعى أنا ، وأنت جميلة ، وأنت زوجتى ! » .

« هذا بيتى فادخله ، بجرأة وحرية ، سيدة لى » * .

ثم نعيش بعد ذلك سعيدين ، ونسافر الى الخارج ، الخ
الخلاصة أنتى كنت أبلغ من الاسترسال فى مثل هذه الاحلام حدّاً لا يسعنى معه الا أن أشعر بخجل ، فاذا أنا أمدّ لسانى لنفسى أمام المرأة آخر الأمر .

وقلت لنفسى : انهم لن يدعوا لها أن تخرج على كل حال . ليس يُسمح لهنّ بالخروج عامةً ، ولا سيما فى المساء (لا أدري لماذا كنت أتصور أنها ستجىء مساءً ، فى الساعة السادسة على وجه الدقة) . ولكنها قالت لى انها لم ترتبط بعد ارتباطاً تاماً وانها تتمتع بحقوق خاصة . اذن . . . هم . . . سوف تجىء ! أنا واثق بأنها سوف تجىء !

ومن حسن الحظ أنتى كان لى طوال ذلك الوقت ما يسلىنى ويشغلنى عن نفسى ، ألا وهو آبولون ووقاحاته التى تخرجنى عن طورى . لقد كان آبولون جرحاً أو طاعوناً أرسلته الى السماء . كنا

تراشق كلمات لاذعة منذ عدة سنين ، وكنت اكرهه . رباه ! لشد ما كنت اكرهه ولا سيما فى بعض اللحظات ! هو رجل متقدم فى السن وقور المظهر ، يعمل فى ساعات فراغه خياطاً . كان يحقرنى ، لا أدري لماذا ، يحقرنى احتقاراً لا حدود له ، وينظر الى دائماً من على . على أنه كان ينظر الى جميع الناس هذه النظرة . حسبك أن ترى رأسه وشعره الأملس الأشقر الباهت وذؤابته التى يجعلها ويعتق بتدهنها ، وفمه القاسى الذى يشبه الحرف لا ؛ حسبك هذا حتى تدرك فوراً أنك أمام انسان لا يخامره أى شك فى قيمة نفسه . انه رجل متحذلق متفيهق الى أبعد حد ، بل انه بين جميع من رأيت على وجه الأرض من رجال أشد لهم تحذلقاً وتفيهقاً . وقد أوتى عدا ذلك غروراً خليقاً بالاسكندر المقدونى . كان مولهاً بكل زر من أزراره ، وكل ظفر من أظفاره . نعم كان مولهاً . . . ان مظهره ينبىء بذلك ويدل عليه . وكان يعاملنى معاملة طاغية مستبد ، ولا يكلمنى الا قليلاً ، فاذا اتفق أن ألقى على نظرة ، كان فى نظرتة دائماً أبهة وعظمة وغرور وشئ من سخرية ، فكان هذا يثير حنقى ويؤجج نار غيظى .

وكان يقوم بواجبات الخدمة وكأنه يتفضل على أكبر التفضل ويحسن الى أعظم الاحسان . وكان من جهة أخرى لا يكاد يعمل من أجل شئاً ، ولا يعد نفسه مضطراً الى أن يعمل شئاً . وليس يخامرني أى شك فى أنه كان يعدنى أغبى الأغبياء طراً ، واذا كان يحرص على فلأنتى أدفع له حقوقه كل شهر ، فهو « يرتضى » أن لا يعمل شئاً جزاء الروبلات السبعة التى يتقاضاها أجراً . ألا ان الله سيفغر لى كثيراً من الذنوب بسبب ما قاسيته من هذا الرجل . كان كرهى له يبلغ فى بعض الأحيان من الشدة ان صوت وقع خطواته كان يكفى لأن يثير فى جسمى تشنجات قوية . على أن « زأزأته » فى النطق هى التى كانت تبعث فى

نفسى الاشمئزاز خاصة . كان لسانه مفرطاً فى الطول بعض الافراط ،
أو كانت به آفة أخرى من هذا النوع ، فكان لذلك يقلب « الجيم » فى
نطقه « زايًا » ، وكان هذا يفرحه كثيراً ، لأنه يتخيل أن هذا العيب فى
النطق يزيد مهابة وجلالاً . وكان آبولون يتكلم بصوت هادىء
متساو ، واضعاً يديه وراء ظهره خافضاً عينيه . ولكنه كان يفيطنى
خاصةً حين يأخذ تلك الدرسات آف . كنه وراء الجحش الذى يفصل

يجب قراءة الزامير فى المساء خاصة ، فاذا صدح بها صوته الهادىء
المتساوى المنغم فى جوف الليل ، حسبته يسهر على جثمان ميت . والى
هذا انما انتهت حياته فى الواقع حين أصبح يكلّف بتلاوة الزامير على
الأموات . وهناك اختصاص آخر له : كان آبولون يبيد الفئران ويصنع
دهاناً لتلميع الأحذية .

ولكننى لم أكن أستطيع طرده ، فكأنه مرتبط بحياتى ارتباطاً
لا انفصام نه ؛ وما كان له هو نفسه أن يقبل تركى على كل حال . كان
يستحيل علىّ أن أقيم فى غرفة مؤثثة : لقد كان مسكنى هو فوقعتى التى
ألجا إليها ، وأحتفى بها من الانسانية بأسرها ؛ وكان يخيل الىّ -
لا يدرى الا الشيطان لماذا - أن آبولون جزء من هذا المسكن لا ينفصل

— لا شيء الا أن أبرهن له على أنه ليس من حقه أن يتعاضم علىّ ، وأن
في امكاني دائماً أن لا أدفع له أجره • وقررت في هذه المرة أن لا أقول
له شيئاً ، قررت أن أصمت لأتصر على صلفه وكبريائه ، لأجبره على أن
يطلبني هو بالأجر ؟ فإذا طالبني أخرجت من درجتي سبعة روبلات ،
فأريته أنني أملكها ، وأنتي قد وضعتها جانباً ، ولكنني لا أريد ، نعم
لا أريد أن أعطيه اياها ، لأن هذا يحلوني ، لأن مشييتي تريد ذلك ،
ولأنه وقع ، ولأنه فظ غليظ • ولكن اذا ارتضى أن يكلمني بأدب
وتعظيم فقد بددت قلبي فأدفع له المال ، أما اذا لم يفعل ذلك فـ

عليه أن ينتظر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أو شهراً بكامله •

ولكن آبولون هو الذي انتصر رغم غضبي الشديد • أنني لم
أستطع أن أصمد أكثر من أربعة أيام • أخذ يفعل ما يفعله دائماً في
مثل هذه الحالات ، ذلك أن هذا الأمر قد سبق أن حدث قبل هذه المرة
(وكنت عرف أسلوبه الدنيء وأتتبع به سلفاً) فهو في البداية يوجهني الى
نظرة قاسية خلال بضع دقائق ، ولا سيما عند خروجي من البيت أو
عودتي اليه • فإذا صمدت فتظاهرت بأنني لا ألاحظ ما يفعله ، ظل يلتزم
الصمت ولكنه يشرع عندئذ في سلسلة أخرى من الوسائل ، فإذا هو
يدخل الى غرفتي بخطي بطيئة على حين فجأة دون أي سبب ، بينما أنا
أنا أأه أسد في الغرفة طويلاً وعرضاً ، فقف في الباب جاعلاً إحدى

ساقيه ممتدة الى أمام ، وأحدى ذراعيه وراء ظهره ، ويأخذ يتفرس في
بنظرة ليس فيها قسوة فحسب ، بل فيها كذلك ازدراء شديد واحتقار
عميق • فإذا سأله ماذا يريد لم يجب عن سؤالي ، وظل ينظر الىّ خلال
بضع ثوان أخرى ثم زمّ شفّتيه زمّاً بليغ الدلالة ، وتحول عني ببطء ،
ورجع الى غرفته بخطي وثيدة ؟ فما تكاد تنقضي ساعتان حتى يخرج من
غرفته مرة أخرى ويظهر أمامي من جديد فيجنّ جنوني من شدة

الغضب ، ولكننى لا أسأله عندئذ عما يريد ، وانما أرفع رأسى بحركة متكبرة متسلطة ، وأخذ أهدق الى عينيه بنظرة ثابتة لا تريم ، فلبث على هذه الحال فى بعض الاحيان دقيقة أو دقيقتين ، فيتحول عنى أخيراً ببطء وأبهة ، ثم يغيب ساعتين آخرين •

فاذا لم يؤثر هذا فى فاستمررت فى تمردى وعصيانى أخذ يتنهد وهو ينظر الى تنهداً بطيئاً عميقاً ، كأنه يقيس به عمق سقوطى الاخلاقى كله ؛ وينتهى كل شىء بعد ذلك بانتصاره هو طبعاً ، فأنا أنور وأصرخ حانقاً ، ولكننى أكون مضطراً الى تحقيق ما يتوقعه منى •

أما فى هذه المرة فما كادت تبدأ مكائده الأولى التى قوامها نظرات قاسية حدة اندفعت اندفاعاً شديداً وأسعت أهدى عالمى كنت أعلمه ،

مهتاجة مفرطة فى الاحتياج !•••

صحت أقول له وهو يتحول عنى بطيئاً صامتاً ، ويتجه الى غرفته جاعلاً يده وراء ظهره ، صحت أقول له :

– قف ! ارجع ، أقول لك ارجع !

ويظهر أن صيحتى كان فيها من الكرب واليأس ما جعله يدور على عقبه وينظر الى شىء من دهشة ، غير أنه ظل يتفرس فى صامتاً ، وهذا بعينه ما كان يؤجج حلقى •

– كيف تجرؤ أن تدخل على بغير استئذان وأن تنظر الى هذه النظرة ؟ أجب !

فبعد أن تفرس فى قرابة ثلاثين ثانية ، ظهر عليه من جديد أنه يهم أن ينصرف • فزارت قائلاً وأنا أركض نحوه :

– قف ! اياك أن تتحرك ! هه ! أجبنى الآن : لماذا كنت تنظر

الى ؟

فلبت صامتاً برهةً قصيرةً ، ثم قال يجيب « مزأزئاً » بصوت هادئ ،
موزون ، وهو يحنى رأسه بوقار رهيب :

- اذا كنت تأمرنى بشيء فعلىَّ واجب الطاعة والتنفيذ .

فصحت أقول وأنا أرتجف من شدة الغضب :

- لست أكلمك عن هذا ، لست أكلمك عن هذا أيها السفاح .

سأقول لك أنا نفسى سبب مجيئك الى هنا أيها السفاح : انك ترى اننى
لم أدفع لك أجرك ، ولكنك لا تريد أن تطالبنى به زهواً منك وصلفاً ؛
ومن أجل أن تعاقبنى انما تجيء تلقى علىَّ هذه النظرات البلهاء ، من
أجل أن تعاقبنى ، من أجل أن تعذبنى . ولكنك لا تتصور ، أيها
السفاح ، مدى ما فى سلوكك هذا من غباوة ، من غباوة ، من غباوة ،
من غباوة !

وهمَّ مرةً أخرى أن يترك الغرفة وهو ما يزال صامتاً ، ولكننى
أمسكت بشيابه ، وصرخت أقول له :

- اسمع . انظر الى المال . هل تراه ؟ (أخرجت المال من الدرج) .
هى سبعة روبلات بالتمام والكمال . ولكنك لن تنالها ، لن تنالها ما لم
تجىء الىَّ مستغفراً باحترام . هل فهمت ؟
فأحانت قائلاً : زانة خارقة :

- لن يكون هذا !

فصرخت أقول :

- بل سيكون . يميناً سيكون !

وتابع كلامه وكأنه لم يلاحظ صرخاتى :

- ليس علىَّ أن استغفرك ، لأنك أنت الذى وصفتنى منذ هنيهة

بأننى سفاح ، حتى ليكنتى أن أشكوك الى رئيس الشرطة .

فصرخت أقول بصوت حاد وأنا أقبض على كتفه :

- عليك برئيس الشرطة ، عليك به ! اذهب اليه حالاً ، بلا إبطاء !
هذا لا يمنع أنك سفاح ، سفاح !

ولكنه اكتفى بأن نظر الىّ ، ثم استدار وخرج بخطاه الوئيسة
المتساوية دون أن يلقي بالاً الى صرخاتي ودون أن يلتفت •

قلت لنفسي : « لولا ليزا لما حدث شيء ! » ، وانتظرت قرابة
دقيقة ، ثم سرت بأبهة وعظمة ، ولكن على خفقان ثقيل في قلبي ، الى
الركن الصغير الذي يشغله آبولون وراء الحاجز •

قلت بصوت رقيق ولكنه مختنق :

- آبولون ! هياً اطلب رئيس الشرطة حالاً دون أن تضيع لحظة
واحدة •

كان آبولون قد استقر أمام منصدته ووضع نظارتيه واستعد لحياطة
شيء ما ، ولكنه حين سمع الأمر الذي أصدرته اليه انفجر يضحك
في قهقهة يحاول مغالبتها •

- امض الى رئيس الشرطة ! امض اليه فوراً ! انك لا تستطيع حتى
أن تتخيل ما قد يقع !

قال حتى دون أن يرفع رأسه ، قال « مزأزئاً » وهو يحاول أن
ادخال الحيط في سم ابرته :

- لقد فقدت عقلك حقاً ! أين رأى الناس رجلاً يشي بنفسه الى
الشرطة ؟ أما اذا كنت تريد أن تخيفني فعبث ما تفعل ، لأنك لن تظفر
بذلك •

عدت أصرخ بصوت حاد وأنا أمسك كتفه :

- اذهب الى رئيس الشرطة •

وكدت أضربه •

• لكن نادى جحوة المدخل ، فتبعه فـ تلك اللحظة نفسها بطريق دوار

الارتباك • رفعت عيني ، فذهلت ، ثم أسرعته أمضى الى غرفتي طائش
العقل من الشعور بالحزى والعار • وهناك أمسكت شعري بكلتا يديّ ،
وأسندت رأسي الى الجدار ، ولبثت على هذه الحال أنتظر •
وبعد دقيقتين سمعت وقع خطوات آبولون البطيئة •
قال لي وهو ينظر الى نظرة شديدة القسوة :

— شخص يسأل عنك •

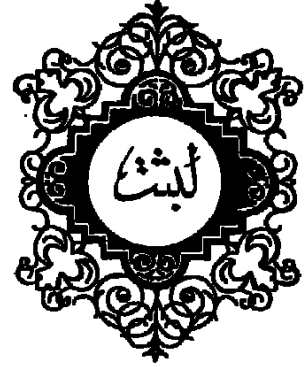
ثم تنحى فدخلت ليزا •

كان لا يريد أن ينصرف ، وكان يتفرس فينا كلينا وقد ظهرت في
وجهه معاني السخر • فصرخت أقول له وقد جن جنوني :

— اذهب ! اذهب !

وفي تلك اللحظة جهدت ساعة الحائط في بيتي ، فسعلت تدق
الحامسة •

« هذا بيتي فادخله ، بجرأة وحرية ، سيادة لي »



أمام ليزا تائه العقل مسحوق النفس أشعر
بخجل رهيب ؛ وأظن أنني كنت ابتسم حين
أخذت أحاول أن أتلفف بثوبي المهترىء القدر ،
على نحو ما كنت أتصور ذلك تماماً منذ قليل .
وقد تركنا آبولون بعد أن انتظر دقيقتين ، ولكن حالتني لم تتحسن .
وأنتكده ما فـ الأمل أن لنا حينئذٍ عا هذه الحال ، من الأضواء .

قلت لها على نحو آلي وأنا أقرب كرسيًا من المائدة :
- اجلس !

وجلست أنا على الأريكة . فسرعان ما أطاعتني فجلست وهي
تحدثني إلى عيني . كان واضحاً أنها تتوقع أن يصدر عني شيء خارق .
وقد أثار هذا التوقع حنفي ، ولكنني كنت ما أزال مسيطراً على نفسي .
كان عليّ أن لا ألاحظ شيئاً ، كأن ما يجري طبعي تماماً ،

- لقد فاجأتني يا ليزا وأنا في وضع غريب ...
 فلما رأيتهما تحمرُّ على حين فجأة أردفت أقول صائحاً :
 - لا ، لا ، لا يخطر على بالك شيء • لست بالخجلان من فقرى
 ... بالعكس • أنا به معتر • نعم أنا فقير ، ولكننى شريف ...
 وتابعت كلامى مدمماً :
 - يمكن أن يكون المرء فقيراً وشريفاً • ثم ان ... ألا تريدان
 شيئاً من الشاي ؟
 قالت :
 - لا ...
 قلت :-
 - انتظري !
 ووثبت عن أريكتي ومضيت الى آبولون • كان لا بد لى من أن
 أغيب فى مكان ما •
 دمدت أقول له محموراً وأنا أرمى أمامه على المائدة الروبلات
 السبعة التى كنت ما أزال قابضاً عليها فى راحة كفى :
 - آبولون • اليك أجرك • أرايت ؟ هأنا ذا أعطيتك أجرك • ولكن
 عليك أن تنقذنى : اتنى فوراً ، من الدكان القريبة ، بشاي وعشر
 بسكويئات • فاذا لم تفعل كنت تشقى انساناً • أنت لا تعرف ما هذه
 المرأة !... انها ... انك ستخيل لا أدري ماذا ... ولكنك لا تستطيع
 أن تتصور ما هذه المرأة !...
 كان آبولون قد استأنف عمله وأعاد وضع نظارتيه على أذنيه ،
 وها هو ذا يلقي على المال نظرةً من جانب ، دون أن يقول شيئاً وحتى

دون أن يترك ابرته ، وها هو ذا يستمر في عمله من غير أن يعييني •
لبثت واقفاً قربته ثلاث دقائق ، مصالباً ذراعيّ على طريقة نابوليون • كان
العرق يبلل صدغيّ • وأحسست أن وجهي قد اصفر اصفراراً شديداً •
ولكن لعل منظرى قد أثار شفقتة ولله الحمد ، فها هو ذا يضع ابرته على
المضخة ، ويضع يده على الكرسى مشدداً ، ويخلع نظاراته

وفيما كنت عائداً الى ليزا خطر ببالي أن أهرب ، كما أنا ، بثوب
المنزل ، وأن أمضى قدماً لا ألوى على شيء ولا أفكر في شيء •
رجعت الى مكاني وجلست • أخذت ليزا تنظر الىّ في قلق • ولبثنا
صامتين بضع دقائق •
صحت أقول وأنا أضرب المائدة بيدي ضربة بلغت من القوة أن
الحبر انبجس من المحبرة :

— سوف أقتله !

فصاحت تقول وهي تتنفض واثبة :

— رباه ! ماذا تقول !

فأعولت أقول وأنا أضرب المائدة :

— سوف أقتله ! سوف أقتله !

كنت فيما يشبه الهذيان ، ومع ذلك كنت أدرك ادراكاً تاماً أن من
الغباء أن أكون على هذه الحال •

وأردفت أقول :

ولم أستطع أن أتم جملة فقد أجهشت باكياً • كانت تلك نوبة
عصية • ما أشد ما شعرت به من خجل! • • • ولكنى لم أستطع أن
أسيطر على نفسى •

خافت ليزا • وصاحت تقول وهى تضطرب حولي :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فجمجمت أقول بصوت واهن :

— ماء ! اعطينى ماءً ! • • •

وكنت أدرك ادراكاً تاماً أننى أستطيع الاستغناء عن الماء ، وأستطيع
أن أتكلم بصوت أقوى وأثبت • ولكنى كنت أبالغ انقاداً للمظاهر ، رغم
أن نوبتى العصية صادقة غير مفتعلة • وفى تلك اللحظة جاء أبولون
بالشاي • فبدأ لى فجأة أن الشاي شئ مبتذل خالٍ من الشعر وأنه
يحدث أثراً تافهاً ضيعاً يكاد يكون غير لائق بعد كل ما جرى • فاحمر
وجهه خجلاً •

وخرج أبولون دون أن ينظر إلينا •

قلت وأنا أهدق الى عيني ليزا وأرتجف تحرقاً الى معرفة رأيها :

— ليزا ، أنت تحتقرينى ، أليس كذلك ؟

فاحمر وجهها ولم تستطع أن تجيب •

قلت لها غاضباً :

— اشربى الشاي !

كنت غاضباً من نفسى حانقاً عليها ، وواضح أن ليزا هى التى لا بد
أن تتحمل غضبى • وأحسست فجأة بكرة شديد لها وحقد قوى عليها :
كان يمكن أن أقتلها فى تلك اللحظة • وقررت عندئذ ، بينى وبين

نفسى ، أن أثار منها بأن أمسك عن الكلام فما أنطق بحرف • « أليست سبب كل شيء ؟ ... » • بهذا حدثت نفسى •

دام صمتنا أكثر من خمس دقائق • كان الشاى على المائدة ، ولكننا لم نلمسه • كنت فى حالة أرفض معها أن أكون البادى • بشرب الشاى ، وذلك لأجعل الموقف أكثر صعوبة وأشد حرجاً • وكان يضايقها هى أن تشرب وحدها • وهى تلقى على نظرات قلقة حزينة من حين الى حين • ولكن لا شك أننى كنت أشقى منها وأتعس ، لأننى كنت أدرك ادراكاً واضحاً جداً أن حلقى خسة وضعة ثم أنا لا أفصح فى كبح جماح نفسى والسيطرة على مشاعرى •

بدأت تقول أخيراً من أجل أن تنهى صمتنا :

– أريد أن أغادر ... نهائياً ... ذلك المنحل ! ...

يا للمسكينة ! ان هذا الكلام بعينه هو ما لا ينبغي أن يكون فاتحة الحديث فى تلك اللحظة البلهاء مع رجل يبلغ ما أبلغه أنا من بلاهة • شعرت بشفقة أليمة على صراحتها العقيمة وعجزها الحائف الوجيل • ولكن سرعان ما انبجس فى نفسى شيء خنق تلك الشفقة وحرّض حلقى مزيداً من التحريض ، فلو هلك العالم بأسره لما هزّنى ذلك !

وانقضت خمس دقائق •

سألتنى خجلةً بصوتٍ لا يكاد يُسمع :

– لعننى أضايقك ؟

وظهر عليها أنها تهم أن تهض •

ولكننى ما ان لاحظت هذه الحركة الأولى التى تدل على شعورها بكرامتها الجريحة حتى أخذت أرتجف غيظاً وحتى أطلقت ما كان يعمل

فى نفسى ، فقلت أسألها بصوت مخنوق دون أن أراعى فى كلامى أى نظام منطقى ، لأننى كنت فى حاجة الى أن أقول كل شىء فى آن واحد ، حتى دون أن أعبأ بالبداية :

— هلاً قلت لى لماذا جئت الى ؟ هلاً قلت لى ذلك من فضلك ؟ لماذا جئت ؟ أجيبنى ! أجيبى !

كذلك صرخت خارجاً عن طورى ثم أردفت :

— طيب ... سأقول لك أنا ، يا عزيزتى ، لماذا جئت ! لقد جئت لأننى قلت لك فى ذلك اليوم « كلمات مؤثرة » ، فرق قلبك ، فأردت أن تسمى كلمات أخرى من ذلك النوع . ألا فاعلمى أننى كنت فى ذلك اليوم أسخر منك وأضحك عليك ، واننى أسخر منك وأضحك عليك اليوم أيضاً . لماذا ترتعشين ؟ نعم ، لقد سخرت منك . كانوا قد أهانونى أثناء العشاء ... أولئك الذين وصلوا اليك قبلى ، وقد جئت لأنار من أحدهم ، من الضابط ، ولكننى لم أظفر بذلك ، فانهم كانوا قد انصرفوا وكان لا بد لى مع ذلك من أن أصب غضبى على أحد من الناس ، فظهرت أنت فى تلك اللحظة ، فتأرت لنفسى منك وضحكت عليك . لقد أذلونى فأردت أن أذل أحداً أيضاً . عاملونى كما تعامل خرقة بالية ، فأحييت أن أجرب أنا سلطتى ... ذلك ما جرى ، بينما تصورت أننى ما ظهرت الا لأنقذك . ألم تتخيلى هذا ؟ ألم تتخيليه حقاً ؟ هه ؟

كنت أعرف أنها مبلبله الفكر وأنها لن تستطيع أن تفهم جميع هذه التفاصيل ، ولكننى كنت أعرف فى الوقت نفسه أنها ستفهم الشىء الأساسى . وذلك ما حدث : اصفر وجهها اصفراراً شديداً وحاولت أن تكلمنى . تقلصت شفتاها من الألم . ثم تهالكت على كرسيها تهالك من ضرب بفأس . وظلت تصغى الى فاعرة الفم جامدة العينين مرتجفة من الخوف . ان ما فى أقوالى من وقاحة شديدة قد سحقها سحقاً تاماً .

صرخت قائلاً وأنا أنهض عن كرسي وأطفق أسير في الغرفة طويلاً
وعرضاً :

- أنقذك ؟ ممّ أنقذك ؟ ألا انتى قد أكون شراً منك • لماذا لم
تصرخى فى وجهى حين كنت ألقى عليك دروساً فى الأخلاق ، لماذا لم
تصرخى فى وجهى قائلة : « وأنت ما مجيئك إلينا ؟ أجئت من أجل اللقاء
درس فى الأخلاق ؟ » • ان ما كنت فى حاجة إليه حينذاك هو أن أمارس
سلطتى على أحد من الناس ، وكنت فى حاجة الى أن أعبت أيضاً : كنت
فى حاجة الى دموعك ، والى مذلتك ، والى نوبتك العvisية • ذلك ماكنت
فى حاجة إليه • ولكننى كنت لا أملك القوة اللازمة للصمود ، لأننى
لست الا خرقه ، فاذا أنا أخاف ، واذا أنا أعطيتك عنوانى ، لا يدرى الا
الشیطان لماذا ! وقبل أن أرجع الى البيت كنت أشتك وألنك بسبب ذلك
العنوان • وكنت قد كرهتك لأننى كذبت عليك • ذلك أنتى ان كنت
أحب العبت فى الكلام والأقوال ، وان كنت أحب أن أحلم أيضاً ، فان
الشىء الذى أريده فى الواقع هو أن تغوروا جميعاً ، هو أن تذهبوا جميعاً
الى مكان ما لا أستف حاجة الا الى هذا أنا فى حاجة الى المصمود

هادئاً مطمئناً ! لو سئلت ماذا تؤثر : أن يهلك العالم كله أو أن تحرم
من احتساء نصيبك من الشىء لقلت : ألا فليهلك العالم شريطة أن أشرب

أستحي من أى شيء آخر ، أكثر مما استحي من السرقة ، وأنتى أخافه وأخشاه - لانتى أبلغ من حب الذات درجة يترامى لى معها أن الناس تسليخ جلدى حياً ، وأن ملاسمة النسيم وحدها تؤذيني وتؤلنى • فهل أدركت أخيراً أن رؤيتك اياى مرتدياً ثوبى هذا هاجماً على آبولون هجوم كلب من الكلاب الشرسة أمرٌ لن أغفره لك ما حيت ؟ لقد رأيتَ البطل المنقذ يهجم على خادمه الذى يسخر منه كما يهجم كلب متسخ ! لا ولن أغفر لك فى يوم من الأيام تلك الدموع التى لم أملك الا أن أذرفها أمامك كما تفعل امرأة ضببت متلبسةً بالعار • لا ولن أغفر لك اعترافى هذه نفسها ! نعم ، أنت ، أنت وحدك مسئولة عن هذا كله ، لأنك وجدت تحت يدي ، ولأنتى بين سائر ديدان الأرض أحقرها وأبعثها على الضحك وأنذلها وأغساها وأشدّها حسداً ! ليس الآخرون خيراً منى ، ولكنهم يمتازون عنى بأنهم لا يفقدون ثقتهم ورباطة جأشهم ، الشيطان وحده يعلم لماذا ! ... أما أنا فساظل طوال حياتى ألقى ضربات من أتفه هذه الحشرات التى تملأ الأرض • على أنتى لا يهمنى أن لا تفهمى ما أقوله لك الآن • وما شأنى بك على كل حال ؟ فيم يعينى أن تهلكى أو أن لا تهلكى ؟ فهل تدركين الآن مدى ما سأحمله لك من كره وحقد بعد كل ما قلته لك ، وبعد كل ما رأيته هنا وما سمعته ؟ مرة واحدة فى حياته يستطيع رجل مريض الأعصاب أن يسمح لنفسه أن يتكلم بصراحة تبلغ هذا المبلغ ... فماذا تريد منى إذن ؟ ما بقاؤك هنا أمامى بعد هذا كله ؟ لماذا لا تنصرفين ؟

غير أن شيئاً خارقاً قد حدث عندئذ •

كنت قد بلغت من التعود على أن أفكر وعلى أن أحلم وفقاً للكتب وعلى أن أتصور الأشياء كما خلقتها قبل ذلك فى أحلامي ، أنتى فى الوهلة الأولى لم أستطع حتى أن أدرك ما يحدث • ولكن اليكم ما حدث فى

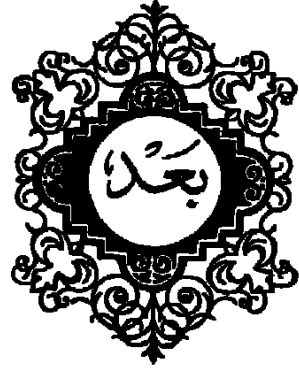
ان الشعور بالخوف والشعور بالكرامة الجريئة سرعان ما حل محلتهما على وجهها انشدها أليم . وحين أخذت أهين نفسي وأصف نفسي باتى « نذل » وأتى « حقير » ، وحين أخذت أبكى (لقد كان ذلك الكلام الطويل كله مصحوباً بدموع) ، تقبض وجهها وتقلص على حين فجأة . وحاولت مراراً أن تنهض وأن توقفنى عن الاسترسال فى الكلام ، وحين أنصت كلامي قد اتست لا اله الا اقول المهنة

ولكن كان لا بد لنوبتى العvisية أن تنتهى آخر الأمر ، وتلك هى الصعوبة • وهأنا ذا أثناء رقادى على الأريكة مدفونَ الوجه فى الوسائد الجلدية (انتى أصف الحقيقة المعية) ، هأنا ذا ، أتصور تصوراً غامضاً فى أول الأمر واضحاً بعد ذلك ، أنتى سيزعجنى كثيراً أن أرفع رأسى وأن أنظر الى ليزا وجهاً لوجه • لا أدرى ما الذى كان يخجلنى ، ولكنى كنت أشعر بخجل • وخطر ببالى أيضاً أننا قد تبادلنا الدور ، فهى الآن البطلة ، أما أنا فأنسان مُذلّ مسحق ، كما كانت هى كذلك فى نظرى منذ أربعة أيام • خامرتنى هذه الفكرة بينما كنت راقداً على الأريكة دافئاً وجهى فى الوسائد الجلدية •

• رياه ! أأنا أحسدها حقاً ؟ • لا أدرى • انتى لم أحلّ هذه المسألة بعد ، واضح انتى كنت عندئذ أعجز عن حلّها منى الآن • انتى لا أستطيع أن أحيا دون أن أمارس سلطتى على أحد ••• دون أن أستبد بأحد ••• ولكن ••• ولكن الاستدلالات المنطقية لا تفسر شيئاً ، فالأولى اذن أن أكف عن الاستدلال المنطقى •

استطعت أخيراً أن أسيطر على نفسى فرفعت رأسى • كان لا بد لى من هذا • وفى تلك اللحظة اشتعلت فى قلبى عاطفة أخرى ألهمت نفسى وأججت نيرانها ، تلك هى عاطفة التسلط والامتلاك • انتى لعلى يقين من أن تشوء هذه العاطفة انما مرده الى أنتى كنت أشعر بخجل من رفع رأسى والنظر الى ليزا • فهما عيناى تسطعان ، وهأناذا أضغط يدي ليزا بين يديّ ضغطاً قوياً • لشدّ ما كنت أكرهها فى تلك اللحظة ولشدّ ما كانت تجذبنى ! كانت كل عاطفة من هاتين العاطفتين تقوّى الأخرى وتعززها • يشبه أن يكون هذا نوعاً من الانتقام • عبّر وجهها فى أول الأمر عن حيرة وبلبله ، وعمّاً يشبه الخوف والرهبه • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم اذا هى تشدنى بذراعيها فرحةً فرحاً حاراً عنيفاً •

١٠



ربع ساعة ، كنت أركض في الفسقة طويلاً
وعرضاً وأنا أرتعش من نفاد الصبر ، وأتوقف
في كل لحظة أمام الستارة التي كان يتبع لي
شقها أن أرى ليزا جالسة على الأرض مسندة
رأسها الى السرير . لعلها كانت تبكي ، ولكنها لا تريد أن تنصرف ،
فكان ذلك يزعجني ويضايقني . لقد عرفت في هذه المرة كل شيء .
أهنتها اهانة لا براء منها ولا اصلاح لها . ولكن ... ليس من الضروري
أن أروى لكم كيف أهنتها . لقد أدركت أن اندفاع الهوى المشبوب لم
تكن الا انتقاماً وثأراً واذلالاً جديداً ، وأن الكره الذي شعرت به منذ
قليل والذي كان كرهاً غامضاً لا موضوع له ، قد أضيف اليه كره حاسد
ينصب عليها هي ... على أنني لست واثقاً بأنها قد فهمت هذا كله فهماً
واضحاً . ولكنها أدركت على كل حال انني انسان دنيء ، وأدركت
خاصة أنني لا أستطيع أن أحبها .

أعلم أنكم ستقولون لي : هذا أمر لا يُصدّق ، فمن المستحيل أن
يبلغ المرء هذا المبلغ من الشر والغباء ، وربما أضيقتم الى ذلك أنه
لا يُصدّق أن لا أكون قد أحسنتاً قط ، أو أن لا أكون قد تأذت بحسبها

ما سبق أن قلته - إنما يعنى فى نظرى الاستبداد والسيطرة الروحية •
 أنت لم تستطع - دمت الأمان أن أتخذ الحرف صيغة غير هذه

الأحيان أن قوام الحب هو أن يهب المحبوب للمحب حق الاستبداد به •
 أنتى فى أحلام قبوى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيل الحب إلا
 فى صيغة صاع صاع بدأ بك • وشتت بعدة روحية • أم، ثم

فأسرعت إليها فجأة ، فأمسكت يدها وبسطتها ووضعت فيها ما كنت قد أعددت ، ثم قبضتها من جديد . وبعد ذلك تحولت عنها وركضت بأقصى سرعة الى الطرف الآخر من الغرفة حتى لا أرى على الأقل ...

لقد هممت الآن أن اكذب فاكذب أنني فعلت ذلك مصادفة بغير تفكير لأنني كنت قد فقدت صوابي تماماً . ولكنني لا أريد أن اكذب وهأنذا أقول صراحة أنني قد بسطت يدها ووضعت فيها مالا ... لا يدفعني الى ذلك الا الحُبث والشر . لقد خطر ببالى أن أفعل هذا بينما كنت أسير فى الغرفة محموماً وكانت جالسةً على الأرض قرب الحاجز . ولكن اليكم ما أستطيع أن أقوله جازماً : ان هذه القسوة التي اقترفتها عامداً لم تصدر من القلب بل صدرت من رأسى الحِيث المريض . ولقد كانت هذه القسوة من الزيف والاصطناع « والاستقاء من الكتب » أنني لم أستطع أن أحتملها أنا نفسى نانية واحدة ... لذلك هربت الى الطرف الآخر من الغرفة ... وهأنذا بعد ذلك أركض وراء ليزا وقد استبد بي الحجل والحزى واليأس والكرب ، فأفتح باب الدهليز وأصيح بسمعى ، ثم أنادى فى السلم ولكن بصوت خافت خجول :

— ليزا ! ليزا !

ولم أتلق جواباً ، وخيّل الىّ أنني أسمع صوت وقع أقدامها على الدرجات الأخيرة .

فصحت منادياً بصوت قوى :

— ليزا .

فلم أسمع جواباً كذلك . ولكن الباب الزجاجى فُتح على الشارع فى تلك اللحظة نفسها ثقيلًا صاراً ، ثم أغلق فحدث اغلاقه ضجةً قاسية ترجعت فى السلم .

لقد انصرفت ليزا • فعدت الى غرفتي واجماً مفكراً وأنا أشعر
بثقل رهيب يجثم على قلبي •

وقفت قرب المائدة الى جانب الكرسي الذي كانت جالسة عليه ،
ونظرت أمامي في غباء وبلاهة • انقضت دقيقة ، فاذا أنا انتفض على حين
فجأة • فعلى المائدة ، أمامي ، رأيت ••• رأيت الورقة النقدية الزرقاء ،
ورقة الخمسة روبلات التي كنت قد وضعتها في يدها منذ قليل ، رأيته
مجمدة • هي تلك الورقة نفسها ، نعم • لا يمكن أن تكون ورقة
أخرى • ليس عندي غيرها • لقد اتسع وقت ليزا اذن لأن ترددها فتضعها
على هذه المائدة بينما كنت أنا أهرب الى الطرف الآخر من الغرفة •••

آه ! ••• كان يمكنني أن أتوقع هذا ! هل كنت أتوقعه ؟ لا •••
لقد بلغت من فرط الأنانية ومن قلة الاعتبار للبشر أنني لم أتخيل أن
في وسع ليزا أن تفعل هذا • لم أستطع تحمل ذلك • فهجمت على ثيابي
كالمجنون ، فألقيت على منها ما وقعت عليه يدي ، وهبطت السلم
مهولاً • لا شك أنها لم تكن قد قطعت مائتي خطوة حين صرت أنا في
خارج البيت •

كان الجو لطيفاً • الثلج يهطل سبائخ كبيرة هطولا يكاد يكون
عمودياً فيشكل على الأرصفة والشارع المقفر فراشاً سميكاً • ما من انسان
يُرى ، وما من صوت يُسمع • المصابيح تلتع حزينة في غير جدوى •
سرت بضع مئات من الأمطار حتى وصلت الى مفترق الطرق فوقفت •
تُرى في أي اتجاه سارت ؟ ولماذا أركض وراءها ؟

لماذا ؟ لأرتمي على قدميها ، فأبكي عندهما وأهدىء ما أشعر به من
ندم ومن عذاب الضمير ، لأقبل ركبتيها وأتوسل اليها طالباً غفرانها •
ذلكم ما كنت أريد أن أفعله • كنت أشعر بصدري يتمزق • ألا انني لن
أستطيع أن أتذكر هذه اللحظات في يوم من الأيام دون أن تهتز نفسي •

تساءلت : ولكن ما هدفى من هذا ؟ هل يمكن أن لا أكرهها منذ
الغد ، لا لشيء الا أنتى قبّلت قدميها اليوم ؟ هل يمكننى أن أسعدها ؟
ألم أدرك مرةً أخرى هى المرة المائة أنتى انسان تافه دنىء ؟ هل يمكننى
أن أمتنع عن تعذيبها ؟

كنت واقفاً فى الثلج أحاول أن أثقب ببصرى حجابيه الكثيف ،
و كنت غارقاً فى تفكير عميق •

وقلت لنفسي حين عدت الى البيت محاولاً أن أنسى ألمى بالاسترسال
فى الأحلام : • أليس الافضل أن تحمل هذه الالهانة معها ؟ ان الالهانة
تطهر النفس • هى أشد العواطف مرارة وألماً • لا شك فى أنتى كنت
سأوسّخ نفس ليزا منذ الغد ، وسأثقل قلبها بعبء باهظ • أما وقد
تركتهام تضي حاملةً معها الالهانة ، فانها لن تنسى هذه الالهانة فى يوم من
الأيام ، وستظل الالهانة حيةً فى نفسها لا تموت • مهما يكن الوحل
الذى ينتظرهما رهيباً فظيماً ، فان الالهانة سترفعها وتطهرها • • • بالكره
• • • هم ! • • • وربما بالغفران أيضاً • • • ولكن هل من شأن هذا
كله أن يجعل حياتها أسهل وأيسر ؟ • • •

الحق أنتى ما زلت حتى الآن ألقى على نفسي هذا السؤال الذى

قلتم لى أى الأمرين أفضل ؟

على هذا النحو كنت أفكر ، فى ذلك المساء ، محطّم النفس من شدة
الألم • انتى لم أعرف فى حياتى ، حتى ذلك الحين ، عذاباً كالعذاب الذى

التي قلتها عن فائدة الاهانة والكره • ومع ذلك أوشكت أمرض من
فرط الحزن والقلق والغم •

ان هذه الذكريات ما تزال تشق على نفسى حتى اليوم بعد انقضاء
ذلك العدد كله من السنين • وان هناك أموراً مؤلة كثيرة تستيقظ
في ذاكرتى ، ولكن •• أليس الأفضل أن أختم كتابة هذه «الذكريات»؟
أحسب أنني قد أخطأت حين بدأتها ••• ومهما يكن من أمر ، فأننى
ما برحت أشعر بالحجل والعار أثناء كتابة هذه القصة : ليست كتابة هذه
القصة أدباً ، بل هى عقاب وتكفير وقصاص •

ألا انه ليس بالأمر الشائق أن أروى ، فى قصص طويلة ، كيف
ضيعت حياتى وفقدت عادة الحياة وقبعت فى قبوى حائقاً مغتاضاً • ان كتابة
رواية من الروايات لا بد لها من بطل ، أما أنا فقد جمعت ، كأنما على
عمد ، جميع الصفات التى يتصف بها « نقيض البطل » • ثم ان هذا كله
سيحدث فى النفس أثراً كريهاً ، لأننا جميعاً قد فقدنا عادة الحياة ، لأننا
جميعاً نخرج كثيراً أو قليلاً ، حتى لقد بلغنا من فقدان تعود الحياة أننا
نشعر تجاه الحياة الواقعية ، تجاه « الحياة الحية » بما يشبه أن يكون
اشمئزاًزاً ، وذلكم هو السبب فى أننا لا نحب أن يذكرنا بها أحد ؟
وقد وصلنا فى هذا الطريق الى حيث صرنا نعد الحياة الواقعية ، « الحياة
الحية » محنةً أليمة أو جهداً شاقاً • ونحن جميعاً متفقون على أن
الأفضل لنا أن نقرأ هذه الحياة فى كتاب • علام هذه الاضطرابات التى
تتخبط فيها ؟ علام هذه الاندفاعات الجنونية التى نستسلم لها ؟ ما الذى
نطلبه ؟ اننا نحن أنفسنا نجهل ذلك • ولو قد استجيبت دعواتنا الحمقاء
لكنا أول من يتألم من ذلك •

هياً جربوا ! هبوا لنا مزيداً من الاستقلال ، فكوا أيدينا ، وسّعوا
ميدان عملنا ، ارفعوا الوصاية عنا ، تجدوا أننا ••• أحلف لكم أننا متى

ورفعت الوصاية عنا فسنعود نطالب بها • أنا أعلم أنكم ستصرخون محتجين ، وستفضبون وأنتم تخطون الأرض بأقدامكم قائلين :
- تحدث عن نفسك ، صوّر أنواع الشقاء التي تعانيها في قبوك ، ولكن حذار أن تقول : « نحن جميعاً » •

عفوكم يا سادة ! ليس في نيتي أن أبرر نفسي حين أقول : « نحن جميعاً » • أنا لم أزد في حياتي على أن مضيت الى الحد الأقصى بما لم تجربوا أتم على أن تمضوا به ولو الى منتصف الطريق ، مطلقين على الجبن اسم الحكمة ، معزّين أنفسكم على هذا النحو بأكاذيب • وربما كنت لهذا أكثر حياة منكم •

ألا أنعموا النظر ! اتنا اليوم لا نعرف حتى أين هي الحياة ، وماهى ، وما صفتها • فيكفى أن نُترك وشأننا ، يكفى أن تسحب الكتب من بين أيدينا ، حتى نرتبك فوراً ، وحتى تختلط علينا جميع الأمور ، فاذا نحن لا ندرى أين نسير ، وكيف نتجه ، وماذا يجب أن نحب وأن نكره ، وماذا يجب أن نحترم وأن نحقر • حتى انه ليشق علينا أن نكون بشراً ، بشراً يملكون أجساداً هي لهم حقاً ، أجساداً تجري فيها دماء • اتنا نخجل أن نكون كذلك ، ونعد هذا عاراً ، ونحلم في أن نصبح نوعاً من كائنات مجردة ، عامة • نحن مخلوقات « ولدت ميتة » ، ثم اتنا قد أصبحنا منذ زمن طويل لا نولد من آباء أحياء ، وهذا يرضينا ويعجبنا كثيراً • انه يلقي في نفوسنا هوى • وقريباً سنجد السيل الى أن نولد رأساً من فكرة •

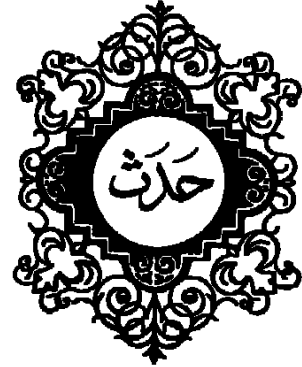
ولكن كفى ! لا أحب بعد الآن أن أسمعكم صوتي من « القبو » • لم تنته ذكريات هذا الرجل المحب للمفارقات الغريبة • انه لم يستطع أن يقاوم الاغراء ، فعاد يمسك القلم • ولكن يخيل إلينا ، نحن أيضاً ، أن في وسعنا هنا أن نختم •

قصة الزينة

١٨٦٢

« قصة اليمة » (Skverni Anekdot)

**لعلها كتبت فى شهرى ايلول وتشرين الاول -
سبتمبر واکتوبر - سنة ١٨٦٢ وقد نشرت فى
مجلة «الزمان» فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر)
من السنة نفسها •**



هذا أيامَ كان الايمان بنهضة وطننا الغالى يهز
نفوس خيرة أبنائه فيندفعون فى حماسة وحمياً
نحو آمال جديدة ومصائر جديدة •

فى ليلة صاحية هادئة من لىالى الشتاء كان
ثلاثة رجال محترمين قد اجتمعوا فى غرفة مريحة بل وفاخرة الأثاث من
منزل يُعد من أجمل منازل حىً بطرسبورجسكيا ستورونا * • ان هؤلاء
الرجال الثلاثة ، الغائصين فى مقاعد عميقة وثيرة رخصة ، يحملون
جميعاً رتبة جنرال ، وهم الآن بسبيل التناقش ، بوقار ورصانة ، فى
موضوع هام جداً ، أثناء احتسائهم رشقات كبيرة من الشمبانيا من حين
الى حين •

ان صاحب الدار ، وهو مستشار الدولة مستيفان نيكيفوروفتش ،
الغارب الذى يبلغ من العمر خمسة وستين عاماً ، يحتفل اليوم بسكنى منزله
الجديد الذى اشتراه منذ مدة قصيرة • ومن المصادفات عدا ذلك أن عيد
ميلاده الذى لم يحتفل به قبل ذلك قط ، يقع فى هذا اليوم نفسه. والحق أن
الاحتفال بالمنزل الجديد لم يكن خارقاً ، فان صاحب المنزل لم يدع الى
هذا الاحتفال الا ضيفين اثنين هما له زميلان قديمان ومرموسان : مستشار
الدولة سيمن ايفانوفتش شيبولنكو، وايفان ايلتش برالنسكى الذى يشغل

منصب مستشار دولة أيضاً • لقد وصلا في الساعة التاسعة لتناول الشاي، ولكنهما تلبثا يشربان وفي تقديرهما أن عليهما أن يعودا الى منزليهما قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة لأن صاحب الدار رجل شديد التقيد بالمواعيد شديد الحرص على أن لا يخل بما ألف من عادات •

ان ستيفان نيكيفوروفتش الذى بدأ حياته فى المناصب موظفاً صغيراً ، قد ظل يعمل فى كثير من النصب والعناء خلال خمسة وأربعين عاماً ، وهو يعلم سلفاً ما الذى تؤدى اليه هذه الحياة المتواضعة المطردة التى يحياها • كان ، كما يقال ، لا يحب أن يفتن نجوم السماء ، وان يكن يحمل على صدر بزته الرسمية نجمتين اثنتين • وكان يكره خاصة أن يعلن رأيه الشخصى • وهو يستطيع أن يصف نفسه بأنه رجل شريف مستقيم ، بمعنى أنه لم يتفق له فى حياته أن ارتكب عملاً غير لائق • وقد ظل عازباً من باب الأناية • وهو على كونه ليس بالفبى ، لا يحب أن يبدى ذكاءه ، وكان يكره الحماسة أكثر مما يكره أى شئ آخر ، فهو يعد الحماسة عيأ أخلاقياً كبيراً •

وفى نهاية حياة طويلة ليس فيها بريق أو لمعان ، أخذ ستيفان نيكيفوروفتش ينعم وحيداً برخاء وادع وهناء رضية • وكان على ترده الى المجتمع من حين الى حين يكره أن يستقبل أحداً فى منزله ، حتى لقد انتهى به الأمر فى الآونة الأخيرة الى الاكتفاء بمصاحبة تلك الساعة الكبيرة الموضوعة على المدفأة ، يستمع الى دقاتها كل مساء وهو جالس على مقعده هادئاً نصف نائم ، وربما عمد بين الفينة والفينة الى الاستغراق فى لعبة من ألعاب الصبر على منضدته • فاذا نظرت الى هذا الموظف الكبير رأيت شديدة العناية بهندامه ، كثير الاهتمام بحلاقة ذقنه ، وحسبته أصغر سناً من عمره ، فهو ما يزال محافظاً على نضارة صحته ، وما يزال يعد بأن يعمر طويلاً وأن يعيش جتلماناً كما يعتقد •

وكان منصبه مريحاً : وسوف تقدرّون خطورة منصبه متى قلنا لكم
ان له مكتباً في مكانٍ ما ، وانه يذيل بتوقيعه بعض الأوراق • الخلاصة
أنه كان يُعدُّ انساناً ممتازاً •

وقد كان له طوال حياته هوى قوى وحيد أو قل رغبة حارة وحيدة
كانت تضيء أيامه : ألا وهي أن يملك منزلاً ، لا منزلاً للتأجير بل
منزلاً خاصاً من منازل السادة ذات الأبهة والفخامة ، وقد تحققت له
هذه الرغبة أخيراً • لقد عثر ستيفان نيكيفوروفتش على منزل في حي
بترسبورسكايا ستورونا ، ولئن كان هذا المنزل بعيداً ، فانه منزل أنيق
جداً ، تحيطه حديقة كبيرة •

حتى لقد اغتبط المالك الجديد بكون المنزل بعيداً عن مركز المدينة
هذا البعد : فهو ، كما تعلمون ، لا يجب أن يستقبل في منزله زواراً •
أما من أجل أن يقدمهم منادة ومنزلاً أحلّ لأن يذهب المرء مكتبته ، فقد

الى هذا الموضوع مرتين ، ولكن صاحبه لزم انصمت حريصاً على أن
يجيب بشيء .

ان سيمن ايفانوفتش هذا ، وهو رجل أسود شعر الرأس
والعارضين ، ملون الوجه بالصفرة من نوبات الصفراء ، كان هو أيضاً
قد كافح كفاحاً طويلاً قاسياً فى سبيل أن يشق لنفسه طريقاً فى الحياة .
وهو متزوج ، يحب المكوث فى بيته ، شرس الطبع ، مغلق باب داره ،
قائم بواجبات عمله فى ثقة وطمأنينة ، مشارف على نهاية نشاطه كمضيفه
عالم فى الوقت نفسه بأنه لن يصل يوماً الى الذرى التى طالما هفت نفسه
اليها لقد ملك منصباً حسناً فهو متمسك به أشد التمسك ، حريص
عليه أشد الحرص . أما الأفكار الجديدة التى كانت تنفذ الى روسيا فى
ذلك الزمان ، فانه لا يعبأ بها ولا يكثر لها ، فهى لا تثير فى نفسه
لا غضباً ولا خشية . لذلك نستطيع أن نقول انه كان يصغى فى ذلك
المساء بنوع من الحب الماكر الى التمرينات الخطابية التى كان ايفان
ايلتش برالنسكى مسترسلاً فيها ، أثناء تدفقه الغزير فى الكلام عن
النظريات الرائجة .

يجب أن نذكر أن الرجال الثلاثة قد شربوا أكثر قليلاً مما ألفوا
أن يشربوا ، وذلك هو السبب فى أن ستيفان نيكيفوروفتش قد تنازل
وتواضع الى حيث ارتضى أن يشرع فى مناقشة خفيفة مع السيد
برالنسكى عن النظام الذى سيسود فى المستقبل .

هنا ينبغي لنا أن نتوسع فى الكلام قليلاً لنزوّد القارىء ببعض
المعلومات عن صاحب السعادة السيد برالنسكى ؛ انا مضطرون الى ذلك ،
لا سيما وأن هذا الموظف هو البطل الرئيسى فى قصتنا .

ان مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكى لم يحمل لقب « صاحب السعادة » الا منذ أربعة اشهر ، فهو ما يزال جنرالاً شاباً • انه ليس متقدماً في السن ، فعمره لا يزيد على ثلاثة وأربعين عاماً ، وهو عدا ذلك مغب في أن يبدو أكثر شباباً ، وينجح فيه ذلك نجاحاً تاماً •

يتقن بعض الآداب الإجتماعية الراقية ، وحليم دائماً في أن يخطب فتاة

الشباب فى كثير من الأحيان ، بينه وبين نفسه ، على اندفاعات خياله وخفة
طبعه •

ولكن ايفان ايلتش كان ذكياً ذكاءً كافياً من أجل أن يأخذ على نفسه
كذلك أنه مسرف فى حجب ذاته وسرعة تأذيه • ومن الأمور الغريبة أنه ،
حين يفعل ذلك ، توافيه وساوس مرضية ، بل ويلم به نوع من الندم ؛
وهو يضطر حينئذ الى أن يعترف لنفسه بأن قيمته لا تبلغ الدرجة التى
يتصورها لها (يجب أن نضيف الى هذا أن لحظات الانهيار هذه كانت
تتأهب فى الوقت الذى يعانى فيه آلام البواسير) ، وكان يخلص من ذلك
الى أن حياته حياة مخففة ، وكان ينتهى عادةً ، وقد فقد كل ثقة بكفاءاته
البرلمانية ، الى أن يصف نفسه بأنه انسان لا يحسن الا تزويق الكلام •
على أن هذه الاتهامات التى يتهم بها نفسه ، وهى تشرّفه على كل حال ،
كانت لا تدوم زمناً طويلاً ، ولا تمنعه من أن يرفع رأسه بعد نصف
ساعة ، فاذا هو يسترد طمأنينته ، ويعلن بمزيد من الثقة بنفسه أنه لن
يصبح شخصية مرموقة فحسب ، بل سيصبح كذلك رجلاً من رجال
الدولة تحتفظ روسيا بذكره زمناً طويلاً • حتى لقد تتراعى لحياه فى
بعض اللحظات أنصاب تذكارية تشاد له بعد موته تمخليداً لذكراه •

ان جميع ما ذكرناه الآن يسمح لنا أن نفترض أن ايفان ايلتش
كان رجلاً طموحاً ، رغم أن شيئاً من القلق كان يحمله أحياناً على أن
يدفن ، الى زمن ، فى ركن مظلم من نفسه ، الأحلام الغامضة التى تكون
قد راودته • وهو على وجه الاجمال انسان طيب ، حتى ليتمكن أن توصف
نفسه بأنها نفس شاعر • غير أن التوبات المرضية التى سبقت الاشارة اليها
قد أصبحت توافيه فى السنين الأخيرة أكثر مما كانت توافيه قبل ذلك ،
فجعله هذا أسرع الى الاحتياج والشك ، حتى صار يعد أى اعتراض
عليه إهانة شخصية له •

وكان قد ظهر في روسيا في تلك الآونة تيار نهضة وانبعث أشعل في نفس السيد برالنسكى آمالاً كبيراً أوصلتها رتبة الجنرال التي حصل عليها الى ذروتها •

رفع ايفان ايلتش رأسه وأخذ يتكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الرائجة التي سرعان ما جعلها آراءه • ان جميع الفرص تبدو له مواتية • كان قد أخذ يسعى في المدينة ، فلم يلبث أن اشتهر بأنه لبرالى ، فسرّه هذا سروراً عظيماً وأرضى طموحه ارضاءً كبيراً •

وها هو ذا الآن ، في المساء الذى تبدأ فيه قصتنا ، بعد أن شرب أربع أقذاح من الشمبانيا ، يزعم وقد توقدت موهبته الخطابية توقداً خاصاً ، أن يأخذ في اقناع ستيفان نيكيفوروفتش الذى لم يره منذ زمن طويل ، ولكنه ما يزال يحتفظ تجاهه بعبادات الطاعة والاحترام •

وها هو ذا يعتقد فجأة ، دون أن يدري لماذا ، أن رئيسه السابق رجل رجعى ، فيندفع في حديثه اليه اندفاعاً قوياً • لم يجب العجوز بشيء ، ولكنه كان يصغى اليه بانتباه ماهر ، لأن الموضوع يشوقه كثيراً • وأخذت حماسة ايفان ايلتش تزداد تأججاً ، وفي أثناء المناقشة الحارة التي كان يتخيل أنه يجريها ، راح يرشف من قدح الشمبانيا أكثر مما يجب أن يرشف • وكان ستيفان نيكيفوروفتش أثناء تدفق الجنرال الشاب في الكلام يتناول قنينة الشمبانيا على مهل ويملأ القدح ، فأثار هذا استياء ايفان ايلتش أخيراً ، لا سيما وأن سيمن ايفانوفتش شيولنكو الذى كان ايفان ايلتش يكرهه كرهاً خاصاً لما يتصف به من استخفاف وسخرية وخبت ، يصّر على الصمت ولا يزيد على الابتسام •

حدث ايفان ايلتش نفسه على حين فجأة قائلاً : « أظن أنهما يعداني صيلاً صغيراً ، فتابع كلامه يقول حانقاً :

— لا ، لا ، ألا انه قد آن الأوان ! ألا انه قد آن الأوان جداً •
 نحن متأخرون كثيراً • وفي رأي أن الروح الانسانية يجب أن توضع
 فى المقام الأول ، ان الروح الانسانية تجاه من هم دوننا ، وهم بشر
 مثلنا ، لم يلد منه ولا غنى عنه ! لسوء ، تكمن فى روح الانسانية كل شر

وسوف تساعد على كل شيء •••

— هيء هيء هيء !

كذلك فعل سيمن ايفانوفتش •

وقال ستيفان نيكيفوروفتش فى رفق ولين وهو يتسهم ابتسامة
 لطيفة متوددة :

— ولكن ما بالك تؤنبا وتقرعنا ؟ اننى اعترف لك يا ايفان ايلتش
 اننى لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما تريد أن تشرحه لنا متفضلاً •
 أنت تتكلم عن الروح الانسانية : أفراك تشير الى حب الانسان أخاه
 الانسان ؟

— نعم نعم ، طبعاً ، ولكننى أنا •••

— اسمح لى ! اذا صدق حكمى فان الأمر لا يقتصر على هذا •
 ان الروح الانسانية كانت فى جميع الأزمان ضرورة لا بد منها فى علاقات
 البشر بعضهم ببعض ، ولكن الاصلاحات تمضى الى أبعد من هذا كثيراً •
 الآن تنشأ مسائل تتعلق بالفلاحين ، ومسائل قضائية واقتصادية وأخلاقية ،
 ومسائل تتعلق بشراء الأراضى ، الى آخر ما هنالك من مسائل لا نهاية
 لها ••• أى مسائل كثيرة يمكنها أن تخلق ، مجتمعة ، بعض المتاعب ! •••
 ذلك ما نخشاه ، لا الروح الانسانية التى تحدثنا عنها •

ودمد سيمن يقول بهيئة عليمة :

- نعم نعم ، هذا صحيح كل الصحة ! ان القضية تسير الآن الى
أبعد من ذلك كثيراً ، وتناول أموراً أعمق من ذلك كثيراً ...

قال ايفان ايلتش وهو يتسم ابتسامة ساخرة :

- انتى أدرك اعتراضك كل الادراك يا سيمن ايفانوفتش ، واسمع
لى أن أقول لك انتى لا أحرص البتة على أن لا أبقي وراء تفكيرك ،
ولكننى أجزى لنفسى مع ذلك أن ألفت نظرك ، وأن ألفت نظرك أنت
ايضاً يا ستيفان نيكيفوروفتش ، الى أنه ليس يبدو لى أنكما تفهمان عنى
ما أقول ...

قال صاحب الدار :

- حقاً لست أفهم !

- ومع ذلك فانتى أحرص على آرائى ولن أكف عن شرحها لجميع
الناس . ان الروح الانسانية ، حين نطبقها على مروضينا ، من الموظف
الى الكاتب ، ومن الكاتب الى الحاجب ، ومن الخادم الى الفلاح ، ان هذه
الروح الانسانية هى وحدها التى يمكن أن تكون حجر الزاوية فى
الاصلاحات لنهضة بلادنا . فاذا سألتنى : لماذا ؟ قلت لك لأن ...
(هنا توقف لحظة) ... اسمع هذا القياس المنطقى : انا انسان ،
اذن يحببى الناس ؛ يحببى الناس ، اذن يثقون بى ، اذن يصدقوننى ؛
يصدقوننى ، اذن يحبوننى ... أقصد ... لا ... وانما أريد أن
أقول : اذا كانوا يصدقوننى فسوف يثقون بالاصلاحات التى أنادى بها ،
وسوف يدركون معنى المسألة نفسها ، وسيكون من شأن هذا أن يتعاقب
جميع البشر ، بالمعنى الروحى طبعاً ، وهكذا تُحلُّ جميع القضايا
بالود والصدقة ...

ضحك السيد شيبولنكو فاتفض ايفان ايلتش .

SS

لماذا تضحك بلديفان ايفانوفتش ؟ أليس كلامي مفهوماً ؟

لبث المسئول صامتاً ، وبدأ عليه استغراب شديد ، ورفع حاجبيه ،
ثم قال بمرارة شديدة :

– يخيل الىّ أنني أسرفت في الشراب • اذن يصعب عليّ قليلاً
أن أدرك معنى كلامك •

وأضاف قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة :

– هو نوع من أقول الفكر وغياب العقل !

اجتاح ايفان ايلتش غضب شديد وحقن قوى •

وتدخل ستيفان نيكيفوروفتش فجأة فقال :

– أنحن مضطرون الى أن نحتمل هذا كله وأن نعاني منه ؟

ذُهل ايفان ايلتش من هذه الجملة البهيمية المستغلقة على الفهم
كأنها لغز •

– أقصد ••• ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟ أن تحتملوا ؟ أن
تحتملوا ماذا ؟•••

كذلك سأل ايفان ايلتش رئيسه السابق ، مندهشاً من ملاحظته
تلك الموجزة المفاجئة معاً •

فدمدم الآخر يقول وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يفيض مزيداً من
الافاضة :

– أليس هذا كله فوق طاقتنا ؟

أجاب ايفان ايلتش :

– لعلك تشير الى الحمر الجديدة في زقاق عتيقة * • فاطمئن عليّ •

أنا مسئول عن نفسي !•••

دقت ساعة الحائط الحادية عشرة والنصف •

تدخل سيمن ايفانوفتش فقال وهو يهم أن ينهض عن مكانه :

- ربما كان ينبغي أن تنصرف •

ولكن ايفان ايلتش كان قد سبقه • تناول قبعة الراقة على المدفأة ، وألقى على ما حوله نظرات غضبي •

قال صاحب الدار وهو يشيخ زائريه في اتجاه حجرة المدخل :

- ستفكر في الأمر اذن يا سيمن ايفانوفتش •

- تعنى البيت ؟ نعم نعم سأفكر فيه •

- وستبلغنى قرارك ، أليس كذلك ؟

قال السيد برالنسكى باهمال متودد :

- لا شيء الا الأعمال !

كان السيد برالنسكى ، وهو منهمك فى اللعب بقبعته ، يتصور أن صاحب الدار يعده مقداراً مهماً •

وظلت ملاحظته بلا جواب • لقد أراد صاحب الدار بذلك أن يشعر زائريه بأنه لا يتمسك ببقائهما •

وادرک السيد شيوونكو هذا ، فجاءً سريعاً • قال السيد برالنسكى بينه وبين نفسه : « طيب ... اذا كنتم لا تريدون أن تفهموا عبارة ليست الا « ملاطفة » ، فليكن ما تشاءون ، ومدّ يده الى ستيفان نيكيفوروفتش بحركة تصطبغ بنوع من الاستقلال •

وفي حجرة المدخل تلفف الجنرال الشاب بفرائه الذى يمتاز بأنه

المنخفض المذاق دافقاً فى آن واحد ، متظاهراً بأنه لا يلاحظ

قال السيد برالنسكى :

- يبدو على الشيخ أنه غاضب •

فقال الآخر بلمهجة هادئة باردة :

- غاضب ؟ مممّ عساه يغضب ؟

فحدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « يا للأحمق ! » •

وتحت الرواق ، رأى الرجلان عربيةً زلّقة قد قُرن بها حصان

أشهب • كانت العربية تنتظر السيد شيبولنكو •

صاح ايفان ايلتش :

- يا للشيطان ! أين مضى تريفون بعربتي ؟

وأعقب ذلك بحث طويل ، ولكن العربية ظلت غائبة • ولم يستطع

خادم ستيفان نيكيفوروفتش أن يشرح غيابها ، لا ولا استطاع ذلك بربام

حودى سيمن ايفانوفتش الذى أجاب بأنه قد لبث فى المكان لم يبرحه ،

فكان يرى العربية ثم لم يرها •

قال السيد شيبولنكو :

- حادثة مؤسفة ، قصة أليمة ! هل تريد أن أوصلك ؟

فأعول السيد برالنسكى يقول وقد استبد به خنق مفاجئ :

- آه ••• يا للسفلة ! ان تريفون هذا الوغد قد استأذنتى فى أن

يذهب الى عرس قريبة له • شيطان يأخذه • لقد نهيته عن الذهاب بشدة

وقسوة ، ومع ذلك أراهن أنه ذهب الى هناك !

قال بربام :

- هذا صحيح • حتى انه ، قبل أن يذهب الى هناك ، وعد بأن يعود

بعد لحظات •

– انتظر قليلاً !

قال سيمن ايفانوفتش وقد أخذ منذ ذلك الحين يدثر ركبتيه بغطاء الجلد الذى تزدان به زلاقتة :

– خذه الى الشرطة ، ومُرهم بجلده !

– أشكر لك نصائحك وأرجوك أن لا تزعج نفسك يا سيمن ايفانوفتش •

– ألا تريد اذن أن أوصلك ؟

– شكراً • مع السلامة !

انصرف سيمن ايفانوفتش ، فنزل السيد برالنسكى عن الرصيف الخشبي ، ومضى قدماً لا يلوى على شيء وهو فريسة غيظ شديد واهتياج عنيف •

كان الجنرال يقول بينه وبين نفسه غاضباً : « انتظر قليلاً أيها الوغد تريفون ! أريد أن تفهم وأن تخاف ! آه أيها الوغد ! ليتنى أرى كيف سيكون وجهك حين تعلم متى عدت أن السيد قد انصرف سيراً على قدميه ! » •

ان الجنتللمان الكامل ، ايفان ايلتش ، لم يستعمل فى حياته حتى الآن ألفاظاً فظة هذه الفظاظه • ولكنه كان يشعر فى هذه المرة بأنه فى ذروة السخط • أضف الى ذلك أن أبخرة كانت قد غشيت دماغه • انه لم يتعود أن يشرب كثيراً ، لهذا كانت أقذاح الشمبانيا الخمس أو الست قد أحدثت أثراً •

الليلة رائعة • صحيح أن الجو صقيع ، ولكن الهواء هادئ ساكن ،
والسما صافية تملؤها النجوم ، والقمر بدرٌ يسكب على الأرض أشعته
الفضية •

ما أمتع التنفس فى هذا الجو ! لذلك لم يكد ايفان ايلتش يخطو
خمسین خطوة حتى كان قد نسي افعال حوزيته السيئة نسياناً تاماً • ان
ايفان ايلتش يشعر الآن بارتياح • وها هو ذا منذ الآن ، كسائر الناس
المتقلين الذين تتغير حالاتهم النفسية تغيراً قوياً من حين الى حين ، هاهوذا
يأخذ يحس منذ الآن برضى وغبطة بين البيوت الحشوية الصغيرة الحقيرة
التي تصطف على طول الرصيف •

قال يحدث نفسه : « كانت فكرة رائعة حقاً أننى قررت السير على
قدمى • هذا عدا أن ذلك سيكون درساً قاسياً لتريفون ، كما أنه سلوى
كبيرة لى • بل ان على أن أقوم بنزهات من هذا النوع فى أحيان
كثيرة ! » •

وهتف بجرارة وحماسة يقول وقد رق قلبه وجاشت عاطفته :

— ما أروع هذه الليلة ! وما أفقر هذه المنازل الصغيرة البائسة !
لا شك أن سكانها موظفون صفار ، وباعة ، وربما ••• آه من ذلك
السخيف ستيفان نيكيفوروفتش ! يا له من رجعى ! ما أشبهك بطاقة
عتيقة من قطن يا صديقى ! نعم : طاقة عتيقة من قطن ••• تلك هى
الكلمة المناسبة ، ذلك هو التعبير اللازم ! على أن هذا الرجل لا يعوزه
الذكاء : انه يملك حساً سليماً ، انه يفهم الأشياء فهماً واضحاً عملياً •
ولكن يا للمعجوز فى مقابل ذلك ! يا للمعجوز ! انه يفتقر الى ••• الى ••
كيف أقول ؟ نعم ••• انه يفتقر الى ذلك الشيء •••

وفيما كان الجنرال يبحث عن الكلمة التي تفصح عما بذهنه ،

تذكر الجملة المستغلة كأحجية ، التي قالها رئيسه ، لقد قال : « اتنا لن نحتمل » ، فماذا كان يعنى ؟ ما مضى هذا التعبير ؟ ثم انه كان مستغرقاً فى التفكير حين نطق بهذه الجملة ...

– على أن من المؤكد أنه لم يفهم شيئاً مما كنت أقوله • ولا ضير على كل حال ... فانما الأمر الأساسى أتنى أنا مقتنع ! الروح الانسانية ... حب الانسان أخاه الانسان ! ... أن نرد الانسان الى نفسه ... أن نوقف فيه الشعور بكرامته ... ثم نندفع الى العمل بهذه المادة الجديدة كل الجدة •

– نعم ، ولكن اسمح لى بقياس منطقى آخر يا صاحب السعادة : انظر مثلاً الى الموظف الصغير المبهوت • هأنذا أسأله : « من أنت ؟ » فيجيب : « موظف » – « طيب ... ولكن أي موظف » – « موظف كذا أو كذا » – « أين تعمل ؟ » – « أعمل فى ... » – هل تريد أن تكون سعيداً ، – « أريد ! » – « ما الذى تحتاج اليه لسعادتك ؟ » – « كيت وكيت » – « لماذا ؟ » « لأن ... » • ويعقب شرح صادق ، فاذا بالرجل يفهم عنى ، واذا هو يصبح لى • نعم يا صاحب السعادة ! لقد احتوت هذا الرجل فى شباكى ، وسأصنع به ما أشاء ! ... وذلك فى سبيل خيره هو نفسه ...

وهتف يقول فجأة :

– يا له من شخصية تبعث على الاشمئزاز ، سيمن ايفانوفتش هذا ! ... ما أبشع تلك السحنة التى له ! « خذه الى الشرطة ومُرهم بأن يجلدوه ! » • • • • • تجرأ أن يقول هذا الكلام غامزاً ... لا ، لا يا صديقى احتفظ بنصائحك لنفسك ! شكراً ! لن أجلد أحداً ! سيكفينى الكلام كل الكفاية لأجعل تريفون يفهم الغلطة التى ارتكبها • أما عقوبة الجلد ... هم ... فتلك مسألة لا يمكن حلها حالاً •

ان خطورة هذه المسألة قد أوقفت تأملات الجنرال ، فحاول أن يتحاشاها • وسرعان ما عرضت له أرض أخرى : « ماذا لو ذهبت أزور ايميرانس ؟ » • كذلك تساءل وهو يتسم ابتسامة بطرة •

ولكن الجواب على هذا التساؤل لم يحضر ، لأن ساق الجنرال كادت تلتوى •

قال ايفان ايلتش غاضباً :

— رصيف فطيع ! ثم يُقال هذه عاصمة ! يالها من مدينة ! قد يكسر المرء ذراعيه وساقيه ! هم • • • لشد ما أكره سيمن ايفانوفتش هذا المزدهى المغرور ! ان له وجهاً مقيتاً بشعاً ! وما أكثر ما ضحك حين كنت أقول ان الناس سيتعاقون عناقاً روحياً • نعم ، صحيح ، سوف يتعاق الناس • وما شأنه هو وهذا ؟ لست أنت من سأعاق • • • وانما سأعاق غلاماً • • • اذا التقيت بفلاح فسوف أكلمه • ثم انتى كنت سكران ، ولا شك أنتى لم أفصح بوضوح ، وربما كنت حتى الآن لا أفصح بوضوح • • • هم • • • لا أريد أن أشرب بعد اليوم ! • • • يتحدث المرء فى المساء ، ثم اذا هو فى الصباح يندم • • • ولكننى أسير مستقيماً مع ذلك • • • ما هؤلاء الا أوغاد على كل حال !

هكذا استمر ايفان ايلتش يقذف جملاً قصيرة خالية من المعنى • كان يسير محاذياً الرصيف • وفعل الهواء الطرى فعله ، فما هى الا خمس دقائق حتى كان يبدو على الجنرال أنه هدأ روعه وسكنت نفسه •

وحين صار فجأة على بعد خمسة أمتار من « الشارع الكبير » سمع أصوات موسيقى فالتفت : فى الطرف الآخر من الشارع ، فى منزل من خشب ، منزل عتيق طويل ذى طابق واحد ، كانت آلات كمان تتأوح ، وكانت ناي تصوت ، وكانت الكوترباس تشخر على لحن

رقص ؟ وكانت تحتشد أمام النوافذ المضاءة جمهرة صغيرة • ان نساء يرتدين معاطف مبطنةً بقطن ويفطين رموسهن بمناديل ، كنَّ يجهدن في سبيل أن يرين شيئاً من خلال شقون المصاريع • وكان واضحاً أن من فى داخل المنزل مبهجون • وكانت ضجة أقدام الراقصين تصل الى سمع ايفان ايلتش • ورأى ايفان ايلتش شرطياً فاقرب منه وسأله وهو يزيج ياقة فرائه بالقدر الذى يتيح للشرطى أن يبصر وشاح الوسام الذى يزدان به عنقه :

– لمن هذا المنزل يا أخ ؟

قال الحارس منتصباً كالعصا لأنه لاحظ الوسام :

– هو منزل الموظف بسلدونيموف :

– بسلدونيموف ؟ ها ••• بسلدونيموف ••• أهو يتزوج اذن ؟

– نعم يا صاحب السعادة ••• انه يتزوج ابنة الموظف ماميفيوف ••• وقد وُهب له هذا المنزل مهراً •

– اذن أصبح المنزل ملك بسلدونيموف لا ملك ماميفيوف* •

– نعم يا صاحب السعادة • فى هذا الصباح كان المنزل ما يزال ملك ماميفيوف ، أما الآن فقد أصبح ملك بسلدونيموف •

– هم ••• أنا أسألك عن هذا الأمر يا أخ ••• أنا أسألك عن هذا كله ••• لأننى رئيسه • أنا جنرال فى المكتب الذى يعمل فيه بسلدونيموف •

– نعم يا صاحب السعادة •

بدا على الحارس مزيد من الاستطالة والانتصاب ، وظهر على ايفان ايلتش الوجوم والتفكير • كان يلوح أنه يدبر أمراً ما •••

ان بسلدونيموف ينتمى فعلاً الى الدائرة التي يرأسها الجنرال •
 ان الجنرال يتذكر جيداً ذلك الموظف الصغير الذى يتقاضى راتباً قدره
 عشرة روبلات في الشهر • فان السيد برالنسكى ، رغم أنه لم يرأس

هذه الدائرة الا منذ بضعة أيام ورغم أنه لم يستطع أن يحفظ أسماء
 جميع مرعوسيه ، قد حفظ اسم بسلدونيموف خاصة ، لما لهذا الاسم من
 وقع خاص ولأنه اسم مستغرب لا يتوقع • وقد أعرب الجنرال عن
 رغبته في أن يرى صاحب هذا الاسم الغريب من كتب ، فلما جئ به
 اليه رأى أمامه شاباً في أول الشباب له أنف طويل معقوف ، وله شعر
 باهت قد نبت على رأسه حزماً حزماً ، وله جسم هزيل من سوء التغذية ،
 وقد ارتدى بزة حقيرة وسروالاً يكاد يخرج عن حدود الاحتشام •
 تذكر السيد برالنسكى هذا كله ، بل تذكر أيضاً أنه قد تساءل
 حين رأى هذا «الكاريكاتور» : ألا ينبغي اعطاء هذا المسخ المسكين عشرة
 روبلات من باب المكافأة ليستطيع أن يرتدى ملابس لائقة ؟ ولكن لما كان
 هذا الشقى يبدو كمن يشارف على نهايته ، ولما كانت نظرته ، عدا ذلك ،
 غير محبة كثيراً ، فان هذا القرار الطيب الذى خطر ببال الجنرال لم يلبث
 أن تبخر ، فلم يتلق بسلدونيموف مكافأة ، وظلّ شحاذاً كما كان •

وقد اندهش الجنرال بعد ذلك مزيداً من الاندهاش حين رفع اليه
 بسلدونيموف هذا نفسه طلب استئذان بالزواج •

وقد تذكر ايفان ايلتش الآن أنه قد وافق على منحه ذلك الاذن
 فوراً ، دون أن يترتب لدرس الموضوع ، ولكنه قد حفظ عندئذ هذا
 الأمر : لأن الخطبة تقدم لخطيبها مسأله من بيت من خيشي ولا يعهدة

روبل عداً ونقداً •

كان هذا كله يحاصر ذاكرة برالنسكى الآن ، وكان برالنسكى
 يبدو غارقاً في تأملات خارقة •

انكم تعلمون أن أفكاراً كثيرة متتالية تجتاز أدمغتنا في بعض الأحيان بسرعة كسرعة البرق ، وتعرض لنا في صورة احساسات لا يمكننا أن نصوغها صياغة أدبية ، بل ولا تستطيع أية لغة انسانية أن تعبر عن دلالتها تعبيراً دقيقاً . ولكننا لن نقف الآن أمام مصاعب هذه المهمة ، وسنحاول أن نؤول ما اشتملت عليه أفكار بطلنا من أمور هي أبعدنا عن السخف ان لم نحاول أن نؤول معنى هذه الأفكار بأكمله . صحيح أن الحواطر والاحساسات التي عاناها ايفان ايلتش تفتقر الى المنطق بعض الافتقار ، ولكنكم لا تجهلون سبب هذه البلبلة وهذا التخط .

قال السيد برالنسكى يحدث نفسه : « انه ليتفق لنا أن نقول أشياء كثيرة ، ولكننا نتقهقر وتراجع متى حانت ساعة التنفيذ ! لننظر مثلاً الى بسلدونيموف هذا : انه يعود من الكنيسة مرتعشاً من الانفعال ! انه يأمل أن يذوق الثمرة التي حُرِّمت عليه حتى الآن !... هذا طبعاً يوم من أجمل أيام حياته ... انه يُعنى بضيوفه ، ويهيئ احتفالاً لن يعوزه لا الفرح ولا الصدق ، رغم أنه احتفال بسيط ، ان لم نقل انه احتفال فقير !... »

« فما عسى يحدث اذا هو علم ، في هذه اللحظة نفسها ، أنني ، أنا رئيسه المباشر الكبير ، واقف هنا ، أمام منزله ، أصغى الى الموسيقى ؟ »

« حقاً ، ما عسى يحدث - اننى أسألكم هذا السؤال - اذا أنا خطر ببالي فجأة أن أدخل على هذا المسكين ؟ »

« هم ... ان بسلدونيموف سيصاب عندئذ بالبكم من شدة الرعب والانفعال ، وقد يسقط على ظهره ، ولا شك أن دخولي سيقلب كل شيء نعم . . . هذا ما سيحدث اذا دخل على بسلدونيموف جنرال غيرى ، نعم . . . جنرال غيرى . . . أما أنا فلا . . . »

« نعم يا ستيفان نيكيفوروفتش ، نعم يا من كنت منذ قليل لا تفهمنى فيما يبدو ... خذ ... هذا مثال من شأنه أن يفتح عينيك »

« نحن جميعاً ، معشر المتكلمين عن الروح الانسانية ، هل نستطيع أن نقوم بعمل بطولى واحد ؟ نعم ، نحن نستطيع ذلك . وقد تسألوننى : فأين البطولة فى هذا كله ؟ ألا فاسمعوا اذن :

« ما دامت العلاقات الراهنة بين أفراد المجتمع هى الآن على ما هى عليه ، فما قولكم اذا خطر فجأة ببال مستشار دولة أن يحضر عرس واحد من مرموسيه هو موظف بسيط راتبه عشر روبلات فى الشهر ؟ ... وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوق ذلك ؟ ... ما قولك فى هذا يا ستيفان نيكيفوروفتش ؟

« سوف يصيحون : يا للفضيحة ! ، وسوف يصفون هذا العقل بالجنون ، وسوف يعولون قائلين فى آخر الدنيا « هذا آخر أيام بوميثى »* ، وسوف يقولون ما لا أدرى أيضاً . لن يكون أحد قادراً على أن يفهم هذا الفعل ، حتى ولا أنت يا ستيفان نيكيفوروفتش الذى تبدو مع ذلك انساناً ذكياً ... لأن أحداً من رجال الماضى هؤلاء المشلولين الأغبياء لن يكون قادراً على القيام بهذا الفعل الذى أعرضه عليك ! ... أما أنا فسأقوم به ... أنظر كيف أحيل « آخر أيام بوميثى » الى أجمل يوم فى حياة مرموسى المسكين البائس ! ... ان العمل الذى تصفه بالجنون سيستحيل بفضل حادثاً تاريخياً له دلالة أخلاقية بعيدة المدى لا يمكن حسابها !

« لعلك تسألنى : كيف أتدبر الأمر ؟ فاسمع اذن . لنفرض اننى دخلت على بسلدونيموف . ماذا يحدث عندئذ ؟ زهول عام فى أول الأمر طبعاً ... ان الناس المشتركين فى حفلة العرس سيقطعون رقصاتهم على

الفور ، وميتوقفون وقد اتسعت عيونهم ذعراً ، وسيتراجعون تراجع
الأمواج عند الجزر !... ..

» نعم ، ولكننى فى تلك اللحظة انما سأستعمل كل كياستى لتهدئة
روعهم ، وردهم الى الراحة والطمأنينة .. أمضى الى بسلدونيموف الذى
يتأملنى مرتعشاً من الخوف ، فابتسم له ابتسامة المودة الكاملة ، وأخاطبه
بكلام موجز بسيط قائلاً له :

» - هأنذا ! اننى آت من عند صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش .
أظن أنك تعرفه • انه يسكن غير بعيد •

» ثم أسارع فأروى قصة فكهة من شأنها أن ترد جميع الحضور
الى الراحة والدعة ، فلا شئ كالفكاهة يزيل الحرج ويبدد الارتباك •
أحكى قصتى مع تريفون ، وأروى كيف قررت أن أمشى على قدمى •
أنت تدرك ، أليس كذلك ؟

» اسمع • اليك هذا المثال عن حكايتى الفكهة :

» سمعت موسيقى على حين فجأة ، فسألت الشرطى ، فعلمت أنك
تحتفل بعرسك ، فخطرت ببالى فكرة فقلت لنفسى : « فلأزر مرموسى
الطيب ، لأرى كيف يتسلى الموظفون فى دائرتى و.. كيف يتزوجون ! »
» - آمل أن لا تطردنى !

» أن لا تطردنى ! يا لها من كلمة تقال لمرعوس ! ألا انه سيطير
من هذه الكلمة صوابه ! وما هو ذا يضطرب حولى ، ويأتينى بمقعد ،
ويرتعش فرحاً ، ويشعر بأنه عاجز عن تقدير السعادة التى تسقط عليه •
» أى فعل أكثر بساطة وأعظم أناقة ورشاقة من هذا الفعل ؟ فإذا
سألتمونى لماذا دخلت عليه قلت هذا سؤال آخر ، هذا سؤال يشتمل على
الجانب الأخلاقى من الأمر ان صح التعبير •

قال ايفان ايلتش يسأل نفسه وهو يضع يده على جبينه : « ماذا كنت أريد أن أقول ؟ آآآ نعم ! »

« ها هم أولاء يجلسوننى قرب مدعو مرموق هو موظف من الموظفين أو كاتب محال على التقاعد له أنف أحمر جميل آآآ ما أجمل تلك الصفحات التى دبجتها يراع جوجول فى وصف أمثال هؤلاء الناس ! »

« ثم أتعرف على العروس ، وأقول لها بضع كلمات لطيفة طبعاً • ولن يفوتنى أن أشجع الراقصين أيضاً : سأطلب اليهم أن يستمروا فى لهوهم • وسأضيف الى ذلك وأنا أضحك ضحكة صغيرة أشبه بضحكة طفل برىء : »

« - استمروا فى لهوكم كما لو لم أكن حاضراً ! آآآ »

« سوف ألقى فكاهات ، وسوف أضحك ، وسوف أكون فى غاية اللطف والظرف ، كما أجيد ذلك فى لحظات بهجتى آآآ »

« هم آآآ أقصد آآآ أحسب أننى أسرفت فى الشراب بعض الاسراف آآآ »

« ولما كنت امرأاً جنتلماناً ، فلن أطلبهم باظهار أى علامة من علامات الاحترام طبعاً آآآ ولكن هذا أمر آخر من الناحية الأخلاقية • ان فعلى سيبعث فى نفوسهم عاطفة قديمة نبيلة : سوف يفهمون ، وسوف يقدرّون ! »

« وسأملكث عندهم على هذه الحال نصف ساعة ، وقد امكث ساعة كاملة ، ثم انصرف حتى قبل العشاء • ويكونون قد دعونى الى العشاء مع ذلك ، ويكونون قد ألحوا أن أبقي ، ولكننى أرفض عرضهم قائلاً : »

« - تعرفون طبعاً أن هناك أعمالاً تناديني ... وتضطرنى الى الانسحاب »

« وسأكتفى بأن أفرغ كأساً من الشمبانيا تكريماً للعروسين »
 « وسيكون من شأن اللهجة الرصينة وكلمة « الأعمال » أن ترداً الى وجوههم صرامتها التي تعبّر عن الاحترام » سوف تذكرهم هذه الكلمة السحرية تذكيراً لطيفاً كبّساً بكل ما يفرّق بيننا » انها تشير الى المسافة التي تفصلنى عنهم وتفصلهم عنى : هى مسافة بعيدة بعد الأرض عن السماء !

« ليس معنى هذا أننى أريد أن أقرض مهاتنى عليهم ، ولكن هذا التحفظ يظل أمراً لازماً للدلالة الأخلاقية الروحية التي يتضمنها فعلى »
 « ثم اننى لن ألبث أن أسترده ابتسامتى ، فأمازحهم قليلاً لأشجعهم ... وسأقول للعروس بضع ملاطفات أخرى ... هم ... هم ... ماذا أستطيع أن أقول لها ؟

« ها ... نعم ... وجدت ما يجب أن أقوله لها : أشير الى أننى سأزورها بعد تسعة أشهر عراباً » عظيم ! لا شك أنها ستكون بعد تسعة أشهر قد ولدت ... هؤلاء أناس يتناسلون كالآرانب » ويضج الحضور بالضحك لمزاحتى ، وتحمر العروس حياءً لطيفاً ، فأقبل جينها ، بل وأباركها ... وفى الغد ، فى الغد تعلم جميع المكاتب ببطولتى وتقدرها قدرها !

..... فان ..

« وهكذا انتصر ، هكذا أربح المعركة : اكتسب قلوب الملأ ، فأنا الأب وهم أبنائي !...»

« هياً افعل شيئاً يشبه هذا يا صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش !

« هل تعلم الآن ، هل تفهم الآن ما معنى هذا ؟ لاحظ أن بسلدونيموف نفسه سيقص على أبنائه في المستقبل أن جنرالاً قد حضر عرسه ، بل وأنه شرب في العرس شمبانيا • نعم ، سيقول هذا لأبنائه الذين سيقولونه هم أيضاً لأبنائهم ! وسيظل الناس يتحدثون عن هذا الأمر زمناً طويلاً في سهراتهم ؟ وسترتقى هذه القصة الصغيرة التي كان بطلها رجلاً من كبار الموظفين ، رجلاً من رجال الدولة ، سترتقى هذه القصة الصغيرة الى مصاف الأساطير المقدسة • سأكون قد أنهضت روح انسان مذل ، انسان مسكين فقير ، سأكون قد رددت هذا الانسان الى نفسه وغرست فيه في الوقت نفسه أجمل المبادئ الأخلاقية !

« ويكفى أن أكرر هذه الرحلة مرتين أو ثلاثاً حتى أكتسب شعبية واسعة شاملة ...»

« سيُحفر اسمي في جميع القلوب • وهل يدري أحد الى أين تؤدي الشعبية ؟ » •

هكذا كان يفكر ايفان ايلتش • ما أكثر ما يمكن أن يقوله لنفسه انسان " أثر فيه الشراب بعض التأثير ! وان جميع هذه الحواطر والأفكار قد اجتازت رأسه في أقل من دقيقة واحدة • وكان يمكن أن يكتفى صاحبنا بأحلامه هذه ، وأن يتابع سيره في الطريق الى منزله هادئاً ، بعد أن أفحم ستيفان نيكيفوروفتش هذا الافحام وبعد أن أخجله من نفسه على هذه الصورة • ولا شك أن رجوعه الى منزله هو خير ما كان يمكن أن

يفعله حينذاك • ولكن شاء سوء الحظ أن تكون تلك الدقيقة دقيقة غريبة شاذة •

ففى تلك اللحظة نفسها صور له خياله ، بما يشبه العمد ، أنه يرى وجهى ستيفان نيكيفوروفتش وسيمن ايفانوفتش متهللين راضيين • وهذا ستيفان نيكيفوروفتش يقول له . بلهجة حاقدة وضحكة مأكرة ساخرة :

« لن تملك الشجاعة اللازمة ، لن تملك القوة الكافية ، لن تملك القوة الكافية » •

وهذا سيمن ايفانوفتش يصاحب كلام زميله بضحكة وقحة :

« هـى هـى هـى » ، فاذا بهذه الضحكة تثير خنق الجنرال الشاب آخر الأمر ، واذا هو يقول بلهجة قاطعة وهيئة حازمة :

— سنرى أأملك الشجاعة أم لا ؟

وصعد الدم الى رأسه ، فترك الرصيف ، وعبر الشارع بخطوات ثابتة ، ليدخل منزل مرموسه الموظف الصغير بسلدونيموف •••

كان قدره يقوده • ها هو ذا يجتاز باب الحديقة الصغيرة التى تفضى الى الدار ، سائراً بخطى حازمة • وهذا كلب صغير طويل الشعر أبيض الصوت ينبى له محاولاً أن يتسلل بين ساقيه نابحاً نابحاً أجش ، فيدفعه الجنرال عنه فى احتقار وازدراء •

مش ايفان الماش محلف آف مع أشجار الصفصاف التى تقف على

الفضيل لم يمنع الزائر المفاجيء من أن يطأ بقدمه طبق طعام كان يترد في ركن من الأركان • ومال ايغان ايلتش على الأرض مستطلعاً مستغرباً فرأى طبقين آخرين فيهما حلوى • وقد أزعجه أنه داس طبق الطعام فسحقه ، وأوحى اليه ذلك بفكرة سريعة عابرة هي أن يلوذ بالفرار • ولكنه لو هرب لعدّ ذلك جنناً ، لا سيما وأنه لم ير حتى الآن مخلوقاً قط • وما هو ذا يمسح حذاه بحركة سريعة ليزيل علامات خراسته • ثم ها هو ذا يجلس باباً فيفتحه ، فاذا هو يجد نفسه في حجرة صغيرة هي حجرة المدخل التي يزدحم نصفها بمعاطف وفرواات وقبعات وأوشحة وجراميق ، ويقع في نصفها الثاني أربعة موسيقيين لا شك أنهم 'جمعوا من الشارع' ، وهم عازفان على الكمان ، وعازف على الناي ، وعازف على الكوترباس •

كان هؤلاء الفنانون جالسين حول مائدة خشبية تُحتضر في وسطها شمعة ، وكانوا يختمون عزف لحن من ألحان الرقص • ومن خلال الباب المفتوح يرى الراقصون الذين يتحركون وسط سحابة من الغبار والدخان •

ان مرحاً جنونياً يسيطر على الحجرة • ضحكات النساء وصيحاتهن تنطلق من كل جانب • والراقصون يقرعون الأرض بأعقابهم فكأنهم كوكبة من الفرسان • وفوق هذه الجلبة كلها يحلّق صوت قائد الرقص وهو فتى منطلق الحركات كان يصيح آمراً : « الراقصون يتقدمون ! » • • • حلقة السيدات تترجح ! ، ، النخ •

خلع ايغان ايلتش فروته ونزع عن قدميه خفّي المطاط ، منفعلًا بعض الانفعال ، ودخل الى الصالة مسكاً طاقيته بيده • وكان قد انقطع عن التفكير • • •

لم يلاحظه أحد في الوهلة الأولى ، لأن الحضور جميعاً كانوا

مشدودين الى الرقص منهمكين فيه • فلبث ايفان ايلتش على هذه الحال بضع لحظات كالمذهول لا يستطيع أن يميز أى شئ فى هذه الفوضى التى يضطرب فيها نحو ثلاثين شخصاً يتسبب منهم العرق • وكانت أبواب السيدات تلامسه ملاسة سريعة أثناء مرورهن به • وكان الراقصون يقذفون وجهه بدخان سيجاراتهم الموضوعة بين شفاههم • وهذا وشاح أزرق يدغدغ أنفه ••• ثم هذا طالب يدور على نفسه وقد طار شعره فى الهواء ، يلكزه بكوعه • ووراء الطالب ضابط طويل كعمود ، يصوت من شدة الفرح •

أحسن ايفان ايلتش تحت قدميه شئ لزج : أغلب الظن أن أرض الغرفة قد طليت بالشمع •

وانقضت بضع دقائق • فلما انتهى الرقص توقفت الحركة فجأة • وعندئذ انما بدأ يجرى الحدث « التاريخى » على نحو ما تنبأ به الجنرال • لقد قامت على حين بفته دمدمة غير مألوفة جرت بين الحضور الذين لما يتسع وقتهم بعد لأن يعودوا الى أنفسهم ويتنفسوا ويجففوا العرق الذى كان يسيل من جباههم • التفتت جميع الوجوه نحو القادم الجديد ، وهبت ريح من دعر ، فأخذ الجمهور يتقهقر • والذين لم يفهموا الأمر بعد سرعان ما نبههم اليه جيرانهم بشدة حافات ثيابهم ، فالتفتوا مسرعين ، وهرعوا يجارون الحركة العامة •

أما ايفان ايلتش ، الذى ما يزال واقفاً عند عتبة الباب ، فقد لا حظ بشئ من الانزعاج أن المسافة التى تفصله عن المدعوين ما تنفك تكبر من لحظة الى أخرى • ان الفراغ الذى ينشأ أمامه يتسع بغير انقطاع ، كاشفاً عن أرض الغرفة التى تغطيها الأوساخ وتتناثر عليها مرق ورق القصدير وأغلفة المرببات المبعثرة ، وقشور الجوز وأعقاب السجائر •

وهذا الفراغ ، هذا الفراغ الذى لم يكن فى الحسبان ، ما ينفك
يكبر ، ثم يكبر ...

ثم تحرك الفضاء : فهذا شاب يرتدى فراكاً قد دخل ، فرأى فيه
الجنرال ذكرى الشعر الأشقر الباهت ، والأنف الأفتى المنحنى •

انه بسلدونيموف بعينه يتقدم من الجنرال معبراً بكيانه كله عن
هيئة الخضوع تلك التى ينظر بها الكلب الى مولاه حين يناديه هذا ليكافئه
بركلة من قدمه •

هتف الجنرال يقول فرحاً كل الفرع :

— يومك سعيد يا بسلدونيموف ! أرى أنك قد عرفتني •

ولكن الجنرال أدرك ما فى مناداته هذه من خراقة ، وأخذ يفهم
أنه بسبيل ارتكاب حماقة هى من أضخم ما ارتكب فى حياته من حماقات •

ثأناً الموظف الصغير يقول :

— صا ... صاحب السعادة !

— مساؤك سعيد ، مساؤك سعيد يا صديقي ! هانت ذا ترى أنتى
أصل مصادفةً تماماً ... متحكم على الأمر بنفسك •

ولكن من الواضح أن بسلدونيموف كان عاجزاً عن أن يحكم على
أى أمر من الأمور • لقد انعقد لسانه وتجمد جسمه ، وجحظت عيناه ،
وتسمّر فى مكانه على ذعر لا سبيل الى مغالبتة •

— آمل أنك لن تطردنى ؟

وتابع ايفان ايلتش يقول وهو يشعر بازدياد اضطرابه :

- ان كرم الضيافة يوجب عليك أن تحتفظ بي ، سواءً أسرك
ذلك أم ساءك •

لم يستطع الموظف الصغير أن يخرج من ذهوله وخدره وظل
يتأمل رئيسه بهيئة غيبة كل الغباء ، بلهاء كل البلاهة •

خطر ببال ايفان ايلتش ، في لحظة من اللحظات أن يتسم ، ولكنه
لم يستطع ذلك ، ولاحظ عندئذ أن الحرج يزداد شيئاً بعد شيء • ان
الحلم الجميل الذي بناه حين كان واقفاً على الرصيف أمام المنزل يبتعد
الآن ويبتعد حاملاً معه الحكاية الفكاهية التي كان عليها أن تكسر الجليد
وتلطف الجو •

وهذا تيار كهربائي يجتاز فوراً جسم الجنرال الذي توقع ، وهو
منقبض الصدر ، أن يتحقق حتماً شيء غير منتظر ، شيء مخيف جداً
لا يجرؤ حتى أن يتصوره •

ومع ذلك قام الجنرال بجهد يائس مستميت • ودمدم يقول :

- لعنني أزعجك ... أنا ذاهب •

واختنق صوته في حلقه ، وارتعشت شفته السفلى في تشنج •

فلما تاب بسلدونيموف الى نفسه أخيراً ، انحنى نصفين ، مرةً أولى
فثانية ، فثالثة ، ولجلج يقول :

- صا ... صاحب السعادة ... أرجوك ... من فضلك ...

تكرّم ... شرفنا ...

واثبتت في نفسه على حين فجأة بطولة ما كان لأحد أن يتصورها
فيه ، فهرع نحو الكنبه التي كانت قد أبعدت عن المائدة من أجل الرقص ،
وهي التي تلاصقها في العادة •

قال المرموس المسكين مجمباً :

ـ تفضل فاجلس •

فهدأت نفس ايفان ايلتش قليلاً ، وتهالك على المقعد المتداعى •

وبنظرة ألقاها على القاعة أدرك أنه وحده الجالس • أما سائر الحفل ، وحتى السيدات ، فقد لبثوا واقفين • تطيّر ايفان ايلتش من هذه الواقعة ، وقدّر أنها تنذر بشر ، ولكنه لم يحاول شيئاً لتغيير هذه الحال ، لاعتقاده بأن ساعة التسامح لم يحن حينها بعد •

وظل المدعون يتراجعون ، وكان بسلدونيموف يشغل وسط الغرفة وعلى وجهه ابتسامة عقوق •

وكان الجنرال الشقى يتساءل : « رياه ! كيف السبيل الى الخروج من هذه الورطة ؟ » •

والحق أن الانزعاج الذى كان يقاسى منه فى تلك اللحظة قد بلغ من الشدة أن غزوته التى تشبه غزوات هارون الرشيد ، والتى قررها وعزم أمره عليها فى سبيل مبدأ ، كان يمكن بسهولة أن تكون فى عداد أعمال التاريخ البطولية •

ولم يكن الخلاص مع ذلك بعيداً بعداً كبيراً •

فمنذ ذلك الحين كان هناك رجل قصير قد وقف قرب بسلدونيموف وهو يحيى تحيات كبيرة ••• فما كان أعظم سرور ايفان ايلتش بل وما كان أشد فرحه حين عرف فى هذا الرجل واحداً من رؤساء المكاتب فى دائرته : انه أكيم بتروفتش زوبيكوف الذى كان يعرف الجنرال أنه رجل كبير القيمة شديد الطاعة كثير الصمت •

فسرعان ما نهض الجنرال مبتسماً فمد الى أكيم بتروفتش لا أصبعين

من أصابع يده فحسب ، بل مدَّ اليه يده كلها • فشد آكيم على يد
رئيسه بيديه المروقتين كليهما • وكان وجهه المخلوق حلاقة ناعمة يعبر
عن أعقى الاحترام • لقد انقذ كل شيء •

لقد انتصر الجنرال • وها هو ذا يتنفس الآن بحرية • ان ظهور
آكيم الذى أرسلته العناية الالهية يحمل الخلاص والنجاة : ان وجود
رئيس المكتب الصغير هذا يمكن أن يكون كافياً كفاية تامة من حيث هو
جمهور يستمع الى القصة الفكاهية • أما بسلدونيموف الذى أصبح منذ
الآن فى المنزلة الثانية أو الثالثة ففى وسعه أن يحافظ على وضعه الغبى
كل الغباء الأبله كل البلاهة • حتى ان هذا الوضع يمكن أن يُعد نوعاً
من التعظيم والتبجيل • ولكن القصة أمر لا بد منه ولا غنى عنه مدخلاً
الى الموضوع : لقد كان ايفان ايلتش يرى ذلك فى حب الاستطلاع الذى
كان يظهره جمهور المستمعين الذى تضخم بانضمام عدد غفير اليه يتألف
من الخادmates وغير الخادmates من أهل الدار ، الذين احتشدوا على الأبواب
ينتظرون شيئاً ما •

ان العقبة الوحيدة التى تحول دون حسن سير الأمور انما هى
الآن هذا الوضع المسرف فى الخضوع الذى يصطنعه الموظف المعجوز اذ
يصر على أن يبقى واقفاً •

قال له ايفان ايلتش وهو يشير الى مكان قربه :

— هياً اجلس ، ماذا تنتظر ؟

— عفوك • أنا هنا بخير •••

ولم يلبث آكيم بتروفتش أن أسرع يجلس على كرسيه • اليه
بسلدونيموف •

بدأ ايفان بتروفتش يقول وهو يخاطب آكيم بتروفتش وحده :

— اسمع هذه القصة الحارقة التي وقعت لى منذ قليل !

كان صوته ما يزال يرتجف رغم أنه قد هدأ بعض الهدوء واطمأن بعض الاطمئنان •

انه يمتط ألفاظه ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويؤكد المقاطع ، ويلفظ الألف مائلة • كان الجنرال ، على شعوره بأنه يمثل تمثيلاً ، لا يفلح فى الوصول الى السيطرة على نفسه ••• ان قوة خارجية كانت تحول بينه وبين ذلك ، وتجعله يتألم ألماً لا نهاية له • قال :

— تصور أثنى آت من عند ستيفان نيكيفوروفتش الذى لا شك أنك سمعت عنه ••• انه مستشار الدولة المعروف •••

اصحنى آكيم بتروفتش باحترام عظيم ، منثياً نصفين ، كأنه يريد أن يقول : « هل يمكن لأحد أن لا يعرفه » •

وتابع ايفان ايلتش كلامه مخاطباً بسلدونيموف من باب الكياسة قائلاً :

— هو الآن جارك !

ولكنه سرعان ما رأى فى عينى مرموسه أن هذا الخبر لم يثر فى نفسه شيئاً ، بل تركه بارداً كل البرود ، فاتجه الجنرال الى رئيس المكتب من جديد قائلاً له :

— لقد ظل العجوز طوال حياته ، كما تعلم ، يحلم فى أن يكون له منزل يملكه • وما هو ذا قد اشترى المنزل • وهو فى الحق منزل جميل جداً ! وقد اتفق أيضاً أن جاء معه هذا فـ ••• بعد ولادة الذى كان

قد حرص قبل ذلك زمناً طويلاً على أن يخفيه ، ربما عن بخل منه ...
 هيء هيء هيء ... ولكنه الآن قد بلغ من فرط سعادته بأن يرى نفسه
 مالكا . انه دعانا الى منزله أنا وسيمن ايفانوفتش ... أغلب الظن أنك
 تعرف شيولنكو .

عاد آكيم بتروفتش ينحنى بحماسة محدودة من شأنها أن تسر
 ايفان ايلتش وأن تبهج قلبه . وكان ايفان ايلتش قد أحس من قبل أن
 مرموسه يريد أن يصطنع مظهر خطورة الشأن وعلو المنزلة باعتبار نفسه
 معينا لصاحب السعادة لا غنى له عنه !

وأردف الجنرال يقول :

ـ وقد سقانا شمبانيا وتحدثنا كثيراً ... في شئون الأعمال طبعاً
 ... حتى لقد تناقشنا بعض الشيء ... هيء هيء هيء .

رفع آكيم بتروفتش حاجبيه باحترام وتابع الجنرال كلامه فقال :

ـ لكن الأمر ليس هنا . لقد استأذنت بالانصراف ، فأنت لا تجهل
 طبعاً أن العجوز يأوى الى فراشه في ساعة مبكرة .. ان للسنة أحكامها
 وضروراتها كما تعلم ... وخرجت ... فاذا بي لا أرى صاحبي تريفون
 في انتظاري . وسألت عنه ، وقلقت متسائلاً عن عربتي : « أين
 ذهبت ؟ » فعلمت أسباب غياب تريفون . لقد ذهب هذا الحوذي الى حفلة
 زفاف أخت له أو قريبة ، لسبت أدري ... وكان يحسب في أغلب
 الظن أنني سأمكث عند صاحبي مدة أطول ... الخلاصة ... لقد ذهب
 به الشيطان ، به وبالعربة على السواء ! ...

هتف آكيم بتروفتش الذي كان يبدو عليه الهول والروع مما
 أباحه الحوذي لنفسه من حرية ، هتف بقول :

— رباه !

وسرت في الجمهور مهمة دهشة • ونظر الجنرال مرة أخرى الى
بسلدونيموف ، فرأى وجهه جامداً لا يعبر عن معنى ، حتى لكأنه
لا يكثر أى اكتراث لقصة المصائب التي نزلت برئيسه • حدث
الجنرال نفسه قائلاً : « لا شك أنه امرؤ لا قلب له ولا شفقة فيه » •

عاد الجنرال ينظر الى الضيوف ويخاطبهم قائلاً :

— فانظروا الى الظرف الذي صرت اليه ! لم يبق لى في الأمر
حيلة • أصبح لا بد لى من الانصراف سيراً على القدمين • خطر ببالي أن
أمضى ماشياً حتى « الشارع الكبير » عسى أن أجد هنالك عربية من العربات
الحقيرة تقلنى الى منزلى • • • • • هي • هي • هي •

— هي • هي • هي •

كذلك فعل آكيم بتروفتش. يرافقه في قهقهته باحترام وتبجيل •
وهزّت الجمهور مهمة جديدة ، ولكنها في هذه المرة أقرب
الى الفرح وأدنى الى المرح •

وفي تلك اللحظة فرقعت زجاجة أحد المصابيح ، فسرعان ما هرع
أحدهم يعيد ترتيب الأمور • وأفاق بسلدونيموف فجأة من خدره ،
فنظر الى المصباح مروّعاً ، ولكن الجنرال لم يلاحظ شيئاً ، وعاد كل شيء
الى الهدوء •

استأنف الجنرال حكايته فقال :

— مشيت في الليل • والسرى في الليل جميل كما تعلمون • فاذا
أنا أسمع في هدأته أصوات مسقة ، فسألت شيطاناً فقال لي : « انه

توقف الجنرال عن الكلام ، ثم اتجه يخاطب في هذه المرة
بسلدونيموف قائلاً :

- هيه يا أخ ! انك تقيم احتفالات تسمع أصواتها في بطرسبورجسكيا
ستورونا كلها • ها ! ها ! ها ! •

وقهقه آكيم بتروفتش بعده

- هي • هي • هي •

فكان من شأن ضجة هذه الضحكات أن أيقظت الضيوف ، فأطلقوا
من حناجرهم أصواتاً مهذبة تتم عن الاحترام • ومع ذلك فان بطل
الحفلة ، بسلدونيموف المسكين ، الذي كان ينحني في كل لحظة ، لم
يفلح في أن يتسم ابتسامة واحدة • « أهو اذن من خشب ؟ » •

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « ألا انه لأبله معنوه ! ان الحمار

يريد فحسب ، اذن لجرى كل شيء سمناً وعسلاً ! » •

ونفذ صبر الجنرال ، وضاق صدره ، وتابع كلامه يقول :

- قلت لنفسى : « فلأدخل الى مرعوسى • أمل ألا يطردنى !
ليكونن مضطراً الى استقبال الضيف سواء أسره ذلك أم ساهه ! » •
معذرة يا أخ • قل لى : هل أزعجك فى شيء من الأشياء ؟ لأنصرفن
فوراً اذا كنت أزعجك فانما أنا جئت لا لشيء غير أن أرى ما يجرى
عندكم !... »

لقد اتجه الجنرال بذلك السؤال الى بسلدونيموف ، فلما لم يجب

ـ كيف يمكن أن يخطر ببال صاحب السعادة أنه يزعمنا !...•••

وتحرك الضيوف فظهرت عليهم أولى علامات الارتياح و « زوال الكلفة » وجلست جميع السيدات تقريباً • هذه اشارة طيبة وبشرى ممتازة • حتى أن الجريئات منهن أخرجن مناديلهن وأخذن يهوين بها وجوههن • وهذه احداهن ترتدى ثوبا من مخمل مهترى • بعض الشيء •••••
 تسمع لنفسها فوق ذلك أن تقول بعض الكلام بصوت مسموع • وقد أراد الضابط الذى خاطبته أن يجيئها بصوت أعلى من صوتها أيضاً ، ولكنها أدركا من الصمت الشامل الذى أستقبل به حديثهما أنهما وحدهما يتكلمان ، فسرعان ما لاذا بالصمت •

وكان الرجال ، وهم عدد من صغار الموظفين ومن الطلاب ، يتبادلون النظرات اختلاسا ، ويلكز بعضهم بعضاً بكوعه ، ويتحركون هنا وهناك فى كل اتجاه •

حتى اذا انقضى الخوف وذهبت الحشية أخذ الضيوف ينظرون الى الدخيل بشيء من عداوة ، وحاول الضابط الذى أدرك الآن ما أظهره من نقص الشجاعة منذ قليل ، أن يصلح الأمر ، فأخذ يقترب شيئاً فشيئاً من المائدة التى تجاور الكنية •

قال ايفان ايلتش مخاطباً بسلدونيموف :

ـ هل لى أيها الأخ أن أسألك عن اسمك واسم أبك ؟

فما أسرع ما انتصب بسلدونيموف واقفاً وقال فيما يشبه العواء :

ـ بورفير بتروفتش ، يا صاحب السعادة !

ـ هلاًّ قدمتنى الى عرومك الشسابة يا بورفير بتروفتش ! قدنى

اليها •••

وهمَّ الجنرال بالوقوف • ولكن بسلدونيموف كان قد أخذ يجرى
في الصالون جرياً سريعاً •

ان العروس الشاببة التي ظلت طوال مدة المناقشة واقفة قرب الكنبه ،
أسرعت تختفي منذ أدركت أن الحديث قد دار الآن عليها ، ولكن
احتياطها هذا لم يُجدها نفعاً فما هي الا دقيقة واحدة ، حتى كان
بسلدونيموف عائداً نحو الجنرال يجبر اليه عروسه من يدها • تنحي
الجمهور ليفسح لهما مجال المرور ، ونهض ايفان ايلتش عن مقعده محتفلاً
أشد الاحتفال ، ورسم على شففيه ابتسامة لطيفة ودوداً ، وقال وهو يحييها
تحية مؤدبة :

- اننى ليسعدنى أكبر السعادة أن تتاح لى معرفتك ... ولا سيما
في يوم كهذا اليوم ...

قال ذلك وانمطت شففته بحركة صغيرة ماكرة تبعث على التفكير •
فرفعت السيدات رؤوسهن مزدهيات فى لطف وظرف •

وقالت السيدة التي ترتدى ثوباً من مخمل :

- رائع •

ان العروس الشاببة تستحق بسلدونيموف • هي فتاة فى نحو
السابعة عشرة من عمرها ، قصيرة القامة ، هزيلة الجسم ، لها وجه نحيل
شاحب يزينه أنف مستدق • كانت عيناها الصغيرتان المتحركتان تحدقان
الى الجنرال بلا تخرج ، بل وتتفرسان فيه بشئ من خبت وشر •

كان عنقها النحيل الذى يخرج من ثوب من قماش الموشلين
الأبيض المبطن ببطانة وردية اللون ، وكان كتفاها المستدقان وذراعاها

الهزيلان المعروقان ، كان ذلك كله يجعلها أشبه بدجاجة متوفة
الريش •

لم تعرف الفتاة بماذا ترد على ملاطفة الجنرال •

وأردف الجنرال يقول للعريس السعيد :

ـ انها لطيفة غاية اللطف ظريفة منتهى الظرف !

وكان الجنرال يتكلم بصوت عال بغية أن تسمع المرأة الشابة كلامه
لم يجب بسلدونيموف بل انه فى هذه المرة لم يردَّ حتى بتحية !
أكثر من ذلك : لقد لاحظ السيد برالنسكى فى عينى بسلدونيموف
• آلم • حياءة الاخفاء • شعور • ال • دة • عاطفة العداة • • مع ذلك كان

فلما أصبح الجنرال فى ذروة الحسرة واللوعة على هذا النحو ولما أصبح لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول اتجه الى الحفل كله يسأله :

- أيها السادة ! أصبح أننى لا أزعجكم البتة ؟

وخيل اليه فى هذه اللحظة أن راحتي يده قد تبللت عرقاً •

أجاب الضابط يقول :

- أبداً ، يا صاحب السعادة ، أبداً ! لا تقلق البتة ! فانما نحن نستريح قليلاً بانتظار أن نستأنف ما كنا فيه •

وسرت فى الحفل دمدمة استحسان تؤيد أقوال الضابط الذى كانت العروس تتأمله بلذة وسعادة ••• انه ما يزال فى ريعان الشباب مرتدياً بزته العسكرية •

تنفس الجنرال ، ونظر الى بسلدونيموف الذى كان ما يزال على مقربة منه وقد استطال أنفه مزيداً من الاستطالة • انه واقف وقوف الخادم الذى يحمل بيده فراء الزائر منتظراً انتهاء حديث الوداع ليساعده فى ارتدائه •

ان هذا التشبيه قد فرض نفسه على ايفان ايلتش نفسه الذى أصبح يرى أنه ضاع ضياعاً تاماً وأصبح لا يستطيع التحرر من الأحساس بخرج ثقيل يجثم على صدره • كان يشعر أن الأرض تنسحب من تحت قدميه، وأنه يغوص بأساً فى ذلك المستنقع الذى رمى نفسه فيه دون تبصر بالعواقب ، وأنه وقد أحاطت به الظلمات من كل صوب ، لن يستطيع أن يخرج من هذا المأزق قط !

لم يلاحظ الجنرال وهو غارق فى هذا العناد الأخرس والعنت الثقيل أن الضيوف ينتحون الآن فاسحين المجال لمروءة امرأة قصيرة

بمدينة مسنة ، هي امرأة يدل مظهرها على شيء من العناية بهندامها رغم بساطة ملابسها ... انها تعقد على عنقها منديلاً من حرير ، وتلف شعرها الأشيب بخمار من تخريم جميل كان واضحاً أنها لم تألف أن تزين رأسها به . وهي تحمل بيديها خواناً مستديراً عليه زجاجة شمبانيا تشبه أن تكون مثلثة ، والى جانب الزجاجة قدحان .

أقول قدحين لأن النيذ كان مقصوراً على المرموقين من الضيوف .
 اقتربت السيدة من الجنرال ، وقالت له وهي تنحني انحاء شديداً :
 - لا تكن مسرفاً في التشدد يا صاحب السعادة ! لقد شئت
 شهامتك أن تشرف ابني بحضور عرسه ففضل على العروسين بأن تشرب
 نخب صحتهما .

هذا لوح نجاة حقاً ! فما أسرع ما تثبت به ايفان ايلتش مستميتاً .
 ليست السيدة طاعنة في السن كثيراً ، هي في الخامسة والأربعين من
 عمرها أو هي في السادسة والأربعين على أكثر تقدير ، وإن لها وجهاً فيه
 كثير من الطيبة والصراحة . هو وجه مستدير ، وجه روسي . انها تبسم
 ابتسامة تزخر بصفاء السريرة ونبل القلب ، وقد ألقت تحيتها على نحو
 بلغ من البساطة أن ايفان ايلتش قد ارتدت اليه طمأنينته وعاد اليه أمله
 وأخذ يشعر بالراحة من جديد .

تمتم يقول وهو ينهض :

- لا شك ... لا شك ... أنك ... أم ... ابنك ... أليس

كذلك ؟

تمتم بسلدونيموف يقول وهو يمسح رقبته التي لا نهاية لطولها :

- نعم يا صاحب السعادة .

قال الجنرال :

- آه ... سعيد جداً بمعرفتك يا سيدتى !...

- هلمَّ يا صاحب السعادة ! تفضل فشرفنا بشرب كأس !

- بسرور عظيم •

• ض - الح - ان - عل - مائة - ح - بم - إلى - أمام - الكنيسة - ، وهي ع

واقفاً ، وتنهياً لالقاء خطاب قصير •

- أنا سعيد جداً ، سعيد سعادة عظمى ... يسعدنى كثيراً ... أن
أبرهن هنا ... أقصد ... لا كنت ... بوصفى رئيساً ... أتمنى لك
يا سيدتى (هنا اتجه الجنرال بالكلام الى العروس) ولك يا صديقى
بورفير (وهنا مال برأسه نحو الزوج) أتمنى لكما حياة مديدة سعيدة
... مديدة ...

قال السيد برالنسكى ذلك وأفرغ في جوفه كأس الخمر ، جيئاًش
العاطفة ، وكانت هى الكأس السابعة فى خلال تلك السهرة • وقد بث
الخمر شيئاً من مرح فى مزاجه المكشَّب • ولكن الجنرال ما ان رأى وجه
بسلدونيموف الكالغ مرة أخرى حتى تهدمت حالته النفسية وشعر
بسيل دافق من الكره لهذا المخلوق الشاحب الوجه البائس الطبع •

وألقى الجنرال نظرة على الضابط فقال يحدث نفسه : « وذلك

الرئيس واينس المروسر ، فلتكلأه ب عاتك دائماً ... ان أماً هم ، التي
تسألك ذلك ، لا تنسنا في المستقبل يا عزيزي الطيب آكيم بتروفتش ،
أيها الانسان الحساس الكريم •

قال ايفان ايلتش بينه وبين نفسه : « ما أحسن هؤلاء النساء
الروسيات ! لقد بثت هذه المرأة روحاً ونشاطاً في الحفل كله ! لظالما
أحببت الشعب ! ... » •

بهذه الكلمات ختم ايفان ايلتش قوله وقد فاضت نفسه حناناً •
وفي تلك اللحظة جرى الى المائدة بخوان جديد •

جاءت به بنية صغيرة ترتدى تنورة فضفاضة مشدودة بأسلاك ،
مصنوعة من قماش الكريتون ، لم تُغسل بعد ، فلها حين سير البنية
حقيف مسموع • كانت البنية الخادمة تجد غير قليل من العناية في الامساك
بالخوان • هو خوان كبير ثقيل يحمل عدداً لا نهاية له من أطباق صغيرة
مملوءة تفاحاً وعصائد ومرببات وجوزاً وما الى ذلك • كانت هذه الخلاوى
الموقوفة على السيدات ، قد أُبقيت حتى ذلك الحين في الصالون الصغير ،
فكان وصول الجنرال عندئذ هو السبب في نقلها من هناك •

- لا تزدري خلاوانا الوضيعة يا صاحب السعادة ! فالمرء ، كما
يقال ، لا يقدم الا ما يقدر عليه !

وكانت السيدة العجوز لا تكف عن الاتحناء وهم تدعوه الى أن

- كيف لا ؟ يسرني جداً يا سيدتي ...

كذلك أجاب ايفان ايلتش وهو يتناول جوزة ثم يحاول أن يكسرها
بين أصابعه آملاً أن تجلب له هذه البادرة البسيطة مودة الناس وأن
تحضهم على حبه •

وفجأة أطلقت العروس ضحكة صغيرة •

— ماذا حدث ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش مبتسماً وقد أفرحت هذه الظاهرة التي تدل على أن الحياة قد عادت تدب في الحفل •
أجابت الفتاة وهي تخفض رأسها :

— ان ايفان كاستنكيتش* هو الذى يضحكنى •

والواقع أن الجنرال قد لاحظ منذ هنيهة شاباً باهت الشقرة غير دميم الوجه كان مخفياً وراء الكنبه يهمس فى أذن العروس بكلام ما •
ساد صمت ونهض الفتى خجلان وجلاً ، ودمدم يقول معذراً :

— كنت أكلهما عن « مفتاح الأحلام » * •

فسأله ايفان ايلتش متلطفاً متواضعاً :

— أى مفتاح للأحلام تعنى ؟

— هو كتاب ظهر منذ قليل يا صاحب السعادة عنوانه : « مفتاح الأحلام » ولقد كنت أقول للسيدة ان رؤية السيد باناييف* فى المنام معناه أن قهوة ستندلق فى جيب ردايه •

فما لبث ايفان ايلتش أن عبس وجهه من جديد وقال لنفسه مستغرباً : « هذه سذاجة » •

أما الشاب فقد كان يبدو رغم احمرار وجهه سعيداً الى أقصى حدود السعادة من أنه استطاع أن يقول ذلك الكلام عن السيد باناييف •

قال صاحب السعادة وهو يخفى اعتكار مزاجه :

— نعم نعم ! فهمت !... .

وقال صوت قريب جداً من الجنرال :

— لا بل هنالك ما هو خير من ذلك . يُطبع الآن معجم جديد سيسهم في تأليفه السيد كرايفسكى * بمقالات عن ألكراكي وآخرين

نطق بهذه العبارة الأخيرة شاب لم يكن غير متحرج فحسب بل كان كذلك منطلقاً على سجيته في يسر وسهولة . انه يلبس رداءاً رسمياً وصدرة بيضاء ويمسك قبعة بيد ذات قفاز . وكان الشاب لا يرقص ، وكان ينظر الى الناس من عل ، لأنه يزعم أنه محرر في الجريدة الهجائية «جولوفشكا» * .

انه هو أيضاً ضيف مرموق دُعي الى الحفلة بصفته صديقاً قديماً من أصدقاء بسلدونيموف قضى معه أياماً حالكة في «غرف مؤتة» ، تديرها سيدة ألمانية .

ولكن لئن كان زاهداً بالرقص ، لقد كان لا يكره أن يشرب . فهو من أجل ذلك يغيب من حين الى حين في غرفة مجاورة وضعت فيها الفودكا شراباً للرجال ، وهي غرفة كان الرجال جميعاً يعرفون الطريق اليها ولا يضلون .

لم يستلطف الجنرال صاحبنا الشاب هذا .

وتدخل الفتى الباهت الشقيرة الذي تكلم منذ قليل عن الأحلام والذي ألقى عليه الصحفي بسبب ذلك نظرة مبغضة كارهة فقال من جديد :

— وأغرب ما في الأمر أن السيد كرايفسكى يجهل قواعد الاملاء وأن

ولكن المسكين لم يتم عبارته ، لأنه أدرك أن الجنرال كان يعلم هذا

كله منذ زمن طويل • رأى ذلك فى نظرة الجنرال الذى احمر وجهه غضباً لأنه تصور أنه يعد امرءاً جاهلاً تُروى له أمور يعلمها الناس كافة • اضطرب الفتى أشد الاضطراب ، وخجل أشد الخجل ، وأسرع يختفى ، ثم لم تنبسط عضون جبينه ولم تهلل أسارير وجهه لحظة بعد ذلك طوال السهرة •

ولا كذلك محرر جريدة « جوروفشكا » فانه قد ازداد اقتراباً من الجنرال وهمّ غير مرة أن يجلس الى جانب صاحب السعادة الذى كان واضحاً أن عدم التحرج هذا يسوءه ويزعجه • ومن أجل أن يخفى الجنرال استياءه عزم أمره على أن يقول شيئاً ما :

– قل لى يابورفير : لماذا تسمى «سلدونيموف» لا «سودونيموف»؟
لطالما أردت أن أسألك عن هذا الأمر •

تمتم المسكين يقول :

– لا يمكنى أن أجيب اجابة صحيحة دقيقة يا صاحب السعادة •

ورأى آكيم بتروفتش أن من الخير أن يتدخل فقال شارحاً :

– لا شك أن هذا خطأ ارتكب يوم سجل أبوه نفسه للخدمة العسكرية ، فاذا بصاحبنا بورفير بتروفتش ، يضطر الى تحمل نتائج ذلك الى الآن • ذلك يحدث أحياناً يا صاحب السعادة !...•

هتف الجنرال يقول بحرارة :

- جائز جائز • ان اسم «بسودونيموف» مشتق من الكلمة الأدبية «بسودونيم» ، أما اسم « بسلدونيموف » فليس له معنى البتة •

همس أكيم بتروفتش يقول :

- هذا سيبه الغباء •

- أى غباء تعنى ؟

- غباء الشعب الروسى يا صاحب السعادة ! ان الغباء جعل هذا الشعب يبدل بعض الأحرف وينطق بالألفاظ خطأً ، فالروس يقولون مثلاً : « نيفاليد » بدلاً من « أنفاليد » ...

- آه ... نعم ... صحيح جداً ... نعم ... نيفاليد ...
هى..هى..هى! ...

ودوَّى صوت الضابط الطويل فجأة يقول بعد أن لبث مدة طويلة
يتربص فرصة الظهور والتحيز :

- ويقولون أيضاً « ممرة » •

- « ممرة » ؟

- بدلاً من « نمرة » numéro يا صاحب السعادة !

- آه ... نعم ... هم يقولون « ممرة » ! ... بدلاً من « نمرة »
... آه ! نعم ... هى..هى..هى! ...

هكذا اضطر ايفان ايلتش أن يضحك مجازاة للضابط ، فسُرَّ
الضابط بذلك سروراً كبيراً ، ورفع يده الى رباط عنقه يعدل عقده •

وتدخل محرر جريدة « جوروفشكا » فقال :

- ويقولون أيضاً ...

ولكن صاحب السعادة تظاهر بأنه لا يسمع ، لأنه كان لا يستطيع حقاً أن يضحك مجاراة لهذا الضيف !

وألح المحرر على اتمام جملته نافذ الصبر فأضاف ...

- يقولون malgré بدلاً من malgré

فرشقه ايفان ايلتش بنظرة قاسية •

وهمس بسلدونيموف يقول له :

- أما كفالك ازعاجاً له ؟

فقال المحرر غاضباً :

- ماذا ؟ أأصبح المرء لا يستطيع أن يتكلم ؟ ...

وصمت وقطّب حاجبيه ومضى بخطى ثابتة يدخل الغرفة الصغيرة التي وُضعت فيها منذ بداية الحفلة لاستعمال الراقصين مائدة مفروشة بغطاء مزودة بنوعين من الفودكا وبأسماك الرنجة وبالكافيار وببيسند وطنى •

صب الصحفى لنفسه كأساً من النبيذ وقد امتلأ قلبه حقناً وغيظاً • وفيما هو يفرغ الكأس اذا بطالب طبع يظهر على حين فجأة مشعث الشعر • انه أحسن راقص فى حفلة بسلدونيموف • أسرع الطالب يتناول ابريق الفودكا كأن ظمأ شديداً يخرق جوفه حرقاً •

وهتف يقول مسرعاً : « سنبدأ الرقص ... تعال انظر ... سارقص منفرداً ... رافماً ساقى فى الهواء ! ... »

وما ان شرب الكأس التى صبها حتى سكب كأساً أخرى •

- انها رائعة كليوباترا سيمينوفنا هذه ! فى وسع المرء أن يجازف معها بكل شيء !... ..

- انه رجعى •

كذلك أجاب الصحفى متجهماً الوجه كالح الهيئة بعد أن بلع قدح الفودكا •

- من الرجعى الذى تعنيه ؟

- هو ذلك الشخص الذى وضعوا أمامه العصائد والجوز ! انه رجعى ... أنا أقول لك ذلك •

وفى تلك اللحظة سمع الطالب اشارة بدء الرقص ، فأسرع يخرج من الغرفة الصغيرة قائلاً للصحفى :

- - هيا بنا ! هيا بنا !... ..

لبث الصحفى وحده فصب لنفسه قدحاً آخر من الفودكا • لقد قرر أن يستحث كل ما يملك من شجاعة ، وأن يوقظ فى نفسه كل ما فيها من مشاعر الاستقلال • شرب الفودكا ، وازدرد بضع شرائح من الرنجة ، فلو أبصره مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكى عندئذ لرأى أمامه عدواً لدوداً رهيباً يختفى الآن فى لباس شخصية محرر جريدة « جوروفشكا » •

وا أسفاه ! لم يخطر ببال المسكين ايفان ايلتش شيء البتة ! لا ولا دار فى خلد لحظة أن حادثاً ضخماً آخر سيؤثر فى العلاقات المتبادلة بينه وبين ضيوف السيد بسلدونيموف بعد هنيهة !

ان الشروح التى قدمها ايفان ايلتش فى ايضاح الأسباب التى جعلته يحضر عرس مرموسه لم تقنع أحداً رغم أنها محتملة ، فظل

المدعوون جميعاً يشعرون بنوع من الحرج والتهيب الى أن تغير كل شيء على حين فجأة بما يشبه السحر • هي عبارة بسيطة أطلقها شخص لا أدري من هو ، لم تلبث أن هدأت جميع الشكوك بغتة ، فاذا بجميع الحاضرين يعودون الى ما كانوا فيه من ضحكات صاخبة وصيحات عالية وتلويحات شديدة ، حتى لكأن الزائر الذي فاجأهم وصوله لا وجود له الآن بينهم !

وكان سبب هذا التبدل المبالغ أن أحد الناس همس يقول في لحظة من اللحظات : « الرجل ... سكران » • ولئن بدا هذا القول في أول الأمر افتشاً رهيباً وتجنياً كبيراً فقد لاح مع ذلك معقولاً وجائزاً •

اتضح اذن كل شيء ! وهذا هو الحفل يتحرر فوراً من كل ضغط وهذا هو الرقص الذي رأينا الطالب يهرع للانخراط فيه يستأنف بحماسة كبيرة وحرارة عظيمة •

وفي تلك اللحظة كان ايفان ايلتش يتجه الى العروس الشابة ليهمس في أذنها قصيدة غنائية جميلة •

ولكنه لم يستطع أن يتم تلاوة قصيدته لأن الضابط الطويل لم يلبث أن تقدم نحوها بخطى ثابتة وجثا على ركبته أمامها يدعوها للرقص في كثير من الأبهة والجلال ، فما لبثت أن هبت واقفة ، وطار الى صفوف الراقصين • لم يقدم الضابط أى اعتذار ، ولم تتنازل العروس حتى أن تنظر الى الجنرال ، حتى لقد بدا عليها أنها سعيدة كل السعادة بتخلصها من مزعج يعكر صفوها • يا للهول ! ذهل الجنرال الطيب الشهم في أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه محاولاً أن ينتحل للمرأة الشابة عذراً •

قال لنفسه : « هي معذورة ! إن هؤلاء الناس المساكين لا يعرفون شيئاً من قوانين الكياسة وسنن اللباقة » .

ثم اتجه الى بسلدونيموف فقال له :

ـ وأنت أيها الأخ بورفير ، اذا كان هنالك أوامر يجب عليك أن تصدرها فلا تتخرج وامض الى شأنك .

ثم قال بينه وبين نفسه : « لكأن هذا الحيث الماكر يراقبني حقاً » .
يجب أن نقول أن منظر هذا العنق المفرط في الطول وهاتين العينين اللتين ما تنفكان تحدقان اليه وتفرسان فيه قد أصبح أمراً لا يطيقه الجنرال ولا يحتمله . ولكن الجنرال ، رغم أن جميع الأشياء قد جرت على غير ما تمنى أن يراها ، كان ما يزال يصر اصراراً عنيداً على أن يرفض الاعتراف لنفسه بذلك .

• وبدأ الرقص •

قال آكيم بتروفتش وهو يمسك الزجاجاة بيده ويتيحاً للـ كأس الجنرال باحترام :

ـ هل تسمح يا صاحب السعادة ؟

ـ لا أدري ... حقاً لا أدري ! ...

ولكن آكيم بتروفتش ، وقد أشرق وجهه بتعظيم لا حدود له ، كان قد سكب الحمرة . وبعد أن ملأ كأس صاحب السعادة ، هدأت نفسه ، وانبسطت أساريره ، وملأ كأساً أخرى لنفسه خلصة كما يفعل لص من اللصوص ، ولكنه لم يملأ كأسه حتى حافتها ، وأغلب الظن أنه

تعتمد ذلك اظهاراً لشعوره بأنه أقل من الجنرال شأنًا وأدنى منزلة •
 وها هو العجوز المسكين يجلس الآن قرب رئيسه جلسة امرأة في
 المخاض •

كان يسأل نفسه قلقاً : « عمَّ يجب أن أحدثه ؟ فيم ينبغي أن
 أكلمه ؟ » •

كان لا بد له أن يسلي صاحب السعادة ، وأن يسرّي عنه مهما
 كلف الأمر ، ما دام صاحب السعادة قد شرفه بقبوله جليساً له ، فكانت
 الشمبانيا اذن هي المخرج من ذلك الموقف الذي كان يبدو أنه لا مخرج
 منه • وبدا صاحب السعادة مرتاحاً راضياً ، لا من الشمبانيا طبعاً ، لأنها
 كانت فاترة ، وكانت الى ذلك رديئة رداءةً ظاهرة ، وانما كان مرتاحاً
 وراضياً من مجرد هذا الانفراج النفسى الذى حمله اليه الاحتفال البسيط
 بالشراب •

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « لا شك أن العجوز يجب أن
 يشرب ، ولكنه لا يجرؤ أن يشرب وحده ، وليس فى وسعى أن أمنعه
 مع ذلك من الشرب ... بل انه لمن السخف أن تبقى الزجاجة بيتنا على
 حالها ، • هكذا شرب الجنرال ، وكان ذلك بطبيعة الحال خيراً من أن
 يبقى ساكناً لا يعمل شيئاً ولا يقوم بشئ » •

وبدأ يقول مراعياً الوقفات متقيداً بالنبرات :

— لقد جئت الى هنا مصادفةً ان صح التعبير ... سيقول بعض
 الناس طبعاً ان مكانى ليس هذا المكان ... وانه ليس يليق بى أن أشهد
 اجتماعاً كهذا الاجتماع ...

كان آكيم بتروفتش صامتاً يصغى باستطلاع ، خجلاً وجلاً •

وتابع الجنرال كلامه فقال :

- ولكنى آمل أن تفهم السبب الذى دعانى الى المجيء ... آمل أن لا يذهب بك الظن الى أن الخمرة وحدها تجذبني ... هـ هـ •
حاول آكيم بتروفتش أن يضحك ، هو أيضاً ، اقتداءً بصاحب السعادة ، فلما لم يفلح فى ذلك ، أمسك فى منتصف الطريق دون أن يعثر على أيسر جملة يمكن أن يقولها •

وواصل الجنرال كلامه :

- أتيت ان صح التعبير ... بغية أن أشجع ... بغية أن أبين ان صح التعبير ... الهدف ... ان صح التعبير ... الهدف الأخلاقى ...

وكان وضع آكيم بتروفتش أثناء اصغائه الى كلام الجنرال ينم فى نظر الجنرال عن بلاهة وغباء ، فاستعر غضب الجنرال ، وأوشك أن يقرّعه على ذلك ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن صاحبه المسكين كان خافضاً عينيه غاضاً بصره كأنه شاعر بذنبه مدرك لحطئه •

اضطرب الجنرال بعض الاضطراب ، فبلغ جرعة من الشمبانيا • ومن أجل أن ينقذ آكيم بتروفتش الموقف ، أسرع يتناول الزجاجاة ويملاً كأس رئيسه مرةً أخرى •

قال ايفان ايلتش يحدث نفسه وهو يرشق مرءوسه المسكين بنظرة قاسية لكنها لا تخلو من شفقة وعطف : « انك لقليل الذكاء حقاً ! » •

قرر آكيم بتروفتش الذى كان يشعر بتعاضم غضب الجنرال تعاضماً متخفياً ، قرر أن يعتصم بالصمت فلا ينطق بكلمة • وعلى هذه الحال من الصمت لبث الرجلان أحدهما أمام الآخر مدة دقيقتين ، وهى مدة بدت لصاحنا آكيم بتروفتش زمناً لا نهاية له ...

علينا أن نقول الآن بضع كلمات عن آكيم بتروفتش : هو رجل من الطراز القديم ، هادىء الطبع ، خواف كدجاجة ، نشأ على احترام رؤسائه ، لا تعوزه طيبة السريرة ، بل ولا يعوزه نبل القلب •

هو واحد من أولئك الروس من سكان بطرسبرج الذين يولدون فى العاصمة أبناءً عن آباء عن أجداد ، وينشأون فيها ولا ييارحونها فى يوم من الأيام • ان هذا النموذج الروسى الخاص لا يملك أية فكرة عن روسيا ، ولا يعنيه هذا الأمر من قريب أو بعيد ، لأن اهتمام حياته كلها منوط ببطرسبرج ، ولا سيما بالمكان الذى يوجد فيه مكتبه • ولا تعدى مشاغل هؤلاء الناس فى العادة لعبةً بالورق على دريهمات قليلة ، وذهاباً الى متجر البقالة الذى يقع فى ركن من الشوارع يشترون منه ما هم فى حاجة اليه من غلال ، واثمناً للراتب الذى يمكنهم من الحياة • انهم يجهلون كل شئ عن العادات الروسية • أما الأغاني الشعبية فانهم لا يعرفون منها فى العادة الا أغنية واحدة هى « البتولة » • ولئن عرفوها فما ذلك الا لأن جميع آلات الأرغن البربارية تعزفها بغير انقطاع •

خلاصة القول ان آكيم بتروفتش نموذج خاص من نماذج الحيوان ، هادىء الطبع لين العريكة ، خاضع الارادة ، مطواع ، نشأ وتكوّن خلال هذه السنين الخمس والثلاثين الأخيرة •

على أن آكيم بتروفتش لم يكن شديد الغباء ، فلو قد سأله الجنرال عن شئ من اختصاصه لاستطاع أن يجيب ولأمكن أن يجرى بينه وبين الجنرال حديث ، ولكنه كان يرى أن الحشمة توجب على موظف مرموس أن لا يتدخل فيما لا يعنيه ، وأن لا يجيب عن أسئلة ليست من شأنه • ومع ذلك كان العجوز يحترق شوقاً الى معرفة السبب الحقيقى الذى دفع صاحب السعادة الى هذه الزيارة •••

كان ايفان ايلتش يغوص مزيداً من الغوص فى هوة من الكآبة والذهول ، فيسرف مزيداً من الاسراف فى رشف جرعات من كأسه التى كانت بفضل عناية آكيم بتروفتش واخلاصه تظل ملأى حتى الحافة بغير انقطاع •

وسئم ايفان ايلتش من الصمت الثقيل ، فحاول أن يسرّى عن نفسه بمشاهدة الرقص ، فما لبث منظر الرقص أن احتكر انتباهه كله • كانت الرقصات مرحلة حقاً ... ان الضيوف غارقون فى الفرح ، بكل ما فى قلوبهم من بساطة • ورغم أن المجيدين من الراقصين كانوا قلة ، فان الراقصين الحرق كانوا يعوّضون نقص الرشاقة هذا بقرع الأرض بأعقاب أحذيتهم قرعاً يبلغ من الضجيج أن من يراهم يحسبهم أساتذة من أساتذة الباليه •

• كان الضابط تمن فى الرقص تمناً خاصاً ... كان واضحاً

أنه يجب أن يرقص رقصات منفردة ، فاذا بقى وحيداً مع مراقبته فى وسط القاعة ، اتخذ أوضاعاً خارقة : ففيما هو منتصب كالوتد اذا هو يميل الى جانب ميلاً يبلغ من القوة أن حركته هذه توهم من يراها أنه يوشك أن يسقط ، ولكنه ما يلبث أن ينتصب من جديد فى الخطوة التالية ليميل على الجانب الآخر ميلاً قوياً فلا تكاد الزاوية التى تتشكل بين قمة جسمه وأرض الغرفة تزيد على خمس وأربعين درجة •

وكان وجهه يعبر عن جدٍ قوى ، وكان يرقص بإيمان صادق واقتناع كامل يثير دهشة الجميع •

وهذا راقص آخر كانت حمولته من الشراب كاملة منذ بداية السهرة فى أغلب الظن ، فلذلك نام قرب سيدته فأصبحت المسكينة مضطرة أن ترقص وحدها • وهذا موظف شاب يراقص الفتاة ذات

الوشاح الأزرق فيكرر في رقصه حركة بعينها لا تتغير ، لاعتقاده طبعاً بأنها حركة فكهة جداً تبعث على الضحك وتثير المرح : انه يظل وراء سيدته ، يمسك بوشاحها ويظل يطبع عليه عشرات القبل ، والسيدة لا تلقى بالاً الى هذا الاحترام المتكرر ، وتمضى تتابع رقصها في أبهة وجلال .

ولم يخلف طالب الطب وعده ، فها هو ذا يرقص منفرداً ، رافعاً ساقه في الهواء ، مجتذباً اليه بذلك اعجاب الحفل كله .

خلاصة الأمر أن الجو قد زال منه التكلف وتحذر من الحرج .
وأثرت الحمرة تأثيراً سخيّاً على ايفان ايلتش فأخذ يتسّم . الا أنه أحس بشك مرير يتسلل الى نفسه على حين فجأة . ان تلك السهولة التي كان يتمناها من أعماق قلبه حين أخذ الضيوف يتراجعون أمامه ، ان تلك السهولة قد انقلبت الآن الى عدم تخرج والى زوال كلفة .

ويا له من اسراف في عدم التخرج يا رب ! هذه على سبيل المثال سيدة ترتدى ثوباً من مخمل أزرق لا شك أنه مستعار ، قد عقدت ثوبها بدبوس على نحو يجعله أشبه بالسروال .

انها كليوباترا سيمينوفنا تلك نفسها التي قال الطالب عنها ان المرء يستطيع أن يجازف معها بكل شيء .

حدث الجنرال نفسه مستاءً بعض الاستياء متسائلاً : « كيف حدث هذا كله ؟ كانوا منذ قليل يتقهقرون ويتراجعون وها هم الآن يتحللون ! » .

ان هذا التغير في الموقف وهذا التبدل في الوضع ، ان هذه السهولة اللطيفة التي كانت تتوق اليها نفسه توقاً شديداً ، ان هذا كله يبدو له الآن غريباً غرابة عظيمة ومهدداً تهديداً كبيراً . حتى ليكاد يرى

الجنرال فيه نذير أحداث أخطر من ذلك كثيراً • لكأن هؤلاء الناس جميعاً قد نسوا حتى وجوده !•

ومع ذلك ، رغم الشك القاتل الذي أخذ يجتاح نفس ايفان ايلتش شيئاً فشيئاً ، فقد كان ايفان ايلتش يضحك ويصفق •

وكان آكيم بتروفتش يتسسم باحترام ، مقتدياً برئيسه دون أن يخطر بباله أن قلب صاحب السعادة قد تسلل اليه شعور جديد يعكر صفوه ويسمم نفسه •

— أحسنت جداً أيها الفتى ! انك تجيد الرقص أيما اجادة !
كذلك صرخ الجنرال متجهماً بالكلام الى الطالب الذي كان يمر حيثئذ بجانبه •

فما كان من الرقص الا أن التفت الى صاحب السعادة فجأة فجعدّ خده تجعيدة عجيبة وقرب وجهه من وجهه وأطلق أمام أنفه صيحة فرحة يقلد بها صياح ديك •

هنا طفح الكيل! وها هو ذا ايفان ايلتش ينتصب واقفاً لهذه المزاحة الجريئة ! وانطلق الناس جميعاً يضحكون ضحكاً صاخباً لأن الطالب قد أحسن تقليد صياح الديك حقاً ، عدا أن تجعيدة خده كانت فوق ما يمكن وصفه ! •••

وفيما كان الجنرال غارقاً في ذهوله وهو ما يزال واقفاً ، وصل بسلدونيموف مع أمه ليعلنا للجنرال أن العشاء جاهز •

قالت العجوز وهي تمخى :

— هب لنا هذا الشرف العظيم ، وهو أن تشاركنا وجبتنا المتواضعة !•••

ثأماً ايفان ايلتش يقول :

— حقاً لا أدري ... حقاً لا أدري .. أنا لم أجيء لهذا ...
أنا كنت أهمُّ أن أنصرف .

وكان الجنرال قد آلى على نفسه فعلاً أنه لن يمكث دقيقة أخرى
واحدة . حتى لقد تناول قبعته بيده . ولكن ... لكن القدر كان هناك
... وها هو ذا ايفان ايلتش ... يبقى ... وبعد دقيقة كان الجنرال
يقود الموكب الزاهب الى الوليمة وقد أحاط به بسلدونيموف والعجوز
الطيبة . أجلس الجنرال في مكان الشرف من المائدة ، ووضعت أمامه
زجاجة شمبانيا جديدة .

وبحركة خاطفة سرعان ما وجدها الجنرال نفسه غريبة جداً تناول
زجاجة فودكا وصب لنفسه منها كأساً . واذ أنه لم يذق الفودكا حتى
تلك اللحظة ، فانه ما ان شرب كأساً حتى شعر باحساس سريع غريب
في آن واحد : خيّل اليه انه يتدحرج من أعلى جبل ، وأحس بأنه
يهبط ، فأراد أن يتشبث بشيء ما ، ولكنه اضطر أن يعترف لنفسه بأن من
المستحيل عليه أن يفعل ذلك !

أصبحت حالة الجنرال تزداد غرابة وشنوذاً شيئاً بعد شيء . الله
وحده يعلم ما الذي صار اليه في مدى ساعة ! كان حين دخل الى المنزل
يمد ذراعيه لا الى مرعوسيه وحدهم بل الى الانسانية كلها ان صح
التعبير ! وها هي ذى جميع آلام قلبه وتباريح نفسه تضطره بعد
ساعة واحدة الى أن يكره بسلدونيموف ، وأن يلغنه هو وعروسه
وزواجه . ثم ان هذا الكره كان يبدو متبادلاً : قرأ الجنرال ذلك في
عيني بسلدونيموف . ألم تكن نظرة الموظف المسكين تقول : « شيطان
يأخذك يا جنرال الشؤم ، يا جنرال النحس ! » .

ورغم هذه العداوة الواضحة كل الوضوح ، كان ايفان ايلتش يؤثر أن يقطع يده على أن يعترف لا علانيةً فحسب بل في سرّه أيضاً ، بأن سلوكه كان فيه شيء من غباء فعلاً ان لحظة مؤاخذه النفس لم تكن قد حانت بعض !

ولكنه كان يشعر بانقباض في صدره كان يشعر بألم في قلبه ويتمنى لو يندفع الى الهواء الطلق ، لو يخلد الى شيء من الراحة .

ان ايفان ايلتش الذى كان فى قرارة نفسه رجلاً طيباً شهماً يعلم حق العلم أنه كان عليه أن ينصرف منذ مدة طويلة لا أن ينصرف فحسب بل أن يولىً هارباً بأقصى سرعة ! ذلك أنه كان يحس أن الواقع يختلف عما صورته له أحلامه حين كان واقفاً على الرصيف .

أخذ ايفان ايلتش يؤنب نفسه قائلاً وهو يرشف جرعة من شراب ويزدرد لقمة من طعام : « لماذا جئت الى هنا ؟ أنا ما جئت لأكل وأشرب ،

وشيثاً فشيئاً وصل الجنرال الى مرحلة الانكار التام والنفى الكامل تسلفت السخرية الى نفسه فى رفق وهدوء وأصبح العمل البطولى المزعوم يبدو له الآن سخيلاً مضحكاً وأصبح آخر الأمر لا يعرف لماذا جاء الى هذا المنزل !

كان عليه أن يخرج ولكن كيف ؟

ما عساهم يقولون فى هذا كله ؟ ان ألسنة السوء ستدعى غداً أنه يقوم بجولات فى أماكن مشبوهة ! .

ووسوس له الشك : ماذا يقال غداً ؟ « ذلك أن كل شيء لا بد أن يُعرف ؟ ما الذى سيقوله ستيفان نيكيفوروفتش ، وسيمين ايفانوفتش ، وموظفو المكاتب ، ورواد الصالونات ، وآل شمبل وآل شوبين ؟ ، .

وحدث الجنرال نفسه قائلاً : « لا أستطيع ان أنصرف مع ذلك قبل أن أشرح لهؤلاء الناس جميعاً لماذا أثبت • لا أستطيع أن أنصرف قبل أن أميط لهم اللثام عن الغاية الأخلاقية التي استهدفتها من زيارتي • • • • • ولكن متى توافي اللحظة المؤثرة المناسبة ؟

وتابع المسكين اجترار أفكاره : « انهم لا يشعرون نحوى حتى بشيء من الاحترام ! لماذا تراهم يضحكون ؟ • • • • • انهم لا يتخرجون أى تخرج حتى لكأنهم لا قلوب لهم ! • • • • • لطالما ساورنى الشك فى الجيل الجديد فقلت انه لا قلب له ! • • • • • ومع ذلك يجب ان لا أبقي هنا مهما يحدث من أمر ! • • • • • ولكن من يدري ؟ ما هم أولاء قد اجتمعوا على المائدة ، ربما استطعت أن أكلمهم فى أمور حيوية ، ربما استطعت أن أحدثهم عن الاصلاحات ، ربما استطعت أن أحدثهم عن عظمة روسيا فى المستقبل • • • • • أيمكن من المستحيل حقاً أن أنفخ فى نفوسهم شيئاً من حماسة ؟ لعل الفرصة لم تضع كلها بعد • • • • • ولكن من يدري ؟ هل يجب أن تجرى الأمور حقاً على هذا النحو ؟ ثم من أين أبدأ ؟ كيف أجتذب انتباههم ؟ كيف أسر قلوبهم ؟ ماذا يجب أن أقول ؟ ما الذى ينبغي أن ألقه من كلام ؟ • • • • • طاش صوابى يا رب ! ضاع عقلى ! ماذا يريدون منى ؟ ما الذى يرغبون فيه ؟ انى لأرى ضحكاتهم المكظومة ! أتراهم يستهزئون بى يا رب ؟ ولكن ما الذى أريده أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا لا أنصرف ؟ • • • • •

هكذا كان يفكر الجنرال بينما كان شعورٌ بالخزى عميق ساحق يحتاج قلبه شيئاً بعد شيء •

وفي أثناء ذلك كانت الأحداث التي لا ترحم تتابع مجراها •

ما ان انقضى ربع ساعة على جلوس الحفل الى المائدة حتى سيطرت على فكر الجنرال فجأة فكرة رهية ... لقد أدرك المسكين ادراكاً تاماً أن السكر قد أخذ به كل مأخذه ليس سكره الآن هو ذلك التمل الخفيف الضاحك الذي كان مسيطرأ عليه منذ قليل ، وانما هو سكر كامل حاسم لا براء منه ! وليس سبب هذا السكر الا ذلك القدح اللعين من الفودكا الذي تجرعه بعد الشمبانيا ففعل فعله في نفسه فوراً •

ان ضعفاً غريباً يهده الآن هدأ ، وان وهناً شديداً يدمره الآن تدميراً ! انه يلاحظ ذلك ويحسه • وما هو ذا عرق بارد يتقاطر على جبينه كجبات اللؤلؤ ! صحيح أن شجاعته كانت تزداد أثناء ذلك ، ولكن ضميره ما ينفك يعذبه عذاباً شديداً ، وما يبرح يصيح قائلاً له : « هذا شر ! هذا سوء ! بل هذا غير لائق البتة ! » •

وهو يحس تارة أن خواطره الرجراجة المترنجة لا تستطيع أن تثبت على نقطة وأن تركز على فكرة ، وهو تارة أخرى يشعر أن كيانه نفسه ازدوج ازدواجاً فكأنه اثنان لا واحد ! •

هو من جهة أولى يشعر بالشجاعة وبالرغبة في الانتصار وبارادة تحطيم العقبات وتدمير الحواجز وبالثقة الكاملة المستميتة بأنه ما يزال يستطيع أن يبلغ غايته ويحقق هدفه • وهو من جهة ثانية يشعر بألم شديد يحز في نفسه وبوقفات مفاجئة تقطع نبضات قلبه ! ... •

وفوق هذا كله كان يعذبه ذلك السؤال الرهيب الذي يتردد بلا مهادنة : كيف سينتهي هذا الأمر كله ؟ وما الذي سيحدث غداً ؟ •

غداً ... غداً ... ان « غداً » هذا لا يبرح فكره !

قبل ذلك بقليل كان الجنرال قد تراءى له أن بين المدعويين خصوماً
يناصبونهم العدا . ولقد أراد عندئذ أن يبعد هذه الشبهة وأن يزيل ذلك
الشك قائلاً لنفسه : « لعل ذلك يرجع الى أنني كنت مثلاً بعض الثمل
حين وصلت » .

ولكن ما أشد ما يشعر به الآن من هول ودروع بعد أن جعلته
الأدلة الواضحة التي أمدته بها ملاحظاته ، يوقن من أنه محاط بأعداء
ألداء ! .

فكان يتساءل وقد امتلأ قلبه كمدأ وكرباً : « ولماذا ؟ لماذا هذا
كله ؟ » .

وكان يجلس الى المائدة نحو من ثلاثين شخصاً قد أخذ السكر من
بعضهم كل مأخذ أيضاً . أما المدعوون الآخرون فكانوا منطلقين على
سجيتهم انطلاقاً يدعو الى النفور والاشمئزاز ، فهم يصرخون صراخاً
شديداً ، وهم يتكلمون معاً في آن واحد ، وهم يقرعون الكؤوس بعضاً
ببعض في شرب الأنخاب ، وهم يقذفون السيدات بكرات من الخبز . .
ومنذ بداية المائدة كان شخص كرية مشبوه يرتدى رديجوتاً
متسخاً قد سقطت تحت المائدة ولبث هنالك لا يتحرك . وهذا شخص آخر
تراوده نفسه في كل لحظة أن يرتقي المائدة ويتجول بين الأطباق ليلقى
خطاباً ، فيحول الضابط بينه وبين ذلك بشدة من حافة رداثة .

ورغم أن الطاهي الذي أعد العشاء قد تخرج من منزل عظيم من
العظماء فان قائمة الطعام لم يكن فيها كثير من تناسق : شرائح من لحم
مجمد ، ولسان بقر مع بطاطس ، وأضلاع مع الباسلاء ، ثم اوزة هي
الطبق المختار وتاج المائدة ، وعصيدة هي الحلوى التي تختتم بها وجبة
العشاء .

أما الشراب فبيرة وفودكا ونيذ وزجاجة شمبانيا وضعت أمام الجنرال وخصَّ بها دون غيره فهي تضطره الى أن يصب منها دون أن ينسى آكيم بتروفتش الذى كان قبل ذلك يخدمه فى بحبوحة وسخاء ، ثم أصبح الآن لا يتجرأ أن يبادر الى ذلك • وكانت أُنخاب المدعوين الذين هم من الطبقة الثانية خمرة من نيذ القوقاز •

وكانت المائدة نفسها تتألف من عدد من موائد صغيرة متعددة الأنواع قد صُفَّ بعضها الى جانب بعض ؟ وكان هنالك مائدة خضراء تكمل عددها ؟ وكان هذا كله مفروشاً بأغطية متنوعة الأشكال مختلفة الألوان •

لم تشأ أم بسلدونيموف أن تجلس ، وذلك بحجة زغبتها فى العناية بخدمة الضيوف • ولكن ها هو ذا وجه امرأة مكفهر عابس لم يسبق للجنرال أن لاحظَه قبل ذلك يظهر الآن على حين فجأة : انها امرأة ترتدى ثوباً من حرير يضرب لونه الى حمرة ، وعلى خدها ضماد • انها أم العروس ، استطاعت أخيراً أن تنتصر على الكره الذى تحمله لحماية ابنتها ، فقررت أن تبارح نخبأها وأن تجيء الى الصالون بمناسبة العشاء •

ان هذه السيدة التى كانت تنظر الى الجنرال بهيئة نصفها شر ونصفها مكر ، كان يبدو عليها أنها تخشى أن لا تُقدَّم الى الضيف الذى جاء بالمصادفة والذى كان من جهته لا يرتاح الى هيئتها ويشعر نحوها بشئ من الريبة • على أن السيدة ماميفيوف لم تكن الشخص الوحيد الذى يثير الشبهة والريبة فى نفس الجنرال : ان هنالك أفراداً آخرين كان الجنرال ينفر منهم ويشك فيهم ويشعر أمامهم بمخاوف واضحة • ولعله لم يكن مخطئاً • ذلك أن جميع هؤلاء الناس كان يبدو عليهم أنهم

يكيدون لصاحب السعادة ويدبرون مؤامرة عليه • ولقد انتهى الجنرال فعلاً الى ادراك ذلك اثناء العشاء !•

كان هنالك على وجه الخصوص سيدٌ له لحية صغيرة وله هيئة كهينة رسام بوهيمي • ان هذا السيد قد التفت نحو جاره مراراً اثناء العشاء وتمتم في أذنه بكلام ، وثمة شخص آخر لعله طالب كان يبدو مشبوهاً كذلك رغم أنه ثمل تماماً •

أما طالب الطب الذي كان يتقن تقليد صراخ الحيوانات ذلك الاتقان كله ، فلقد كان في الواقع لا يوحى الا بقليل من الثقة ، وكذلك الضابط الذي كان ايفان ايلتش في لحظة من اللحظات قد عقد عليه آخر الآمال واأسفاه !

على أن أوضح كرهٍ انما كان يُقرأ في وجه محرر جريدة «جوروفشكا» : ان طريقته في التهالك على كرسيه ، وان نظرتة الزاخرة بمعاني الزهو والصلف والتحدى والاستفزاز ، وان ما يصطنعه من عدم التخرج وقلة الاكتراث ، ان ذلك كله كان يثير في نفس الجنرال هولاً ورعباً •

فرغم أن المدعويين الآخرين لا يبدو عليهم أنهم يقيمون وزناً كبيراً لهذا الرجل (الذي يجب أن نذكر مستطردين أنه لم يستطع أن يتشر في المحلة المذكورة الا أربعة أبيات من الشعر) ، فان الجنرال لم يكن مطمئناً من ناحية هذا الرجل أي اطمئنان •

لذلك حين سقطت كرة من الحبز كانت تستهدف الجنرال طبعاً ، حين سقطت هذه الكرة قرب الجنرال ، اعتقد الجنرال اعتقاداً جازماً

• • • • •

جماعة الحفل لا بد أن يكون قد أثر في مزاج الجنرال تأثيراً سيئاً
يؤسف له .

ثم ان ملاحظة جديدة لاحظها الجنرال قد أثرت فيه تأثيراً خاصاً :
لقد أحس ايفان ايلتش فجأة أن لسانه يزداد ثقلاً وكثافة ، حتى لقد
أصبح يشعر بشيء من الصعوبة والعناء في نطق الكلمات . لذلك اضطر
أن يصمت رغم رغبته في أن يقول أشياء كثيرة . يُضاف الى هذا أنه
أصبح ينسى نفسه في بعض اللحظات على حين فجأة ، فاذا هو يأخذ
يضحك لا يدري لماذا ! على أن هذه الحالة النفسية الأخيرة ما لبثت أن
زالت بعد كأس جديد من الشمبانيا شربها دون شعور ، فكان من نتائجها
رأساً أنه أصبح يرغب في البكاء رغبة لا سبيل الى مغالبتها .

فما لبث الجنرال ، وقد استبد به انفعال من أشد الانفعالات قوة
وعنفاً ، أن رجع الى ذلك الحب الكبير العظيم الذي كان يلف به الوجود
بأسره ، حتى بسلدونيموف ، بل لقد امتدت هذه العاطفة الى أبعد من
ذلك أيضاً ، فلم تستثن حتى محرر مجلة « جوروفشكا » !

أصبح ايفان ايلتش مستعداً لأن يعانق جميع البشر ، وأصبح
يرغب رغبة قوية عنيفة في أن ينسى الاساءات ، وأن يُحلّ السلام
والوئام ! ولم يرضه هذا ، بل صار يحترق شوقاً الى أن يفتح نفسه لضيوف
بسلدونيموف ، فيُطلع هؤلاء الناس جميعاً على مدى نبل قلبه وقوة
مواهبه ، ويظهرهم على ما يستطيع أن يقدمه للوطن ، هو رجل الدولة
المرموق ، من خدمات عظيمة .

وكان الجنرال الذي امتلأت نفسه توقفاً الى الكلام لا يريد أن يغفل
التحدث عن قدرته على تسلية السيدات واضحاكهن ، لا ولا أن يغفل
التحدث عن حبه للتقدم خاصة . وكان يتهاى ، في هذه المناسبة نفسها ،
لأن يكشف عن ميله الى التواضع مع من هم دونه ، وحتى مع أولئك

الذين يشغلون أدنى مراتب السلم الاجتماعي ؛ وكان ينوى فى ختام خطابه أن يذكر بواعث مجيئه الى منزل بسلدونيموف وشربه الشمبانيا مكرماً بحضوره حفلة زفاف مروهسه الفقير .

« الحقيقة ، الحقيقة المقدسة وحدها ! ... بالصدق انما سأصل الى اقناعهم ! سوف يصدقوننى . أنا على يقين من ذلك ! مهما ينظروا الى نظرة العداوة ، فلن يلبثوا أن يملثوا كئوسهم ويشربوا نخبي متى أفصحت لهم عن كل ما أشعر به . وبعد ذلك ، سيحطم الضابط كأسه فوق مهمازه ، على تلك العادة القديمة المعروفة فى الجيش ؛ ومن الجائز أن يأخذوا جميعاً عندئذ بالهتاف : « مرحى ! مرحى ! ولن يسوءنى أن يرغبوا فى حملى على الأكثاف كما يُحمل المنتصرون ! ... وسأطبع قبلة أبوية على جبين العروس ، قبلةً لن تخلو من متعة فى الواقع . يخيل الى أيضاً أن آكيم بتروفتش رجل طيب جداً ، محبٌ حقاً ! وانى لعلى يقين من أن بسلدونيموف نفسه سيصبح فى المستقبل رجلاً لائقاً (وانما يعوزه الآن شيء من آداب رجال المجتمع الراقى) . قد لا يكون جميع هؤلاء المدعوين الذين ينتمون الى الجيل الجديد ، قد لا يكونون متحلّين بما أرجوه لهم من رهاقة انشعور ولطف الحس ورقة القلب ، ولكنهم سوف يفهموننى . سأحدثهم عن دور روسيا بين الدول الأوربية الكبرى ، وسأحدثهم عن مشكلة الفلاحين أيضاً ، بطبيعة الحال . سوف يسمعون لى ويصغون الى كلامى ، وسوف أخرج من هذه السهرة بالظفر والمجد ! ... »

ان هذه الأحلام كلها كانت لذينة ، غير أن الشيء الذى لم يكن لذيداً مثلها هو ما اكتشفه ايفان ايلتش على غير توقع منه : لقد اكتشف أنه أصبح لا يستطيع التحكم بلبابه ، فلغابه يسيل من فمه غزيراً . كان الجنرال قد أصبح يرشق من فمه لعاباً ، لا يدرى لماذا ولا يدرى كيف !

وقد لاحظ ذلك حين اتفق له أن رشّ بلعابه خدّ آكيم بتروفتش الذى منعه الاحترام من أن يمسح خده ، فلبث على حاله ينتظر فرصة موالية من أجل أن يفعل ! فلما رآه ايفان ايلتش على هذه الحال تناول منشفةً وأخذ يذلك وجنة مرؤوسه المبللة باذلاً فى ذلك عنايةً لا حدود لها ، ثم سرعان ما بدا له هذا الفعل غريباً حتى لقد أدهشه أن يفعله •

وكان آكيم بتروفتش قد شرب هو أيضاً وساعت حاله واضطربت نفسه ، حتى لقد أدرك ايفان ايلتش أن المسكين ، على اصغائه مدة ربع ساعة الى هذيانات رئيسه ، كان يبدو خائفاً مذعوراً كأنه يخشى وقوع خطرٍ وشيك •

فلما لاحظ الجنرال ذلك التفت نحو بسلدونيموف الذى كان جالساً بقربه يمسح عنقه ويميل برأسه الى جانب ويصغى مقطباً الجبين عابساً الهيئة ، ولكن يبدو عليه أنه يراقب أمراً ما ! ترى من ذا يراقب ؟ وماذا يراقب ؟ •

لم يكن الجنرال قد لاحظ فى وضع الضيوف شيئاً غير مألوف ، فاذا هو يدرك الآن على حين فجأة أن الأنظار متجهة اليه متركزة عليه ، حتى ان بعض المدعوين كان يتأمله ضاحكاً فى الخفاء • ولكن أغرب ما فى الأمر هو أن ايفان ايلتش ، بدلاً من أن يظهر عليه الاستياء ، بلع جرعةً جديدة من الشمبانيا ، ثم لم يلبث أن بدأ يتكلم بصوت عالٍ فقال :

— قلت الآن لآكيم بتروفتش ... قلت لآكيم بتروفتش ان روسيا ... نعم ... روسيا ... الخلاصة ... أتم تفهمون ماذا أريد أن أقول ان روسيا تجتاز .. أنا مقتنع بهذا ... اقتناعاً عميقاً ... تجتاز مرحلة نزعة انسانية ...

— نزعة انسانية !

كذلك صاح يقول أحدهم في آخر المائدة •

- نر ••• نر !

- مز ••• مز !

أمسك ايفان ايلتش عن الكلام • ووقف بسلدونيموف يتفحص الحضور بنظرة قاسية ليكتشف صانع الفوضى • وهزّ آكيم بتروفتش رأسه مشفقاً كأنما ليُخجل أولئك الذين يثنون الاضطراب ويحدثون البلبلة • وقد لاحظ الجنرال تلك الصيحات السخيفة فلزم الصمت بضع لحظات على حالٍ هي أقرب ما تكون الى حال شهيد معذب •

ثم لم يلبث أن استأنف كلامه فقال بنوع من العناد :

- النزعة الانسانية ! لقد قلت هذا بعينه منذ قليل لستيفان

نيكوفوروفتش ••• نعم قلت له ••• ان النهضة ان صح التعبير •••

عاد الصوت يصيح من أقصى المائدة :

- صاحب السعادة •

- ماذا تريد ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش وهو يحاول أن يتعرف الشخص الذي

يتناديه ، فردد الصوت يقول :

- لا شيء ، لا شيء البتة يا صاحب السعادة • أكمل كلامك •••

أكمل كلامك من فضلك •••

شعر ايفان ايلتش بهزة جديدة تجتاز كيانه كله فواصل كلامه

يقول :

- ان النهضة ••• ان صح التعبير ••• في هذه الأمور كلها •••

صاح الصوت مرة أخرى يتنادى :

- يا صاحب السعادة !

– ماذا تريد ؟

– صباح الخير •

في هذه المرة لم يستطع ايفان ايلتش أن يحتمل أكثر مما احتمل فقطع خطابه وأخذ يجدق الى الرجل الذي يسبب الفوضى ويخل بالنظام •

هو شاب في ريعان الشباب لا شك أنه سكران • انه منذ مدة لا يزيد على أن يصرخ ، وقد كسر كأساً وصحنين زاعماً بالحجة والدليل أن هذه عادة لا بد منها ولا غنى عنها في كل زفافٍ يحترم نفسه • وحين التفت ايفان ايلتش نحوه كان الضابط قد أخذ من جهته يؤنبه تأنيباً قاسياً ويعنفه تعنيفاً شديداً :

– ما هذا الزعيق والنهيق ؟ هل تريد أن نخرجك مطروداً ؟

ولكن الشاب العايب المتهالك على كرسيه ظل يصيح قائلاً :

– ليس هذا الكلام موجهاً اليك يا صاحب السعادة • لم أقصدك أنت يا صاحب السعادة • أكمل كلامك من فضلك ... انتى أصغى اليك ... وانتى سعيد جداً بالسماع لك ... أكمل ... أكمل ! تحيتى وثنائى ! ...

همس بسلدونيموف يقول :

– صبي سكران •

قال الجنرال :

– أرى أنه سكران ، ولكن ...

وحاول الضابط أن يشرح :

– انتى أتحمّل بعض تبعه هذا الذنب يا صاحب السعادة • فقد رويت له منذ قليل تادرة مضحكة عن ملازم في كتيبتنا كان أثناء أحاديثه

مع رؤسائه يستعمل أساليب لا شك أن هذا الصبي يريد تقليدها • كان
ذلك السالك كما كان خاطبه ، ثم بكلمة بحسب ، قائلاً : « تحبني » وثانيه •

وبسبب ذلك انما صُرف من الخدمة منذ عشر سنين •
- ماذا كان ذلك الملازم ؟

- هو ملازم من كيتي يا صاحب السعادة ! كان ذلك الجواب الذي
يردده بلا انقطاع فكرة ثابتة في رأسه ، ولازمة لا تبرح ذهنه • أخذوا
يؤنبونه في أول الأمر ، ثم أخذوا يجسونه بعد ذلك • وكان الرئيس
يحمد في معاملته الى وسائل أبوية شارحاً له أن أساليبه هذه ليست لائقة
فكان المسكين لا يزيد على أن يجيب بقوله : « تحبني وثاني ! تحبني
وثاني ! » كانت حالته عجيبة توجب الحزن وتبعث على الأسى حقاً !
فلقد كان ضابطاً جميلاً ، لا يقل طول قامته عن مترين ! أرادوا أن
يحيلوه الى مجلس حربي ، ولكنهم اكتشفوا آخر الأمر أنه مجنون
تماماً •

قال صاحب السعادة :

- هذه كلها صيانيات • أنا من جهتي مستعد لأن أعفو وأصفح •••
واصل الضابط كلامه :
- حتى ان الطب قد اهتم بأمره وشغل به •
- هل شرّحوه ؟

- عفوك يا صاحب السعادة ••• لقد كان ذلك الملازم حياً •
طفق جميع الضيوف يضحكون مقهقين ، حتى أولئك الذين لم
يقولوا كلمة واحدة من قبل •

استمر غضب ايقان ايلتش وصرخ يقول بصوت واضح مجلجل لم
يبق فيه أثر من جمجمة أو غنمة :

— أيها السادة ، أيها السادة ، ما زلت قادراً على أن أعرف أن
الأحياء لا يُشرَّحون ! كل ما هنالك أتى ظننت أن الضابط قد بارح
هذا العالم ... أقصد أنه مات ... أعني ... أريد أن أقول ... أريد
أن أقول انكم لا تحبوني .. ومع ذلك فأنا ... من جهتي ... أحبكم
جميعاً ... نعم أنا أحب بورفير ... أقول لكم هذا رغم أنني أذلُّ
بذلك نفسي ...

وفي تلك اللحظة اندلقت من فم إيفان ايلتش دفقة ضخمة من لعاب
فنسقطت على أبرز موضع من غطاء المائدة فهوى عليها بسلدونيموف
بمئشفتة يحاول مسحها ولكن هذه البلية الأخيرة صعقت الجنرال تماماً
فخارت قواه وصاح يقول وهو في ذروة الكمد والكرب واليأس :

— هذا كثير أيها السادة ! ...

وعاد بسلدونيموف يقول :

— انه رجل سكران يا صاحب السعادة •

قال الجنرال :

— بورفير ، اننى أرى أنكم ... أنكم جميعاً ... أتنى
قولوا لى ماذا فعلت حتى هان شأنى وانخفضت منزلتى أمامكم •
قال الجنرال ذلك بصوت تكسّره شهقات بكاء لا يكاد يستطيع
كظمها •

فانطلقت أصوات فيها شفقة واحترام تحاول أن تواسيه وأن
تعزّيه :

— صاحب السعادة ! صاحب السعادة ! اسمع يا صاحب السعادة ! ...

— أخطبتك أنت يا بورفير ... قل له ... أنا انما جئت ... لكن
جئت الى هذه الحفلة ... لقد كان لى هدف ... كنت أرمى الى التشجيع

... كنت أريد أن تشعروا ... قل لى هل هان شأنى فى نظركم ؟ هل
ذلت نفسى !

خيم صمت كصمت الموت ! كيف يسود مثل هذا الصمت أمام
سؤال قاطع جازم الى هذا الحد ؟ أمر لا يصدق !...

تساءل الجنرال : « فما الذى يجب قوله اذن فى لحظة كهذه
اللحظة ؟ » ولكن الضيوف كانوا لا يزيدون على أن ينظر بعضهم الى
بعض . أما آكيم بتروفتش فلا هو حى ولا هو بالميت ، وأما بسلدونيموف
فهو من شدة هلمه قد انعقد لسانه حتى أصبح كالأخرس ، وهو لا يبرح
يردد فى ذهنه السؤال الذى يحاصره منذ مدة : « ما عسى ينالنى
فى الغد ؟ » .

وفى تلك اللحظة انما نهض محرر جريدة «جوروفشكا» الذى لبث
منذ مدة طويلة صامتاً عابساً ، نهض عند أقصى المائدة مشتعل النظر
بنار متأججة ، والتفت نحو ايفان ايلتش ، وصاح يقول بصوت مرعد
كأنه مكلف بالاجابة باسم الحضور جميعاً :

— نعم أنت هين الشأن منحط المنزلة فى نظرنا ! وها أنت ذا
حسرت القناع عن وجهك وظهرت على حقيقتك أيها الرجعى ، أيها
الرجعى .

ثم كرر قوله :

— رجعى ! رجعى !...

جميعهم ايفان ايلتش وقد بلغ ذروة الغيظ والحقن يقول :

— أيها الشاب ، هل تعلم من ذا تخاطب ؟

فأجابه الآخر :

— أخاطبك أنت ! ثم اننى لست بشاب يا سيد ! أنت انما جئت الى هنا لتمثل مسرحية بشعة ولتلمس شعبية كاذبة !

صرخ ايفان ايلتش :

— بسلدونيموف !... بسلدونيموف !... ما هذا كله ؟...
ما هذا كله ؟...

ولكن بسلدونيموف وقد استبد به ذعر رهيب وهلع فظيع لبث جامداً لا يتحرك ولا يدري ماذا يصنع ! وخيم على الضيوف صمت كصمت الموت . كانوا هم أيضاً كالصعوقين ، الا الفنان والطالب ، فقد أخذوا يصفقان ويصيحان :

— مرحى !... مرحى !...

واشتدت عزيمة الصحفي بهذا التأييد على ضالته ، فاستمر يقول مرعداً :

— نعم لقد جئت تعرض علينا نزعتك الانسانية فلم تزد على أن خربت فرحنا الفقير ! وأترعت جوفك بالشمباتيا دون أن يخطر ببالك المبلغ الباهظ الذى يدفعه ثمناً لهذه الحمرة موظف لا يزيد مرتبه على عشرة روبلات فى الشهر ! بل اننى لأعتقد فى قرارة نفسى أنك واحد من أولئك الرؤساء الذين يشبهون ولاية الفرس فى الزمان القديم ، ويسعون الى الخطوة بنساء مرؤوسيهن الشابات ! بل أكثر من ذلك اننى على يقين من أنك واحد من أنصار الرشوة !... نعم ... نعم ... هذا أنت يا سيد !...

حشرج ايفان ايلتش يقول :

— بسلدونيموف !... بسلدونيموف !...

كان ايفان ايلتش قد بلغ ذروة الكرب والقنوط ، فهو يمد ذراعيه

الى الموظف الصغير المسكين ضارعاً ، ويشعر بكل كلمة من كلمات الصحفي طعنةً خنجرية تنفذ في قلبه •

قال بسلدونيموف بحسب الأم بصوت أصم قوياً على حين فحاة :

— حالاً يا صاحب السعادة ، حالاً ! لا تخف ...

قال ذلك وانقضَّ على معكَّر صفو الحفلة فأمسك بتلابيه وأبعده عن المائدة بقوة وعنف • ما كان لأحد أن يتصور قط أن رجلاً هزيلًا مثل بسلدونيموف يملك قوة جسمية كبيرة إلى هذا الحد •

على أن تفسير هذه المعجزة أمر سهل فلقد كان الصحفي سكران كل السكر ، على حين أن بسلدونيموف لم يكن قد أصاب شيئاً من شراب • وانتهى الحادث ببضع لكلمات أنزلها بسلدونيموف على ظهر الصحفي الذي خرج من الباب وغاب وهو يزأر قائلاً من قِبل التوديع :

— أتم جميعاً جبناء حقراء ! سأعرف كيف أشهّر بكم في مجلة «جوروفشكاه» ! ...

وقام الجمع كله قومة رجل واحد ، وصاح بسلدونيموف وأمه وعدد من الضيوف يقولون :

— صاحب السعادة ... صاحب السعادة ...

وها هم يحيطون الآن بالجنرال ويقولون له مواسين :

— هدى نفسك يا صاحب السعادة !

ولكن السيد برالنسكى كان قد أخذ يبكى متحجاً ويقول :

— لا ، لا لقد تدمّرت ... أنا انما جئت الى هنا ... كنت أريد

... ان صح التعبير ... أن أبارككم ... ولهذا ...

وكانت نظرة الجنرال تتبع تهرب أحلامه وتشتتها ، وما هي الا

لحظة حتى تهاوى على كرسيه ماداً يديه على المائدة مسقطاً رأسه فوقها
مغرقاً وجهه فى طبق الحلوى •

نحسب أننا لا حاجة بنا الى وصف حالة الذعر والانشداد التى
استبدت بالضيوف بعد تلك اللحظة شيئاً فشيئاً •

ونهبز الجنرال لينصرف ، ولكنه لم يلبث أن ترنح وتعثرت قدمه
بقدم الكرسى ، فسقط على أرض الغرفة متمدداً ، وأخذ يشخر
وينخر •••

ذلك ما يحدث عامة لأولئك الذين لم يألفوا الشراب : يحتفظون
بوعيمهم الى آخر لحظة ، ثم اذا هم يسقطون مهدمين على حين فجأة •

ظل ايفان ايلتش راقداً على الأرض مغشياً عليه ، وأمامه يقف
بسلدونيموف واضعاً يديه فى شعره الباهت وقد أوشك أن يموت غمماً
قلقاً • أخذ الضيف نادرون الغرفة واحداً اتر واحد ، وكل منهم

كانت أحوال بسلدونيموف على درجة كافية من السوء قبل ذلك ،
دون أن يكون فى حاجة الى أن يرى الأمور تجرى على هذا النحو
مجرى أسوأ • ان الحياة القديمة التى عاشها المسكين لا يمكن أن تقاس
بوضعه الراهن رغم أن وضعه الراهن ليس باللامع كثيراً •

ولنتهز فرصة تمدد ايفان ايلتش على أرض الغرفة ، وحيرة
بسلدونيموف الذى استولى عليه الكمد واليأس وأخذ يشد شعر رأسه ،

لقد جاء بسلدونيموف من مقاطعة فى الأقاليم كان أبوه يعمل فيها بأحد المكاتب • وقد مات الأب حين أوشك أن يحال الى المحاكمة • فبعد أن ظل الشاب سنة كاملة يتسكع بمدينة بطرسبرج فى اليأس والفقر والشقاء ، استطاع أن يحصل أخيراً على هذه الوظيفة براتب قدره عشرة روبلات فى الشهر ، فأحس عندئذ أنه بُعث بعثاً جديداً ، وأصبح انساناً آخر • حدث هذا منذ أقل من خمسة أشهر •

ولم يكن فى العالم الاّ شخصان من أسرة بسلدونيموف : هو وأمه التى تركت الريف بعد وفاة زوجها فى السجن • لقد جاءت الى العاصمة لتلحق بابنها ، وأخذ الاثنان منذ ذلك اليوم يكافحان كفاحاً مريراً حتى لا يموتا من البرد وحتى يحصلوا فى القليل النادر على طعام لا يكاد يسد الرمق ، حتى اذا حصل الابن على تلك الوظيفة استطاع أن يستأجر غرفة مؤثثة ، وأخذت الأم منذ ذلك الحين تتعاطى غسل الثياب لبعض الزبائن الذين يكلفونها بهذا العمل من حين الى حين ، بينما أخذ بورفير يستमित فى سبيل توفير بعض المدخرات الزهيدة بغية أن يشتري لنفسه معطفاً رسمياً وحذاءين •

ما أشد ما تحمل المسكين من آلام فى مكتبه ، حيث كان رؤساؤه يتحرشون به فى كل لحظة ليسألوه منذ متى لم يستحم ! وما أكثر ما كانت تذيع فى حقه الأقاويل وتروج الشائعات ! كان يُقال مثلاً ان القمل قد اتخذ من بطن ياقة قميصه أعشاشاً له !

ولكن بسلدونيموف كان صلب الارادة قوى الشكيمة ! هو صموت هادىء لم يصب من التعليم الا حظاً ضئيلاً جداً ؟ ولم يكده يسمعه أحد متكلماً فى يوم من الأيام • أترأه كان يفكر فى أمر ما ؟ أترأه كان يرسم خطأً أو ينشئ نظريات ؟ أترأه كان يحلم بمثل أعلى غير ملموس ؟ ما من أحد كان يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة •

كل ما نعلمه أن رغبته الغريزية اللاشعورية في الوصول الى هدفه
وفي الخروج من الحفرة كانت أشبه بعناد النملة التي تحاول أن تعيد بناء
بيتها كلما هدمه أحد .

الخلاصة أن الرجل كان امراً يتقيد بالنظام ويراعى دقائق الأمور
ويحب أن يقبع في بيته لا يبارحه . وكان جينه يحمل علامة مستقبله .
فاذا نظرت اليه قرأت في جبهته الصلابة والعناد والاصرار وسائر المزايا
التي تدل على أنه سيفلح في شق طريقه ، وسينى بيته حجراً حجراً ،
حتى لقد يستطيع أن يدخر شيئاً من مال ! وكانت أمه هي الانسان
الوحيد على وجه الأرض الذي يحيطه بعاطفته . كانت الأم تحب ابنها
اكثر مما تحب أى شيء في هذا العالم . هي امرأة قاسية الطبع ناشطة
الهمة تحب العمل ولا تعرف التعب ، وكانت في معاملته طيبة رقيقة
شفوقاً . وكان يمكن أن يعيش الاثنان على هذه الحال في غرفتهما المؤتة
خمس سنين أو ستاً الى أن يتغير حالهما ويتحسن وضعهما ، لولا أن
تعرفا الى رجل يسمى ماميفروف هو موظف محال الى التقاعد كان في
الماضى مرابطاً . ان هذا الرجل الذي سبق أن عاش وعمل في الريف
حيث أحسن اليه أبو بسلدونيموف فأحس بأنه مدين له بفضل ، قد
أحيل منذ مدة قصيرة الى التقاعد ، واستقر مع أسرته في بطرسبرج .
وكان الرجل يملك مالا ، وان لم يكن ثرياً . . . ولكنه كان يبدو في
يسر وبجبوحة . ليس في العالم أحد ، حتى ولا امرأته أو بنتاه ، يعرف
مبلغ المال الذي ادخره هذا الموظف المعجوز .

وكان يحب الشراب ، وكان عنيد الرأي مستبد الطبع (ناهيك عن
المرض الذي كان يفتك بجسمه) وكانت احدى ابنتيه متزوجة قيدا له
فجأة أن يزوج بسلدونيموف الابنة الصغرى . كان يقول :
— لقد عرفت أباه . كان أبوه رجلاً شهماً ، وان ابنه ليسبهه .

واذا كان يفرض سلطته ويملي ارادته على الجميع فقد تم كل شيء •
لى ما أحب واشتهى •

وكان سلوك العجوز ماميفروف سلوكاً عجيباً : كان يقضى وقته
كله جالساً في مقعد ، و نظار شرب خلال أيامه بكاملها ، غير أنه قد فقد

الاهانات تلو الاهانات ، ويمطرهم بهاجر القول وفاحش المزاح •

ان هذا الانسان القاسى المشاحن المناكد ، كان دائماً فى حاجة الى
شخص يضطهده ويسومه سوء العذاب ، فمن أجل أن يرضى هذا الهوى
كان يُعيل فى منزله عدة قريبات له : أختاً ممراساً مشاكسة ، وامرأتين
هما عمتان لزوجته ، شريرتين ثرثارتين ، وعمّة عجوزة عرجاء شديدة
الشراسة •

ومع ذلك لم تكفه هذه العشيرة ، فكان يؤوى امرأة طفيلية أخرى
هى عجوز ألمانية أصبحت روسية ، وهى تنعم بموهبة نافعة جداً قوية
كثيراً : فقد كانت تقص حكايات « ألف ليلة وليلة » ببراعة فائقة •

وكانت أكبر لذة يشعر بها العجوز هى أن يسىء معاملته هذه
العصبة من النساء الشقيات البائسات ، وأن يرشقهن بكلمات نابية فظة
غليلة ، دون أن تستطيع احداً من أن تجيبه بشيء فى يومٍ من الأيام ،
حتى ولا زوجته التى ولدت وهى تعاني أوجاعاً فى الأضراس •

كان ماميفروف يدبر مكائد ويحيك مؤامرات ويتكر دسائس
وينشر نمائم ويذيع أقاويل ، فيحرقض هاته النسوة بعضهن على بعض ،

الضابط الفقير ، فاضطرت الأرملة المسكينة أن تلجأ الى منزل أبيها مع أولادها الثلاثة • ولئن كان العجوز يكره الأطفال في الواقع ، فإن وجود هؤلاء الأولاد الثلاثة قد زاد عدد الضحايا الذين يستطيع أن يتسلى بتعذيبهم كل يوم •

هذا الهم كله من النساء الشريرات والأولاد المراضين كان

كان الكسح بخيلاً ، وكان يحسب ما ينفقته قرشاً قرشاً ، رغم أنه لا يحرم نفسه من الشراب • وكان أفراد هذا الرهط لا ينامون أيضاً ، لأن العجوز كثيراً ما يستبد به الأرق فلا بد له في كل لحظة من أحدٍ يسليه ويساعده على ترجية الوقت •

الخلاصة أن أهل المنزل ، باستثناء سيّده ، كانوا جميعاً يمانون ألوان العذاب ويشكون من سوء الحظ ويلعنون ظلم الأقدار •

صديقات ، ولا برهنت فى يوم من الأيام على أنها ذات ذكاء ، ولكنها تشتهى منذ مدة طويلة أن تتزوج • ورغم انها صمدت حزيمة أمام جميع الناس ، فلقد كانت تتصدى لأمها ولسائر النساء الطفليات اللواتى يعشن فى هذا المنزل ، فتبرهن بذلك على أنها هى أيضاً شريرة مشاجرة ، مناكدة كبعوضة • وكانت لذتها هى أن توزع القرصات واللكمات على أولاد أختها ، وأن تشى بأيسر ما يرتكبونه من أخطاء وما يقترفونه من سرقات صغيرة لشيء من سكر أو خبز ، فكان ذلك يوقع بينها وبين أختها حرباً دائماً •

وقد تولى الأب بنفسه أن يعرض على بسلدونيموف ابنته ، فطلب الفتى أن يمهل العجوز بضعة أيام للتفكير ، رغم فقره الشديد • وأخذ يتشاور مع أمه مدة طويلة ، تردداً خلالها كثيراً • على أن العرض كان لا يخلو من جوانب مغرية : فإن مهر الفتاة منزلٌ ان كان عتيقاً فما يزال صالحاً للسكنى ، هذا عدا اربعمائة روبل هى مبلغ لو أراد الفتى أن يجمعه من مدخراته الطفيفة لاحتاج الى سنين عديدة •

كان العجوز يصيح سائلاً فى تعجب :

— أسألوننى لماذا أُسكن فى منزلى رجلاً ؟ فاعلموا اذن أن هاته الأنثى جميعاً قد أخذت تثير فى نفسى الاشتزاز ! اننى أريد أن أصبح محسناً الى بسلدونيموف أيضاً ، بغية أن يخضع لارادتى • ولكنى أفعل ذلك خاصة من أجل أن أزعج الفسائين الكريهة التى تعارض هذا الزواج وتريد أن تمنعه • اننى أحب أن أناكدهن وأن أغيظهن ! هذا هو الأمر ! أما أنت يا بورفير ، فيجب أن تعدنى ، متى صارت ابنتى زوجتك ، بأن تعرف كيف تضربها ضرباً مبرحاً بعضاً سأعطيك اياها • ان فيها ، منذ وُلدت ، سبعة شياطين لا بد من طردها مهما كلف الأمر ! ومن أجل ذلك سأهين لك هراوة ضخمة مناسبة !

وقبل الزفاف بثمانية أيام أقام بسلدونيموف وأمه في منزل العجوز بعد أن اغتسلا وارتديا ثياباً جديدة وانتعلا أحذية جديدة • وها هو ذا العجوز الذي أصبح يرعاهما ويحميهما لأنه يحب المشاكسة ولأن سائر أفراد الأسرة كانوا يكرهون هذين الدخيلين ، ها هو ذا يدفع مبلغاً من المال للاحتفال بالزواج ، حتى لقد بلغ إعجابه بأم بسلدونيموف أنه كان لا يجرؤ أن يهينها أو أن يشتمها • أما الخطيب فقد اضطر قبل زواجه بثمانية أيام أن يرقص أمامه رقصة القوزاق •

فلما انتهت الرقصة قال له حموه :

— كفى ! فانما أردت أن أعرف أنك لا تعصى ارادتي وأنتك تخضع لمشيئتي •

وكان المبلغ الذي دفعه ماميفروف لاقامة الحفلة ضئيلاً جداً في الواقع ، ولكن العجوز في مقابل ذلك قد دعا الى الحفلة جميع الأقارب والمعارف •

أما بسلدونيموف فلم يدع إلا شخصين : صديقه محرر « جوروفشكا » ، وآكيم بتروفتش رئيس مكتبه ، الضيف المرموق • وكان الخطيب المسكين لا يجهل أن خطيبته تبيل الى الضابط ، وتكره الزوج الذي فرض عليها كرهاً صادقاً • ولكنه كان يحتمل كل شيء ، لا ارتباطه بالوعد الذي قطعه على نفسه لأمه •

وقد حفل يوم الزواج من أوله الى آخره بالصرخات والشتائم يطلقها العجوز الذي سكر منذ الصباح •

وحين اقترب المساء التجأت الأسرة كلها الى الغرف البعيدة التي

تملؤها رائحة موبوءة كريهة • أما الغرف الواقعة في واجهة المنزل فقد أعدت للموائد والرقص • وفي نحو الساعة الحادية عشرة نام العجوز فهذا غضب أم العروس قليلاً ، وأصبح مزاجها محتملاً مقبولاً ، فخرجت من حجرتها ، ومضت تنضم الى الطاعمين على مائدة العشاء •

ولكن وصول ايفان ايلتش كان قد قلب الأمور كلها رأساً على عقب •

اضطربت السيدة ماميفروف أشد الاضطراب وغضبت أشد الغضب لأنهم لم ينبئوها بزيارة الجنرال • ورغم أن صهرها قد أكد لها أن صاحب السعادة قد وصل فجأة على غير توقع وبدون دعوة ، فانها لم تشأ أن تصدق شيئاً وأصرت على تكذيب صهرها في عناد غبي أبله •

وكانت قضية الشهبانيا قضية كبرى : كانت أم بسلدونيموف لا تملك الا روبلاً واحداً • أما العريس فقد أصبح لا يملك الا كويكاً • لذلك اضطر الشاب المسكين أن يمضى ضارِعاً الى حماته أن تعطيه ثمن زجاجة واحدة في أول الأمر وثمان زجاجة ثانية بعد ذلك ، باسماً لها الفوائد التي سوف يجنيها من ذلك في وظيفته • ولكن الحماة لم تستجب لرجائه الا بعد أن بلغت من اغلاظ القول له أنه أخذ يرتعش غضباً مكظوماً ، وأنه ارتدى على السرير المخصص لمباهجه الزوجية المقبلة عدة مرات وهو يشد شعره فينتف منه خصلاً •

آه لو علم ايفان ايلتش كم كان ثمن هاتين الزجاجتين من شامبانيا جاكسون اللتين شربهما في السهرة !

ولكن ما أشد ما اجتاح بسلدونيموف من هول ورعب حين رأى الأمر ينتهى هذه النهاية التي لم تكن في الحسبان ! كان ينتظر ليلة زاخرة بالصرخات والملاحظات تطلقها أسرة بكاملها من الأغبياء ، وكان

رأسه قد ألم به صدام سلفاً ، وكانت عيناه قد غشيتهما ظلمات • ثم
ها هو ذا مضطر أن يمضى فى الساعة الثالثة من الصباح باحثاً عن طبيب
وعن مركبة فخمة تنقل الموظف الكبير الى منزله ، لأن شخصية خطيرة
الشأن عالية القدر الى هذا الحد لا يمكن أن تتركب عربة شعبية ، كما
تدركون ذلك حق الادراك •

ولكن أين له بالمال يستأجر به مركبة ؟ ان السيدة ماميفروف
العجوز التى أحقها وأغاظها أن الجنرال لم يخاطبها بكلمة واحدة طوال
السهرة قد رفضت رفضاً قاطعاً أن تعطيه شيئاً من المال ، وأعلنت له أنها
لا تملك كوبكاً واحداً ، ولعلها كانت صادقة فيما زعمته على كل حال ! •
فأين يبحث عن مال ؟ أين يجد المال ؟ أليس فى هذا ما يدعو الى
شد شعره ؟

بينما كانوا يرفعون الأطباق عن الموائد ويرتبون المنزل بعض
الترتيب ، نقل ايفان ايلتش الى كنية منجدة بجلد ، فأرقد عليها •
وكان بسلدونيموف المسكين يركض أثناء ذلك من غرفة الى غرفة
باحثاً عن بعض النقود ! حاول أن يقترض من الخادmates ، ولكن محاولاته
هذه لم تجده نفعاً ، وجازف فالتمس قرضاً من آكيم بتروفتش الذى
بقى فى البيت بعد انصراف سائر المدعوين ، ولكن رئيس المكتب ، رغم
أنه رجل طيب القلب شهم يحب خدمة الناس ويهب الى نجدتهم ،
اضطرب واحتار وارتبك من هذا الطلب الذى لم يكن يتوقعه وأخذ
يجمع بأعذار غير مفهومة قائلاً :
- فى يوم آخر ••• ما كنت لأقول شيئاً ••• كان يسرنى أن •••
أما الآن ••• فأرجو أن تعذرنى •••

وتناول رئيس المكتب طاقيته المصنوعة من فراء ، وولى هارباً !
 وكان الشاب الذي تكلم أثناء السهرة عن « تفسير الأحلام » قد
 لبث في المنزل هو أيضاً بعد انصراف الآخرين ، يشارك في المصيبة التي
 نزلت على آل بسلدونيموف ، ويتمنى صادقاً أن يستطيع تقديم خدمة ماء
 وقرر الثلاثة ، الأم وبسلدونيموف والشاب ، قرروا بعد التشاور
 أن لا يزعجوا طيباً ، ورأوا أن من الأفضل أن ينقل المريض الى منزله
 بسرعة .

وبانتظار ذلك أُسعف المريض بالوسائل المتاحة : كمّادات ماء بارد
 على الصدغين ، جليد على الجمجمة ، الخ . . . كان ذلك هو الدور الذي
 قامت به أم بسلدونيموف ، أما الشاب فقد انطلق راكضاً يبحث عن
 عربة .

ولكن العربات كانت قد أوت الى مراتبها ، فمن الصعب في مثل
 هذه الساعة العثور على أية مركبة ، فاضطر الشاب أن يذهب الى
 الضواحي ليوصل حوذاً من نومه . وتمت المساومة بينه وبين الخوذي .
 ان أجرة العربة لا يمكن أن تقل في مثل هذه الظروف عن خمسة روبلات
 ومع ذلك تم الاتفاق أخيراً على أجرة قدرها ثلاثة روبلات .

ولكن حين وصل الشاب في نحو الساعة الرابعة من الصباح الى
 منزل آل بسلدونيموف ، كان الابن وأمه قد غيّرا رأيهما منذ مدة
 طويلة . لقد كان واضحاً أن ايفان ايلتش لا يمكن نقله : انه يشن أنيناً
 متصلاً ويتخبط على مرقده بغير انقطاع .

تساءل بسلدونيموف وقد خارت قواه وبارحته شجاعته : « ما الذي
 سنصير اليه ؟ » .

ما العمل ؟ . . . هذا سؤال جديد يقوم : اذا كان ينبغي أن يبقى

المريض هنا فآين يوضع ؟ ان المنزل كله ليس فيه الا سريران : الأول ينام عليه ماميفروف وزوجته ؟ والثانى مخصص للعروسين وهو سرير جميل من خشب الجوز الملمع قد اشترى حديثاً •

أما سكان المنزل الآخرون فانهم ينامون أرضاً على ألحفة عتيقة كريهة الرائحة محدودة العدد • وقد يمكن الحصول على لحاف منها عند الاقتضاء ، ولكن أين يمكن فرشته لارقاد المريض عليه ؟

كان لا يمكن وضع مضجع الجنرال الا فى الصالون ، لأنه أبعد الحجرات عن مفارة الأسرة ، ولأن له مدخلاً خاصاً • ولكن على أى شىء يوضع اللحاف ؟ أيوضع على كراسى ؟ ذلك مستحيل : ان مرقداً كهذا المرقد يصلح فى أكثر تقدير لطلاب من المدارس الثانوية جاؤوا لقضاء يومى السبت والأحد عند أسرهم • أما شخصية كشخصية ايفان ايلتش فلا يمكن أن ترضى به • وقد رفض بسلدونيموف حتى أن يتصور هذا الأمر وأن يناقش هذه الفكرة • فلم يبق اذن الا حل واحد هو أن يُنقل الموظف العظيم الى سرير العرس المنسوب فى غرفة صغيرة قرب قاعة الطعام •

كان على هذا السرير ، المشتري حديثاً كما ذكرنا ، فراش جديد وأربع مخدات ذات أغطية وردية اللون مزدانة بتخاريم ؟ وكانت تظلل السرير مظلة مثبتة بدبابيس مذهبة • الخلاصة أن السرير قطعة أثاث لا عيب فيها ولا مأخذ عليها ! والمدعوون الذين مروا جميعاً بتلك الحجرة قد أثنوا على ترتيب هذا المهجع ثناءً كثيراً •

والعروس ، رغم ما تحمله لعريسها من كره واحتقار ، لم يفتها أن تسلك الى الغرفة خلصة عدة مرات لتأملها معجبة ، فما كان أشد غضبها اذن حين علمت أن سرير العرس مسينام عليه ويوسخه مريض يشبه أن يكون مصاباً بالكوليرا من شدة القبيء والاسهال !•••

وسرعان ما انضمت أمها إليها تدافع عنها ، وتشر الشتائم ، وتهدد بأن تقول لزوجها المحترم كل شيء ، وأن تطلعه على كل ما جرى . ولكن سسلدونيموف ظل صامداً لا يتنى عن عزمه ، فأرقد ايفسان ايلتش في الغرفة الصغيرة ، وأصبح على العروسين أن يرضيا بسرير اخترع اختراعاً في غرفة الطعام برصاً عدد من الكراسي بعضها الى جانب بعض .

وقد انفجرت العروس الشابّة باكيةً متتجة ، ولكنها لم تجرؤ أن تدخل في تمرد صريح وعصيان ظاهر ، لأنها كانت لا تجهل وجود عصا أبيها ، ولأنها كانت تعلم أن أباهما لن يفوته في الغد أن يطلب تقريراً مفصلاً عن أحداث السهرة . وكان يعزيها على كل حال أن السرير قد زُيّن بغطاء جميل وردى اللون وبوسائد مزدانة بتخاريم .

في تلك اللحظة وصل الشاب أخيراً مع العربة ، فلما علم أنهم أصبحوا في غير حاجة إليها اصفر وجهه اصفراراً شديداً . لقد وقع كل شيء على رأسه هو الذي لم يملك طوال طوال حياته عشرين كوبكاً ، اذ اعترف له سسلدونيموف بأنه ليس معه شيء من مال البتة ! ولم تجده المشاجرات مع الخوذة نفعاً . كان الخوذة يريد أن يدفع له أجره ، وأخذ يطرق الباب طرقة شديداً . لا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا الأمر . ولكنني سمعت أن الشاب ظل سجين العربة مدة ، ثم مضى بها الى ضاحية بيسكي ، حيث كان يأمل العثور على طالب من أصدقائه ربما استطاع أن يقرضه مبلغاً صغيراً .

وكانت الساعة هي الخامسة من الصباح حين اختلى العروسان أخيراً .

مساءً . المحنة المسكنة ، السيدة سسلدونيموف ، بالسيور على

المريض ، فتمددت فوق خرقة بالية ، والتحفت فروتها الهزيلة . ولم

تستطع أن تنام طبعاً ، لأنها كانت تُضطر إلى النهوض في كل لحظة بسبب
الاسهال الشديد الذي انتاب إيفان إيلتش • ان السيدة بسلدونيموف
امرأة كريمة الخلق قوية الجسم ، وقد خلعت عن الموظف العظيم
ملابسه ، وأرقدته على السرير ، وراحت تعامله كأنه ابنها ، ولم تنقطع
طوال الليل عن الركض من الغرفة إلى الدهليز ومن الدهليز إلى الغرفة •
على أن مصائب تلك الليلة لم تقف عند هذا الحد ! •••

ما ان انقضت عشر دقائق على حبس العروسين في غرفتهما حتى
سُمت صرخة حادة ليست صرخة فرحة بل مذعورة ، ثم سرعان
ما دوت ضجة رهيبية هي قرقة وطقطة وضوضاء كراسي تتهاوى على
الأرض ، فما هي الا لحظة حتى هرعن إلى غرفة العروسين جمهرة من
النساء تعول وتولول مرتدية أنواعاً شتى من قمصان النوم : هن أم
العروس الشابة ، وأختها الكبرى التي اسرعت تاركة أولادها المرضى ،
وعماتهن الثلاث حتى العرجاء منهن ؛ ووصلت الطباخة أيضاً تتبعها
الألمانية العجوز التي كانت مهنتها قصّ حكايات « الف ليلة وليلة » •
ان هذه الألمانية العجوز قد أخذت منها فراشها الذي هو أحسن فراش
في المنزل كله والذي كان كل ما تملك من حطام الدنيا ؛ ومع ذلك
جاء الآن بغير حقد ولا ضغينة • ان جميع هاته النساء المحترمات
اللواتي يتربصن منذ ربع ساعة عند قفل الباب ، كان يلتهمهن فضول
خبيث شرير •

وفجأة أشعل أحد نوراً ، فاذا بمنظر ليس في الحسبان يعرض
الآن للأبصار : ان الكراسي المتلاصقة لم تستطع أن تحمل وزن العروسين
مجتمعين فتهاوت وسقط اللحاف على الأرض • وما هي ذى العروس

تبكى وتغلى غضباً ، وتشعر أنها قد أهينت حقاً ، وما هو ذا بسلدونيموف قد تحطمت نفسه تماماً ، فجمد على وضع مجرم فوجيء متلبساً بالجرم . وهو لا يحاول حتى أن يردّ على هذا الموقف بشيء ، فكأنه لا يشعر بأصوات الصراخ والمويل التي أخذت تنصب عليه .

واجتذبت هذه الجلبة أمّ بسلدونيموف أخيراً . ولكن الحماة هي التي كانت لها الغلبة في هذه المرة . لقد صُعقت الحماة ، وخرجت عن طورها ، فأخذت تصبّ على بسلدونيموف ملامات غريبة ظالمة في آنٍ واحد : « أي زوج أنت ؟ لأي شيء تصلح بهذا ؟ الخ » . ثم أمسكت يدها وجرتها الى غرفتها وهي تعد بأن تقصّ على الأب الأسباب التي دعته الى أن تتصرف هذا التصرف قائلة ان الأب لا بد أن يغضب أشد الغضب . وتبعثها بقية الجمع ، وهي تهز رأسها وتطلق الأهات حزناً وكمداً ، فبقى بسلدونيموف وحيداً مع أمّه التي راحت تحاول أن تواسيه وتعزيه ، ولكنه لم يلبث أن صرفها . وما كان لأنواع التعزيات أن تسرّي عنه وأن تخفف كربته على كل مال ! ...

ومضى الى الكنبه غارقاً في تأملات كالحة حزينة . ولبت على هذه الحال مدة طويلة حافي القدمين عارى الجسم إلا من بعض الملابس الداخلية التي لا بد منها ولا غنى عنها . وأخذت الأفكار والخواطر تتصادم في رأسه المسكين . وكان في بعض اللحظات يلتقي بصره عرضاً بالفرقة التي كان جمهور الراقصين المسعور يتخبط فيها منذ ساعات قليلة ، والتي ما تزال مشبعةً برائحة التبغ . ان أعقاب السجائر وأغلقة السكاكر ماتزال تنشى الأرض الرطبة القذرة . وكان حطام سرير العرس والكراسي المنقلبة تمثل في نظر الشاب المسكين بطلان الآمال والأحلام في هذه الحياة الدنيا كلها !

لبث على هذه الحال أكثر من ساعة . ان رأسه يعيح بصور ثقيلة

وتهلويل مرهقة • من ذلك أنه كان يتساءل : ما الذى ينتظره فى المكتب؟
 كان يدرك حق الإدراك أن عليه أن يبدل الدائرة التى يعمل فيها • ذلك
 أنه لا يستطيع بعد الذى حدث فى هذه الليلة أن يبقى فى مكتب الجنرال •
 وطافت برأسه ذكرى ماميفروف فأزعجته أيضاً : ترى ألن يحمله
 حموه على أن يرقص رقصة القوزاق لا شئ الا أن يقتنع بطواعيته ؟
 ثم ألمت برأسه تلك الفكرة الرهيبة ، وهى أن حماه لم ينقده حتى
 الآن الا خمسين روبلاً أنفقها هو كلها ثم لم يجيء حموه بعد ذلك قط
 على ذكر الأربعمئة روبل الأخرى من المهر • كما أن بسلدونيموف لم
 يمتلك المنزل أيضاً • ثم فكر بسلدونيموف فى أمراته التى تركته منذ
 برهة فى أحوج لحظة من لحظات حياته • وتراعى للمسكين ذلك الضابط
 الذى كان يركع أمام زوجه • ان بسلدونيموف قد لاحظ ذلك فى
 حينه ، فشمع بفضب اضطر أن يكظمه • وفكر أخيراً فى الشياطين
 السبعة التى تسكن جسم امرأته الشابة ، على ما أكدّه أبوها ، والتى
 لا بد له من طردها بالعصا التى أعدها العجوز ماميفروف لهذا الغرض •
 لا شك أن بسلدونيموف كان يعتقد أنه قادرٌ على احتمال كثيرٍ
 من الاهانات والاساءات وأنواع الأذى • ولكن ألم يكن القدر مسرفاً فى
 القسوة عليه والظلم له حين أرهقه هذا الارهاق فجأةً كأنما ليهدم آخر
 قواه مزيداً من التهديم وليجهز عليه اجهازاً كاملاً ؟

هكذا راح بسلدونيموف يتعذب ويجتر أمه ومصائبه بينما كانت
 الشمعة الذائبة تُحتضر على المائدة • ان الضوء الضعيف الكابى

النفس مكدود الجسم خائر القوة ومضى الى اللحاف المكتوم بين الكراسي المتقلبة فاستلقى عليه دون أن يصلح شيئاً من الفوضى ، وحتى دون أن يضع تحت رأسه وسادة • وما لبث أن اجتاحه نومٌ ثقيلٌ كالرصاص ، فغاب عن الدنيا وهو يحس باحساس من حكم عليه بالاعدام •

ومن جهةٍ أخرى ، بماذا نستطيع أن نشبه الليلة التي قضاها ايفان ايلتش على سرير العرس الذي كان معداً للمسكين بسلدونيموف وعروسه ؟

ان آلام الرأس واندفاعات التقيؤ ونوباتٍ أخرى أشد ازعاجاً لم تنقطع عن ارهاقه طوال الوقت • لقد كان فى جحيم من العذاب • وكانت ومضات الوعي التى تومض فى رأسه من حين الى حين تكشف له عن هوة من الهول والروع ، وتريه مناظر مظلمة كريمة تبلغ من البشاعة أن بقاءه غائباً عن الوعي كان خيراً له من اليقظة فليته لا يفيق أبداً !! • على أن كل شيء كان يختلط فى ذهنه ويتداخل ويتشابك • ومع ذلك كان يتعرف أمّ بسلدونيموف • كان يسمع أقوالها المشجعة وكلماتها المواسية :

— تحمل قليلاً يا عزيزى ! تحمل يا أخى ! سينقضى هذا كله ! •

كان يتعرفها دون أن يفهم مع ذلك لماذا تقوم هذه المرأة عليه ولماذا

تسهر بجانبه •

وكانت أشباحٌ غريبة وأطيافٌ عجيبية تبجس فى خياله بدون انقطاع : كان سيمن ايفانوفتش يتراءى له فى أكثر الأحيان حتى اذا أسرع النظر فيه بمزيد من الانتباه رأى أنف بسلدونيموف ثم تراءى له الفنان والضابط والمرأة المضمدة الخد يرقصون أمامه رقصةً محتدمة عنيفة •

غير أن ما كان يحييّرهُ أكثر من أى شيء آخر انما هو الحلقة المذهبة في سماء السرير فوق رأسه : كان المريض رغم أنه يرى هذه الحلقة رؤية واضحة متميزة تسطع في الضوء المهتز الصادر عن الشمعة الذائبة ، لا يستطيع أن يدرك ماهو هذا الشيء الغريب المعلق في الأعلى ، ولا يعرف ما عمله هنالك ! وقد سأل السيدة العجوز مراراً ، ولكن أغلب الظن أنه كان لا يفصح في سؤاله بوضوح كافٍ ، لأن العجوز لم تغلح في أن تفهمه قط !... وحين اقترب الصبح انقطعت نوبات القى والاسهال فنام بغير أحلام ساعة كاملة !...

فلما استيقظ واعياً كل الوعي ، شعر بألمٍ حادٍ في رأسه وبمذاق غثيان في فمه ، وأحسّ بلسانه كأنه خرقة بالية .
 هبّ منتصباً على سريره ، وألقى حوالبه نظراتٍ مدهوشة . وكان الضوء الشاحب الذي يخترق شقوق المصاريع عند طلوع النهار ، يهتز ويتراقص على الجدار . لا بد أن الساعة لم تكن بعيدةً عن الساعة .
 حتى اذا أدرك في آخر الأمر ادراكاً واضحاً ما جرى ، وتذكر جميع الأحداث التي ازدانت بها مأدبة العشاء ، وتذكر عمله البطولي المخفق ، والخطاب الذي ألقاه على المائدة ، وتصوّر بكل ما أمكنه من وضوحٍ وجلاء النتائج التي نجمت عن اقتحامته الباسلة ، ورأى أخيراً الحالة التي صار إليها مضجع عرس مرعوسه المسكين ، شعر عندئذٍ فقط ، بالعار والحزى يجتاحان نفسه ، وبالهول والروع يستبدان به ، فاذا هو يطلق صرخةً من أعماق صدره ، ويفعل وجهه بيديه ، ويهوى ساقطاً بين الوسائد . ثم اذا هو بعد لحظة واحدة يشب فينزل عن السرير . وعلى أحد الكراسي رأى ثيابه مرتبةً مطويةً منظفةً بالفرشاة ، فأسرع يرتديها وهو يلقي على ماحوله نظراتٍ زائفة . وفوق كرسي آخر على مقربةٍ منه كان يرقد فراؤه وقبعته وقفازاه الأصفران ، فسرعان ما خطر

بباليه أن يولى هارباً على الفور . ولكن ها هو ذا الباب يُفتح ، وها هي ذى العجوز بسلدونيموف تدخل حاملةً بين ذراعيها طشتاً من فخار ، وعلى كتفها منشفةً نظيفة . وضعت السيدة بسلدونيموف الطشت على منضدة الزينة وألزمت المريض بأن يغسل وجهه دون أن تكثر من الكلام قائلةً له :

— هلمَّ يا عزيزى ! لا يمكنك أن تخرج من هنا دون أن تغسل وجهك !... .

أدرك ايفان ايلتش أنه اذا كان هنالك انسانٌ ليس عليه أن يحمرَّ أمامه خجلاً ، فهو هذه العجوز الطيبة . وهكذا غسل وجهه ، فشعر بشيء من الانتعاش .

ان الجنرال سيظل زمناً طويلاً ، أثناء الساعات العصية من الحياة ، أثناء الساعات التي يعاود الانسان فيها تأنيب الضمير ، سيظل يتذكر هذا الجو الذى أحاط به عند استيقاظه : ابريق الحزف ؛ الطشت الذى يملؤه ماءً بارد وتسبح فيه قطع من جليد ؛ الصابونة الياضوية المغلفة بورق وردى اللون ، التى يساوى ثمنها نحو خمسة عشر كوبكاً والتى لا شك أنها اشترت للعروسين فاضطر أن يكون هو أول من يستعملها ؛ العجوز الطيبة وهى تحمل المنشفة على كتفها اليسرى .

أنعش الماء البارد ذهنه وأيقظ فكره . وتناول الجنرال المنشفة فجفف وجهه ثم أخذ قبعته وألقى على كتفيه فراءه ثم اندفع يخرج الى الدهليز حتى دون أن يشكر ممرضته . اجتاز المطبخ الذى كانت تموء فيه قطة ، فلما رأته الطباخة التى كانت ما تزال مندسةً فى مضجعها ، انتصبت لتلقى عليه نظرة استطلاع غريبة . ووصل أخيراً الى الشارع ، فنادى عربةً كانت عندئذ مارة ، ووثب الى داخلها بسرعة وقوة .

كان الصباح بارداً ، وكان ضبابٌ ضاربٌ الى صفرة يحجب المنازل . رفع ايفان ايلتش ياقة معطفه يخفى بها وجهه : كان يقدّر أن جميع الناس يتعرفونه ويأخذون عليه سلوكه ...

خلال ثمانية أيام لم يخرج الجنرال من منزله ولم يذهب الى مكتبه . لقد كان مريضاً ، كان مريضاً في نفسه أكثر مما كان مريضاً في جسمه . عانى في هذا الأسبوع عذاباً من عذاب جهنم : لا شك أن آلامه هذه قد حُسبت له في الآخرة !

في بعض اللحظات ، كان يخطر بباله أن يدخل الدير ، ويشرد خياله أحياناً فاذا هو يسمع أناشيد مخنوقة كأنها تخرج من سراديب تحت الأرض ، واذا هو يرى قبراً محفوراً ، ويرى الحياة في حجرة ضيقة منعزلة في المناسك داخل الغابات . ولكنه ما يلبث أن يهز هذه الأشباح ، فيعترف لنفسه بأن هذه الأحلام كلها لم تكن الا مبالغات مرضية ، فسرعان ما يشعر من ذلك بخجل وعار .

وفي مرات أخرى ، كانت تعتريه نوبات حسرات ولوعات . كان يعتقد عندئذ أن حياته قد أخفقت . فاذا صحا ذهنه بعد ذلك قليلاً طفق يقاوم سيطرة هذه الهواجس على نفسه ، ويحاول أن يطرد تلك الذكريات البغيضة .

ثم تعود صورٌ أخرى تخطر في ذهنه من جديد : فاعساهم يقولون عنه حين يرجع الى المكتب ؟ ألن تضطهده وتعذّبه دمدماتٌ ساخرة متهمكة طول سنة بكاملها ، بل خلال عشر سنين ، بل مدى حياته بأسرها ؟

وكانت هذه الفكرة تجعله جباناً وعديداً ، فاذا هو مستعدٌ لأن

يذهب الى سيمن ايفانوفتش يسأله الصفح والعفو والمغفرة ويبتهل اليه بعد ذلك أن لا يحرمه من صداقته . أما هو فلا يحاول أن يبريء نفسه وانما هو يتهمها ولا يجد أى عذر يغفر له ، بل هو يزداد هبوطاً في هاوية الشعور بالعار والحجل من نفسه .

وكان يخطر بباله أحياناً أن يقدم استقالته من وظيفته معتزلاً حياة الناس الذين أراد أن يقف حياته على خدمتهم . وكان قد قرر على كل حال أن يغير حلقة أصدقائه ومعارفه بقية أن يمشو من نفوسهم حتى ذكراه . ولكنه سرعان ما رأى أن هذا الحل الأخير حل غبي ، وسرعان ما قال لنفسه ان الشدة الكبيرة في معاملة مرموسيه كفيفة بأن تطفىء ذكرى هذه القضية آخر الأمر ، فما يبقى منها في الأذهان أثر ، وكان من شأن هذه الفكرة أن وهبت له أملاً وبشت فيه قوة .

وأخيراً بعد ثمانية أيام قضاها في آلام وشكوك ، أصبح لا يطبق احتمال هذا القلق الذي يشيعه المجهول في نفس الانسان ، فاذا هو يذهب في ذات صباح الى مكتبه .

وقبل ذلك ، أثناء مكوثه في المنزل ، كان قد حاول ألف مرة أن يتصور عودته هذه الى المكتب ، فكان يمتلكه الرعب مما يتوقع أن يسمعه من دمدمات مشبوهة وأن يراه من وجوه استطالت رغم اصطناعها قلة الاكثرا كذباً وزيفاً ، وأن يلحقه من ابتسامات مقتعلة سوف تلتقاه بالتحية .

فما كان أشد دهشته حين لم يبصر من هذا كله شيئاً البتة ! استقبله الموظفون بكثير من الاحترام وحيوة منحنين انحناء شديداً ، وكانوا جميعاً جادين كل الجدة منهمكين في عملهم كل الانهماك .

وكانت تلك هي الحالة التي كانت في الغفلة الخاصة وشبهه مصرف

الأعمال فوراً بكل ما تقتضيه رتبته العالية من وقارٍ وجدٍ وفخامة •
 أوصى إلى تقارير واستمع لشروح وأملى قرارات ، فكان يشعر أثناء ذلك
 أنه لم يسبق له فى يوم من الأيام أن اتخذ قرارات تبلغ من الذكاء
 ما بلغت القرارات التى اتخذها فى هذا الصباح • وقد لاحظ أن الموظفين
 قد سُرُّوا بعودته وأنهم يحترمونه وأنهم يخاطبونه بكثيرٍ من التعظيم
 والتبجيل • والحق أنه ما كان لأحد أن يكشف فى سلوكهم شيئاً مهما
 يبلغ من سرعة التأذى وشدة الحساسية • كان كل شيء يجرى مجرى
 رائماً •

واستقبل الجنرال أخيراً أكيم بتروفش الذى جاء يحمل كدسة
 كبيرة من الأوراق ، فقرص ظهوره قلباً ايفان ايلتش ، ولكن ذلك لم
 يدم إلا لحظة قصيرة • وعمل الجنرال مع مدير مكتبه ، وكلمه فى جد ،
 وأشار عليه بإجراءات شتى • والأمر الوحيد الذى لاحظته هو أنه كان
 يحسن برغبة فى تحاشي نظرة مرعوسه وأن مرعوسه يحاول هو أيضاً
 أن يتقى نظراته بغير انقطاع •

فلما انتهى الموظف المجوز من عمله جمع أوراقه وهمَّ
 بالانصراف • لكنه تلبث قليلاً ، وقال يخاطب الجنرال بصوتٍ أجش :

— هنالك طلبٌ أخير : ان الموظف بسلدونيموف يلتمس نقله الى
 مكتب آخر ••• وقد تفضل صاحب السعادة سيمن ايفانوفش فوعدهم
 بوظيفة • وهو لذلك يتمنى أن تتكرم عليه يا صاحب السعادة بموافقتك
 على ذلك •

قال ايفان ايلتش :

— آ ••• يطلب استبدال الوظيفة !

وشعر الجنرال بأن قلبه يتخفف من حملٍ ثَقِيلٍ • ورفع عينيه الى
آكيم بتروفتش فالتقت نظرتا الرجلين لأول مرة •

وأضاف الجنرال يقول :

— طيب ! من جهتي ••• سأحاول أن ••• أنا مستعدٌ لمنحه
موافقتي !•••

كان واضحاً أن آكيم بتروفتش أصبح لا يشد الآن الا شيئاً
واحداً هو أن يهرب بأقصى سرعة ، ولكن ايفان ايلتش أصبح يريد أن
يظهر نبل نفسه وسمو طبيعته ، ولعله يريد خاصة أن يوضح الموقف
توضيحاً حاسماً •

فرشق الموظفَ العجوزَ بنظرةٍ ملأى بدلالةٍ عميقة وقال له :
— أكّـد باسمي لصاحبك بسلدونيموف أنني لا أريد به شراً •••
أننى لا أحقد عليه البتة !••• بالعكس : أنا مستعدٌ لأن أنسى الماضى •••
لأن أنسى كل شيء ••• كل شيء !•••

ولكن أثر هذا الكلام فى آكيم بتروفتش اختلف كل الاختلاف
عما كان يفترضه ايفان ايلتش : فان آكيم بتروفتش الذى كان يبدو حتى
ذلك الحين رجلاً عاقلاً رصيناً قد استحال الآن الى انسانٍ أبـله كل
البلاهة فهو بدلاً من أن يصغى الى كلام الجنرال هادئاً ، احمر وجهه
على حين فجأةٍ احمراراً لا يتصوره الخيال ، وراح يمطر رئيسه
بتحياتٍ صغيرةٍ متعاقبةٍ يمكن أن توصف بأنها غير لائقة ، وطفق يسير
الى وراء بـخطى متقهقرة محاولاً أن يبلغ الباب ليخرج • كان احترامه
هذا كله يـمبّر عن رغبة فى الاختفاء تحت الأرض ، أو قل فى الوصول
الى مكتبه والاتجاء اليه والاعتصام به •

فلما أصبح ايفان ايلتش وحيداً نهض عن مكانه وقد اعتراه
اضطراب لا يقاوم ، ونظر الى نفسه في المرآة فلم يكده يتعرف وجهه •

— لا ! ليس هناك الا الشدة ، الشدة ، الشدة ! ...

كذلك دمدم يقول على غير وعي تقريباً •

واجتاحت وجهه حمرة مفاجئة • ان شعوراً بالخزي والعار يرهق
نفسه ، وان ضيقاً ثقيلاً يعجنم على صدره ويشنّج جسمه كله ، ضيقاً
أقوى من الضيق الذي استبد به طيلة أيام مرضه الثانية •

قال لنفسه وهو يتهالك على كرسيه :

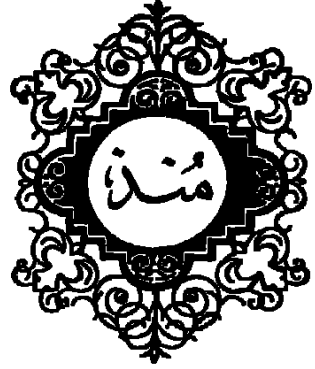
— لم أحسن التصرف •

ذكريات شتاء
عن مشاعر صيف
١٨٦٣

« ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » ، ظهرت في
 مجلة « الزمان » سنة ١٨٦٣ ؛ فاما الفصول ١ ،
 ٢ ، ٣ ، ٤ ففي عدد شهر شباط (فبراير) ، واما
 الفصول ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ففي عدد شهر آذار (مارس)

الفصل الأول

مخاطبة مقدمتها



أشهر عدة ، توحون الى ، يا أصدقائي ، بأن
أصف لكم أخيراً ما أحسست به في البلاد
الأجنبية ، وما تركته تلك البلاد في نفسي من
آثار ؟ توحون الى بذلك دون أن يخطر ببالكم
أن هذا الطلب يزجني في طريق مسدودة غير نافذة . فما عساني أكتب
أو أحكي من أمور جديدة مجهولة ؟ مَنْ منا ، نحن معشر الروس ،
أعني أولئك الذين يقرأون الصحف والمجلات على الأقل ، لا يعرف
أوروبا أكثر مما يعرف روسيا مرتين في أقل تقدير . أقول مرتين من
باب التأدب ، ولو قلت عشر مرات لكنت أصدق . وعدا هذه الاعتبارات
العامة ، فانكم تعلمون حق العلم أنني لا أملك ما أقصه وما أصفه على
نحو منظم ، لأنني لم أر شيئاً من الأشياء على نحو منظم ، لأنني لم يتسع
وقتي لأن أنعم النظر فيما رأيته . لقد زرت برلين ، ودرسدن ،
وفسبادن ، وبادن بادن ، وكولونيا ، وباريس ، ولندن ، ولوسرن ،
وجنيف ، وجنوه ، وفلورنسا ، وميلانو ، والبندقية ، وفيينا ؛ حتى لقد
زرت بعض الأماكن مرتين . وهذه الجولة كلها قد أتممتها في شهرين
ونصف شهر تماماً . فهل يستطيع المرء أن يدرس الأمور كما ينبغي أن
تدرس حين يقوم بجولة كهذه الجولة في غضون شهرين ونصف

شهر ؟ تذكرون أنني رسمت مسار رحلتى قبل أن أغادر بطرسبرج •
 لم يسبق لى أن سافرت الى الخارج قبل ذلك قط : كنت أحلم بذلك منذ
 طفولتى الأولى ، حين كنت أصغى ، فاعزّ الفم ، ممتلئ القلب حماسة
 وهولاً ، أتناه لىالى الشتاء الطويلة ، لجهلى بالقراءة ، الى أبوى وهما
 يقرءان قبل النوم روايات مسز رادكليف * التى كانت تسلمنى بعد ذلك
 الى أحلام ثقيلة وكوابيس رهية • واذ أنني لم أستطع أن أفلت أخيراً
 الا وقد بلغت الأربعين من عمرى ، فقد أردت طبعاً أن أرى كل ما يمكننى
 أن أراه ، بل وأن أرى كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، رغم أن الزمن
 محدود • يُضاف الى ذلك أنني كنت عاجزاً عجزاً كاملاً عن اختيار
 الأماكن بهدوء وغير مبالاة ! رباه ! لشد ما كنت أمتنى نفسى بهذه
 الرحلة ! كنت أقول لنفسى : « هبنى لم أنعم النظر فى كل شيء تفصيلاً ،
 فسأكون قد طفت بكل مكان ، وسأستمد من ذلك رؤية اجمالية ،
 سأحظى من ذلك باطلالة من فوق • سأرى بلاد « العجائب المقدسة » *
 دفعة واحدة ، بنظرة تشبه نظرة الطائر من علىاء السماء ، أو تشبه نظرة
 الانسان يتطلع الى أرض الميعاد من على ذروة جبل • أى سوف أشعر
 باحساس جديد ، قوى ، رائع •

والآن ، بعد أن رجعت الى منزلى ، هل تعلمون ما الذى يحزنى
 أكثر مما يحزنى أى شيء آخر ، حين أتذكر أسفارى الصيفية تلك ؟
 ليس الذى يحزنى أكثر مما يحزنى أى شيء آخر هو أن رؤيتى للأمور
 كانت رؤية سطحية ، بل اننى زرت كل مكان ، الا روما • ومهما يكن
 من أمر ، فلعلنى لو ذهبت الى روما لفاتنى البابا • • • الخلاصة أنني أشعر
 بظماً محرق الى الأشياء الجديدة ، وتغير الأماكن ، والمشاعر الكلية المركبة
 الاجمالية • فماذا تنتظرون منى بعد مثل الاعترافات ؟ ماذا أقص وماذا
 أصف ؟ أمانظرَ يراها رجل يطل من أعلى طائراً كعصفور ؟ ألا انكم

ستكونون أول من يقول لى اننى كنت مسرفاً فى التحليق أثناء الرؤية •
ثم اننى امرؤ يعد نفسه شديد التعلق بالدقة فى الصدق حتى من حيث
أنه سائح • واذا شرعت فى أن أصف لكم ولو منظراً أطل عليه من فوق ،
فلا بد لى أن أكذب حتماً ، ولا بد لى أن أكذب لا من حيث أننى سائح ،
بل لهذا السبب البسيط وهو أننى يستحيل على فى الوضع الذى أنا فيه
الا أن أكذب • ألا ترون معى هذا الرأى ؟

ان مدينة برلين ، مثلاً ، تد تركت فى نفسى أثراً بالغ الحموضة
ولم أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة • اننى أشعر الآن بأننى آثم فى
حق برلين : لست أجرؤ أن أزعّم أنها تخلّف فى النفس أثراً حامضاً
ولو قلت انها تخلّف فى النفس أثراً « حامضاً عذباً » ، لكان ذلك أصدق
فى أحسن تقدير • فيما مبعث خطئى الحتمى ذاك ؟ مبعثه أننى ، وأنا
مريضٌ أعانى آلاماً فى الكبد ، قد لبثت يومين كاملين أرتج فى حافلة
القطار بين منظر الأمطار والضباب الى أن وصلت برلين ، فلما بلغتها
شاحب الوجه مخلّع الأعضاء محطّم الجسم لاحظت أن هذه المدينة تشبه
سان بطرسبرج شبيهاً عجيباً : فالشوارع الممدودة هنا هى نفس الشوارع
الممدودة هناك ، والروائح هى نفس الروائح ، و • • • وكذلك سائر
وجوه الشبه الأخرى ! قلت لنفسى : « رباه ! أكان يستحق هذا منى أن
أضنى جسمى فى القطار يومين كاملين فى سبيل أن أرى ما أنا هارب
منه ؟ » • حتى شارع أشجار الزيزفون * لم يعجبني ، مع أن ساكن برلين
مستعد لأن يضحى فى سبيل المحافظة عليه بأعز ما يملك ، وربما ضحى
فى سبيله بالدستور • هذا الى أن هيئات أهل برلين ، من أولهم الى
آخرهم ، كانت جميعها هيئات ألمانية تبلغ من ألمانيتها أننى زهدت فى مشاهدة
صور الجدران التى رسمها كالباخ * (يا للهول !) وأسرعت أهرب الى

درسدن مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأن عليّ أن أعود على الألماني أولاً ، والا كان يصعب عليّ جداً أن أحتمله في جمهور .

وفي درسدن أسأت الى الألمانية أنفسهن : لقد بدا لي ، منذ وطئت قدمي الشارع ، أن نساء درسدن هنّ أدعى ما في العالم الى الاشتزاز ، وأن شاعر الحب نفسه ، فزيفلود كريستوفسكي * ، وهو أكثر الشعراء الروس اقتناعاً وطرباً ، لا بد أن يطيش هنا صوابه فإذا هو يشك في رسالته الشعرية . وسرعان ما شعرت طبعاً أنني انما أقول سخفياً ، لأن هذا الشاعر لا يمكن أن يشك في رسالته بحال من الأحوال . وما انقضت ساعتان حتى فسّرت لنفسي كل شيء : فأنني حين عدت الى غرفتي بالفندق فمددت لساني أمام المرأة ، افقتعت بأن رأيي في نساء درسدن ليس الا تجنياً رديئاً واساءة بالغة . لقد كان لساني أصفر اللون تغشاه طبقة من ... فقلت لنفسي : « رباه ! أيمن أن يكون الانسان ، وهو ملك الكون ، رهناً بحالة كبده الى هذا الحد ! يا للشقاء !... » .

ثم مضيت الى كولونيا ممتلئاً بهذه الأفكار التي تعزى النفس . واعةف لكم بأنني كنت أتوقع من الكاتدرائية أشياء كثيرة . لقد رسمت

شبه كل الشبه بالحكم الذى كان أجدادنا يصدرونه فى حق بوشكين حين يقولون : « ان فى نظمه اسرافاً فى السهولة • انه تعوزه الرفعة وينقصه السمو ! » •

أحسب أن هناك ظرفين قد كان لهما تأثير فى ذلك الحكم الأول . فأما الظرف الأول فهو ماء الكولونيا • لقد كان مصنع جان مارى فارينا قرب الكاتدرائية • وأياً كان الفندق الذى أمت فيه ، وأياً كان المزاج الذى أمت عليه ، وأية كانت براعتك فى الهروب من أعدائك ومن جان مارى فارينا ، فان بائعيه لا يفوتهم أن يكتشفوا المكان الذى اعتصمت به ولجأت إليه ، وأن يبادروك بقولهم : « حياتك أو ماء الكولونيا » • لا أستطيع أن أقول جازماً انهم كانوا ينطقون بهذه الكلمات نفسها : « حياتك أو ماء الكولونيا ! » ولكن من يدرى ؟ جائر جداً أنهم كانوا يقولون ذلك بعينه • وعلى كل حال فأننى أتذكر أن الأمر كان هماً يحاصر نفسى فى كل لحظة • وأما السبب الثانى للحق الذى استولى علىّ فهو الجسر الجديد فى مدينة كولونيا • هو فى الحقيقة جسر رائع ، والمدينة كلها تفتخر به ، ولافتخارها ما يبرره فى الواقع ، ولكن هذا الافتخار كان يبدو لى مسرفاً مفرطاً • فسرعان ما أغضبني هذا طبعاً • ثم ان محصل الرسوم على ذلك الجسر الرائع ما كان له أن يحصل منى الرسوم (رغم أنها رسوم عادلة والحق يقال) كمن يفرض على غرامة لمخالفة ارتكبتها أو جنحة قارفتها • لقد أحسست أن هذا الألماني متطرس متجبر • قلت لنفسى : « لا شك أنه حزر أننى أجنبى وأنتى روسى » كانت عيناه على الأقل تشبهان أن تقولاً : « هل ترى جسرنا أيها الروسى المسكين ؟ ألا فاعلم أنك لست الا دويذة حقيرة بالقياس إليه ، وبالقياس الى أى ألماني ، اذ ليس فى بلادك جسر يشبه هذا الجسر » • اعترفوا أن هذا أمر مزعج يثير الأعصاب ويستفز النفس • صحيح أن الألماني

لم ينطق بهذه الجملة ، ولعلها لم تخطر له على بال • ولكن ذلك لا يعنيني كثيراً • فانما المهم أنني بلغت عندئذ من الثقة بأنه يريد أن يقولها أنني غضبت غضباً شديداً • قلت لنفسى : « يا له من وقح ! نحن أيضاً قد اخترعنا السماور ، ولدينا مجلات ، ونصنع بضائع للضباط • نحن » • الخلاصة أنني زعلت فى غير داع الى زعل ، وتزودت بزجاجة من ماء الكولونيا (لم أستطع من شرائها فكاكأ) ، وسافرت فوراً الى باريس آملاً أن يكون الفرنسيون أكثر لباقة وكياسة ، وأن أجد فيهم مباد يشوقنى ويثير اهتمامى أكثر مما وجدت من ذلك لدى الألمان •

فاحكموا الآن على الأمر بأنفسكم : لو قد سيطرت على نفسى وتحكمت بعواطفى ، فقضيت ثمانية أيام فى برلين ، ومثلها فى درسدن ، وقضيت ثلاثة أيام فى كولونيا أو يومين على الأقل ، اذن لنظرت حتماً بعين أخرى الى الأشياء نفسها مرة ثانية فثالثة ، ولكوَّنت عن هذه الأشياء فكرة أسلم ورأياً أصدق • كان يمكن لشعاع من شمس ، لشعاع بسيط من شمس ، أن يحدث أثراً كبيراً وأن يكون له شأن خطير : لو كانت أشعة الشمس تغمر كاتدرائية كولونيا أثناء زيارتى الأولى لها فى ذلك الصباح القاتم الممطر ، كما كانت تغمرها أثناء زيارتى الثانية ، لرأيت ذلك المبني رؤية تختلف عن رؤيتى الأولى التى أيقظت فى نفسى افراطاً فى التعصب الوطنى • على أن هذا ليس معناه أن رداءة الطقس وحدها تولد العاطفة الوطنية • هكذا ترون يا أصدقائى أنه يستحيل على المرء فى غضون شهرين ونصف شهر أن يدرس جميع الأشياء على نحو مناسب • فلا يمكننى اذن أن أمدكم بمعلومات دقيقة كل الدقة صحيحة كل الصحة • ولسوف أجدنى مضطراً فى بعض الأحيان الى أن أكذب أيضاً •••

ولكن هأنتم تستوقفوننى هنا قائلين : « لا حاجة بنا فى هذه المرة الى معلومات دقيقة صحيحة • ولو شئنا لوجدنا هذه المعلومات فى • دليل راىخارد • » وانما ينبغى لكل مسافر أن ينشد الصدق لا الحقيقة المطلقة ، وذلك أمر يفوته فى جميع الأحيان تقريباً • ينبغى له أن لا يخشى البوح بأى شئ • عن مشاعره وانطباعاته ومغامراته ، ولو كانت لا تجلب له مجداً كبيراً • ينبغى له أن لا يستشير بعض السلطات ليكون له عندها شأن ومنزلة • ان كل ما نرغب فيه هو أن تعبّر لنا عن مشاعرك وانطباعاتك شريطة أن تكون صادقة • »

آ ••• أتم تريدون اذن ثرثرة لا أكثر ، أتم تطلبون لمحات سريعة ، وانطباعات شخصية عابرة • فليكن لكم ما تشاءون • سوف أعود الى دفترى الذى دوّنت فيه بعض الملاحظات • ولكننى أرجوكم أن تتذكروا أن جزءاً كبيراً مما سأكتبه قد يشتمل على أخطاء • لا كل ما سأكتبه طبعاً • فمن المستحيل مثلاً أن يخطئ المرء فى وقائع ثابتة مثل «نوتردام دو بارى» ، ومرقص «مايل» • وهذه الواقعة الأخيرة خاصة تشهد بها جميع الروس الذين كتبوا عن باريس ، بحيث يكاد يستحيل وضعها موضع الشك • لغتنى غير مخطئ فى هذا • ومع ذلك لا أتحمّل تبعاً كاملة صرامة • ذلك أنه يقال انه يستحيل على المرء أن يذهب الى روما دون أن يرى كنيسة القديس بطرس • ومع ذلك فقد ذهبت أنا الى لندن دون أن أرى كنيسة القديس بولس • يميناً اننى لم أرها ! صحيح أن هناك فرقاً بين كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس • ومع ذلك فان اغفال رؤية كنيسة القديس بطرس ليست أقل بعداً عن اللباقة من اغفال رؤية كنيسة القديس بولس •

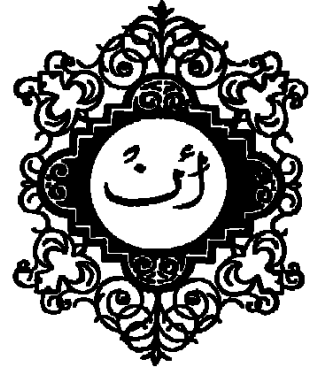
تلكم هى مغامرتى الأولى التى تشرفنى كثيراً • الحق اننى لمحت

كنيسة القديس بولس من على مسافة نحو كيلومتر ، أثناء زهابي الى
باتونفيل • ولكنى أغفلت زيارتها من فرط ما كنت فيه من عجلة •

ولكن ... بالمناسبة ! ... اعلّموا أننى لم أقصر على الطواف
السريع وعلى رؤية جميع الأشياء كرؤية الطائر (ليس يعنى قولنا
« كرؤية الطائر » رؤية « من فوق » ، فذلك اصطلاح من اصطلاحات
هندسة العمارة كما تعلمون) • لقد عشت فى باريس شهراً كاملاً
الا ثمانية أيام قضيتها فى لندن • فسأحدثكم اذن عن باريس ، لأننى
رأيتها جيداً مما رأيت كاتدرائية القديس بولس ، وخيراً مما رأيت
سيدات درسدن • فهلموا معى اذن الى باريس •

الفصل الثاني

في القطار



« الفرنسي محروم من العقل ، ولو أوتى عقلاً
 لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه » • ان هذه الجملة قد
 كتبها منذ القرن الماضي فونفيزين * • والله وحده
 يعلم كم كان فرحاً مرحاً حين كتبها • اني
 لأراهن على أن قلبه كانت تدغده لذة كبيرة حين دبجت يراعه هذه
 العبارة • ومن يدري ؟ لعلنا جميعاً ، بعد فونفيزين ، خلال ثلاثة أجيال
 أو أربعة ، لا نقرأ هذه العبارة الا ونشعر بشيء من متعة • ان جميع
 الاقوال الطريفة التي من هذا النوع والتي يتهجم فيها قائلوها على الأجانب
 ما تزال تشتمل حتى الآن ، في نظرنا ، نحن معشر الروس ، على فتنة
 لا سبيل الى مقاومتها ، فتنة خفية طبعاً نشعر بها على غير علم منا في بعض
 الأحيان • ان في هذا نوعاً من الشار لماضٍ مؤسف • ولئن كانت هذه
 العاطفة مؤسفة هي أيضاً فانني لعلّ يقين من أنها قائمة في نفس كل
 واحد منا • صحيح أننا نظهر شيئاً من الاستياء والغضب اذا نحن وُصمنا
 بها ، وأتينا نفعل هذا صادقين مخلصين • ومع ذلك فأنا أعتقد أن
 بيلنسكي * نفسه كان بهذا المعنى من المتعصبين للسلافية في قرارة نفسه •
 منذ خمسة عشر عاماً ، أيام كنت أتردد الى ندوة بيلنسكي ، أذكر

أن أفراد تلك الندوة جميعاً كانوا ينحنون احتراماً للغرب ، أعني لفرنسا بوجه خاص ، مع تقديس يبلغ حد الغرابة . كانت فرنسا أيامئذ على « الموضة » : وكان ذلك في عام ١٨٤٦ ؛ كانوا لا يكتفون بعبادة أسماء جورج صاند وبرودون وغيرهما ، ولا يكتفون باحترام أسماء لوى بلان ولودرو رولان وأمثالهما ؛ بل كانوا كذلك يعظمون أشدّ التعظيم أشخاصاً لا قيمة لهم ولا شأن ، أشخاصاً هم ثمار جافة يابسة ، أشخاصاً لم يلبثوا أن انهاروا ولم يصمدوا منذ وضعوا في موضع الامتحان . فمن هؤلاء أيضاً كانوا ينتظرون أموراً عظيمة في مرحلة الزندقة المتسمة بطابع النزعة الانسانية الطالعة في ذلك الأوان . وكانوا يتهامسون عن بعضهم فيما بينهم باحترام كبير ثم ماذا ؟ ثم لم ألتق خلال حياتي كلها برجل أشد اندفاعاً في تعلقه بروسيته مثل بيلنسكى ، رغم أن تشادايك * كان قد انفجر في كثير من الحنق والبراعة وفي كثير من الاستأذاناء شديداً من خصائصنا القومية ، وحققت في أغلب

الظن كل ما هو روسى . ان هناك وقائع معينة وذكريات محدّدة تحملنى على اصدار هذا الحكم واطلاق هذا الرأى . ومن يدري ؟ لعل الجملة التى قالها قونفيزين لم تصدم بيلنسكى نفسه كثيراً فى بعض الأحيان . هناك لحظات لا يجب فيها المرء الوصاية ولا يرضى بها ولو كانت وصاية نبيلة مشروعة . أوه ! لا تحسبوا أن محبة الانسان وطنه تعنى أن يحمل على الأجانب ، وأنتى من هذا الرأى يؤسفنى أن الوقت لا يتسع لى الآن من أجل أن أفصح عما بنفسى بمزيد من الوضوح

بالمناسبة : لعلكم ستظنون أننى بدلاً من أن أحدثكم عن باريس ، أندفع فى الكلام على الأدب الروسى ، وأكتب مقالة فى النقد ، أليس كذلك ؟ ولكن لا فانما حدث هذا عرضاً

وإذا رجعت إلى مذكراتى ، وجدت أننى الآن فى القطار ،

واننى أستعد غداً لاجتياز الحدود فى آيدتكونن * ، أى أنهياً لمعانة شعورى
الأول بأننى فى بلد أجنبى ، وأن قلبى يرتعش فى بعض اللحظات .
أخيراً سأرى اذن أوروبا ، أنا الذى ظللت طوال أربعين عاماً على وجه
التقريب ، أحلم بها فى غير طائل ، منذ السادسة عشرة من عمرى ، أحلم
بها جاداً كل الجدة ، مهتماً كل الاهتمام ، مثل بيلوبيا تكين * الذى أجرى
نكراسوف على لسانه هذا البيت من الشعر :

أحب ان اهرب الى سويسرا

دون أن أستطيع تحقيق هذا الحلم . هأنذا اذن فى الطريق الى
« بلاد المعجائب المقدسة » التى طالما تنهدت تحرقاً الى زيارتها ، وظللت
ثابتاً على ايمانى بها .

اننى ليتفق لى أحياناً أن أتمسك حتى وأنا فى هذا القطار نفسه :
« نحن روس حقاً يا رب ؟ نحن روس حقاً ؟ لماذا تحدث فينا أوروبا
هذه الفتنة كلها ولماذا تستهويننا هذا الاستهواء كله ، أياً كنا ؟ » وحين
أقول كلمة « نحن » ، فليست أقصد أولئك الذين لبثوا هنالك فحسب ،
أولئك الروس البسطاء الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً ، أولئك الروس
الذين لا نعدم نحن الذين يبلغ عددنا مائة ألف ، لا نعدم حتى الآن
شيئاً مذكوراً ، وما تزال صحفنا الساخرة العميقة تستهزئ بهم وتهكم
عليهم ، لأن هؤلاء الناس الطيبين لا يحلقون لحاهم . لا ، فانما أنا أتكلم
عن صفوتنا المتأخرة المرموقة ! ذلك أن كل ما نملكه تقريباً من تطور
فى ميدان العلم والفن والحضارة والانسانية انما يأتيها من هناك ، من
« بلاد المعجائب المقدسة » ! ذلك أن حياتنا كلها ، منذ نعومة أظفارنا ،
انما تشكلت على النمط الأوروبى ! كيف يمكن لأحد منا أن يقاوم هذا
التأثير ، وأن لا يستجيب لهذا النداء ، وأن يصمد أمام هذا الضغط ؟
كيف لم تتحول بعد الى أوروبين تماماً ؟ أغلب ظنى أن هناك أمراً

يسلّم به جميع الناس ، بعضهم على فرح وابتهاج وبعضهم على أسف وحسرة ، وهو أننا لم ننضج بعدُ النضج الذي يؤهلنا لهذا التحول .
على أن هذه قضية أخرى . حسبى أن أقرر هذه الواقعة وهي أننا لم نتجاهل ذلك التحول ، رغم المأثرتين ، تبلغ هذا المبلغ من القوة التي

الواقعة . ذلك أن مربيّاتنا وحاضناتنا ومرضعاتنا لسنَّ من اللواتي حلّتن بيننا وبين هذا التحول . انه لمن المحزن والمضحك حقاً أن نقدر أننا ربما ماكان ليظهر فينا شاعرنا بوشكين لولا آرينا روديونوفنا* ، مربية بوشكين! رب قائل يقول : هذا باطل ! ولكن ما قولكم اذا لم يكن باطلاً في واقع الأمر ! ان كثيراً من الأطفال الروس يؤخذون الآن الى فرنسا لتربيتهم . فماعسى يحدث لو أُخذ الى فرنسا بوشكين آخر تعوزه هنالك مربية مثل آرينا روديونوفنا ، وتعوزه اللغة الروسية منذ المهد ؟ ومع ذلك فأى روسى كان بوشكين ! لقد استطاع هذا الشاعر الذي كان أبوه سيداً من السادة ، استطاع أن يدرك نفس بوجاتشيف* وأن ينفذ الى روحه في عصر لم يكن فيه أحد قد نفذ الى أى موضع . لقد استطاع هذا الارستقراطي أن يتحد بشخصية بيلكين* . لقد استطاع بقوة فنه أن ينفصل عن بيئته وأن يدينها جهاراً في قصته الشعرية «أوجنين»* من وجهة النظر القومية . ذلك أنه كان نبياً وكان رائداً . هل يمكن حقاً أن يكون ثمة علاقة كيميائية بين فكر الانسان وتراب الوطن ، وأن يكون الانسلاخ عن تراب الوطن مستحيلاً ، فما ان ينسلخ المرء عنه ويتحرر منه حتى يرتد اليه ؟ الحقيقة أن عقيدة التعلق بالسلافية لم تهبط علينا من السماء . ورغم أن هذه العقيدة قد تجسدت بعد ذلك في الغرائب التي تعلق بها أهل

يصدق على أهل موسكو أنفسهم • ما أصعب أن يفصح المرء عن نفسه
افصاحاً واضحاً من أول وهلة ولو أمام نفسه ! رب أجيال ثلاثة لا تكفى
لتوضيح فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحياة والقوة ، فإذا النهاية تختلف في
بعض الأحيان اختلافاً تاماً عن البداية ...

ان جميع هذه الأفكار الشاردة ، التي كان الضجر والفراغ هما
اللذان أحيا المرء بعضها ، قد لاحقتني وطاردتني ، فغادرتني أنا في

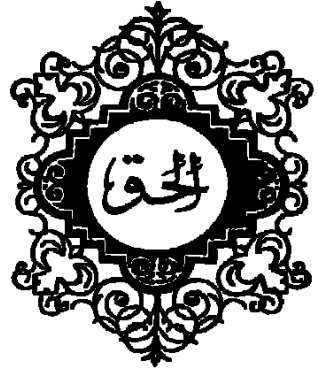
الوحيدين الذين يفكرون في مثل هذه الموضوعات في بلادنا ما يزالون
حتى الآن هم الأشخاص الذين لا عمل لهم ! آه ما أشد الضجر والسأم
الذين يستوليان على الإنسان حين يكون في القطار عاطلاً عن العمل !
ان هذا الفراغ يثير من الضجر والسأم في النفس مثل الذي تثيره منهما
حياة الفراغ في بلادنا الطيبة روسيا • فرغم أن المرء في القطار يُنقل
ويُعتنى به ويدلّل به حيث لا يبقى له ما يشتهي ويتمناه ، فان هناك قلقاً
يظل يلاحقه ، لا شيء الا لأنه لا يعمل شيئاً ، ولأنه يُعتنى به كثيراً ،
لأنه لا يستطيع الانتظار والصبر • فربما أقدم أشكركم أن أتمتع في

بعض اللحظات أن أتب من القطار فأخذ أركض الى جانبه قرب القاطرة!

شخصان متقدمان في السن من ملائكي الأطيان ، لهما وجهان لطيفان
محبيان . كانا ذاهبين الى معرض لندن* لقضاء بضعة أيام بعد أن تركا
أسرتيهما في المنزل . وعلى يميني كان يجلس رجل روسي هو موظف في
مؤسسة تجارية بلندن منذ عشر سنين . لقد قضى خمسة عشر يوماً في سان
بطرسبرج لقضاء بعض الأعمال ، وكان يبدو عليه أنه تخلص من آلام
الحنين الى الوطن تخلصاً تاماً . وعلى يساري كان يجلس انجليزى قح ،
أحمر اللون ، مفروق الشعر على طريقة الانجليز ، رصين رصانة
لا يهزها شيء . انه طوال السفرة لم يبادل أى واحد منا كلمة واحدة
بأى لغة من اللغات . ولبت من أول النهار الى آخره مكباً على القراءة
في كتاب مطبوع بأحرف صغيرة دقيقة لا يطبقها الا الانجليز وحدهم ، بل
هم يطرونها ويشنون عليها . حتى اذا صارت الساعة الى العاشرة خلع
حذاءيه واتعل خفين : أغلب الظن أنه يفعل ذلك طول حياته ولا يريد
أن يغير في القطار شيئاً من عاداته . وما لبت الجميع أن نعسوا وناموا :
ان طلقات الصفارة ولهثات القاطرة تحض على النوم . وأخذت أنا أفكر ،
فلا أدري كيف قادتنى تأملاتى الى هذه الفكرة : « أن الفرنسى محروم
من العقل ، ، وهى العبارة التى استهللت بها هذا الفصل .
ولكن هل تعلمون أتنى أشتى كثيراً ، بانتظار الوصول الى

الفصل الثالث

أمور نافلة تماماً



أن تلك الحساطر لم تكن أفكاراً بل كانت تأملات ، كانت تصورات تجرى على غير هدى ، بل وكانت أحلام يقظة « في هذا الموضوع وفي ذاك » وفي غير موضوع أكثر الأحيان • رجعت أولاً الى الماضي وفكرت في الرجل الذي أصدر ذلك الرأي المتعجل في عقل الفرنسيين ، فكرت فيه فجأة بمناسبة رأيه هذا • لقد كان ذلك الرجل في زمانه من كبار اللبراليين ، وقد ظل طوال حياته يرتدى رداءً على الزى انفرنسي ، لا يعلم الا الله لماذا ، وكان يحمل باروداً ، ويضع على جنبه سيفاً قاطعاً ، ليدل على أنه من سلالة فرسان (رغم أنه لم يكن في روسيا فرسان في يوم من الأيام) ، ولیدافع عن شرفه الشخصي في حجرة المدخل من منزل بوتومكين • ومع ذلك فانه ما ان وضع أنفه في الخارج حتى ندّد بباريس باسم جميع نصوص التوراة ، وحتى قرر أن « الفرنسي محروم من العقل ولو أوتي عقلاً لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه » • بالمناسبة : لقد تظنون أنني ذكرت السيف القاطع ورداء المخمل من قبيل مؤاخنة فونفيزين ، أليس كذلك ؟ فلا يذهبن بكم الظن الى هذا • ان فونفيزين لم يكن في وسعه أن يرتدى قفطاناً روسياً ، فحتى في زماننا هذا هناك أشخاص أرادوا أن يكونوا روساً بل وأن يختلطوا

وسيقول شخص آخر : « - رحماك ! ما هذا الذي تقصه علينا .
لقد كان موضوع الحديث باريس ، فما انتقلت هذا الى الكلام عن عقوبة
الجلد ؟ ما هي العلاقة بين الأمرين ؟ »

وسيضيف ثالثٌ قوله : « ثم انك قد أعلنت أنك عرفت هذا كله
منذ قليل ، وأنت انما قمت برحلتك في الصيف الماضي ، فكيف أن أمكن
أن يدور عليه تفكيرك حينذاك في القطار ؟ »

جوابي على هذا السؤال هو أن تلك مشكلة حقاً . ولكن اسمحوا
لي : هذه ذكريات شتاء عن مشاعر صيف . لذلك تسلمت اليها واندست
فيها مشاعر شتاء . يضاف الى هذا أنني ، حين كان يقترب بي القطار من
آيدتكونن ، كنت أفكر - ما زلت أتذكر هذا - كنت أفكر في كل
تراثنا القومي الذي أبرحه الى أوروبا ، فكان بعض أحلامي يدور على
هذه الأمور . وكنت أفكر في هذا الموضوع بالذات : بأية طريقة أثرت
فينا أوروبا في عصور مختلفة محاولة أن تفرض علينا حضارتها دائماً ؟
الى أي مدى تحضرنا ؟ ما عدد الذين أصبحوا منا متحضرين ؟ والآن
أدرك أنا نفسي أن ذلك كله كان نافلاً . ثم انني قد أنبأتكم من قبل أن
هذا الفصل كله نافل لا لزوم له ولا حاجة اليه . بالنسبة : الى أين
وصلت من حديثي ؟ ها ... نعم ... كنت أتكلم عن الرداء على الزى
الفرنسي !

طيب ! ان أحد أولئك الذين كانوا يرتدون الرداء الفرنسي قد
كتب حينذاك مسرحية « البريجادير » . كانت هذه المسرحية في زمانها
شيئاً رائعاً أحدث أثراً خارقاً : « مت يا دنيس ، فلن تكتب شيئاً خيراً من
هذا ، » كذلك صاح يقول بوتيومكين* نفسه . لقد أخرج الجميع من
خدرهم وكسلهم . تساءلت مواصلاً تأمل على ما يريد لي خيالي : « هل
يمكن أن يكون الناس منذ ذلك العصر قد سثموا القعود عن العمل ،

بالشعب ، فلم يرتدوا قفطاناً وانما خاطوا لأنفسهم رداءً باليه يكاد يشبه الرداء الذى يلبسه على المسرح ، فى الأوبرات الروسية الشعبية ، أبطال اسمهم أوسلاد، مأخوذون بحيياتهم اللواتى يُسَمَّين لودميلا ويضعن على رموسهن كوكوشنيك* . لا ، لا ، ان الزى الفرنسى كان يفهمه الشعب فى ذلك الزمان أكثر مما يفهم ذلك الرداء ، فالشعب يقول: « هذا سيد من الأشراف فليس يُعقل أن يرتدى قفطاناً » . وقد سمعت فى الآونة الأخيرة عن أحد مالكي الأطنان أنه أراد أيضاً أن يتحد بالشعب ، فارتدى

هو أيضاً « اللباس الروسى »* ليحضر اجتماعات المجالس الاقليمية فكان الفلاحون حين يرونه يقول بعضهم لبعض : « ما مجيء هذا الرجل المتكر إلينا ؟ » . ذلك رجل من مالكي الأطنان لم يتحد بالشعب .

قال لى شخص آخر فى ذات يوم : « - لن أتنازل أى تنازل . سأخلق لحتى عامداً وسأرتدى الرداء الأوروبى اذا لزم الأمر . سأصنع التشدد . سأكون السيد ، سأكون بخيلاً حيسوباً ، حتى لقد أعمد الى الظلم والسلب والاعتصاب عند الاقتضاء . فيزدادون احتراماً لى . وانما المهم ، كما تعلم ، أن يوحى المرء باحترامه دفعةً واحدة » .

قلت لنفسي : « - لكأنهم يستعدون لقتال أجانب . ما هذه الا نصيحة حرب » .

وقال لى ثالث ، وهو شخص محب والحق ، يقال : « - سوف أسجل

الحوادث الاليمية يطلق عليها أساتذة فلسفة الفن وعلم الجمال اسم « عنصر الفاجعة أو المأساة في الحياة » . ذلك كل شيء . فهل يجب على المرء ، لهذا السبب وحده ، أن يعيش منعزلاً عن جميع الناس ؟ لا . . . فانما ينبغي للمرء أن يعيش مع جميع البشر بغير استثناء أو أن يعتزل اعتزالاً كاملاً . ان نساءً ضعيفات وأطفالاً صغاراً قد قاسوا في أمكنة أخرى أهوالاً أشد .

لو قلت لمحدثي ذلك الكلام لكان يمكن أن يصيح قائلاً : « - رجباك ! ما حديثك هذا عن النساء الضعيفات والأطفال الصغار ! ان الجمعية يمكن أن تحكم على بالجلد بدون تعقل ، بدون سبب آخر غير توغل بقرة صغيرة في بستان شخص آخر ، كأن الأمر قضية من قضايا الدولة !

« - لا شك أن هذا سخف . القضية نفسها سخيفة ، تبث على النفور وتثير الاشتزاز ، حتى أن الحديث غير لائق . بارك الله فيهم : ألا فليضربوا جميعاً ! أنا لا شأن لي بالأمر ! » .

ولكنني من جهتي أراهن بكل ما تريدون على أن هذا الرجل الذي يناقشني ويعارض آرائي ما كان ليتلقى جلدة واحدة حتى ولو أمكن أن يصدر ذلك الحكم عليه . لأن المجلس سيقول بلسان رئيسه : « سنفرض عليه غرامة مالية أيها الأخوة ، لأنه سيد من السادة النبلاء حتى في هذه الحالة ؟ ولا كذلك نحن ، فنحن أناس ان كان لنا قفا فمن أجل أن نجلد بالسوط » ، كما نرى ذلك في كتاب شتدرين « صور من الأرياف » ، *

لا شك أن أحداً سيصيح قائلاً عند قراءة هذا الكلام : « - انه رجعي التفكير ! انه من أنصار عقوبة الجلد ! » . أؤكد لكم أن أحداً سيستخرج من كلامي أنني أنادى بعقوبة الجلد وأطريها وأثنى عليها .

وضجروا من السير مربوطين بأزمة يقودهم بها غيرهم ؟ لا أقصد
الأزمة الفرنسية وحدها حينذاك ، وأحرص على أن أضيف أننا ، بسبب
طيب سريرتنا وسداجة قلوبنا ، شعب سريع التصديق إلى أبعد الحدود .
مثال ذلك أن نكون جميعاً قاعدين عن العمل ، فإذا خيل إلينا على حين
فجأة أن أحداً قد قال شيئاً أو فعل شيئاً ، وأن فكرنا الشخصي ينكشف
ويتجلى ، وأن شاعراً يعرض لنا وعملاً يمثل أماننا ، اندفعنا واثقين وثبة
رجل واحد ، مقتنعين بأن الأمور مستسير وأن هذه هي البداية . تمر
ذبابة فنحسبها فيلاً . ماذا تريدون ؟ ان مرد ذلك إلى قلة الخبرة
والتجربة بحكم الشباب ، وإلى الجوع فوق ذلك . لقد بدأ هذا ، على
مقياس صغير طبعاً ، من قبل « البريجادير » ، وما يزال مستمراً حتى
هذه الساعة : وجدنا عملاً يشغلنا فأخذنا نصوت من فرط الحماسة .
ان الصراخ الطويل والحماسة الشديدة هما الشيء الرئيسى عندنا .
ولكننا بعد سنتين تفرق وتبعثر خافضى الرموس . ولكننا لا نكل أبداً ،
ولو كان علينا أن نستأنف مائة مرة .

أما الأزمة الأخرى فقد كان هنالك فى عهد فونفيزين ما يشبه
الاجتماع على احترامها وتقديسها ، وكان الناس يجدون هذه الوصاية
فاتنة أخاذة . صحيح أن الريائيين هم فى أيماننا هذه أيضاً قلة ضئيلة .
فان حزبنا التقدمى كله متعلق أشد التعلق بهذه الأزمة الأجنبية . ولكن
الايمان بأية أزمة أيامذاك قد بلغ من شدة الحماسة والامتداد أن المرء
يُدْهش كيف لم تنقل الجبال من أماكنها ، وكيف أن روايتى آلاون وذرى
بارجولوفو وأطواد فالدى قد بقيت فى مواضعها . صحيح أن شاعراً من
شعراء ذلك العصر قد قال * :

يقف على الجبال فتتشق الجبال
ويرمى الأبراج بيده فتجتاز السحاب

ولكن ذلك لم يكن فى اغلب الظن الا مجازاً •

وبهذه المناسبة يا أصدقائى : لاحظوا أننى لا أتكلم الا عن الأدب •
 فمن خلال الأدب انما أريد أن أدرس الأثر الحسن الذى أحدثته أوروبا
 فى وطننا شيئاً فشيئاً • حين يفكر المرء فى الكتب التى كانت تُطبع وتُقرأ
 حينذاك (قبل « مسرحية البريجادير » وفى زمانها) ، فانه لا يستطيع أن
 يحصى نفسه من شيء من الافتتان والزهو • ان عندنا الآن كاتباً من أبرز
 الكتاب ، هو زينة عصرنا ، يسمى كوزما بروتكوف * • ان العيب الوحيد
 فى هذا الكاتب هو تواضعه الذى لا سبيل الى فهمه : انه لم يطبع حتى
 الآن « أعماله الكاملة » • لقد نشر هذا الكاتب ، منذ بعض الوقت ،
 فى ركن « المتوعات » من مجلة « المعاصر » عملاً أدبياً عنوانه « دفتر
 جدى » • تصوروا ما عسى يكتبه هذا الجلد الذى عاصر كاترين ، وبلغ
 من العمر سبعين عاماً ، وكان على جانب عظيم من السمعة والبدانة ،
 وطاق العالم ، وشهد استقبالات البلاط ، وحارب فى أوتشاكوف ، فلما
 رجع الى أراضيه بعد ذلك كله أخذ يستعرض ذكرياته ! ان المادة
 لا بد أن تكون شائقة : ما أكثر الأشياء التى رآها كاتب ذلك الدفتر !
 فانظروا مع ذلك الى نواذر كالنواذر التالية هى كل ما ضمه دفتره •

جواب فكه للفارس مونتيازون : فى ذات يوم ، بحضور الملك ،
 اتجهت امرأة شابة جميلة جداً ، اتجهت بالكلام الى الفارس مونتيازون
 فسأله : « قل لى يا سيدى : أيهما مرتبط بالآخر ، أالكلب بالذنب أم الذنب
 بالكلب ؟ » فأجابها الفارس ، وكان حاضر البديهة سريع الرد ، أجابها
 قائلاً : « لا يُحظر على أحد يا سيدتى أن يمسك الكلب من ذنبه أو من
 رأسه ، • وقد 'سر' الملك بهذه الاجابة سروراً عظيماً ، فلم يفقه أن
 يأمر لصاحبها بمكافأة •

قد تظنون أنني أضللکم مازحاً ، وأن هذه خزعة من الخزعات ، وأن شيئاً من هذا لم يحدث في يوم من الأيام ! ولكنني أحلف لكم أنني أنا نفسي ، في طفولتي ، حين كان عمري عشر سنين ، قد قرأت كتاباً من عهد كاترين ، تُروى فيه النادرة التالية ، فحفظتها يومئذ على ظهر القلب من شدة افتتاني بها ، ثم لم أنسها بعد ذلك قط .

جواب فكه للفرس رووان : تعرفون أن رائحة فم الفرس رووان كانت كريهة جداً . ففي ذات مرة ، بينما كان الأمير دي كونديه ينهض ، قال الأمير للفرس « ابتعد أيها الفرس ، لأن رائحة فمك كريهة جداً » ، فسرعان ما أجابه الفرس بقوله : « هذه الرائحة ليست مني يا مولاي ، بل منك أنت ، لأنك نهضت » .

تخلوا هذا المالك من مالكي الأتيان : انه محارب قديم (وربما كان فاقداً أحد أعضائه) يختم حياته قرب امرأته العجوز ، بين ذرية كبيرة العدد ، وخدم أكبر عدداً من ذلك أيضاً ؛ وينهب في كل يوم من أيام السبت الى حمامات البخار فيظل يتعرق الى أن يغمى عليه . انه ، وقد وضع على عينيه نظارتين ضخمتين ، يروي أمثال هذه النوادر متلذذاً ، ويعدها حقيقة صافية ، ويكاد يحسبها واجباً من واجبات الخدمة . وما كان أقوى الايمان الساذج ، السائد حينذاك ، بأن أمثال هذه الأقاصيص أو الأنباء الأوروبية لاثقة ومفيدة ! « تعرفون أن رائحة فم الفرس رووان كانت كريهة جداً . . . » من ذا الذي يعرف ذلك ؟ في أي ركن بعيد من أركان اقليم تامبوف يهتم أحد بهذا ؟ ولكن الرجل الطيب لم يعبأ بأسئلة تبلغ هذا المبلغ من التجرد والتجاسر . انه يعتقد ، مؤمناً ايمان الأطفال ، بأن هذه « المجموعة من الأقوال الظريفة » معروفة في البلاط ، وهذا حسبه ! نعم ، صحيح أننا كنا في ذلك العهد تتمثل أوروبا بسهولة ، من الناحية المادية طبعاً . ولكن الأمور

لم تكن تتم من الناحية الروحية بغير اللجوء الى الشياطين . كان الناس يلبسون جوارب من حرير ، ويضعون على رؤوسهم باروكات شعر ، ويحملون على جنوبهم أسيافاً ، فيصبحون أوروبين بشمن بخص . ولكن لا شيء يكون في الواقع قد تغير : فان أجدادنا ، بعد أن يدعوا فارس رووان وشأنه (وكانوا لا يعرفون عنه الا أن رائحة فمه كريهة) ، وبعد أن يخلعوا نظاراتهم الضخمة ، كانوا يسيئون معاملة خدمهم ، ويسرفون في فرض سلطانهم على أهلهم ، واذا أبدى الجار شيئاً من غلظة جروء الى الاسطبل وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً ، بينا هم يزحفون على بطونهم أمام من هم أعلى منهم شأنًا وأرفع مقاماً . وكان الفلاح نفسه يفضل هذا . كانوا لا يحتقرونه بمقدار ما يحتقرونه الآن ، وكانوا لا يسمون عاداته بمقدار ما ندرونها الآن ، كانوا يعترفونه أكثر مما

التأثيرات الأوروبية الآتية من أعلى • فتلك الملابس التكرية كلها ، وتلك الأردية على الزى الفرنسى كلها ، وتلك الأكمام والباروكات والسيوف ، وتلك السيقان اليسرى المحبوسة فى جوارب من حرير ، وأولئك الجنود الذين يضعون على رؤوسهم شعراً مستعاراً ويضعون على أحيذيتهم مسماة على الطريقة الألمانية ، ذلك كله انما كان فى رأى خداعاً كبيراً ومكراً ذليلاً ، حتى ان الشعب كان فى بعض الأحيان يلاحظ ذلك ويفهمه • لا شك فى أن المرء يمكن أن يكون مشاكساً ومخادعاً وبريجاديراً مع بقائه مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فارس رووان هو « أطف اللطف » • ولكن ذلك لم يكن يزعج أحداً : فأنشال جفوزديلون يظلمون يضربون كما كانوا يضربون ، وفرسان رووان منا يكادون يُجلدون فى الاسطبل من قبل بوتيومكين ومنافسيه ، وأضراب مونتيازون يسرقون الأحياء والأموات ؟ والأيدى التى تزينها الأكمام والأقدام التى تلبس جوارب الحرير تظل تُنزل اللطمات والركلات على الرقاب والكلى ، وحاملوا ألقاب المركز بيننا يهرعون خفافاً الى استقبالات البلاط

مضحكين باقفيه رقابهم فى شجاعة *

الخلاصة أن أوروبا تلك كلها قد تلامت عندنا بسهولة مذهشة ، ابتداءً من سان بطرسبرج المدينة العجيبة التى لها تاريخ هو أغرب من تاريخ أية مدينة على وجه الأرض •

ولكن الأمر الآن لم يبق كما كان ، وقد انتصفت سان بطرسبرج لنفسها • ها نحن قد أصبحنا أوروبيين تماماً • الآن أصبح جفوزديلوف نفسه يبرهن على كياسة حين يكون عليه أن يضرب • انه يراعى قواعد اللباقة ، ويستحيل الى « بورجوازي » فرنسى ، ولن يلبث أن يؤيد بالنصوص ضرورة تجارة الرقيق ، كما يفعل أمريكى من الولايات

الجنوبية • والتأييد بالنصوص يهاجر الآن من الولايات المتحدة الى أوروبا • قلت لنفسي : « متى وصلت الى هناك فسأرى الأمر بعيني • فليس الخبر كالعيان ، وليس يتعلم الانسان من الكتب ما يراه بعينه » •

بالمناسبة : هناك كلمة أخيرة عن جفوزديلوف : لماذا يُسند فونفيزين أبرز جملة من جمل مسرحيته « البريجادير » ، لماذا يُسند هذه الجملة لا الى صوفيا الناطقة بلسان الميول النيلة والنزعات الانسانية ، بل الى تلك المرأة الفنية ، زوجة البريجادير التي يرسم لها هو نفسه

صورة تبلغ من الغباء والرجعية أن جميع الكلمات والسخافات التي تقولها تبدو كأنها ليست صادرة عنها بل عن شخص مختبئ وراءها ؟ ومع ذلك نرى المؤلف ، حين وجب قول الحقيقة ، لا يكل أمر القيام بهذه المهمة الى صوفيا بل الى امرأة البريجادير هذه • لقد جعل من هذه المرأة لا امرأة غبية بلهاء ، بل امرأة خبيثة شريرة • ومع ذلك يبدو أنه كان يخشى بل يرى أن من المستحيل ، من الناحية الفنية ، أن تخرج عبارة كهذه العبارة من فم آنسة أحكمت تربيتها وتنشئتها ، واعتقد أن الأقرب الى الطبيعة أن تنطق هذه الجملة مخلوقة بلهاء • هذا أمر شائق جداً ، لا لشيء الا لأن هذا الكلام قد كُتب بدون أية نية خاصة أو فكرة معينة ، وإنما كتب ببراءة وسذاجة ، بل ولعله كتب عن سهو وغفلة • تقول زوجة البريجادير لصوفيا :

« ... كان في السرية الأولى من كسيتنا نقيب اسمه جفوزديلوف . وكانت امرأته شابة ولطيفة • ففي بعض الأحيان ، أثناء نوبة غضب ، ولا سيما اذا سكر ، كان يضربها ضرباً مبرحاً - هل تصدقين يا عزيزتي ؟ - بلا أي سبب • طبعاً ... ذلك أمر لا يعنينا ، ولكننا كما نبكي حين ننظر اليها » •

صهفا : « دحماك با سسدتى ، كفت عوز دوانة أمدو تفلان

• الانسانية •

زوجة البريجادير : « أرأيت يا عزيزتى الطيبة ؟ أنت لا تريدان أن تسمى عن هذا الضرب المبرح سماعاً ، فكيف كانت زوجة النقيب تحتمله عذاباً فى جسمها ؟ » •

هكذا ترى امرأة بسيطة تفهم فتاة متحذقة رفيعة التربية رقيقة العاطفة • ذلك عند فونفيزين جواب سريع مدهش ، وليس لديه ما هو أقرب منه الى الصدق ، وأدنى الى الانسانية ... وأبعد عن التوقع • وما أكثر ما يوجد حتى الآن من هؤلاء التقديميين بين رسلنا المندفعين الذين تفتنهم عاطفتهم الرقيقة ! ولكن أعجب ما فى الأمر أن أمثال جفوزديلوف ما يزالون يضربون نساءهم ، وربما كانوا يضربونهم بمزيد من الهممة والنشاط والحماسة أيضاً • يميناً ان هذا لهو الواقع ! يقال ان الناس فى الماضى كانوا يمارسون هذه العادة من قيل التذوق ، من قيل التعلق • « فمن أحسن الحب أحسن القصاص » ؛ حتى ان النساء ، فيما يقال ، كان يُقلقهن أن لا يُضربن : فما لم يكن ضرب لا يكون حب • ولكن ذلك كله فطرى ، بدائى ، أولى ، •

ولكن هذا قد تطور أيضاً • ان جفوزديلوف يضرب الآن من باب التقيد بالمبدأ تقريباً ، ولأنه غبى أيضاً ، أى لأنه رجل من رجال العهد البائد يجهل العادات الجديدة • ان العادات الجديدة تتيح تدبر الأمر على نحو أفضل دون اللجوء الى الضرب • واذا كنت لا أفيض فى الكلام على جفوزديلوف ، فلأن الكتاب ما يزالون يكتبون عنه عبارات زاخرة بالعمق والروح الانسانية ، ويبلغون من ذلك حدّاً اضجار الجمهور وبعث السأم والملل فى نفوس الناس • ورغم جميع المقالات ، فان جفوزديلوف فيه من الحيوية ما يكاد يجعله خالداً • نعم ، انه حى

معافى ، وثمل شعبان • هو الآن تنقصه ذراع وساق ؛ وهو ، مثل الكابتن كوشكين ، « قد سفح دمه ان صح التعبير ، • ومنذ زمن طويل كفت زوجته عن أن تكون « شابة ولطيفة ، • لقد شاخت • ان وجهها الخاسف الشاحب تخذده التجاعيد ويفضنه الألم • ولكن يكفى أن يمرض زوجها اللفظ حتى تلازمه فما تفارقه ، وحتى تقضى لىالى طوالاً مساهرة لا يغمض لها جفن ، وحتى تواسيه وتعزيه وتشد أزره وتسكب بسببه دموعاً سخينة كاوية ، وحتى تناديه بقولها : يا فارسى اللطيف ، يا صقرى الساطع ، يا قائد الجميل ، • صحيح أن هذا يصدم المرء من جهة • ولكن عاشت المرأة الروسية من جهة أخرى ! ليس فى عالمنا الروسى شىء أفضل من حبها ، ليس فيه شىء أفضل من هذا الحب الزاخر برحة لا نهاية لها ولا حدود • أليس هذا صحيحاً ؟ لا سيما وأن جفوزديلوف لا يضرب الآن زوجته دائماً قبل أن يشرب • فهو يراعى قواعد الكياسة ، حتى لقد يقول لها فى بعض الأحيان كلمة طيبة • لقد شعر فى شيخوخته بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها • انه حيسوب ، انه « بورجوازى » ، واذا اتفق أن كان ما يزال يضربها ، فانه لا يضربها الا وهو سكران ، أو حين يستبد به الضجر فتستيقظ فيه العادة القديمة • وهذا تقدم ، تقدم يعزى المرء ، شتم أم أبتم ! •••

نعم ، نحن الآن متعزّون تماماً ، متعزّون بأنفسنا • هل يضيرنا أن ننظر حولنا فلا نرى أن كل شىء لامع كثيراً حتى الآن ؟ اتنا فى مقابل ذلك نبلغ من الكمال ومن التمدن والتحضر ومن كوننا أوروبين أن الشعب يشعر بغثيان حين ينظر إلينا • ان الشعب ينظر إلينا الآن نظرتة الى أجنب ، ولا يفهم شيئاً من أقوالنا ، ومن كتبنا ، ومن أفكارنا ••• وذلك كله تقدم • هو تقدم ، شتم أم أبتم • ونحن الآن نحترق الشعب والمبادئ الشعبية احتقاراً يبلغ من العمق أننا نحس باشمئزاز لم يكن

معروفاً قبل اليوم حتى فى عهد أصحابنا موتبازون ورووان - وذلك تقدم آخر . وفى مقابل هذا ، ما أعظم ثقتنا التمدينية ، وما أشد القطع والجزم والحسم فى اجابتنا عن أخطر المسائل من فوق : « لا شعب ولا أرض . ما القومية الا نظام معين من أنظمة الضرائب . النفس صفحة بيضاء ، النفس شمع تستطيع أن تصنع منه على الفور انساناً حقيقياً مقبوداً . على غرار المثال الشامل . يكفي أن تستعمل ثمرات الحضارة الأوروبية والمدنية الأوروبية وأن تقرأ كتابين أو ثلاثة . . . وفى مقابل ذلك ، ما أعظم هدونا وما أعظم أبهتنا فى هذا الهدوء ! ذلك أننا لا نشك فى شئ ، فقد حللنا جميع المسائل . ما أشد ما شعرنا به من اكتفاء بالنفس هادى . حين جلدنا تورجنيف ، مثلاً ، الذى تجرأ أن يشك فىنا ، ولم يكتف بشخصياتنا ذات الفخامة والجلال ، ورفض أن يتخذها مثلاً أعلى ، وأراد أن يسمى الى ما هو أفضل . . . الى ما هو أفضل منا . . . يا رب السماء ! هل على وجه الأرض كلها أناس أحسن منا وأبعد عن الخطأ وأكثر عصمة من الزلل ؟ وقد اتبناه وقرعناه أيضاً بسبب شخصية بارازوف* ، الانسان القلق المغموم (دلالة على أنه ذو قلب كبير) ، رغم كل نزعة العدمية . حتى لقد جلدنا تورجنيف بسبب شخصية المرأة كوكشينا* ، هذه القملة التقدمية التى استخرجها تورجنيف من الواقع الروسى ليظهرنا عليها ويرينا اياها . ثم اتهمناه أيضاً بأنه يعادى تحرير المرأة . فهذا كله تقدم . . . هو تقدم ، شتم أم أبيتيم ! نحن الآن ننظر الى الشعب من فوق ، ونشعر بزهو كزهو عريف فى الجيش ، كزهو فارس من الفرسان المرتزقة الذين يعملون فى جيش بلاد أخرى ويحسبون أنهم يحملون اليها المدنية والحضارة . انه لمنظر يسر الانسان أن يراه : نضع أيدينا على خواصرنا ، ونلقى نظرة تحد واستفزاز ، ونمثل دور مصارعى الثيران ونقول باصقين : « ماذا

تستطيع أن تعلمنا أيها الموجيك (الفلاح) الشعبي الأخرق ؟ ان المعنى
الرجعي ليس في حقيقة الأمر شيئاً آخر غير قاعدة الضرائب ا ، ، ألا
انه لا يحسن بنا أن نستسلم للأوهام !...

آ ... بالناسبة ... لنفترض ، لحظة ، يا أصدقائي ، أنني قد
ختمت رحلتي وأننى عدت الى روسيا . دعونى أقص عليكم قصة
صغيرة . فى ذات مرة ، هذا الشتاء ، تناولت جريدة من الجرائد . انها
من أكثر الجرائد تقدمية . فاذا أنا أقع على خبر من موسكو . العنوان :
« من بقايا الهمجية أيضاً ، (أو شيء من هذا القيل . العنوان حى جداً
على كل حال . يؤسفنى أن الجريدة ليست تحت بصرى) . ففى ذلك
المقال يروى أنه فى صباح من أصباح الحريف وقعت الأنظار على عربية
تركبها امرأة من الحاطبات ، سكرى ، تلبس ثياباً مزركشة ، وتزين
بأشرطة ملونة ، ويصدح صوتها بالغناء . والحوذى سكران أيضاً ،
يلبس هو الآخر ثياباً مزركشة ، ويدندن أغنية . والحصان نفسه مزين
مجمّل كذلك . ولكننى لا أدرى أهو سكران أم لا . أغلب الظن أنه
سكران . والحاطبة تحمل صرّة كانت ذاهبة لمرضها على أهل العروس
بعد ليلة الزفاف ، وكانت سعيدة بطبيعة الحال . ومعروف أن الصرّة تضم
اللباس الخفيف الذى اعتاد الناس فى الطبقات الشعبية الدنيا أن يظهروا
عليه أهل العروس غداة الزفاف . وكان الناس يضحكون من منظر
الحاطبة : كان ذلك موضوع مزاح وتندر . والجريدة تستهجن هذه
الهمجية الفظيعة وتستكرها استنكاراً شديداً ، وتعدّها « بقية » من بقايا
الماضى ما تزال موجودة رغم أنواع التقدم التى حققتها الحضارة !
لا أكنتمكم يا سادتى أنني انفجرت ضاحكاً . لا يذهبن بكم الظن الى
أننى أدافع عن أكل لحم البشر ، وعن اللباس الخفيف ، وعن الحجب ،
وما الى ذلك . فهذا كله شر ، هذا كله ابتعاد عن الحشمة ، هذا كله

شذوذ غريب ، على الطريقة السلافية . . . أنا أعرف هذه الحقيقة ، أنا موافق على صدق رأيكم ، رغم أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله كان يمارس بدون سوء نية ، بل وكان يمارس تكريماً للعروس وتمجيذاً لها ، كان يمارس بقلب سليم وبساطة تامة ، لجهل الناس بأن هناك عادات أفضل ، عادات أكرم وأليق ، عادات أقرب الى المدنية الأوروبية . لا ، وإنما إنا ضحكنا لشيء آخر . لقد تذكرت ، على حين فجأة ، سيداتنا ومتاجر النوفوته . صحيح أن سيداتنا المتمدنات أصبحن لا يرسلن الى أهلهن ألبسة خفيفة . ولكن اذا أردن أن يوصين بثوب مثلاً ، فما أبرع فنهن وما أكبر حذقهن في وضع شيء من القطن في مواضع معينة من ثوبهن الأوربي الفاتن ! لماذا القطن ؟ هو طبعاً للأناقة ، للجمال ، من أجل أن يظهرن . . . وليس هذا كل شيء . ان بناتهن ، هذه المخلوقات البريئة اللواتي هنَّ في السابعة عشرة من العمر ، ما ان يتخرجن من المدرسة الثانوية ، حتى يعرفن القطن أيضاً ، وحتى يعرفن قائده ، ويعرفن أين يجب أن يوضع ، ويعرفن الهدف الذي يستعمل هذا كله من أجله . . . قلت لنفسى وأنا أضحك : « هل هذا الاهتمام كله وهذا الاحتفال كله ، وهذه العناية كلها بتدوير الجسم بالقطن ، هل هذا كله أقرب الى الطهر والأخلاق والعفة من ذلك اللباس الشقي الذي يُرسَل الى الأهل على ثقة بريئة واقتناع ساذج بأن في هذا التصرف حشمة وأخلاقاً ؟ » .

صدقوا ، يا أصحابي ، أننى لن استطرد استطراداً طويلاً لأبيّن أن هذه المدنية ليست هي التطور ، بل وأنها في الأزمنة الأخيرة قد كانت في أوروبا عائقاً يعوق كل تطور بالسوط والسجن . لن أبيّن أن الناس لدينا يخلطون خلطاً فاحشاً بين هذه المدنية وبين قوانين التطور السليم الواقعي ، وأن هذه المدنية قد أصبحت في الغرب نفسه مدانة منذ زمن

طويل ، وأن أصحاب الأملاك وحدهم هم أنصارها انقاذاً لأموالهم ، رغم أن جميع الناس هنالك يملكون أو يتوقون الى أن يملكوا . لا ولن أبين أن النفس الانسانية ليست صفحة بيضاء أو عجيبة يمكن أن تشكل منها انساناً نموذجاً ، وأن ذلك يتطلب الطبيعة أولاً ، والعلم ثانياً ، ويتطلب بعد ذلك حياة مستقلة لا تعوقها عوائق ، حياة قريبة من الأرض ، ويتطلب ايمان الأمة بقواها القومية الخاصة . لا ولن أزعم أنني أجهل أن التقدميين بيننا (ولكن لا جميعهم بل بعضهم) لا يستحسنون وضع القطن في أثواب النساء وانما هم يستهجنونه استهجانهم الحجب الخفيفة . لا . . . فان كل ما أريد أن أقوله هو ما يلي : ان مقالة الجريدة لم تستكر الحجب ولم تلعنها بلهجة بريئة ، انها لم تقتصر على أن تقول ان هذا همجية ، وانما كان واضحاً أنها تندد بالهمجية الشعبية ، القومية ، البدائية ، التي تتنافى تنافياً فاضحاً مع الحضارة الأوروبية التي أخذت بها طبقاتنا الراقية . ان مقالة تلك الجريدة تنطرس وتتظاهر بأنها تجهل أن النقاد العتاة أنفسهم ربما كانوا أسوأ ألف مرة ، وأتانا لم نزد على أن

ثم انتهى أتبه عن هدفى • نعم • ذلك ناشئ عن أتنى قفرت من الأجداد الى الأحفاد قفزاً مسرفاً فى السرعة • وهناك فواصل • تذكروا تشاتسكى* • ليس تشاتسكى سلفاً ماكراً على سذاجة ، وليس خلفاً مغروراً يمثل دور مصارع الثيران منفصلاً عن كل ماعدا • ان تشاتسكى نموذج خاص جداً بروسيا الأوروبية ، نموذج جذاب متحمس شغوق يدعو دائماً لروسيا الأوروبية ، وللاأرض ، ولكنه مع ذلك يسافر الى أوروبا حين يريد أن يلتمس

• ملاذا للعاطفة الجريحة المهانة •

هو ، باختصار ، نموذج لا فائدة منه البتة فى هذه الأيام ، ولكنه كان فى الماضى مفيداً جداً • انه رجل ينشئ عبارات ويدبج جملاً ، يلقي أحاديث ويقول خطباً ، ولكنه يفعل ذلك كله صادقاً مخلصاً ، ويقلقه أنه لا فائدة منه ولا نفع له • انه ينبعث فى الجيل الجديد ، ونحن نؤمن بالقوى الفنية ، ونؤمن بأنه سيعود الى الظهور قريباً ، ولكنه لن يعود عودة رجل شديد الحمياً مندفع العاطفة ، كما فى حفلة فاموسوف الراقصة ، وانما سيعود عودة منتصر فخور قوى رقيق محب • وميعترف عدا ذلك بأن ملاذ العاطفة الجريحة المهانة ليس فى أوروبا ، بل قد يكون تحت أنفه • سوف يجد مهمة يقوم بها ، وسوف يشرع فى تحقيق هذه المهمة • وبهذه المناسبة : أنا على يقين من أن عندنا الآن شيئاً آخر غير أولئك « السامودور »* •

أنا واثق ، أنا أدعى الانسان الجديد قد وُلد • • • ولكننا سنتحدث عن هذا الأمر مرةً أخرى • وانما أريد أن أقول كلمتين آخرين عن تشاتسكى • ان هناك نقطة واحدة تربكنى وتحيرنى • لقد كان تشاتسكى رجلاً على جانب عظيم من الذكاء • فكيف أمكن أن

لا يجد مثل هذا الرجل عملاً يقوم به ؟ ذلك أنه لا هو ولا أضرابه قد وجدوا عملاً يقومون به خلال جيلين أو ثلاثة أجيال • تلك واقعة ، ولا اعتراض على واقعة • ولكن يخيل الى أن في امكاننا أن نطرح سؤالاً من باب حب الاطلاع • انني لا أفهم أن لا يستطيع انسان ذكي ، في أى وقت من الأوقات ، وأية كانت الظروف ، أن يجد عملاً يقوم به • يقال ان هذه النقطة محل خلاف • ولكنني في قرارة قلبي لا أصدق هذا الكلام • ان الانسان يملك الذكاء من أجل أن يبلغ ما يريد بلوغه • اذا كنت لا تستطيع أن تقطع فراسخ ، فاقطع مائة خطوة على الأقل ، فذلك يظل أفضل من أن لا تقطع شيئاً البتة ، ان ذلك يقربك من الهدف • فاذا اصررت على أن تصل الى الهدف بخطوة واحدة ، لم يكن ذلك ذكاءً في رأيي ، حتى ليتمكن أن يوصف بأنه وصولية • ان العمل لا يحلو لنا • اننا لم تعود أن نسير خطوة خطوة • الأفضل عندنا أن نصل الى الهدف بخطوة واحدة أو نصير الى ما صار اليه ريجولوس • تلكم هي الوصولية في رأيي • على أن تشاتسكى قد أحسن صنعا حين انسحب الى أوروبا • ولقد كان في وسعه أن ينتظر قليلاً وأن يمضي لا الى الغرب بل الى الشرق • ولكن الناس في بلادنا يحبون الغرب ، وهم جميعاً يمشون الى الغرب متى اضطروا الى التطرف • وأنا أيضاً أذهب الى الغرب • • ولكن شأنى شأن آخر ، • لقد رأيتهم جميعاً هناك • ليس يحصى عددهم • وكأنهم جميعاً ينشدون • ملاذاً للعاطفة الجريحة المهانة • • أو هم على الأقل ينشدون شيئاً ما • فى أوانٍ لاحق على أوان حفلة فاموسوف الراقصة ، تكاثر جيل تشاتسكى من الجنسين فى الغرب تكاثر رمل البحر • وليس أمثال تشاتسكى بالوحيدى : لقد ترك الجميع موسكو الى الغرب • ما أكثر أمثال ريتلوف* هناك الآن ، وما أكثر أمثال سكالوزوبوف ، الذين تركوا الخدمة وأرسلوا الى مدن المياه المعدنية باعتبارهم كسحاء ! ان

ناتاليا ومتريفنا وزوجها أعضاء دائمون هناك • وفي كل سنة تُنقل الى

هناك ملكة تتنقل بين

أخرى وبقي في مكانه ، ناذراً نفسه للبلاد ، للوطن ... يستحيل عليك أن تقاربه الآن ، انه لن يرضى الآن أن يستقبل فاموسوف في حجرة المدخل من منزله : « هما جاران في الريف : والناس في المدينة لا تحييهما » • ان مولتساليين منهمك في الأعمال ، وقد وجد عمله • هو الآن في بطرسبرج ... وقد نجح • « انه يعرف روسيا ، وروسيا تعرفه » * • نعم ، انها تعرفه جيداً ، وستظل تذكره زمناً طويلاً • حتى انه في هذه الأيام أصبح لا يلتزم الصمت • بالعكس : انه يتكلم بغير انقطاع • ما على الناس الا أن يسحبوا السلم بعده •

ولكن حسينا ما قلناه عنه • لقد ذكرت أنهم جميعاً ينشدون في أوروبا ملاذاً يهدى نفوسهم ، ولقد أظن حقاً أن حالهم هناك أحسن • ولكن ما أشد القلق الذي يراه المرء في وجوههم ! ... يا لهم من تعساء ! ما أقوى الاضطراب الدائم المستمر في نفوسهم ، وما أكثر ما يتحركون تحركاً مرضياً مغموماً مهموماً ! ... هأت ذراهم يسكرون مسكين الدليل بأيديهم ، ويسارعون في كل مدينة الى مشاهدة طرائفها كأنهم يقومون بواجب ، كأنهم ما يزالون في خدمة وطنهم • انهم لا يغفلون قصراً ذا ثلاث نوافذ ، ما دام مذكوراً في الدليل ، ولا يغفلون داراً من

وسامهم الشديد • ثم ينصرفون مدهوشين من أن شيئاً من ذلك لم يحدث • ان حالتهم لا تشبه حالة الاستطلاع النافع الآلى ، حالة السائحين الانجليز الذين ينظرون فى الدليل أكثر مما ينظرون الى الطرائف ، ولا يتوقعون شيئاً مدهشاً ، وانما هم يقتصرون على التأكد من أن الشيء الذى يرونه موصوف فى الدليل على هذا النحو حقاً ، ويقتصرون على التأكد من علوه أو وزنه • لا • • • ان استطلاعنا نحن استطلاع عجيب ، استطلاع عصبى ، حار ، عنيف ، عدا أنه مقتنع سلفاً بأنه لن يحدث شيء قط ، الى أن تمر ذبابة طبعاً ، فمتى مرت ذبابة عاد يستيقظ • • • لست أتحدث الآن الا عن الأشخاص الذين أوتوا فكراً • أما الآخرون فلا داعى الى الاهتمام بهم : أسأل الله أن يحمى الجميع • لا ولا أنا أتحدث عن أولئك الذين استقر بهم المقام فى الغرب ، فسوا لغتهم ، وأخذوا يصيخون بأسماعهم الى أقوال الكهنة الكاثوليك •

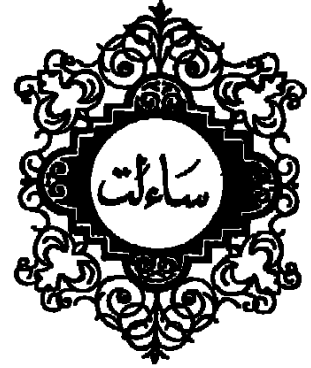
مهما يكن من أمر ، فاليكم ما يمكن أن يقال عن جملة الناس : اتنا متى اجتزنا الحدود أصبحنا تشبه شيئاً عجيباً تلك الكلاب الصغيرة البائسة التى تركض باحثة عن أصحابها • ولكن لعلكم تحسبون أننى أسخر ، وأننى أتهم أحداً : « فى هذه اللحظة ، بينما • • • النخ • • • فقد أصبحتم فى الخارج ! المشكلة الزراعية تطرح ، وأنتم الآن فى الخارج ! النخ النخ ! ، لا ، لا ، لا ، اننى لا أتهم أحداً البتة ! ومن أنا حتى أتهم ؟ أتهم بماذا وأتهم من ؟ « تكون سعاداء لو عملنا شيئاً ، ولكن لا يوجد شيء نعمله ؟ واذا وُجد شيء فانه يُعمل بدوتنا • الأماكن مشغولة ، ولا أمل فى شغور أماكن • فعلام نحشر أنوفنا حيث لا نطلب منا ذلك ؟ ، ذلكم هو الانهزام • وكفى الآن • اتنا نعرف هذا الانهزام على ظهر القلب •

ولكن أُراني أندفع وأتجسس ! أين اتسع وقتي لأن أرى روسيين
 في الخارج ؟ ذلك أننا ما زلنا على الحدود ... اللهم الا أن نكون قد
 اجتزناها ؟ نعم اجتزناها حتى لقد تجاوزنا برلين ودرسدن وكولونيا •
 الحق أنني ما زلت في القطار • ولكن أماننا محطة آيدتكونن ،
 واركولين ، ثم ندخل فرنسا • وباريس ، باريس التي كنت أريد الكلام
 عنها ثم نسيتهما ؟ لقد أسرفت في التأمل في أوروبا الروسية • هذا شيء
 يغتفر للمرء حين يكون ذاهباً بنفسه لزيارة أوروبا الحقيقية • ولكن علام
 الاستغفار ؟ ان هذا الفصل الذي كتبته زائد نافل •

الفصل الرابع

أمور غير نافلة بالنسبة إلى مسافرين

حل نهائي لهذا السؤال : « هل الفرنسي محروم من العقل حقاً ؟ »



نفسى قائلاً وأنا أنظر الى أربعة مسافرين
فرنسيين ركبوا القطار منذ قليل : « غريب ...
لماذا يكون الفرنسي محروماً من العقل ؟ » • ان
هؤلاء المسافرين الذي ركبوا القطار منذ هنيهة هم
أوائل من لقيت من الفرنسيين على أرض وطنهم ، عدا رجال الجمرک الذين
تركناهم منذ قليل في اركولين • لقد كان رجال الجمرک لطافاً مهذبين
جداً ، برهنوا على سرعة في انجاز العمل ، وقد عدت أركب القطار مسروراً
كل السرور بديايتي في فرنسا • حتى محطة اركولين ، لم تكن حجرتنا
بالقطار ، وهي حجرة تتسع لثمانية أشخاص ، لم تكن تضم الا اثنين هما
أنا ورجل سويسرى ، بسيط متواضع ، متوسط السن ، محدث بارع لم
أقطع عن الثروة معه خلال ساعتين • وها قد أصبحنا الآن ستة ،
فما كان أشد دهشتي حين رأيت صاحبى السويسرى يصمت فجأة حين
ركب الرفاق الجدد ، فأصبح لا ينطق بكلمة • أردت أن استأنف حديثنا
السابق ، ولكنه أسرع يقطع الحديث محاذراً ، وأجابنى اجابة من يريد
التهرب من الكلام ، وذلك بلهجة جافة توشك أن تكون خشنة ، ثم التفت

نحو النافذة يتأمل منظر الطبيعة • وما هي الا دقيقة حتى أخرج من جيبه دليله الألماني فاستغرق في قراءته • فتركه وشأنه ، وانصرف باهتمامى صامتاً الى رفاقنا الجدد • انهم أناس يثيرون الاستغراب • كانت أيديهم فارغة ، فهم لا يشبهون المسافرين فى شيء • ليس معهم صرة واحدة وليس فى ملابسهم ما يدل أسير دلالة على أنهم سائحون • كانوا جميعاً يرتدون رديجوتات متهرئة رثة كالتى نراها على أتباع الضباط من الجنود أو حتى على خدم سادة من الريف ، ولكنها أفضل منها قليلاً • وكانت قمصانهم وسخة ، وكذلك كرافاتهم ذات الألوان الصارخة • وكانت تحيط بغنق واحد منهم بقية منديل حريرى من تلك المناديل التى لا تترك قط فتتشرب رطلاً من الدهن بعد التصاقها بجسم صاحبها مدة خمسة عشر عاماً • وكان لكمي هذا الشخص نفسه ذرآن من زائف الماس بحجم بندقة • على أن وضعهم جمعاً كان فيه شيء من غطرسة • وهم يظهرون فى سن واحدة - حوالى خمسة وثلاثين عاماً - كما أنهم يتشابهون كثيراً رغم اختلاف وجوههم ، فكل منهم مشدود السحنة ، ولكل منهم لحية صغيرة تحت الشفة السفلى • ان المرء يلاحظ أن هؤلاء الناس قد عانوا أجوالاً متقلبة كثيرة ، فاكسبوا الى الأبد هيئة جادة لكنها شرسة • وقد بدا لى أيضاً أنهم يعرف بعضهم بعضاً ، ولكنى لا أتذكر أنهم تبادلوا كلمة واحدة ! وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظوننا أنا والسويسرى ، فانما هم ينظرون من خلال النافذة باصرار متصل ، ويصفرون فى أثناء ذلك باهمال وقلة اكراث • أشعلت سيجارة ، وأخذت أتم النظر فيهم وأتساءل : « أى نوع من الناس يمكن أن يكون هؤلاء ؟ لا هم عمال ولا هم بورجوازيون • أتراهم عسكريين محالين على التقاعد ، أو شيئاً من هذا القيل ؟ • على أن أمرهم لم يكن يعنينى كثيراً • وما هي الا عشر دقائق حتى نزلوا واحداً بعد آخر فى أول محطة تالية •

وأغلق الباب واستأنف القطار سيره ! ان الؤقات قصيرة جداً على هذا الخط ، لا تدوم الا دقيقتين أو ثلاث دقائق فى أكثر تقدير • والقطار يجرى بسرعة رائعة حقاً •

وما ان صرنا وحيدين حتى أسرع السويسرى يطوى كتابه ويضعه جانباً ، ويرمقنى بنظرة ارتياح وقد ظهر عليه أنه يرغب فى استئاف الحديث •

قلت وأنا أتأمله مستطلعاً :

— لم يبق هؤلاء السادة مدة طويلة •

فقال :

— ليست المسافة التى يجب عليهم أن يقطعوها طويلة : من محطة

الى المحطة التى تليها •

— أأنت تعرفهم ؟

— هم ؟ انهم من رجال الشرطة •••

فسأله مدهوشاً :

— كيف ؟ من رجال الشرطة ؟ أية شرطة ؟

— لاحظتُ فعلاً منذ قليل أنك لم تحزر ذلك •

سأله وأنا ما أزال أرفض أن أصدقه :

— أيمكن أن يكونوا جواسيس حقاً ؟

— نعم • ومن أجلسنا انما ركبوا القطار •

— أأنت واثق من ذلك ؟

— لا يخالجنى فى هذا أدنى شك • سبق أن قطعت هذه المسافة

مراراً • وقد أشير لهم الينا فى الجمرك أثناء النظر فى جوازات السفر ،

وذكرت لهم أسماءنا ، النخ • فركبوا ليرافقونا •

- ولكن فيم يرافقوننا وقد رأونا وانهى الأمر • ألم تقل انهم قد أشير لهم الينا فلاحظونا ؟

- نعم ، وذكرت لهم أسماؤنا • ولكن ذلك لا يكفي • وهم الآن قد دققوا النظر فينا تفصيلاً : الوجه ، الملابس ، حقيبة السفر ، مظهرنا كله • لقد لاحظوا حتى أزرار أكمامنا • وأنت قد أخرجت علبة سيجاراتك ، فلم يفتهم أن يلاحظوها • الخلاصة ••• لقد لاحظوا وسجلوا في ذاكرتهم أكبر عدد ممكن من التفاصيل • فمتى اتفق أن تهت في باريس أو غيرت اسمك (اذا كنت مشبوهاً) ساعدت هذه التفاصيل الى الاهتداء اليك أو القبض عليك • لقد أرسلت هذه التفاصيل برقياً الى باريس • وهناك يُحتفظ بها للطوارئ • هذا الى أن أصحاب الفنادق مجبرون على أن يسجلوا أدق الصفات الخاصة ، المتصلة بالأجانب الذين ينزلون فنادقهم •

سألته مرةً أخرى وأنا ما أزال ذاهلاً بعض الدهول :

- ولكن لماذا كان عددهم أربعة ؟

- أوه ! انهم هنا كثير ! لعل عدد الأجانب في هذه المرة لم يكن كبيراً ، فلولا ذلك لتوزعوا على عربات القطار •

- ولكن لا حظ أنهم لم يتأملونا البتة ، وانما كانوا ينظرون الى الخارج من خلال النافذة •

- لا تخف ••• لقد دققوا في كل شيء ••• ومن أجلنا انما ركبوا القطار •

قلت أحدث نفسي : « هيء هيء ! ويقولون « ان الفرنسي محروم من العقل ! » • اننى لأخجل أن أعترف بذلك • لقد نظرت الى السويسرى خلصة وأنا في شك من أمره :

« ألا يمكن أن تكون متواطئاً معهم يا رفيق ، ألا يمكن أن يكون غرضك تضليلي ؟ ، ، ذلك ما خطر ببالي ، ولكنه لم يخطر ببالي الا لحظة قصيرة ، أؤكد لكم وكان هذا الحاطر سخيلاً غير معقول . ولكن ما حيلتي ؟ ان المرء يفكر رغماً عنه .

لم يخدعني السويسري . ففي الفندق الذي نزلته سرعان ما سُجِّلَت صفاتي تفصيلاً ، ثم أُرسلت الى من يجب ارسالها اليه . وفي وسعك أن تستنتج من شدة التدقيق في ملاحظة صفاتك بغية تسجيلها ، أن حياتك كلها في الفندق بعد ذلك ، وسائر ما ستقوم به من أعمال وما ستخطوه من خطوات مهما يكن يسيراً ، سوف يلاحظ وسوف يسجل على نحو دقيق . على أنني لم أضايق كثيراً في أول فندق نزلته ، فقد سُجِّلَت صفاتي دون أن أقول كلمة واحدة ، عدا الاجابات الخطية عن الأسئلة التي يتضمنها دفتر السجل ، وقد دوَّنتها بنفسى : الهوية ، البلد الذي وصلت منه ، هدف الرحلة ، الخ . ولكن ، في الفندق الثاني الذي نزلته بعد ثمانية أيام قضيتها بانجلترا ، حين لم أجد غرفة في « فندق كوكبير » ، عمد صاحب الفندق الى طريقة أصرح كثيراً . كان هذا الفندق الثاني يسمى « فندق الأباطرة » ، ويتصف جوّه بأنه عائلي من جميع النواحي . كان أصحابه انسانيين ظييين حقاً ، وهما رجل وزوجته متقدمان في السن ، يفيضان لطفاً وذوقاً في معاملة نزلاء الفندق ، ففي المساء من يوم وصولي رجعتي صاحبة الفندق ، حين لقيتني في الدهليز ، أن أدخل الى المكتب . وكان زوجها هناك . ولكن كان واضحاً أنها هي التي تتولى ادارة الفندق .

بدأت تقول بلطف وأدب :

— معذرة يا سيدي ، ولكن لا بد لنا من تسجيل بيان عنك .

قلت :

– البيان عندكم ... فقد أعطيتكم جواز سفرى •

– نعم ، ولكن ... ما هى صفتك ؟

صفتى ؟ هذا أمر غامض طالما ساءنى • ولكن ما عساي أكتب ؟
مسافر ؟ ان كلمة مسافر تعوزها الدقة ... أكتب كلمة « أديب » ؟
انهم لن يقيموا لى عندئذ أى وزن ، ولن يولونى أى اعتبار •

قالت صاحبة الفندق :

– أوثر لك أن تكتب أنك « مالك أطيان » ، ما رأيك ؟ هذا
أفضل •

فقال زوجها مؤيداً ومحبذاً :

– نعم نعم ، هذا أفضل •

– والآن ما هى الغاية من مجيئك الى باريس ؟

– السياحة طبعاً !

– هم ... نعم ... « مشاهدة باريس » • اسمح لى يا سيدى ،
ما طول قامتك ؟

– طول قامتى ؟

– كم طولك ؟

– أنا متوسط الطول كما ترى ؟

– طبعاً يا سيدى ، ولكننى أريد أن أعرف طولك على نحو أدق ••

كذلك قالت السيدة ، ثم أضافت مرتبكة بعض الارتباك وهى تسأل

فمحمداً بنظرتهما :

— أظن ...

فقال زوجها حاسماً وقد حدّد طولى بالنظر :

— أظن أن طوله « كذا وكذا » •

سألت :

— ولكن ما حاجتكم الى معرفة هذا ؟

فأجابت السيدة :

— أوه ! هذا ضرر ... و ... رى !

قالت ذلك مشدّدة على هذه الكلمة بينما هي تسجل طول قامتى فى
الدفتري • ثم سألتنى :

— والآن يا سيدى ، شعرك ؟ هو أشقر ، أميل الى أن يكون فاتحاً
... مقصوص كالفرشاة

وسجلت أوصاف الشعر • ثم تابعت تقول وهى تضع القلم وتنهض
وتقترب منى فى تودد ولطف :

— اسمح لى يا سيدى ... هل لك أن تسير معى خطوتين نحو
النافذة • يجب أن أفحص الآن لون غينيك • هم ... هما فاتحتان ! ...
وسألت زوجها بنظراتها • كان واضحاً أنهما يحب كل منهما
الآخر •

قال الرجل بلهجة جادة :

— أميل الى تكونا شهاوين •

— صحيح ...

وبغمزة من عينيه دلَّ زوجته على شيء فوق حاجبيَّ ، فأدركت فوراً ما يقصد • ان في جيبي ندبة ، وهو يريد أن تسجل امرأته هذه العلامة الفارقة •

قلت للسيدة بعد أن انتهى فحصي :

- اسمحي لي بسؤال يا سيدتي : هل صحيح أنهم يطلبون منكم هذا التدقيق كله ؟

قالت :

- أوه ! يا سيدى ! هذا « ضر ••• و ••• رى » •

وقال زوجها بعدها كأن كلامه رجع الصدى ، قال بلهجة ذات دلالة :

- سيدى !•••

قلت :

- ولكنى لم 'أسأل في فندق « كوكير » أى سؤال •

قالت السيدة بحماسة :

- مستحيل ، والا نالهم من ذلك أذى • لعلهم فحصوك صامتين ، ولكنهم فحصوك حتماً ما في ذلك ريب • أما نحن فنعامل نزلاء فندقنا معاملةً أصرح ، تعاملهم معاملة أقرباء • ستسرُّ منا • سوف ترى •••

قال الرجل مؤيداً في أبهة :

- أوه ! سيدى !•••

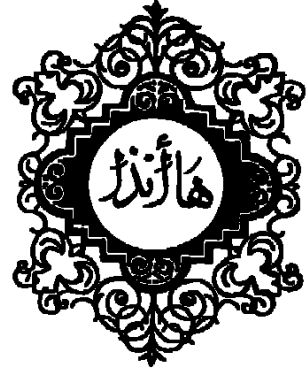
وعبّر وجهه عن رقة توشك أن تكون عاطفة حنان •

كذلك في حالة • هناك من آكد ان هناك • آكد على الأقوال لذلك فقد

ما عرفته فيهما بعد ذلك • غير أن كلمة « ضر • و ••••• رى » لم
تُلفظ بلهجة فيها اعتذار أو فيها تلطيف • بالعكس : لقد كانت تحمل
معنى الضرورة المطلقة وتوشك أن تطابق قناعتها الشخصية •
اذن ، هأنا ذا في باريس •

الفصل الخامس

بعد



اذن في باريس !... لا تحسبوا مع ذلك أنني سأحدثكم كثيراً عن هذه المدينة • ذلك أنني أقدر أنكم قد شبعتم قراءة عنها باللغة الروسية • ثم انكم قد ذهبتم إليها بأنفسكم ، فلا شك أنكم لاحظتموها خيراً مما لاحظتها أنا • فأنا في الخارج لا أطيق أن أقوم بزيارة المدينة التي أزورها مستهدياً بالدليل ، كمسافرٍ ملزم بواجب • لهذا أغفل في بعض الأماكن أشياء من المخجل أن لا أراها • وهذا ما حدث لي بباريس • لن أحدثكم عن شيء من ذلك ، ولكن أعلموا أنني وجدت لمدينة باريس تعريفاً ، وأنتى زينتها بنعت ما أزال أعتبها به : انها أكثر مدن الأرض تجملاً بالأخلاق والفضيلة • يا له من نظام ! يا لها من حكمة ! يا لها من علاقات محدّدة وطيدة ! ان كل شيء في باريس مضمون ومرتب سلفاً • ان كل الناس فيها مسرورون سعداء كل السعادة ، حتى لقد انتهى بهم الأمر ، من حسن نيتهم وصدق عزيمتهم ، الى الاقتناع بأنهم كذلك حقاً • • • وهم مكتفون بهذا مقتضرون عليه لا يريدون شيئاً عداه • أتم لا تريدون أن تصدقوا أنهم مكتفون بذلك مقتضرون عليه • أتم تزعمون أنني أبالغ ، وأن ما أقوله هو من باب التشنيع. الحاقد الذي يدفع اليه التعصب الوطني ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً • ولكنني نبهتكم منذ البداية ، يا أصدقائي ، الى أنني قد أكذب

فأسرف في الكذب • فلا تنزعجوا اذن • ولعلكم تعلمون أيضاً أنني اذا
كذبت فليس ينفي ذلك اقتناعي بأنني لا أكذب • وحسبي هذا الكلام ••
واتركوا ذراعي طليقتين فلا تغلو هما •

نعم ، باريس مدينة مذهشة • ويا له من ترف ! ويا لها أنواعا
من الرخاء يتمتع بها أولئك الذين يحق لهم أن يتمتعوا بها ! ومرة
أنا في باريس ، فقال لي صديق كبريائي : النظام ان صح التعبير ! (نهر)

أعود دائماً الى الكلام على النظام ، على الترتيب • حقاً ، ان باريس لن
تلبث أن تصبح مدينة جامعية ألمانية صغيرة ، متجمدة على الهدوء والسكينة ،
كمدينة هايدلبرج مثلاً • انها تجنح نحو هذا ، وتتجه اليه • ألا يمكن
أن توجد هايدلبرج أخرى ضخمة الأبعاد ! ويا لها من أنظمة ! افهموا
عني : أنا لا أتكلم الآن عن أنظمة خارجية ، وهي يسيرة (نسيباً بطبيعة
الحال) ، وانما أتكلم عن ذلك التنظيم الضخم ، الداخلي ، المعنوي ، الذي
يصدر عن النفس ، عن الروح • ان باريس تتضيق وتقل ، طواعية ،
عن حب : انها تقلص بعاطفة ، بحنان • ما أكبر الفرق بينها وبين
لندن مثلاً !

لم أقض في لندن الا ثمانية أيام ؛ فيا لها من لوحات واسعة ذات
بروز ، يا لها من مستويات مضيئة أصيلة واضحة ، تلك التي انحفرت
ذكرها في نفسي ! ان كل شيء في لندن ضخم ، ان كل شيء فيها حاد
قاطع في أصلته ! حتى لقد يخطيء ظن المرء في هذه الأصالة • ان كل
نقيض ، مهما يكن بارزاً ، يتلاءم في لندن مع نقيضه ، فاذا النقيضان
ينسجمان في عناد ، ويتناقضان دون أن ينفي أحدهما الآخر • يبدو أن
كل نقيض يؤكد وجوده الخاص باصرار ، دون أن يلوح أن أحد
النقيضين يضايق الآخر أو يزعجه • ومع ذلك ففي لندن أيضاً يتلاحق
ذلك الصراع العارم نفسه ، ذلك الصراع القوي الذي أصبح منذ الآن

متأصلاً قديماً ، أغنى الصراع المستमित بين المبدأ الفردى الذى يشترك فيه الغرب كله وبين ضرورة التلاؤم كيفما اتفق ، أغنى ضرورة قيام جماعة متماسكة على أى نحو من الأنحاء ، وانتظام المجموع فى مجتمع يشبه أن يكون بيوت النمل ، بل والتحول الى مجتمع نمل ، ولكن على شرط طبعاً ، هو شرط أن يلتهم الأعضاء بعضهم بعضاً ، والا أصبحوا من أكلة لحوم البشر ! على أننا من هذه الناحية نلاحظ نفس ما نلاحظه فى باريس . نلاحظ ذلك الجهد المستमित نفسه فى سبيل الاكتفاء بالحالة الراهنة والاقصرار عليها ، واستئصال المرء من نفسه جميع الرغبات وجميع الآمال ، وأن يلعب مستقبله الذى ربما كان روّاد التقدم أنفسهم لا يؤمنون به كثيراً ، وأن يعبد « بعل » . ومع ذلك لا تدعوا لهذا الأسلوب الرفيع أن يفتنكم : ان هذا كله لا يُلاحظ على حالة الوعي الا لدى التقدميين الواعين . ولكن المرء يلاحظه على حالة اللاوعي ، على حالة اللاشعور ، على الحالة الغريزية ، فى الوظائف الحياتية لدى الجمهور بأجمعه . فالبورجوازي الباريسى مثلاً يكاد يكون مقتنعاً اقتناعاً واعياً بأنه ليس فى الامكان ابداع مما كان ، وأن كل شئ فى هذا العالم على خير ما يرام ، حتى لقد يضربك اذا أنت شككت فى ذلك ، لأنه رغم ثقته ما تزال تراوده مخاوف . ولئن كان الأمر على هذا النحو فى لندن ، فما أكبر الفرق رغم كل شئ : يا لها من لوحات واسعة ، مرهقة ، هنالك ! ما أكبر الفرق ، حتى من ناحية المظهر الخارجى ، بين باريس ولندن ، هذه المدينة المنهمكة نهائياً وليلاً ، الواسعة كالبحر ، مع هذه الضجة التى لا تنقطع ، وقرقعة الآلات المستمرة ، وهذه السكك الحديدية التى تمر فوق المنازل (وتحت المنازل قريباً) ، وهذه المبادرة الجريئة الجسور ، وهذه الفوضى الظاهرية التى هى فى حقيقة الأمر النظام ' البورجوازي وقد بلغ أوجه ، وهذا النهر التسمم ، نهر التاميز ،

وهذا الهواء المشبع بالفحم ، وهذه الميادين والحدائق الرائعة ، وهذه الأحياء الكالحة ، كحىّ هوايتشابيل وسكانه أنصاف العراة الشربيين الساعيين ، و « المدينة » بملايينها وتجارتها الشاملة ، و « قصر الكريستال » و « المعرض » !... .

نعم ، ان « المعرض » فخم • تحسّون أن قوة رهيبة قد جمعت هنا ذلك الجمهور الذى لا يحصى عدده ، والذى جاء من جميع أنحاء العالم فالتقى قطعياً واحداً • تشعرون بأن نتيجة قد تحققت ، تشعرون بالانتصار ، بالظفر • حتى لقد تأخذون تخافون لا أدرى من أى شىء ! مهما تملكوا من الاستقلال ، فان الخوف يجتاح نفوسكم ! أليس هذا هو بلوغ المثل الأعلى حقاً ، أليس هو النهاية والخاتمة ؟ أليس هذا هو «القطع الواحد» فى الواقع ؟ ألا يجب على المرء أن يسلم بهذا على أنه الحقيقة الكلية ، وأن يصمت الى الأبد ؟ ان ذلك كله ليبلغ من الفخامة والجلال والأبهة والافتخار والانتصار أنكم تأخذون تشعرون بفكركم مضغوطاً مثقلاً • تنظرون الى هذه المثات من الألوف ، الى هذه الملايين من البشر الذين جاءت بهم الى هذا المكان من جميع أركان العالم فكرة وحيدة ، فإزدحموا فيه هادئين عنيدين صامتين فى هذا القصر الفخم ، فتشعرون عندئذ أن شيئاً ما قد تحقق تحقيقاً نهائياً • هذه لوحة من التوراة ، هذه صورة من بابل ، هذه نبوءة رؤيا يوحنا تتحقق أمام أبصارنا • تشعرون أنكم فى حاجة الى قدرة هائلة على المقاومة والانكار والنفى حتى لا تخضعوا ، حتى لا تستسلموا لذلك الشعور ، حتى لا تنحنوا أمام الواقع وتعبدوا «بعل» ، أى حتى لا تحسبوا أن هذا الواقع هو المثل الأعلى

قد تقولون لى : « ولكن هذا الكلام سخف ؛ انه ثمرة المرض ، انه نتيجة للأعصاب ، انه ناشئ عن الغلبة المسالفة • ما من أحد

يتوقف على هذا ، وما من أحد يعده مثلاً أعلى • ثم ان الجوع والعبودية

ليس فيهما ما يجذب ، وهما يحضنان أكثر من أى شئ آخر على الإنكار
والجحود ، ويولدان الشك والريب • أما الهواة الشبهون الذين يتزهون
نشداً للتمتعة ، ففى وسعهم طبعاً أن يؤلفوا لوحات من رؤيا يوحنا ،
وأن يفرّجوا عن أنفسهم وأن يسلّوا أعصابهم مضخمين كل حادثة من
الحوادث ، باحثين فيها عما يثير فى نفوسهم احساسات قوية • • • • •

سوف ، أحكم عندئذ قائلاً : « طب • لنسله بأنفسه قد فتنت

بالديكور • ولكن لو رأيتم زهو الفكر القوى الذى خلق هذا الديكور
الضخم الفخم ، لو رأيتم ثقته واعتزازه بانتصاره وظفروه ، لارتجتم من
غطرسته ومن عناده ومن عماوته ، ولارتعشتم اشفاقاً على أولئك الذين
يخلق فوقهم ويسيطر عليهم ويتحكم فيهم هذا الفكر المتعالى المتكبر •
فأمام هذا الصلف الواسع الكبير ، أمام هذا الفكر التسلط ، أمام هذا
الاتصار الحاسم الذى تحقّقه ابداعاته ، تنهاوى النفس الساغبة أحياناً ،
وتنذل^١ ، وتخضع ، وتنشد الخلاص والسلامة فى خمرة « الجين » وفى
الدعارة والفحش والمجون ، وتأخذ تؤمن بأن هذه الحالة مشروعة • ان
الظاهرة واضحة ، فالجمهور يصاب بالشلل ويصبح عاطلاً عن الحركة ،
أو هو ، اذا خضع للرؤية ، ينشد الخلاص والسلامة فى مذهب
كالورمونية ، متجهم الروح كالح النفس قد ضربت عليه اللعنة • وفى
لندن يستطيع المرء أن يلاحظ الجمهور بحجوم وبهيئة لا توجد فى أى
مكان آخر •

قيل لى مثلاً ان نصف مليون من العمال والعاملات مع أولادهم
ينتشرون فى أرجاء المدينة كلها ، أيام السبت مساءً ، كبحر متلاطم
الأمواج ؛ وهم يؤثرون أن يتجمعوا فى بعض الأحياء خاصة يحتفلون
فيها بعيد السبت حتى الساعة الخامسة من الصباح ، أى يفرطون فى الأكل
والسكر كالبهائم لسائر الأسبوع • هكذا يبدد هذا الجمهور مدخراته

التي حصلها خلال أيام طويلة بعمل شاق وجهد كبير • ان دكاكين
الجزارين وحوانيت الأطعمة والمآكل التي تسطح فيها أنوار الغاز تسكب
في الشوارع أمواجاً من ضياء • كأن المرء يشهد حفلة رقص أقيمت
لهؤلاء الزنوج البيض • الشعب يتزاحم في الحانات ، وفي الشوارع •
الناس يأكلون ويشربون حيث يوجدون • محلات شرب البيرة مزدانة
كأنها قصور • الحشد سكران ، ولكن سكره خالٍ من الفرح والمرح •
انه متجهم ، ثقيل ، صامت صمتاً عجيباً غريباً • ولا ينقطع هذا الصمت
المريب الا من حين الى حين ، تقطعه شتائم ولكمات دامية تملأ نفسك
حزناً • ان الجميع يسرعون الى السكر حتى يفقدوا الوعي • والنساء
لا يتخلفن في هذا عن أزواجهن ، بل يسكرن معهم • والأولاد يركضون
ويسمعون بين أهلهم هنا وهناك : في ليلة كهذه الليلة ، في الساعة الثانية
من الصباح ، ضللت طريقى ، فضربت في الشوارع زمناً طويلاً بين هذه
الجمهرة التي لا يحصى عددها من الشعب المتجهم العابس ، سائلاً عن
الطريق بالاشارات تقريباً ، لأننى لا أعرف من اللغة الانجليزية كلمة
واحدة • واهتديت الى طريق ، غير أن الشعور الذي خلفه في نفسي

في كل مكان ، ولكن اللوحة هنا تبلغ من الفخامة والشدة أنك تشعر أنك
كنت في الماضي تتخيل تخيلاً لا أكثر • أنت هنا لا ترى حتى الشعب ،
وانما ترى الحبال المطرد المنتظم المذعن المشجّع • وأنت تشعر حين تتأمل
هؤلاء النبوذيين أنه سيمضى زمن طويل قبل أن تتحقق النبوءة بالنسبة
اليهم ، وانه سينقضى زمن طويل أيضاً قبل أن يعطيهم أحد لا أغصان
تخيل ولا ثياباً بيضاء ، وأنهم الى أن يحين ذلك الحين سيظلون يتهلون الى

المورمونين ، أو ملة الارتعاش أو غيرها من ملل الاشراق • اتنا تدهش
 من هذه الغباوة في أن يصبح المرء ارتعاشياً أو اشراقياً ، ولا يخطر ببالنا
 أن ذلك انما هو رفض لصيغتنا الاجتماعية ، رفض عنيد لا شعوري ،
 رفض غريزي يهدف منه صاحبه الى انقاذ نفسه بأي ثمن ، رفض يدخل فيه
 اشمزاز منا وكره لنا • ان هذه الملايين من البشر المهجورين المطرودين
 من وليمة الحياة ، يتزاحمون ويتصادمون في ظلمات الأقيسة التي دفعهم
 اليها اخوتهم الكبار ، فهم يقرعون بالتمس باباً ما ، ويبحثون عن
 مخرج ما ، حتى لا يختنقوا في الكهف المظلم • هذه محاولة أخيرة يائسة
 مستعجلة في سبيل أن يكونوا عصبية على حدة ، في سبيل أن ينفصلوا عن
 كل شيء ، ولو عن انشاكل الانساني ، شريطة أن يعيشوا على ما يشاء لهم
 هواهم ، وأن لا يكونوا معا ...

ورأيت في لندن جمهوراً آخر شيئاً بهذه الحجوم • هذا ديكور

وخرقاً بالية • وهذا التناقض نفسه قائم بين الأعمار • كل شيء مختلط •
 انك تجد في هذا الجمهور العجيب رجلاً متشرداً سكران ، كما تجد
 فيه ثرياً من الأثرياء يحمل لقباً من أرفع الألقاب • وتسمع شتائم
 ومشاحرات ونداءات ، كما تسمع همساً يدعوك من فتاة ما تزال

كازينو • كانت الموسيقى تصدح ، وكان الناس يرقصون • وكان هنالك
 حشد كبير • الديكور رائع فخيم • ولكن الانجليز يظلون عابسين حتى
 حين يلهون ويتسلون • انهم يرقصون في جد ، بل انهم يرقصون في مثل
 التجهم ، فكأنهم يحركون أقدامهم بالخطوات اللازمة قياساً بواجب •
 لاحظت في الشرقة فتاة ، فاذا أنا أتجمد مذهولاً • لم أر في حياتي جمالاً
 أمثل من هذا الجمال • كانت جالسة الى مائدة مع فتى يبدو أنه جنتلمان
 ثرى أكثر مما يبدو أنه واحد من الذين اعتادوا ارتياد الكازينو • أترأه
 يلتقى بها بعد غياب طويل ؟ اترأهما اتفقا على موعد للقاء في هذا المكان ؟
 كان لا يكلمها الا قليلاً ، وعلى نحو متقطع ، فكأن في رأس كل منهما

وفي هايماركت رأيت أمهات يقدن بناتهن ليتاجرن بهن • صيات
 فى الثانية عشرة من أعمارهن يمسكن ذراعك ويسألنك أن تتبعهن •
 أذكر أننى رأيت فى الجمهور بنيةً عمرها ست سنين فى أكثر تقدير ،
 بنيةً ترتدى أسمالاً ممزقة ، وهى وسخة حافية القدمين شاحبة شحوب
 المرض محطمة • ان المرء يرى بقعاً زرقاً فى جسمها من خلال أسمالها
 الممزقة • كانت تسير كالفائبة عن نفسها ، دون أن تحت خطاها ، لا يدرى
 الا الله لماذا تسير بين هذا الحشد من الناس • أتراها كانت جائعة ؟ لم يكن
 يتبها اليها أحد • ولكن الشيء الذى خطف بصرى أكثر من أى شئ
 آخر هو أن هيئتها كانت تدل على حزن عظيم وكرب شديد ويأس هائل
 لا يملك المرء حين يراه الا أن يقول انه لأمر شاذ مؤلم أن يقع بصر الانسان
 على مخلوقة صغيرة أثقلت منذ الآن بكل هذا العذاب وأحقت بها كل
 هذه اللعنة • كان تهز رأسها الأشعث كأنما لتناقش أحداً ، وتباعد يديها
 الصغيرتين ، وتحركهما بإشارات شتى ثم تصفق احدهما بالأخرى
 وتشدهما الى صدرها العارى • رجعت الى وراء وأعطيتهما قطعة نقدية
 قدرها ستة بنسات ، فتناولتها ونظرت الى محذقة فى عينيّ بدهشة
 خائفة ، ثم ولّت هاربة يخطى سريعة كأنها تخشى أن استرد منها المال •
 نعم ، ان المرء ليرى هنا أموراً غريبة •

وفى مرة أخرى ، استوقفتنى ليلاً بين هذا الجمهور من النساء
 المضائعات والرجال الفجرة امرأة كانت تسير خيثة الخطى بين الأمواج
 المضطربة من البشر • كانت ترتدى ثياباً سوداء ، وعلى رأسها قبعة تكاد
 تخفى وجهها • لم أستطع كثيراً أن أتفرس فيها وأن أفحصها ، ولست
 أتذكر الا نظرتها الثابتة • قالت لى ، بلغة فرنسية رديئة ، بضع كلمات
 لم أفهمها ، ودست فى يدي ورقة ، ثم ابتعدت بسرعة • وقفت أمام
 واجهة مضاعة هى واجهة أحد المقاهى ، ونظرت فى الورقة : هى ورقة

صغيرة مربعة طُبعت على احدى زواياها هذه الجملة : « هل تصدق هذا ؟ » وطُبعت على ظهرها ، باللغة الفرنسية أيضاً ، هذه العبارة : « أنا البعث والحياة ، ... وبضعة أسطرٍ أخرى من ذلك النص . لا بد لكم أن توافقوني على أن في هذا جدةً وغرابة . ولقد ذكر لي بعد ذلك فى شرح هذا الأمر أن هذه هى الدعاية الكاثوليكية تتسلل الى كل مكان مصرّةً عنيدة لا تتعب . وفى ائشوارع توزّع تارةً أوراقٌ من هذا النوع ، وتارةً منشورات تضم مختارات من الانجيل والتوراة . يوزعونها عليك مجاناً ، يجبرونك على أخذها ، يدسّونها فى يدك دساً . والقائمون بأمر هذه الدعاية كثيرون من الجنسين ، لا يُحصى عددهم !.. وهذه الدعاية محسوبة بمهارة وبراعة . هذا كاهن كاثوليكي يكتشف بنفسه أسرةً معوزة هى أسرة عامل من العمال ، فاذا هو يتسلل اليها ، فيجد بين أفرادها ، مثلاً ، مريضاً راقداً على حصيرة فوق الأرض الرطبة ، تحيط به امرأةٌ هى فى أكثر الأحيان نملة ، وأولادٌ هدّهم البرد والجوع . فيأخذ الكاهن الكاثوليكي يطعم الأسرة كلها ويكسوها ويدفئها ، ويأخذ يعالج المريض ويشترى له أدوية ، ثم ينتهى بأن يدخل أفراد الأسرة فى الديانة الكاثوليكية . على أنه يحدث فى بعض الأحيان ، بعد شفاء المريض ، أن يُطرد الكاهن بلكمات وشتائم . ولا يتعب الكاهن ، ولا يكل ولا يمل ، وانما هو يمضى الى أسرة أخرى . وقد يطرد ، ولكنه يجتمل كل شيء ، ولا بد أن يظفر أخيراً بادخال أحد فى الكاثوليكية . ان الكاهن الانجليكاني لا يزور الفقراء . والفقراء لا يدخلون الكنيسة ، لأنهم لا يملكون ما يدفعون به ثمن أماكنهم فيها . وارتباط الرجل بالمرأة كثيراً ما يكون فى صفوف العمال وفى صفوف المعوزين بوجه عام ، ارتباطاً غير شرعى ، لأن الزواج يكلف نفقات باهظة . بالناسبة : ان كثيراً من هؤلاء الأزواج يضربون نساءهم ضرباً

رهيباً ، وقد يصيرونهم من شدة الضرب بعاهات ، والأداة التي يستعملونها في ضربهم هي مجرفة الحطب خاصة . هذه هي أداة الضرب عندهم . الجرائد على الأقل ، في زوايا المشاجرات العائلية التي تقع فيها اصابات بالغة ويحدث فيها قتل ، تذكر مجرفة الحطب هذه دائماً . أما أولاد هذه الأسر ، فما ان يشبوا عن الطوق ، حتى يمضوا الى الشارع ، ويختلطوا بالجمهور ، ثم لا يعودون بعد ذلك الى ذويهم قط .

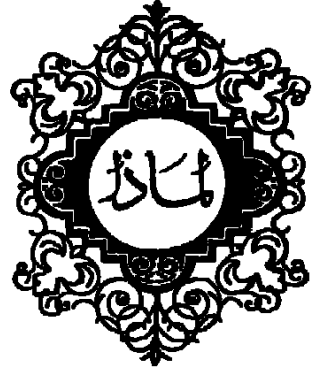
ان الكهنة والأساقفة الانجليكانين متكبرون وأغنياء . انهم يعيشون حياة ثرية ويسمنون في هدوء كامل ودعة تامة . وهم أناس أدياء مثقفون جداً ، مقتنعون اقتناعاً عميقاً بعلو مكانتهم وبحقهم في أن يعظوا بأخلاق وادعة مطمئنة ، وبأن يسمنوا ويعيشوا للأغنياء . هذه ديانة الذين يملكون ، هي كذلك صراحةً بغير قناع . في هذا منطق وصراحة على الأقل . ولأساتذة الدين هؤلاء ، المقتنعين الى حد البلاهة ، تسلية طريقة يزجون بها الوقت : ألا وهي الارساليات أى البعثات الدينية . انهم يجوبون الأرض ، فيعثرون في آخر افريقيا على فرد يدخلونه في دينهم ، وينسون ملايين الهمج في لندن ، لأن هؤلاء لا يملكون ما يدفعونه لهم . ولكن الانجليز الأغنياء ، وعجول الذهب في هذه البلاد بوجه عام ، متدينون الى أقصى حدود التدين على طريقتهم الخاصة ، العابسة المتجهممة . ان الشعراء الانجليز يحبون منذ عهد بعيد أن يتقنوا بيوت الكهنة في الريف ، تظللها أشجار السنديان والدردار التي عمرها مئات الأعوام ، وأن يمدحوا زوجات القسس وبناتهن الشقراوات ذوات العيون الزرق والجمال الأمثل .

ولكن ما ان ينقض الليل ويرجع النهار حتى ترى ذلك الفكر المتجهم المتكبر يسيطر على المدينة الواسعة سيطرة صارمة من جديد . فلا هو يتذكر ما جرى خلال الليل ، ولا هو يرى ما يجري حوله أثناء النهار . ان « بل » يحكم ولا يطلب حتى الخضوع ، لأنه واثق منه

سلفاً • ان ثقته بنفسه لا حدود لها • انه بروحه المتكبرة المحترقة الباردة ، يبذل صدقات منظمة لا لشيء الا أن يتخلص ويرتاح • حتى اذا بذل تلك الصدقات لم يكن فى امكان أى شيء أن يززع طمأنينته • ان « بعل » لا يخبى بعيداً عنه ، كما يحدث فى باريس مثلاً ، بعض المظاهر الغريبة المريبة المخيفة من الحياة • فلا فقر الجمهور ولا عذابه ولا دمدماته ولا تخبله ، لا شيء من هذا كله يعكر هدوءه أو يوقظ فيه قلقاً • انه يسمح لهذه المظاهر المريبة المشثومة أن توجد الى جانبه ، على يمينه ويساره ، فى وضوح النهار ، يسمح لها بذلك فى ازدراء واحتقار • هو لا يحاول خائفاً كالباريسى ، أن يوهم نفسه ، وأن يعزى نفسه ، وأن يزعم لنفسه أن كل شيء يجرى على ما يرام • هو لا يخبى الفقراء ، كما فى باريس ، مخافة أن يعكر الفقراء صفو نومه وأن يقلقوه • الباريسى يحب كالنعامة أن يخفى رأسه فى الرمل حتى لا يرى الصيادين الذين يهتمون أن يدركوه • فى باريس ... ولكنى لست بباريس الآن ... ما هذا الخلط ؟ متى يا رب أعتاد التزام الترتيب والنظام فيما أقول من كلام ؟ ...

الفصل السادس

بحث في البرجوازي



يتقلص هنا كل شيء ، لماذا يريد الناس هنا أن
يصغروا ، أن يضيقوا ، أن يمحوا: « أنا لا وجود
لى البتة ، لقد اختبأت ، اعبّر من فضلك ،
لا يبدون عليك أنك تلاحظني ، مرؤوا ، مرؤوا

» - ولكن عمّن تتكلم ؟ من الذى يتقلص ويتضيق ؟

» - البرجوازي طبعاً •

» رحماك ! ان البرجوازي ملك ، انه كل شيء - « هو الدولة

الثالثة ، « هو كل شيء - أفدعى بعد ذلك أنه يتقلص ويتضيق ؟! » •

نعم ، ولكن لماذا اختبأ فى الأرض ذلك الاختباء تحت حكم
الامبراطور نابليون ؟ لماذا نسي ، فى مجلس النواب ، ذلك الأسلوب
الرفيع الذى كان يجب فى الماضى حباً جداً ؟ لماذا لا يريد أن لا يتذكر
شيئاً ، لماذا يهز كفيه حين يذكره أحد بالزمان الماضى ؟ لماذا يكشف
فكره وتكشف نظراته وأقواله عن القلق فوراً متى تجرأ آخرون أن
يتمنوا أمامه شيئاً من الأشياء ؟ لماذا يرتعش ، حين يطيش هو نفسه فيعرب
عن رغبة ما ، ثم يأخذ بالتقلص ؟ « ما هذا الذى خطر ببالى يا رب ؟ » •
كذلك هو يتساءل ، ثم يحاول بعدئذ عامداً واعياً ، خلال مدة طويلة ،

أن يكفّر عن سلوكه بحماسة وطاعته ؟ لماذا تدل هيئته على أنه يقول :
« الله سأتاح قلباً فـ... دكاناً ، غداً ، بمعية الله ، وبعده غد »

إذا وهب لي الله هذه النعمة ... ؟ المهم أن أجمع شيئاً من المال بأقصى سرعة !... ومن بعدى الطوفان ، ... لماذا يخفى جميع الفقراء في مكان ما ويؤكد أن ليس ثمة فقراء ؟ لماذا يكتفى بالأدب الرسمي ؟ لماذا يريد إلى هذا الحد أن يقتنع بأن جرائمه طاهرة لا يمكن أن يداخلها الفساد ؟ لماذا يقبل أن يعطى الجواسيس مالاّ كثيراً ، لماذا لا يجروا أن ينسب بحرف عن غزوة المكسيك ؟ لماذا يمثل جميع عشاق الزوجات في صورة صاليك لا يملكون منزلة ولا ينعمون بحماية ، فهم بائون في محلات تجارية ، أو هم رسّامون ، وهم أناس مساكين فقراء على كل حال ؟ لماذا يحلم بأن جميع الزوجات « وفيات » إلى أقصى حدود الوفاء ، وبأن القدرَ ينضج طعامها على لهب الفضيلة ، وبأن تصفيف الشعر هو أحسن مظهر يمكن تخيله ؟ أما عن تصفيف الشعر فذلك أمر مفروغ منه ، متفق عليه ضمناً . لقد تقرر من تلقاء نفسه . ورغم أن الشوارع الكبرى تتجاوزها في كل لحظة مركبات مسدلة الستائر ، ورغم أن في كل مكان مأوى لجميع الملذات الأساسية ، ورغم أن زينات « الحليّات » تكلف حتى في أحيان كثيرة نفقات تفوق الموارد التي يمكن أن يفترضها الأزواج ، فإن ذلك قد صدر فيه قرار موقّع ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

ولكن لماذا كان الأمر على هذا النحو ؟ كيف لا : لو لم يكن الأمر على هذا النحو فلربما ظنّ أن المثل الأعلى لم يتحقق ، وأن باريس ليست الفردوس الأرضي تماماً ، وأنه ما يزال هنالك شيء ناقص يتعنى المرء تحقيقه ، وأن البورجوازي نفسه ليس راضياً كل الرضى اذن عن النظام الذي يدافع عنه ويفرضه على الجميع ، وأن في المجتمع شقوقاً يجب اصلاحها وصدوعاً يجب رأبها . ذلكم هو السبب في أن البورجوازي

يضع حبراً على تقوب حذاءيه حتى لا يلاحظها أحد ، لا سمح الله ! ولكن « الحليلات » يشترين مربيات لذيذة ويلبسن قفازات جميلة ، بحيث أن السيدات الروسيات في بطرسبرج البعيدة يحسندنهن حسداً شديداً حتى لتصيهن من ذلك الحسد توبات عصية . ان الحليلات هنا يكشفن عن أفخذهن ويشمرن أثوابهن برشاقة في الشوارع الكبرى ، فماذا تريدون أكثر من هذا لتحقيق السعادة الكاملة ؟ ذلكم هو السبب في أن عنوان رواية كهذا العنوان « الزوجة والنزوح وعشيق الزوجة »* أصبح مستحيلاً في الظروف الحالية ، ذلك أن عشاق الزوجات لم يبق لهم وجود ولا يمكن أن يكون لهم وجود . وهبهم ووجدوا في باريس بعدد حبات رمل البحر (ولعلمهم أكثر من ذلك عدداً) ، فانهم مع ذلك ليس لهم وجود ، ولا يمكن أن يكون لهم وجود ، لأن الفضيلة تسطع في كل مكان ، ويجب أن يساهم كل شيء في سطوع الفضيلة . لو رأيت حديقة « البالية رويال » في المساء حتى الساعة الحادية عشرة ، فلا بد أن يرق قلبك وأن تشعر بعواطف الحنان الى درجة ذرف الدموع . انك تشاهد أزواجاً لا يُحصى عددهم يتزهون هنالك متأبطين أذرع حليلاتهم . وأولادهم يلعبون من حولهم لعباً لطيفاً . ونوافير الماء تخرُ خريراً جميلاً وتدفقها الرتيب يحدث في النفس احساسات هادئة وادعة ساكنة متصلة ، احساسات من نوع الاحساسات التي تستيقظ في نفسك بمدينة هايدلبرج . وليست هذه النافورة بالنافورة الوحيدة التي تخر مياهها خريراً جميلاً على هذا النحو في باريس: ان بباريس نوافير كثيرة، وفي كل مكان تطالعك هذه المناظر نفسها ، فيتهيج قلبك .

ان الحاجة الى الفضيلة هي في باريس حاجة لا تنطفىء ولا تخمد . والفرنسي الآن جاد رصين ، بل ان عواطف الحنان تغزو قلبه في كثير من الأحيان . لذلك لا أفهم لماذا ما يزال يخشى شيئاً ما الى هذا الحد من

الحشية ، رغم « المجد العسكري » الذى يزدهر فى فرنسا ويكلف « جاك بونوم » نفقات باهظة الى هذه الدرجة • والباريسى يحب الأعمال • ولكن كأنه ، حين يتاجر فيقشر جلدك فى حانوته ، لا يفعل ذلك فى سبيل المنفعة وحدها ، كما كان يحدث فى الماضى ، وإنما هو يفعل ذلك من أجل الفضيلة وباسم ضرورة مقدسة • ان جمع ثروة كبيرة وامتلاك أكبر عدد ممكن من الأشياء قد أصبحا القانون الرئيسى للأخلاق ، أصبحا ديانة الباريسى • لئن صحَّ أن الأمر كان على هذا النحو دائماً ، فلقد صار الآن مبدأً مقدساً • كان الناس فى الماضى يحبون المال ويحبون أشياء أخرى غير المال ، بحيث كان يستطيع انسان محروم من الثراء أن يتوقع شيئاً من الاعتبار والاحترام • أما الآن فلا !... فإذا شئت الآن أن يكون لك فى نظر الناس اعتبار ، فلا بد أن تجمع ثروة وأن تكسب أكبر عدد ممكن من الأشياء • والا لم يكن يكن فى وسعك أن تطمع فى أن يحترمك الناس ، بل ولم يكن فى وسعك أن تطمع فى أن تحترم نفسك أيضاً • ان الباريسى يعد نفسه أقل من « لا شيء » حين تكون جيوبه خالية ، وذلك عن وعى دقيق واقتناع عميق • الناس يتسامحون معك تسامحاً مدهشاً شريطة أن تملك مالاً • ليس سقراط الفقير الا رجلاً أبله وثرثراً مفسداً ، يُحترم على خشبة المسرح فى أكثر تقدير ، لأن البورجوازي ما يزال يحب أن يحترم الفضيلة على خشبة المسرح •

عجيب أمر هذا البورجوازي : ينادى بأن المال هو الفضيلة القصوى وهو واجب الانسانية ، ولكنه يظل مع ذلك يتظاهر بالعواطف النبيلة • ان لجميع الفرنسيين هيئةً نبيلةً نبلاً مدهشاً • فى نفس اللحظة التى يعتمد فيها أرواً فرنسى الى أن يبيعك أباه بعشرين فلساً ، مضيفاً الى أبيه شيئاً آخر من تلقاء نفسه ، تراه يظهر لك بمظهر يبلغ من النبل أنك تقف أمامه مكتوف الأيدي • ادخل الى مخزن لتشتري بعض الأشياء :

ان أصغر مستخدم يرهقك بنبله الذى لا يوصف • وهؤلاء المستخدمون هم الذين يتخذون نموذجاً لمثلينا فى « مسرح ميشيل » • انك تشعر أمام هذا المستخدم بأنك مذنب فى حقّه • لقد جئت لتشتري أشياء بعشرة فرنكات مثلاً ، فاذا هو يستقبلك كما لو كان يستقبل اللورد دوفونشير • انك تشعر عندئذ بعذاب حاد فى ضميرك ، وتود لو تسارع فتشرح له أنك لست اللورد دوفونشير ، وانما أنت مسافر بسيط جئت تشتري أشياء بعشرة فرنكات • ولكن الشاب الرائع المظهر ، الذى ينعم بنبل روحى لا يوصف ، والذى تصبح مستعداً أمامه لأن تحقر نفسك (من شدة : ١٤١) ، اكن هذا الشاب يأخذ بك بضائع قيمتها عشرة آلاف

فرنك • ففى مثل لمح البصر سرعة ، تراه يراكم البضائع على البسطة لتراها • فاذا تصورت العناء الذى سيلقاه المسكين فى اعادة طي هذه البضائع بعد انصرافك ، العناء الذى سيلقاه هو جرانديزون أو ألسينياد أو مونموراسى ، بعد انصرافك أنت ، أنت الذى تجرأت رغم عقوق مظهرك وكثرة رذائلك وغيوبك ، أن تزعج من أجل عشرة فرنكات حقيرة ، سيداً عظيماً مثله ، أقول اذا تصورت ما سيلقاه من عناء ، أخذت ، رغم ارادتك ، تحقر نفسك أمام البسطة ، وندمت على ما فعلت ، ولعنت الحظ الذى جعل جييك خالياً الا من مائة فرنك • ولكن الشاب يلف لك البضاعة التى اشتريتها بمائتك الحقيرة ، يلفها لفاً كريماً ، ويففر لك ما أحدثته فى المخزن من اضطراب وازعاج ، فاذا أنت تسارع الى الخروج والغياب عن بصره • حتى اذا عدت الى بيتك ، ذهلت من أنك اشتريت بمائة فرنك بدلاً من عشرة • كم من مرة ، وأنا أمر بالشوارع الكبرى أو بشوارع فيفين ، حيث توجد مخازن كبرى كثيرة لبيع الأقمشة والملابس ، قلت بينى وبين نفسى : « لو أتيت للسيدات الروميات أن يدخلن هنا وأن ، ... غير أن ما سيعقب ذلك انما يعرفه ناظرو الأملاك

وأصحاب الأطنان في أوريل وتامبوف حق المعرفة • ان الروسى يعشق أن يظهر في المخازن أن لديه مالاّ وفيرا • وهناك في مقابل ذلك برودة كبرودة الانجليزيات اللواتى لا يكفينهن أنهن لا يستحجن من أن يشر لهن آدونيس أو جيّوم تل أصناف البضائع على البسطة ، وأن يقلب لهن المخزن رأساً على عقب ، بل يزدن على ذلك أن يأخذن يسوومن في الأسعار ، يا للهول ! ، في سبيل عشرة فرنكات • ولكن جيوم تل لا يقف مكتوف الأيدي ، بل يثار لنفسه ، فاذا هو يبيع الشال الذى سعره ألف وخمسمائة فرنك ، اذا هو يبيعه للسيدة الانجليزية باثنى عشر ألف فرنك • هذه الصفقة عا نحه بحملها تخذ من المخزن راضية

مفتونة •

ومع ذلك فان البورجوازي يحب النبل الهائل جداً شديداً • هو في المسرح يريد أن تعرض عليه شخصيات مبرأة من المنفعة • ان على جوستاف أن يسطع ببريق نبلة وحده ، حتى لترى البورجوازي يذرف الدموع عندئذ من فرط الحنان • وليس يمكنه ، بدون هذا النبل ، أن ينال هادى البال • أما أن يبيع باثنى عشر ألف فرنك ما قيمته ألف وخمسمائة ، فذلك أمر ينبغي أن يعد حتى واجباً : لقد فعله البورجوازي بدافع الفضيلة • ان السرقة فعل سيء مقزز ، ترسل صاحبها الى السجن • والبورجوازي ، التسامح في شئون كثيرة ، لا يغفر لك أن تسرق ، ولو كان عليك أن تموت جوعاً أنت وأولادك • أما اذا سرقت بدافع الفضيلة ... آه ... فان لك عندئذ كل المغفرة • ذلك أنك تريد اذن أن « تجنى ثروة » وأن تحصل على أشياء كثيرة ، أى أنك تقوم بالواجب الذى تمليه الطبيعة والانسانية • هذا هو السبب في أن القانون يميّز تمييزاً واضحاً كل الواضوح بين السرقة التى تدفع اليها دوافع دينية ، كأن تسرق في سبيل الحصول على قطعة خبز ، وبين السرقة التى تنشأ

عن فضيلة عليا - فهذه السرقة الأخيرة محمية ، والناس يشجعونها ، ولها نظام راسخ وطيد متين •

وأخيراً - هأنا ذا أعود الى أسئلتى - لماذا يبدو على البورجوازي أنه ما يزال يخاف من شيء ما ، كأنه لا يشعر براحة ؟ من ذا الذى لعله يزعجه ويصدّع رأسه ؟ أهم الذين ينمقون الكلام ويدبجون العبارات ؟ ألا انه يرسل هؤلاء جميعاً الى الشيطان بركلة من قدمه ! هل حجج العقل المحض هى التى تصدّع رأسه ؟ ألا أن العقل قد انهزم أمام الواقع • ثم ان أعقل العقلاء وأعلم العلماء قد أخذوا هم أنفسهم يقولون ان العقل المحض لا وجود له ، وان المنطق المجرد لا ينطبق على الانسانية ، وان هناك عقلاً لزيد وعقلاً لعمرى وعقلاً لخالد (جان ، بير ، جوستاف) ، أما العقل المحض فلم يوجد فى يوم من الأيام ، وانه اختراع خطأ من اختراعات القرن الثامن عشر • من ذا يخافون ؟ أيخافون العمال ؟ ألا ان العمال أيضاً هم جميعاً مالكون ، فى قرارة أنفسهم : ان مثلهم الأعلى الوحيد هو أن يصبحوا مالكين ، هو أن يجمعوا أكبر مقدار ممكن • تلکم هى طبيعتهم ، والطبيعة لا تكتسب بالمجان ، وانما هى ثمرة تطور وتربية على مدى قرون • ان أخلاق الأمة لا تتحول بسهولة • ان التخلص من العادات الموغلة فى القدم ، الداخلة فى اللحم ، المخالطة للدم ، أمر صعب • أيخافون اذن من المزارعين ؟ ولكن المزارعين الفرنسيين مالكون كبار • انهم أثقل المالكين ، أى هم المثل الأعلى ، هم أكمل وأحسن مثل أعلى يمكن تخيله • أهم يخافون من الشيوعيون ؟ من الاشتراكيين أخيراً ؟ ولكن هذا الحزب قد أصيب فى زمانه باخفاق كبير ، والبورجوازي يحتقره فى قرارة نفسه • هو يحتقره ، ولكنه يخشاه فى الوقت نفسه • نعم ، ذلك هو الحزب الذى يخشاه البورجوازي حتى الآن • ولكن ما الذى يخشاه منه فى حقيقة الأمر ؟ ألم يتبأ القس سيس ، فى كتيبه الشهير ،

بأن البورجوازي سوف يصبح كل شيء ؟ « ما الحالة الثالثة ؟ لا شيء .
 ماذا يجب أن تكون ؟ كل شيء . » • ولقد جاءت الأحداث مصدقة
 لما تنبأ به • ان أقواله هي ، بين جميع الأقوال التي قلت في ذلك
 العصر ، الأقوال الوحيدة التي تحققت • وهي الأقوال الوحيدة التي
 بقيت •

ولكن البورجوازي ما يزال يشعر بشكوك ، رغم أن كل ما قيل
 بعد سيس قد أجهض وزال كفقاعات صابون • لقد نودي بعدد مثلاً
 بهذا الشعار : الحرية ، المساواة ، الأخوة • عظيم ! فما هي الحرية
 المقصودة ؟ ان الحرية تساوي في نظر جميع الناس أن يفعلوا كل ما يحلو
 لهم ، في حدود القانون • متى يستطيع المرء أن يفعل كل ما يحلو له ؟
 حين يملك مليوناً • هل تهب الحرية مليوناً لجميع الناس ؟ لا ، طبعاً !
 ما انسان بدون مليون ؟ ان الانسان الذي لا يملك مليوناً ليس ذلك الذي
 يفعل كل ما يحلو له ، وانما هو الانسان الذي يفعل به كل ما يَـرَاد •
 ماذا ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عن ذلك أنه ، عدا الحرية ، هناك المساواة ،
 أو قل لمزيد من الدقة والوضوح : هناك المساواة أمام القانون • وكل
 ما نستطيع أن نقوله عن هذه المساواة أمام القانون هو أن كل فرنسي ، على
 النحو الذي تُطبَّق عليه المساواة الآن ، يستطيع بل يجب عليه أن يعدها
 اهانةً شخصية • ماذا بقي من الشعار ؟ الأخوة • ولكن هذا البند هو
 أخص البنود ، وعلينا أن نعترف بأنه ما يزال يشكّل ، في الغرب ، حجر
 العثرة الكبرى •

ان الغربي يفهم الأخوة على أنها قوة كبيرة محرّكة للانسانية ،
 دون أن يخطر بباله أنه ليس بالمستطاع أخذها من أي مكان اذا هي لم
 توجد في الواقع • فما العمل ؟ يجب خلق الأخوة مهما كلف الأمر •

ولكن خنق الاخوة مستحيل ، فالاخوة تخلق نفسها بنفسها ، وتوجد في الطبيعة ، ويتم الحصول عليها في الطبيعة . ونحن نرى في الطبيعة الفرنسيه ، وفي الطبيعة الغربيه على وجه العموم ، ان الاخوة انما يوجد في مكانها المبدأ الفردي ، مبدأ تعزيز المحافظة على الذات ، مبدأ النشاط الشخصي ، مبدأ تقرير الفرد مصيره في « ذاته » الخاصة ، مبدأ تعارض هذه الذات مع الطبيعة كلها والمجتمع كله من حيث هي عنصر مستقل متميز يساوي تماماً ويعادل كل ما يوجد في خارجه . ولا يمكن أن تنشأ الأخوة عن تعارض كهذا التعارض . لماذا ؟ لأنه في الأخوة ، في الأخوة الحقة ، ليست الشخصية المتميزة ، ليست « الذات » هي التي يجب أن تفرض حقها في المساواة وفي التعادل على كل « ما عداها » ، بل ان « ما عداها » هذا هو الذي ينبغي له أن يجيء من تلقاء نفسه الى هذه الشخصية المطالبة بحق ، أن يجيء الى هذه الذات المتميزة ، فيعترف لها ، دون أن تطلب هي ذلك ، بأنها مساوية ومعادلة في الحقوق له ، أي لكل « ما عداها » مما هو موجود . وأكثر من ذلك أن هذه الشخصية التي تثور وتطالب ينبغي لها قبل كل شيء أن تضحى بكل ذاتها للمجتمع . لا يقتصر واجبها على أن لا تطلب بحقها ، وانما ينبغي لها أيضاً أن تتنازل عن هذا الحق للمجتمع بدون أي شرط . ولكن الشخصية الغربية لم تألف هذه الطريقة في التصرف : انها تطلب في كثير من القوة والصرامة ، تطلب بحقوقها ، تطلب بالاقسام - وليس يؤدي هذا الى الأخوة . صحيح أن الانبعاث الذي يغير النفوس ممكن . ولكن هذا الانبعاث يتطلب ألوف السنين ، لأن هذه المعاني لا بد أن تنفذ الى اللحم والدم قبل أن تصبح واقعاً . لعلكم قائلون لي : فهل يجب على الانسان أن يكون مجرداً من الشخصية اذن حتى يكون سعيداً ؟ أهذا هو الخلاص ؟ ولكنني أقول : بالعكس ، فليس المطلوب أن يتجرد

الانسان من الشخصية ، وانما المطلوب تقيض هذا ، المطلوب أن يصبح شخصية ، وأن يصبح شخصية الى درجة من الشدة تفوق الدرجة التي وصل اليها تكون الشخصية في الغرب الآن . ألا فافهموا غنى حق الفهم : ان التضحية الارادية ، التضحية الواعية وعياً تاماً ، لا المفروضة فرضاً ، هذه التضحية التي يضحي الانسان فيها بوجوده كله في سبيل المجموع ، هي التي تدل في رأيي على نحو الشخصية الى الحد الأقصى ، وعلى قوة الشخصية قوةً عليا ، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الانسان بنفسه وحرية ارادته . لأن يضحي المرء بحياته طوعاً في سبيل جميع الناس ، لأن يصعد التل الذي نُصب عليه الصليب ، لأن يعتلي كومة الحطب التي سيُحرق عليها ، فذلك لا يكون ممكناً الا كانت الشخصية قد نمت الى أقصى درجة من النمو . ان الشخصية النامية نمواً قوياً ، المقتنعة اقتناعاً كاملاً بحقها في الحياة ، الشخصية التي لا تخاف على نفسها من شيء ، لا يمكن أن تنذر ذاتها لشيء غير أن تهب نفسها للجميع ، بغية أن يكون سائر الناس شخصيات مستقلة سعيدة مثلها . ذلكم هو قانون الطبيعة . ان الانسان السويّ محمول على هذا مدفوع اليه . ومع ذلك فرب شعرة ضئيلة ، رب شعرة ضئيلة جداً تخرب الآلة اذا هي اندست فيها . سأشرح ما أريد أن أقوله : انه لمؤذٍ جداً في هذه المناسبة أن يجري المرء أقل حساب في سبيل الحصول على منفعة شخصية . مثال : هبني أنذر نفسي للمجتمع وأضحى بنفسى في سبيل المجتمع . ان هذه التضحية يجب أن تكون كاملة ، وأن تكون حاسمة ، يجب أن لا يخالطها أى تفكير في فائدة ، يجب أن لا أقدر أن المجتمع سيكافئني على ذلك بأن يضع نفسه تحت تصرفي . يجب على المرء أن يضحي بنفسه تضحية تامة دون أى أمل في ثواب ، ودون أن يدفع أحد فداءً . فكيف السبيل الى هذا ؟ ان ذلك بذك بقصة الدب الأخضر الذي يحارب الماء أنه لا يتنفس .

قط • فلو حاولتم ، على سبيل التجربة ، نسيان هذا الحيوان لرأيتم أن
المعلم: ما نملك ، اف. ذاك. تك. ف. ك. لحظة • فـلـنا نـفـا رافـا نـم

المستحيل أن نفعل هذا الأمر ، وانما « ينبغي لهذا الأمر أن يفعل من تلقاء ذاته ، وأن يكون موجوداً في الطبيعة » ، منقوشاً نقشاً لاشعورياً في نفس أمة بأسرها ، أى يجب باختصار أن يوجد مبدأ أخوة ، أن يوجد مبدأ حب : يجب أن نحب • يجب أن نصبو بالفريزة والفطرة الى الأخوة ، والى المشاركة الجماعية ، والى الوفاق ، رغم الآلام التى عانتها الأمة قروناً طويلة ، ورغم الغلظة الهمجية المتأصلة ، والجهل الشديد الراسخ ، رغم العبودية القديمة والغزوات الأجنبية • وبعبارة واحدة : يجب أن تكون الحاجة الى الصلة الأخوية فطرية فى الانسان ، أو مكتسبة منذ الأزل • فما عسى تكون هذه الأخوة اذا نحن أردنا أن ترجمها الى لغة معقولة واعية ؟ انما تكون هذه الأخوة فى أن تأتى كل شخصية متميزة ، أن تأتى الى المجتمع بدون أى اكراه وبدون أية منفعة لها ، فتقول لهذا المجتمع : « ان الاتحاد وحده يصنع قوتنا ، فخذنى كلى اذا كنت فى حاجة الىّ ، ولا تبعأ بى حين تضع قوانينك ، وليس عليك أن تدارينى ، فانتى أتنازل لك عن جميع حقوقى وأضع نفسى تحت تصرفك • ان السعادة القصوى عندى هى أن أضحي لك بكل شىء ، دون أن يلحقك من ذلك أى ضرر • سوف أفنى نفسى ، وأذوب رابطة الجأش ، شريطة أن تزدهر أنت وأن تبقى » ... غير أن على المجتمع أن يقول لها من جهته : « انك تعطينا كثيراً • وما تعطينا اياه لا يحق لنا أن نرفضه ، لأنك تقولين أنت نفسك ان فى هذا سعادتك ، ولكن ما حيلتنا اذا كنا من جهتنا نعذب أنفسنا فى سبيل سعادتك • خذى منا كل شىء أيضاً • وبكل ما نملك من قوة سوف نحاول دائماً أن تملكى الحد الأقصى من الحرية الشخصية ومن الاستقلال • لم يبق هناك أعداء

تخافين منهم الآن ، لا البشر ولا الطبيعة . نحن جميعاً ندافع عنك ، نحن جميعاً نكفل لك الأمن والسلامة ، سنجهد في سبيلك بدون انقطاع ، لأننا جميعاً أخوة ؛ نحن جميعاً أخوتك ، نحن كثيرون وأقوياء . كونى هادئة كل الهدوء واثقة كل الثقة ؛ لا تخشى شيئاً ، واعتمدى علينا .

وبعد ذلك طبعاً لا يكون هنالك شيء يجب اقتسامه ، وانما يُقسم كل شيء من تلقاء نفسه . « أحبوا بعضكم بعضاً . وجميع هذه الأشياء ستوهب لكم زيادة ، * .

يا لها من مثالية فى انواقع يا أصدقائي ! ان كل شيء مبنى على العاطفة ، على الطبيعة ، لا على العقل . وهذا يُعدُّ حتى نوعاً من المذلة للعقل . فما رأيكم ؟ أمى مثالية أم لا ؟

واليكم ضربة أخرى : ما الذى يستطيع أن يفعله الاشتراكي اذا لم يوجد لدى الغربى مبدأ الأخوة ، وانما وُجد لديه المبدأ الفردى ، الشخصى ، الذى ينزل بغير انقطاع ، ويطالب بحقوقه مشهراً سيفه ؟ ان الاشتراكي اذا يرى أن الأخوة غير موجودة ، يأخذ ينادى بها ، ويدعو اليها . فهو لفقدان الأخوة يريد أن يخلق الأخوة ، أن يبعث الأخوة . فمن أجل أن نطبخ يخنة بلحم الأرنب ، لا بد لنا أولاً من أرنب . ولكن الأرنب غير موجود ، أعنى أنه لا وجود لطبيعة مؤهلة للأخوة ، لا وجود لطبيعة تؤمن بالأخوة وترنو اليها من تلقاء نفسها ! حتى اذا شس الاشتراكي من الأمر أخذ يبنى ويعرّف المجتمع المقبل ، حاسباً بالوزن والكيل . وها هو ذا يعتمد على مبدأ المنفعة ، فيشرح ويعلم ويعرض المنافع التى تتحقق فى ذلك المجتمع ، والفائدة التى يجنيها كل فرد . انه يوضح دور وتطلعات كل شخص . انه يحصى الخيرات الأرضية سلفاً ، ويحسب مقدار استحقاق كل واحد لها ، ومقدار ما يجب على كل واحد أن يضحى به منها طوعاً فى مقابل ذلك . فإى أخوة يمكن

أن توجد هنا اذا كنا نقسم هذه الخيرات منذ البداية ونحدد ما يستحقه كل واحد . ثم لقد وضعت الصيغة : « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » * . لا يمكن أن يتصور المرء صيغة أفضل من هذه الصيغة طبعاً ، لا سيما وأنها مستمدة من كتاب يعرفه الجميع . ولكن هذا نفر من الناس قد أخذوا بتطبيق هذه الصيغة ، فما هي الا ستة أشهر حتى عمد الاخوة الى احالة مؤسس المجتمع ، كايه ، الى المحاكمة . ولقد حاول أنصار مذهب فورييه ، فيما يقال ، حاولوا بآخر ما بقى معهم ، وهو مبلغ تسعمائة ألف فرنك ، أن ينشثوا جماعة اشتراكية . ولم تؤد المحاولة الى أية نتيجة . صحيح أنه أمر جميل أخاذ أن يعيش الناس على أساس من العقل ان لم يكن على أساس من الأخوة . بتعبير آخر : انه لشيء حسن أن يحميك الجميع وأن لا يطالبوك الا بالعمل والوفاء . ولكن هنا ينبجس لغز من جديد : يبدو أنهم يهبون لانسان جميع الضمانات الممكنة ، فيتعهدون باطعامه وبتأمين عمله له ، طالين في مقابل ذلك ، من أجل المصلحة المشتركة والخير العام ، أن يتنازل عن جزء يسير من حريته الشخصية . فماذا لو لم يشأ هذا الانسان أن يعيش في هذه الشروط ؟ ان افتقاده حتى هذا الجزء اليسير من حريته يشق على نفسه . هو يتخيل ، لغبائه ، أن هذا حبس ، وأن من الأفضل له أن يعيش على ما يريد له هواه حراً كل الحرية . ولكنه في الحرية يُضرب ، ولا يجد عملاً ، ويموت جوعاً ، ولا ينعم بأى استقلال . ومع ذلك يظن هذا الانسان العجيب أن الحرية أفضل . والاشتراكي لا يملك عندئذ الا أن يستاء ، وأن يعده انساناً أبله ، شخصاً متخلف العقل لا يدرك مصلحته الشخصية نفسها . وهو يضرب له عندئذ مثلاً بالنملة المحرومة من النطق ، يضرب له مثلاً بنملة هزيلة ، قائلاً له انها أذكى منه ، لأن كل

شيء في قرية النمل منظم ، فأفراد النمل جميعاً شعبةٌ سعيدةٌ ، وكل فرد من أفراد النمل يعرف عمله ، وما أوسع الشقة بين الانسان وقرية النمل !

وبتعبير آخر : اذا كانت الاشتراكية ممكنة ، فليس ذلك في فرنسا حتماً .

وعندئذ تنادى الاشتراكية بالصيغة التالية ، كآخر مورد تلجأ اليه :
 « اما الحرية والمساواة والأخوة ، واما الموت ، • ولا جدوى من المناقشة في هذه الحالة • . ويتنصر البورجوازي انتصاراً نهائياً • .

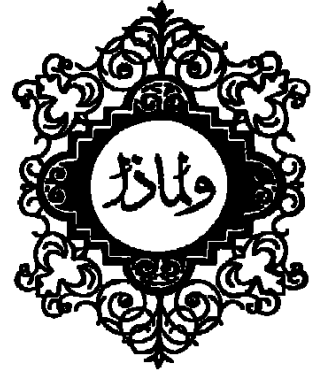
ولكن لئن انتصر البورجوازي ، فان صيغة سييس لم تتحقق اذن تحققاً حرفياً دقيقاً • . سييس يقول : ان البورجوازي كل شيء • . فلماذا يشعر البورجوازي اذن بانزعاج ، لماذا يتقلص ، ماذا يخشى ؟ الجميع تراجعوا ، الجميع انهزموا أمامه • . قبل ذلك ، في عهد لويس فيليب مثلاً ، لم يكن البورجوازي مرتبكاً هذا الارتباك ، وجلاً هذا الوجل ، مع أنه كان يحكم منذ ذلك الحين • . ولكنه كان ما يزال يكافح ويناضل ، وكان يحس أن له أعداء ، أعداء انتصر عليهم منذ أيام حزيران (يونيه) * بالبندقية والحربة • . حتى اذا انتهت المعركة لاحظ البورجوازي أنه وحده على الأرض ، وأنه ليس هناك من هو أحسن منه ، وأنه المثل الأعلى ، وأنه أصبح بعد الآن في غير حاجة الى أن يؤكد هذه الحقيقة التي لا سبيل الى جحودها ، وأن كل ما بقي عليه أن يعمل هو أن يصطنع وضعاً مهيباً وجلالاً هادئاً أمام العالم بأجمعه في مظهر الجمال الأقصى ، وجميع أنواع الكمال • . هذا موقف مريب ، شتم أم لم تشاءوا • . ولقد انقذه نابوليون الثالث من الارتباك والحرج • . جاء نابوليون الثالث كالهابط من

السماء ان صح التعبير ، جاء مخرجاً وحيداً من المصاعب ، جاء امكانية
وحيدة حينذاك • وعندئذ ازدهر حال البورجوازي ولكنه يدفع ثمن
هذا الازدهار وهذا الرخاء غالباً ، فهو يخشى كل شيء ، لا لسبب الا لأنه
وصل الى كل شيء • فمتى وصل المرء الى كل شيء ، أصبح يخاف أن
يفقد كل شيء • يترتب على هذا يا أصدقائي أن المرء تزداد خشيته بمقدار
ما يزداد ازدهاره ورخاؤه •

لا تضحكوا ، أرجوكم • فأننى أسأل أخيراً هذا السؤال : ما هو
البورجوازي الآن ؟

الفصل السابع

تمّة ما تقدم



يوجد « بين البورجوازيين نفوس كنفوس العيد
بهذا القدر الكبير » ، وذلك رغم مظهرهم الذي
يبلغ ذلك المبلغ كله من النبالة ؟ رحماك !
لا تتهمونى ، لا تصرخوا قائلين ان هذا الكلام

غلو ومبالغة ، وانه نسيمة وتجنّ ، وانه ثمرة الغيرة والحسد . الغيرة من
أى شىء ، والحسد على أى شىء ؟ ان بين البورجوازيين خدماً كثيرين ،
هذا كل ما فى الأمر ، أقوله ببساطة . ان العبودية تجتاح طبيعة
البورجوازي مزيداً من الاجتياح وتتحول الى فضيلة من الفضائل يوماً
بعد يوم . وتلكم نتيجة طبيعية وحتمية لما صارت اليه الأحوال الآن .
والطبيعة ، الطبيعة خاصة ، تساهم فى هذا . لن أمضى الى حد الادعاء ،
مثلاً ، أن التجسّس الفطرى يسيطر لدى البورجوازي . أى خليل
نبيل القلب نبلاً مثالياً لا يسارع الى أن يبيع رسائل صديقه وأن يشى
بها لزوجها فى سبيل عشرة آلاف فرنك ، اللهم الا أن يكون قد فرغ من
جمع ثروة ؟ ربما كنت أبالغ ، ولكن ربما كان قولى يستند الى وقائع
محدّدة معينة . والفرنسى يعشق أن يكون مرموقاً فى نظر السلطة
الحاكمة ، وأن يبرهن أمامها على عبوديته ، ولو على نحو مبرأ من المنفعة ،
ولو دون أن ينتظر مكافأة مباشرة ، بل مكافأة تحسب له ديناً ، وتقيد له

فى حسابى الجارى ان صح التعبير • تذكروا جميع أولئك الساعين الى
المناصب مثلاً عند جده رث تلك التفهارة الكثيرة - أنظمة الحكم -

تذكروا مكائدهم ومؤامراتهم ، تذكروا مجاملاتهم المفرطة التى لا يرون
داعياً حتى الى اخفائها ، تذكروا قصيدة للشاعر باربييه فى هذا الموضوع .
فى ذات يوم تناولت وأنا فى المقهى جريدة اليوم الثالث من تموز
(يوليو) • فوق بصرى على رسالة من مدينة فيشي • كان الامبراطور
يقيم هنالك أيامئذ ، وكذلك البلاط طبعاً • وجرت جولات على ظهور
الخياد ونزهات • فهذا هو مراسل الجريدة يصف ذلك كله ، فيبدأ كلامه
بما يلى :

« عندنا هنا كوكبة من ألمع الفرسان • ولا شك أنكم حرزتم على
الفور من هو ألمع هؤلاء الفرسان • ان صاحب الجلالة يتروّض كل يوم
بصحبة حاشيته ، النخ ، النخ ، النخ ، النخ • »

ان المرء يفهم أن يكون المراسل متحمساً للمزايا اللامعة التى يمتاز
بها امبراطوره • ففى وسعه أن يطرى فكره وعقله وسداد آرائه وكمال
صفاته ، النخ • ومن المستحيل على المرء ازاء هذه الحماسة أن يصمه
بالرياء • فلو وصمته بالرياء لكان فى وسعه أن يجيبك قائلاً : « هذا
اقتناعى » ، كما يفعل بعض صحفيينا المعاصرين • لاحظوا جيداً أنه
مكفول مأمون : ان عنده ما يرد به عليكم ليسكتكم ويفحكم • وفى طليعة
ذلك حرية الاعتقاد والرأى ، وهى الحرية الأساسية • ولكن ما الذى
يمكن أن يجيبكم به فى هذه الحالة ؟ انه لا يقيم أى وزن لقوانين
الطبيعة ، انه يدوس بقدمه كل معقولة ، وذلك لهدف يريده • ولكن
هل يجعله هذا الهدف على حق ؟ ان احداً لن يصدق ، والفارس نفسه
لن يقرأ هذه الورقة حتماً ، وهبها قرأها فهل المراسل الذى كتب هذه
الرسالة الصحفية ، وهل الجريدة التى نشرتها ، وهل مدير هذه الجريدة ،

هل هؤلاء جميعاً يمكن أن يبلغوا من الغباء مبلغاً لا يدركون معه أن العاهل ليس في حاجة كبيرة الى أن يُشْتَهر بأنه أول فارس في فرنسا ، ولا يدركون معه أن العاهل يقف على عتبة الشيخوخة ، وأنه لا يعوّل كثيراً على تلك الشهرة ، ولن يصدّق حتماً أنه أول فارس في فرنسا ولو أكدوا له ذلك ، لأنه رجل ذكي جداً فيما يقال ؟ ولكن لا ... ان هناك حساباً آخر . صحيح أن ما كتبه المراسل غير معقول ، وأنه سخف مضحك ، وأن الامبراطور لن يولى هذه المقالة الصغيرة الا ابتسامة فيها ازدياء . ولكن ، في مقابل ذلك ، سيكون تحت بصره مثال للخضوع الأعمى والعبودية التي ليس لها حدود . هي عبودية سخيفة غير معقولة ، صحيح ، ولكنها عبودية ، وذلك هو الشيء الأساسي .

فاحكموا الآن : لو لم يكن هذا مطابقاً لروح الأمة ، لو كان مثل هذا التملق لا يُعدّ ممكناً وعادياً ومن طبيعة الأشياء تماماً ، أفكان يمكن أن تُنشر تلك الرسالة ؟ في أي بلد آخر من بلاد العالم تسف الصحافة الى هذا الدرك ، وتبرهن على مثل هذا الصغار ؟ ولئن قلت : روح الأمة ، فلأن هذه الميول ليست ميول جريدة واحدة ، بل هي ميول أكثر الجرائد ، الا اثنتين أو ثلاثاً تحتفظ ببقية استقلال .

وُجدت في ذات يوم صيفاً على مائدة . كان ذلك في ايطاليا والحق يقال ، غير أن المائدة ضمت عدداً كبيراً من الفرنسيين . وكان الحديث يجري على غاريبالدي . كان جميع الناس يتحدثون عن غاريبالدي في ذلك الأوان . كان ذلك قبل حدوث ما حدث في آسبرومونت بخمسة عشر يوماً * . وكان الحاضرون يتكلمون بالغاز طبعاً ، فبعضهم يصمتون ولا يريدون أن يبدوا آراءهم ، وبعضهم يهزون رؤوسهم . وكانوا على وجه العموم يرون أن غاريبالدي قد تورط في مغامرة محفوفة بالمخاطر ، بل وفي مغامرة طائشة تنافي العقل والحكمة . ومع ذلك كانوا يعبرون

عن هذا الرأي بتحفظات ، لان غاريبالدى رجل يبلغ من علو الشأن أن ما يعده الناس تهورا يبدو فيه هو عقلاً • وشيئاً فشيئاً انتقل الحديث الى الكلام على شخصية غاريبالدى • فأخذوا يحصون مزاياه • فكان الحكم أميل الى اطراء هذا البطل الايطالى •

وها هو ذا رجل فرنسى فى نحو الثلاثين من عمره ، مهيب المنظر لطيف المظهر منطبع الهيئة بتلك النبالة الحارقة التى تفجؤك لدى الفرنسيين الى حد الوقاحة ، ها هو ذا يقول بصوت عال :
- هنالك شيء يدهشنى فى غاريبالدى • نعم ، أعترف بذلك ، هنالك واقعة أذهلتنى فيه •

التفت جميع الحضور طبعاً نحو المتحدث باهتمام مستطلعين • لا بد للصفة الجديدة المكتشفة فى غاريبالدى أن تثير اهتمام الجميع • وتابع الفرنسى كلامه يقول :

- سنة ١٨٦٠ ، تمتع غاريبالدى خلال بعض الوقت فى مدينة نابولى بسلطة غير محدودة ولا رقابة عليها * • فكان فى يده مبلغ عشرين مليوناً من أموال الدولة ! ولم يكن عليه أن يقدم كشف حساب لأحد ! كان يملك أن يأخذ هذا المال لنفسه ، وأن يتصرف فيه على ما يشاء له هواء ، دون أن يخشى أية مطالبة • فبدلاً من أن يأخذ شيئاً لنفسه ردّ المال كله الى الحكومة حتى آخر قرش • ذلك أمر لا يكاد يصدقه العقل !

وكانت عينا المتحدث تسطعان سطوعاً قوياً أثناء كلامه عن هذه العشرين مليوناً •

من الممكن طبعاً أن يقصى المرء كل ما يشاء أن يقصه عن غاريبالدى • أما أن يوازن بينه وبين أولئك الناس الذين يسطون على أموال الدولة ، فذلك أمر لا يستطيعه الا فرنسى • وما أكبر السذاجة والبسطة اللتين

ظهرتا عليه وهو ينطق بهذا الكلام ! ان المرء يغفر للسذاجة كل شيء طبعاً ، يغفر لها حتى فقدان الاحساس الحقيقي بالشرف والامانة . ولكنى لم أملك وأنا أتأمل الشخص الذى يعبت هذا العبث ويمزح هذا المزاح وهو يتذكر مبلغ العشرين ميلوناً ، الا أن أقول بينى وبين نفسى :

« هيه ، هيه ، أيها الرجل الشهم الشجاع ! ماذا لو كنت ممسكاً بالدفة عندئذ فى مكان غاريبالدى ! »

سقولون لى اننى ظالم مرةً أخرى ، فهذه حالات خاصة ، وأمثلة فردية ؟ وسقولون لى ان فى بلادنا حالات كهذه الحالات ، وليس من حقى أن أعمم هذا التعميم . أنا لا أتكلم عن جميع الفرنسيين طبعاً . فالنبالة التى لا توصف موجودة فى كل مكان . ولعلنا رأينا فى بلادنا ما هو شر من ذلك أيضاً . ولكن لماذا يجعلون من هذا فضيلة ؟ هل تريدون أن أفصح لكم عن رأى ؟ قد يكون أحد الناس ندلاً دون أن يفقد الاحساس بالشرف . وهناك طائفة كبيرة من ناس شرفاء ، لكنهم فى مقابل ذلك فقدوا الاحساس بالشرف ، فهم لذلك يرتكبون أعمالاً دنيئة ، دون أن يعلموا انهم يتصرفون بدافع الفضيلة . فالفتة الأولى أقسد من الثانية طبعاً ، ولكن الفتة الثانية أجدر بالاحتقار شتم أم أبيتم . ان مثل هذا التعليم للفضائل هو عرض من أعراض المرض فى حياة أمة . أما ما قلتموه عن الحالات الخاصة فلست أريد أن أناقشكم فيه . هل تتألف الأمة الا من حالات خاصة ؟ أصحيح هذا أم غير صحيح ؟

لا بل اليكم رأى . لعلنى قد أخطأت أيضاً وجافيت الصواب حين زعمت أن البورجوازي يتقلص ، وأنه ما يزال يخشى شيئاً ما . صحيح أنه يغضب وأنه يشعر بمخاوف . ولكن اذا وضعنا قائمة بالأمر وجدنا أن البورجوازي يزدهر ازدهاراً كاملاً . ورغم أنه يضل هو نفسه فيكرر قائلاً لنفسه فى كل لحظة ان كل شيء يجرى على ما يرام ،

فان ذلك لا يفسد ما يبدو عليه في الظاهر من ثقة • أكثر من ذلك : انه حتى في قرارة ضميره واثق من نفسه الى أبعد حدود الثقة حين يحتاج •

كيف يجتمع هذا كله في نفسه ؟ كيف يتصالح هذا كله في نفسه ؟ ذلك سؤال يلقيه الآن حقاً • ولكن هذا هو الواقع • هكذا هي الأمور • ليس البورجوازي على وجه العموم بالنبي ، فكره قصير جداً ، كأنه جزء من فكر • انه يملك ثبوتة ضخمة من الأفكار الجاهزة ، كمثونة الحطب التي ندخرها للشتاء البارد ؟ وهو يحوّل جاداً على أن يعيش بها ألف سنة اذا لزم الأمر • ولكن ماذا أقول ؟ ان البورجوازي قلماً يتكلم عن ألف عام ، اللهم الا حين يستسلم للفصاحة والبلاغة في أكثر تقدير • والقول المأثور « من بعدى الطوفان ، مطبّق في أحيان أكثر •

وما أقل اكراته بكل شيء ، وما أشد اهتمامه بالترهات الباطلة ! ضمنى مجتمع باريس في منزل كان يرتاده عندئذ عدد كبير من الناس • كان يبدو على الجميع أنهم يخشون أن يعالجوا أى موضوع يخرج عن المؤلف ، وأن يتحدثوا ، بدلاً من حديثهم في الترهات ، أن يتحدثوا في مسائل عامة لها شأن اجتماعي • في رأي أن الخوف من الجواسيس لم يكن له دخل في موقفهم هذا • كل ما في الأمر أنهم جميعاً قد فقدوا القدرة على أن يفكروا وأن يتكلموا في أمور جدية • وكان هناك من جهة أخرى أناس اهتموا كثيراً بانطباعاتي عن باريس ، فأخذوا يستطلعون مدى اعجابي بها ، ودهشتي منها ، وانسحافي تحت وطأتها ، وانعدامي بتأثير روعتها • ان الفرنسي ما يزال يعتقد أنه قادر روحياً على أن يسحق وعلى أن يُعْدم • ذلك أيضاً عرض من أعراض مرض يبعث على الضحك • واني لأتذكر على وجه الخصوص شيخاً قصيراً رائعاً قد محضته عاطفة صادقة • كان ينظر الىّ محدقاً ويسألني عن رأيي في باريس ، فيشعر بحزن حين لا يرى أن حماسي لباريس

شديدة • كان وجهه الطيب يعبر عن ألم حقيقي ، لست أبالغ •
أوه ! عزيزي • • • • ر ! انك لن تستطيع في يوم من الأيام أن تجرد أيّ
فرنسي ، أعني أيّ باريسى (ذلك أن جميع الفرنسيين باريسيون في
حقيقة الأمر) ، من فكرة أنه أول انسان على وجه الكرة الأرضية •
وهو ، من جهة أخرى ، لا يعرف من الكرة الأرضية الا قليلاً جداً
باستثناء باريس ، ولا يحرص على أن يعرفها أيّ حرص •

على ان الخاصة التي تميّز الفرنسي أكثر مما تميّزه أية خاصة
أخرى انما هي البلاغة أو الفصاحة • ان حب بلاغة اللسان وحسن البيان
لا ينطفيء أواره في نفس الفرنسي ولا يزداد بتقدم السنين الا تأججاً •
وددت لو أعرف متى بدأ حب بلاغة اللسان وحسن البيان هذا في فرنسا •
لا شك أنه قد اتسع اتساعاً كبيراً في عهد لويس الرابع عشر • من
الأمور البارزة أن كل شيء في فرنسا يرجع تاريخه الى عهد لويس
الرابع عشر • غير أن ما هو أبرز من ذلك أن كل شيء يرجع تاريخه
في أوروبا كلها أيضاً الى عهد لويس الرابع عشر • اننى لا أصل الى فهم
قوة الاغراء والفتنة في هذا الملك ! ذلك أنه لا يفوق كثيراً سائر الملوك
الذين سبقوه • لأنه كان أول من قال : « الدولة هي أنا » ؟ لقد نالت هذه
الكلمة اعجاباً ضخماً وانتشرت في أوروبا كلها • أظن أن هذا وحده
قد جعله شهيراً • حتى في بلادنا عرفها الناس بسرعة مذهشة • لقد كان
هذا الملك ، لويس الرابع عشر ، قومياً الى أبعد حد ، يمثل الروح
الفرنسية كل التمثيل ، بحيث أننى لا أفهم حتى كيف أمكن أن تحدث
في فرنسا جميع تلك « الشيطانات » * • • • في آخر ذلك القرن نفسه •
وقد عاد الناس بعد جنون متكرر الى الروح القديمة • انهم يميلون اليها
ويتجهون نحوها • ولكن بلاغة اللسان • • • آ • • • بلاغة اللسان • • •
هي حجر عثرة بالنسبة الى الباريسى • ان الباريسى مستعد لأن ينسى من

الماضي كل شيء ، كل شيء تماماً ؟ مستعد لأن يُجرى أحاديث معقولة الى أبعد حد ، وأن يكون من أطوع التلاميذ وأكثرهم جدّاً واجتهاداً . ولكن بلاغة اللسان ، بلاغة اللسان وحدها لا يمكن حتى الآن أن تمحي من ذاكرته . انه يشناق الى بلاغة اللسان ، ويصبو اليها ويتلهف عليها . انه يتذكر تير ، وجيزو ، وأوديلون بارو ؟ ويقول لنفسه أحياناً وهو يتنهد « كانوا بلغاء في ذلك الزمان » ، ثم يطرق واجماً مفكراً . وقد أدرك نابوليون الثالث هذه الحقيقة ، فسرعان ما قرر أن على جاك بونوم أن لا يطرق واجماً مفكراً ، وسرعان ما عمل على اصلاح حال البلاغة . ومن أجل هذا يحتفظون في « الهيئة التشريعية » بستة نواب لبرالين ، أى ستة نواب قد يكونون أناساً لا يمكن افسادهم ، ومع ذلك فان عددهم ستة ، ولم يكونوا الا ستة ، ولن يكونوا الا ستة . لن يزيد عددهم ولن ينقص ، اطمثنوا ! ان هذا يبدو معقداً جداً من أول نظرة . ولكن الأمر أبسط من ذلك كثيراً في الواقع ، وهو يتم بواسطة « الاقتراع العام » . صحيح أن جميع الاجراءات المناسبة تُتخذ من أجل منعهم من الافاضة في الكلام كثيراً . ولكنهم يُسمح لهم بأن يثرثروا . في كل سنة ، تناقش في الوقت المناسب ، المسائل السياسية الهامة ، فيتأثر الباريسي تأثراً ناعماً ، وتهتز نفسه اهتزازاً رقيقاً . هو يعلم أنه سيسمع كلاماً فصيحاً ، وسينعم بلغة بليغة ، فييتهج بذلك ويعتبط . صحيح أنه لا يجهل أن كل شيء سيقصر على طوفان من الكلمات التي لن تؤدي الى أية نتيجة . ولكنه سعيد بذلك . وهو نفسه أول من يجد هذا كله معقولاً جداً . وان خطب بعض هؤلاء الأعضاء الستة تتمتع بشعبية خاصة . والعضو مستعد دائماً لأن يسهب في الخطابة ليسلّي الجمهور . شيء غريب : انه مقتنع هو نفسه بأن خطبه لن تؤدي الى شيء ، وأن الأمر

كله لا يعدو أن يكون مزاحاً ، أو لعبة بريئة ، أو حفلة مرح . ومع ذلك فهو يتكلم ، يتكلم عدة سنين متتالية ، ويحسن الكلام ، حتى يشعر بلذة قوية . وزملاؤه يتهللون طرباً عند سماعه . « انه يحسن الكلام ! » .

والرئيس يطرب ، وفرنسا كلها تطرب . ولكن العضو ينهى خطابه ، فاذا بمربي هؤلاء الأطفال الطيعين المهذبين ينهض هو أيضاً ، فيعلن أن « الانشاء » الذى دبجته يراعة العضو عن الموضوع المطروح ، وهو :

« شروق الشمس » ، قد أجاد العضو المحترم معالجته وبخشه ، واتنا « أعجبنا بموهبة الخطيب المحترم ، وبآرائه وبما تدل عليه هذه الآراء من سلوك ممتاز ، وأتينا جميعاً قد أخذنا وقتنا . . . ولكن رغم أن العضو المحترم جدير حقاً بمكافأة على حسن السلوك والجد والاجتهاد ، فإن خطاب العضو المحترم ، يا أيها السادة ، هو بسبب اعتبارات عليا عديم القيمة لا يساوى شيئاً . آمل ، أيها السادة ، أن تكونوا على اتفاق معى فى الرأى » . وهو فى تلك اللحظة يلتفت الى أعضاء المجلس وتقسو نظرتهم ، فاذا بالأعضاء الذين كانوا يتهللون طرباً منذ قليل ، يصفقون للمربي بحماسة عارمة ، ولكن هذا لا يمنعهم من أن يضافحوا زميلهم اللبرالى مهئين ، وأن يشكروا له ما أتاحه لهم من متعة ، وأن يرجوه تكرار هذه المتعة فى المرة القادمة ، باذن من المربي . ويوافق المربي على ذلك هاشأً باشأً . ويخرج كاتب موضوع « شروق الشمس » معتزلاً بما أصاب من توفيق وحقق من نجاح ؟ ويعود الأعضاء الى أسرهم وهم يتلمظون ؟ ومن شدة فرحهم يقومون عند المساء بنزهة فى « الباليه رويال » متأبطين أذرع حليلاتهم ، مصغين الى خرير المياه المتدفقة من نوافير الماء التى ترطّب الجو ، بينما يصرح المربي لفرنسا كلها ، بعد أن يكون قد كتب تقريراً لمن يجب أن يكتب له التقرير ، يصرح لفرنسا كلها أن كل شيء يجرى على خير حال .

ويحدث من جهة أخرى في بعض الأحيان ، متى كان الأمر أمر قضايا أهم ، أن يعمدوا الى اللعبة الكبرى ، فيؤتى الى إحدى الجلسات بالأمير نابوليون نفسه * ، فيأخذ الأمير نابوليون فجأة بالمعارضة ، فيجزع جميع هؤلاء التلاميذ الصغار • ، يسود الفصل صمتٌ مهيب • . يمثل الأمير دور اللبرالى • الأمير ليس على اتفاق مع الحكومة • هو يرى كيت وكيت • الأمير ينتقد الحكومة • انه ، باختصار ، يقول ما كان يمكن أن يقوله (فيما يُفترض) هؤلاء الأولاد اللطاف ، لو ترك المعلم الفصل لحظةً من اللحظات • يقوله هو أيضاً باعتدال طبعاً • ولكن هذا الافتراض باطل ، لأن جميع هؤلاء الأولاد اللطاف يبلغون من حسن الأدب وكمال التهذيب أنهم لا يتحركون ولو غاب المعلم أسبوعاً كاملاً • حتى اذا انتهى الأمير نابوليون من كلامه ، نهض المعلم وأعلن في مهابة وفخامة أن موضوع « الانشاء » ، وهو : « شروق الشمس » ، قد عولج من قبل الخطيب معالجة كاملة وبُحث بحثاً ممتازاً • لقد أعجبنا بموهبة الأمير ، وبآرائه التى عبّر عنها تعبيراً بليغاً ، وبالفضائل التى يتحلى بها • • • فنحن مستعدون لأن نهدي اليه جائزة المواظبة وحسن الاجتهاد ، ولكن • • • النخ (راجع ما سبق) • فيصفق جميع تلاميذ الفصل طبعاً ، بحماسة تبلغ حد الجنون • ويعاد الأمير الى بيته • ويترك التلاميذ المؤدبون المدرسة ، كقديسين صغار ، ويتزهون فى المساء مع حليلاتهم فى « الباليه رويال » ، منصتين الى تدفق المياه من النوافير التى ترطب مياهها الجو ، النخ ، النخ • • • أى ، باختصار ، يسود نظام مدهش •

فى مرة من المرات ، ضللنا طريقنا فى « قاعة الخطى الثامنة » من قصر العدل ، فبدلاً من أن نصل الى محكمة التأديب وصلنا الى المحكمة المدنية • كان هناك محام مجعّد الشعر يرتدى ثوب المحاماة والقلنسوة ، وكان المحامى بسبيل القاء مرافعة ، فكان ينثر لآلىء من البلاغة والفصاحة ،

وكان جمهور المستمعين يرتعشون حماساً • ان صمتاً دينياً يرين على
الجو • دخلنا سائرين على رءوس أصابع الأقدام • كانت القضية التي
يترافع فيها المحامي قضية ميراث • وكان عدد من الرهبان داخلين في

أسرتها شيئاً بعد شيء • « حتى ابنة أختها ، التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، والتي هي ملاك من ملائكة الطهارة والبراءة ، والتي كانت تحب خالتها أكثر مما تحب أى شيء فى هذا العالم ، أصبحت لا تجرؤ أن تدخل حجرة خالتها العزيزة التي تحبها أكثر من أى شيء فى هذا العالم ، وأصبحت الخالة لا تستطيع ، بعد مكائد غامضة مريبة ، أن تطيع قبلةً على « جينها العذراوى » الذي يستقر فيه الملاك الأبيض ، ملاك الطهارة والبراءة • • • • • باختصار ، كان الأسلوب كله يجرى هذا المجرى : أسلوب معجز ! كان المحامى يتהלل طرباً ويطير فرحاً لاجادته الكلام هذه الاجادة ، وكان رئيس المحكمة والحاضرون يتهللون طرباً ويطيرون فرحاً كذلك • هكذا فقد الآباء الروحيون قضيتهم بسبب البلاغة وحدها • ولكن الآباء الروحيين لا يرضون أن يُجندلوا : لئن خسروا قضية ، انهم ليربحون خمس عشرة قضية •

سألت طالباً شاباً كان بين الحضور المحترمين :

— من هذا المحامى ؟

كان فى المحكمة عدد غفير من الطلاب ، وكانت تبدو عليهم جميعاً مظاهر الجِد والاهتمام •

نظر الى الطالب مدهوشاً • ثم أجابنى أخيراً وقد ظهرت فى وجهه معانى اشفاق فيه احتقار أخجلنى ، أجابنى بقوله :

— جول فافر * •

هكذا أتبع لى أن أعرف زهرات البلاغة الفرنسية ، وأن أقع على هذه البلاغة الفرنسية فى منبعها الرئيسى ان صح التعبير •

ولكن هذه المنابع كثيرة لا يُحصى عددها • ان البورجوازي مُشبعٌ بالبلاغة حتى أطراف أظافره • ذهبنا ذات يوم الى الباتيون

لنرى العظماء • ذهبنا فى ساعة ليست هى ساعة الزيارة فدفعنا فرنكين
اثنين • نهض أحد مشوِّهى الحرب فتناول المفاتيح وقادنا الى آقبة
الكنيسة • فكان أثناء الطريق ما يزال يتكلم كما يتكلم سائر الناس ،
على شئ من المغفمة بسبب فقدانه أسنانه • ولكن ما ان صرنا فى الآقبة ،
حتى أخذ يتدفق فى الكلام منذ وقفنا أمام أول ضريح :

— « هنا يرقد فولتير ، فولتير ، تلك العبقرية العظمى من عبقریات
فرنسا الجميلة • لقد اجتث الأوهام ، وهدمَّ الجهل ، وصارع شيطان
الظلام ، وأمسك شعلة الضياء • بلغ فى تراجيدياته ذروة الروعة ، رغم
أن فرنسا كانت تملك قبله شاعرها كورنى » •

واضح أن الرجل كان يلقي درساً نحفظه على ظهر القلب • ان
أحداً قد كتب له هذه العبارات الطويلة على ورقة ، فحفظها ليردها الى
آخر حياته • حتى لقد كان وجهه العجوز يشرق رضى وسروراً وفرحاً
منذ أن بدأ يتلو أمامنا عباراته الجميلة تلك •

وتابع كلامه قائلاً وهو يقترب من ضريح آخر :
— « هنا يرقد جان جاك روسو ، جان جاك روسو رجل الطبيعة
والحقيقة ، * •

شعرت فجأة برغبة فى أن أضحك • ان كل شئ يمكن جعله
بالأسلوب النيل الرفيع تافهاً مبتذلاً • ولكن كان واضحاً أن العجوز

أراد المسكين أن يجيب ، فقال :

— مسيو ، مسيو ...

ولكنه سرعان ما صمت وقادنا بسرعة الى ضريح آخر .

وقال بصوت مرعد من جديد :

— هنا يرقد « لان » ، المارشال لان ، وهو واحد من أعظم الأبطال الذين أنجبتهم فرنسا ، وما أكثر ما أنجبت فرنسا من أبطال ! .. لم يكن ماريشالاً عظيماً فحسب ، لم يكن أبرع قادة الامبراطور فحسب ، بل كان ينعم الى ذلك بشراء طائل . وكان صديق ...

قلت رغبةً في اختصار خطابه :

— نعم ، كان صديق نابوليون ...

فقاطعني الرجل قائلاً بلمهجة تتم عن شيء من الاستياء :

— مسيو ... مسيو ... ذعني أتمم كلامي .

— تكلم ، تكلم ، أنا مصغ اليك .

— بل كان ينعم الى ذلك بشراء طائل ، وكان صديق الامبراطور . ما من أحد بين جميع ماريشالات الامبراطور حظي بأن يكون صديق الامبراطور . المارشال « لان » وحده استحق هذا الشرف . وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه ...

— نعم ، نعم ، تحطمت ساقاه بقنبلة ...

صاح الرجل يقول بصوت يوشك أن يعبر عن شكاة وضراعة :

— مسيو ، مسيو ... دع لي أن أتكلم أنا ... ربما كنت تعرف

هذا كله ... ولكن دع لي أن أتكلم أنا أيضاً ! .

كان هذا الانسان العجيب يحترق شوقاً الى أن يتكلم ، رغم أننا
نعرف جميعاً كل ما سيرويه •

استأنف يقول :

– وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه تأثر الامبراطور
تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقدته ، و ...

لم أستطع أن أمتنع عن الكلام ، فقلت مكملًا :

– وجاء يودّعه

ولكنني سرعان ما شعرت بخطئي ، حتى لقد خجلت •

قال الشيخ متوسلاً متضرعاً ، وهو يحدجني بنظرة عتب رقيق
ويهنز رأسه الأشيب :

– مسيو ، مسيو ... أنا أعلم ... أنا على يقين من أنكم تعرفون
هذا كله ، وربما كنتم تعرفونه خيراً مما أعرفه • ولكنكم اخترتموني من
تلقاء أنفسكم دليلاً لكم • فاطر كوني أتكلم • لن يطول كلامي الآن ...
اذن تأثر الامبراطور تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقدته (بكى حيث
لا ينبغي بكاءه ، وأثناء ذلك ، كما تأثر ، كما تأثرت ...)

وحزنت فرنسا كلها ، ودنا الامبراطور من سرير المحتضر ، فخفف
حضوره هذا آلام القائد الذي لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة على مرأى
من الامبراطور تقريباً •

ثم أضاف الرجل يقول بنظرة لوم وعتب :

– انتهى كلامي يا سيدي •

وانتقل الى مكان آخر • وأردف يقول وهو يوميء برأسه الى قبور
أخرى توجد على مقربة منا :

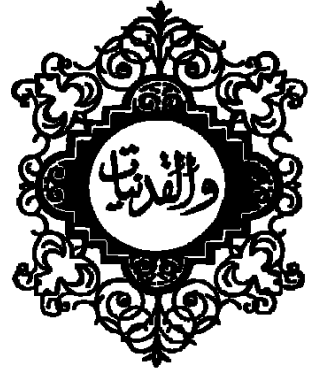
— وهذه مقبرة أخرى ... انها تضم وفات عدد من أعضاء مجلس
الشيوخ ...

قال ذلك بلهجة تدل على قلة الاكتراث . لقد استنفد بلاغته كلها
في الكلام على فولتير وجان جاك روسو والماريشال « لان » .

كان ذلك مثالا مباشرا ، مثارا شعبيا ان صح التعبير ، على حب
البلاغة لدى الفرنسيين . أصبح أن جميع هذه الخطب التي ألقاها
خطباء المجلس الوطني ومجلس الثورة والنوادي ، والتي كان يشارك
فيها الشعب مشاركة تكاد تكون مباشرة والتي كانت تعيد تربية الشعب
تربية جديدة ، أصبح أن هذه الخطب لم تترك في الشعب الا أثرا
واحداً : حب البلاغة للبلاغة ؟

الفصل الثامن

حيبي وغزالي



القرينات تزدهر حالهن ويعلو شأنهن كما سبق أن قلت • بالمناسبة : سوف تسألونني لماذا أقول القرينات بدلاً من أن أقول الزوجات ؟ السبب هو الأسلوب الرفيع يا سادتي ! ان البورجوازي يقول دائماً : « قرينتي » ، حين يتكلم بأسلوب رفيع نبيل • ورغم أن الناس في الطبقات الاجتماعية الأخرى ، كما في كل مكان ، يقولون : الزوجة ، فان من الأفضل أن تتبع الروح القومية لدى الأكثرية ، وأن تتبع البيان الرفيع • ذلك أقرب الى ابراز خصائص المجتمع الذي نتحدث عنه • على أن هناك تسميات أخرى • فحين يريد البورجوازي أن يصطنع العاطفة أو أن يخون زوجته فانه يخاطبها دائماً بقوله : « يا غزالي » • وكذلك فان الزوجة التي لها عشيق تخاطب زوجها البورجوازي العزيز بقولها « يا حيبي » حين تستبد بها نوبة فرح رقيق ، وهذا أمر يرضى عنه البورجوازي كثيراً من جهته • ان كلمتي « حيبي » و « غزالي » رائجتان مزدهرتان الآن أكثر من أي وقت مضى ! واذا صرفنا النظر عن أن « حيبي » و « غزالي » ، المتفق (ضمناً على وجه التقريب) على أنهما يمثلان الفضيلة والوفاء وطهارة الحب في عصرنا المعذب هذا ، على

نقيض رأى أولئك الأوغاد الشيوعيين انكريهين ، اذا صرفنا النظر عن هذا ، فان « حيبى » يصبح أكثر ليونة وأشد طواعية وسهولة من الناحية الزوجية سنة بعد سنة . انه يدرك أن جميع أنواع التوبيخ الشديد والتقريع القاسى ، وجميع صنوف الاحتياط والحذر ، عاجزة عن أن تصد « غزالتى » ، وأن الباريسية انما خلقت للعشيق ، وأن الزوج لا حيلة له فى أن يتحاشى أن يكون له قرنان . فهو لذلك يصمت . ولكنه انما يصمت قبل أن يجمع مبلغاً كبيراً وأن يقتنى أشياء كثيرة . حتى اذا توافر له هذا الشرطان ، أعنى المبلغ الكبير والأشياء الكثيرة ، فان « حيبى » يصبح أكثر تشدداً ، لأنه يأخذ يخترم نفسه احتراماً كبيراً ويقدر نفسه قدراً عظيماً . وعندئذ انما يأخذ ينظر الى جوستاف بعين أخرى ، لا سيما اذا كان جوستاف وغداً من الأوغاد .

نستطيع أن نقول على وجه العموم ان الباريسى الذى يملك ايراداً ولو ضئيلاً ، انما يبحث ، حين يرغب فى الزواج ، عن خطيبة مناسبة من الناحية المالية . أكثر من ذلك أنهم يضعون كشفاً بالايادات فى أول الأمر ، فاذا كانت ايرادات كل من الطرفين مكافئة لايرادات الآخر تم الزواج . فاذا فرضنا مثلاً أن رأس مال الخطيبة أكبر ولو قليلاً من رأس مال الخطيب رفض الخطيب ، وجرى البحث عن رجل أنسب . يضاف الى ذلك أن الزواج القائم على الحب يصبح مستحيلاً أكثر فأكثر ، حتى ليكاد يعد زواجاً غير لائق . وقلما يخرج أحد على هذه القاعدة الحكيمة أو يخل بها ، أعنى قاعدة التساوى المطلق بين محتويات جيب كل من الخطيبين واتحاد رأس مال كل منهما برأس مال الآخر ، او قولوا على الأقل ان الاخلال بهذه القاعدة أندر هنا منه فى أى مكان آخر . ان البورجوازي قد نظم التمتع برأس مال زوجته لمصلحته . وذلكم هو السبب فى أنه مستعد لأن يفضى فى مناسبات كثيرة جداً عن المغامرات

التي تقوم بها « غزالتى » ، ولأن لا يلاحظ بعض الأشياء التي تسوء ملاحظتها ، والا فلو تم الانفصال بينه وبين زوجته لكان من الممكن أن تثار قضية المال الذي دفعته الزوجة مهرأ . وإذا ظهرت على « غزالتى » فى بعض الأحيان أناقة فوق مستوى موارد الأسرة فان « حيبى » يَغضى عن ذلك ، لأن « غزالتى » ستطالبه من أجل زينتها بمبالغ أقل ، وستكون أكثر اراحة له وأقل ازعاجاً . واذ كان الزواج اتحاد رأس مال برأس مال الى حد بعيد ، واذ كانت العاطفة المتبادلة ليس لها شأن كبير ، فان « حيبى » لا يكره أن يتطلع الى غزالات أخرى غير غزالتة . لذلك كان الأفضل أن لا يضايق أحد الزوجين صاحبه . وبهذا يسود الأسرة وفاق أعظم ، ويتبادل الزوجان ألقاباً أرق وأجمل . ثم ان « حيبى » قد عرف كيف يضمن الأمور لنفسه . ان مفوض الشرطة فى خدمته دائماً ، وذلك وفقاً للقوانين التي منحها هو لنفسه . فيستطيع ، فى أسوأ الأحوال ، اذا هو فاجأ العشيقين « متلبسين بالجرم » ، أن يقتلها دون أن تقع عليه أية مسؤولية . و « غزالتى » تعرف هذا ولا ترى فيه ضيراً . ان وصاية طويلة الأمد قد شكلت « غزالتى » على صورة معينة ، فهي لا تتذمر ، ولا تحلم (كما فى بعض البلاد الهمجية المضحكة) أن تتعلم فى الجامعة مثلاً ، وأن يكون لها مناصب فى النوادى أو مقاعد بين النواب . انها تؤثر أن تظل فى وضعها الطليق الحر الراحن ، كطائر الكنارى . انهم يزئنونها ، ويلبسونها أجمل اللؤلؤ ، ويقودونها الى النزهات . وهى ترقص ، وتقضم سكاكر ، وهى تُستقبل فى الظاهر كما تُستقبل ملكة ، والرجل فى الظاهر جاث عند قدميها . ان هذا الشكل من العلاقات قد رتب ترتيباً موفقاً مناسباً فى آن واحد . هذه علاقات تسيطر عليها روح الفروسية ، فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لن ينتزعوا من المرأة عشيقها جوستاف ، وهى لا تتوق الى أهداف سامية نبيلة فى الحياة ، الخ . وانها فى حقيقة الأمر رأسمالية ومقترة كزوجها .

حتى اذا انقضى عهد طائر الكنارى ، أى حين تصل الزوجة الى النقطة التى يستحيل عليها أن تخون زوجها ، وأن تظن نفسها طائر كنارى ، حين يبدو لها أن العثور على جوستاف جديد أمر يستحيل أن يتخيله أحرّ خيال وأطوع خيال ، فان « غزالتى » تبدل عندئذ تبديلاً مفاجئاً موسفاً • وداعاً عهد الغندرة والغنج والدلال والتزين والفرح ! انها تصبح فى كثير من الأحيان حادة الطبع ، مقترنة ، ترتاد الكنائس ، تدّخر المال مع زوجها ؛ ان نوعاً من الاستهتار يغزوها من كل صوب • وعندئذ تظهر السامة ، والحسرة ، والغرائز الفظة ، وغرور الحياة ، والأحاديث البذيئة • حتى أن بعض النساء يهملن أنفسهن حينذاك • غير أن هناك حالات أكثر ابهاجاً بطبيعة الحال • وصحيح أن أمثال هذه العلاقات الاجتماعية موجودة فى كل مكان ، ولكن ... هى هنا أقرب الى طبيعة الأمور ، هى هنا أكثر أصالةً وعفوية ، هى هنا أشد وأقوى ، هى هنا قومية أكثر مما هى كذلك فى أى مكان آخر • هنا منبع وبذرة ذلك الشكل البورجوازى للمجتمع ، ذلك الشكل الذى يسود العالم كله الآن على صور تقليدٍ مستمر ودائم للأمة الكبرى •

نعم ، ان « غزالتى » ملكة فى الظاهر • ان من الصعب على المرء أن يتصور ما تحاط به فى كل مكان من أدب لطيف ورعاية مزعجة ، فى المجتمع والشارع • ويبلغ هذا كله من شدة الرهافة ، ويبلغ أحياناً من فرط البشاعة أن النفس المستقيمة الصادقة لا يمكن أن تطيقه • ذلك أن المخادعة الواضحة فى هذا الرياء السافر لا بد أن تسوءها حتى أعماق القلب • ولكن « غزالتى » نفسها مخادعةٌ كبرى ... فهى لا تطلب شيئاً آخر غير المخادعة والغش ... انها تؤثر المكر دائماً على الأساليب المستقيمة التى ليس فيها لف ولا دوران ولا التواء : ذلك فى رأى

أضمن ، فهو يدع للعب مجالاً أكبر . واللعب ، فى نظرى « غزالتى »
يفوق كل شئ . ؟ اللعب والمكر هما فى المقام الأول .

وفى مقابل ذلك ، انظر الى ملابسها ، انظر كيف تخطر فى الشارع!
ان « غزالتى » تحب الأوضاع المصنوعة المتكلفة الحالية من كل ما هو
طبيعى . ولكن هذا أيضاً يثير الاعجاب ، ولا سيما اعجاب الفاسدين ،
الفاسقين بعض الفسق ، الذين فقدوا حب الجمال الغض النظر الطبيعى .
و « غزالتى » ليست الا على خط ضئيل جداً من النمو . ان لها دماغ
عصفور وقلب عصفور . ولكن ما أرشقها فى مقابل ذلك . ان لديها
مخزناً زاخراً بالأسلحة المصطنعة ، فما ان تستول عليك حتى تتبعها كما
تتبع شيئاً جديداً لاذع النكهة . يندر أن تكون جميلة . حتى أن وجهها
يتسم بالحُبث والشر . ولكن أى بأس فى هذا ؟ ان فى هذا الوجه
حركة وبشراً ، وهو يجيد اصطناع العاطفة وافتعال الطبيعة اجادة تبلغ
درجة الكمال . ربما لم تكن هذه المحاكاة للطبيعة هى التى تعجبك فيها ،
ولكن الذى يعجبك فيها هو حسن تدبرها للأمر . ان فيها هو الذى
يفتتك . وفى أكثر الأحيان يكون التظاهر بالحب مساوياً للحب الحقيقى
فى نظر الباريسى ، حتى لقد يرضيه التظاهر بالحب ارضاءً أكبر .
هناك طريقة شرقية فى النظر الى الأمور تظهر مزيداً من الظهور فى
باريس يوماً بعد يوم : ان غادات الكاميليا تروج « موضتهن » أكثر فأكثر .
« خذى المال ، وأجيدى الخداع ، أى برهنى عليه أو تظاهرى به . »
ذلك ما يُطلب منهم . ولا يكاد يطلب أحد من « قرينته » أكثر من
هذا ، أو هو يكتفى به على الأقل . لذلك يُقبل العشيق جوبستاف
بتسامح ضمنى . زد على ذلك أن البورجوازي يعرف أن « غزالتى »
ستتذر حياتها كلها لمصالحه حين تدلف الى الشيخوخة ، وأنها ستكون
نعمَ العون له على كنز المال وجمع الثراء . وهى تعينه حتى أثناء

شبابها • فهي في بعض الأحيان تتولى تجارةً بكاملها وتجذب الزبائن ،
 أى تكون ساعده الأيمن وتكون في محل البائع الأول • فكيف لا يغفر
 والحالة هذه أن يكون لها خليل اسمه جوستاف ؟ المرأة في الشارع
 لا تُمس • ما من أحد يسيء إليها • جميع الناس يقدّمونها على أنفسهم ،
 خلافاً لما يجري في بلادنا روسيا حيث لا تستطيع امرأة ، اللهم الا أن
 تكون عجوزاً ، لا تستطيع أن تخطو في الشارع خطوتين دون أن يحملق
 فيها دون جوانٌ ما ، ويعرض عليها التعارف •

على أن الشكل العادي المألوف للعلاقات بين «حيبي» و «غزالتى» ،
 رغم امكان وجود عشيق اسمه جوستاف ، هو شكل لطيف جداً ، حتى
 لقد يكون ساذجاً في كثير من الأحيان • ولقد فاجأني هذا الأمر بوجه
 عام : يكاد يكون جميع الأجانب أسذج كثيراً من الروس • يصعب شرح
 هذا • • • • •

الروسي ريثاب ساخر • : هذا ما يقوله عنا الفرنسيون • وهو حق •
 نحن أكثر استخفافاً ، نحن أقل تعلقاً بترائنا ، حتى اتنا لا نحب هذا
 التراث ، أو نحن على الأقل لا نحترمه الى الدرجة القصوى من
 الاحترام ، دون ان نعرف ما هو الأمر • نحن ننخرط في اهتمامات
 أوروبية ، مشتركة بين الانسانية جمعاء ، اهتمامات لا تخص أى أمة
 بعينها ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا نعالج كل شيء ببرود أكبر وفنور
 أشد ، كأنما نحن نعالج هذا الشيء من باب القيام بواجب من الواجبات ،
 ونعالجه معالجة فيها استقلال أكبر وانفصال أشد على كل حال • ولكن
 فلنعد الى الموضوع الذى كنا بصدده • ان «حيبي» ساذج الى أقصى
 حدود السذاجة في بعض الأحيان • انه حين يتنزّه مثلاً حول نوافير
 المياه يأخذ يحدث « غزالتى » فيشرح لها لماذا يرتفع الماء من النافورة
 عمودياً • • • انه يشرح لها قوانين الطبيعة ، ويشعر في حضورها بالغزة

الوطنية والكبرياء القومية من جمال غابة بولونيا ، ومن جمال الاضاءة ،
ومن روعة تراقص « المياه الكبرى » في حدائق قصر فرساي ، ومن
انتصارات الامبراطور نابوليون ، ومن « المجد الحربى » • وهو يجد لذة
كبيرة حين يراها تصفى اليه مستطلعة ، ويجد سعادة عظيمة وفئة كبرى
حين يلاحظ أنها متجهة مفتحة • ماذا أمكن « الغزالة » تسهّل لزوجها

على عاطفة رقيقة وحنان كبير ، لا تظاهراً وتصنعاً ، فان خانها خالص
لوجه الحنان مبرأ من المنفعة رغم القرنين اللذين حملته اياهما على رأسه •
لست أطمع طبعاً ، كما فعل الشيطان « لوساج » أن أزيح أسطح المنازل •
وانما أنا أروى ما خطف بصرى فاستطعت أن ألاحظه • تقول لك
« الغزالة » فلانة : « ان زوجى لم ير البحر حتى الآن » ، ويعبر صوتها
عندئذ عن شفقة ساذجة صادقة • معنى قولها أن زوجها لم يذهب بعد
الى برست أو الى بولونى ليرى البحر •

يجب أن نعرف أن للبورجوازي حاجات شديدة السذاجة
والبراءة ، عظيمة الجذ والخطورة ، حاجات كادت تصبح عادة عامة • مثال
ذلك أن له ، عدا الحاجة الى جمع المال والحاجة الى البلاغة ، حاجتين
اثنتين مشروعيتين جداً ، كرستهما العادة ، فهو ينظر اليهما نظرة جادة
تكاد تشتتا ، على كثرة من التأثر والعاطفة • فأما الحاجة الأولى فمسيب (أن

بسبب انشغاله بالتجارة ، فلا يرى البحر • لماذا يجب عليه أن يرى
البحر ؟ هو نفسه لا يعرف ، جهلاً عن هذا السؤال ، ولكن غتته فريضة

والمال ، فيعد عدته ويهيئ نفسه ويمضي « يرى البحر » بضعة أيام •
 فاذا عاد من رحلته راح يروي مشاعره وانطباعاته بكثير من الحرارة
 والحماسة ، لزوجته وأقربائه وأصدقائه ، ويظل يتذكر بكثير من السرور
 والسعادة ، طوال حياته ، أنه رأى البحر •

وأما الحاجة الثانية المشروعة التي لا تقل عن الأولى قوة وغناً
 لدى البارون ، فهو أن « نقلب على العشب » • ان البارون ، من

خرج من مدينته ، يحب كثيراً أن يتمدد على العشب ، بل انه يرى ذلك
 واجباً من الواجبات التي تقع على عاتقه ، فهو يقوم بهذا الواجب بوقار
 ومهابة ، شاعراً أنه بذلك يتواصل « مع الطبيعة » ، ويجب كذلك أن يراه
 الناس ويلاحظوه وهو على هذه الحال • ويمكننا أن نقول بوجه عام ان
 البارونى سرعان ما يحس حين يخرج من المدينة أن من واجبه أن يصبح
 أكثر انطلافاً وأقل تحرجاً وتقيداً ، وأشد فرحاً ومرحاً ، بل وأعظم
 جرأة وجسارة ، أى أن يبدو أبعد عن التصنع وأقرب الى الطبيعة • انه
 يريد أن يصبح « انسان الطبيعة والحقيقة » • ألم يظهر « حب الطبيعة »
 لدى البورجوازي منذ أيام جان جاك روسو ؟ على أن البورجوازي
 لا يحقق هاتين الحاجتين كثيراً - أعني رؤية البحر والتدحرج على
 العشب - الا بعد أن يكون قد جمع ثروة ، أى بعد أن يكون قد أخذ
 يقدر نفسه ويحترم نفسه • ثم أن « التدحرج على العشب » يكون أمتع
 وألذ كثيراً حين يقوم به البورجوازي على أرض هو صاحبها ، على أرض
 اشتراها بما ادخر من مال • والبورجوازي على وجه العموم ، حين
 ينسحب من حلبة الأعمال ، يحب أن يملك أرضاً ، بل وأن يكون له
 منزله وحديقته وسياجه ودجاجاته وبقرته • وهو ما ينفك يردد لنفسه
 ولضيوفه قوله : « شجرتى » ، « جدارى » ، ويظل على هذه الحال الى
 آخر أيام حياته • فالتقلب على العشب انما يحلو للبورجوازي اذن حين

تكلمنا الأرض أرضه • • • من أحد أن يقيم بهذا الماحد بناء نشء أمام

منزله مرجاً • وقد روى لى أن الحشيش رفض أن ينبت عند أحد البورجوازيين فى المكان الذى حدّده لانشاء المرج • فرغم جميع ما بذله البورجوازى من نشاط فى زرع حشيش جاء به من موضع آخر ، وفى سقاية هذا الحشيش والعناية به فان الحشيش كان ما يلبث أن ينوى ويموت • تلك كانت طبيعة الأرض أمام المنزل • فما كان من الرجل الا أن اشترى حشيشاً صناعياً • ذهب خصيصاً الى باريس فأوصى على بساط مستدير من حشيش صناعى ، قطرُه عدة أمتار ، حتى اذا صار البساط عنده أخذ يمدّه كل يوم بعد الظهيرة على الأرض ليتوهم أنه عشب فيرضى حاجته المشروعة الى التقلب على العشب • ليس بعيداً عن بورجوازى ما يزال ثملاً من امتلاك أرض اقتناها بحق ، ليس بعيداً عنه أن يتصرف هذا التصرف ، وليس فى عمله ذلك شيء غير معقول من الناحية النفسية •

ولكن فلتتكلم قليلاً عن جوستاف • ان جوستاف شبيه طبيعاً بالبورجوازى ، فهو بائع أو تاجر أو موظف أو « أديب » أو ضابط • هو « حيبى » نفسه ، لكنه عازب • وليس هذا هو الأمر الهام على كل حال ، وانما الأمر الهام زينة جوستاف ووضعه الراهن وهيبته وهندامه • ان الصورة المثلى للعشيق جوستاف تختلف باختلاف الزوجات ، وهو نظم على المسح دائماً فى الصورة التى هو عليها فى المجتمع • ان

البورجوازى يحب التمثيليات الهزلية (الفودفيل) ، ولكنه يحب الميلودراما أكثر من ذلك أيضاً • فالمسرحية الهزلية البسيطة المرحّة -

وهى الانتاج الفنى الوحيد الذى يستحيل نقل غراسه من أرض الى أرض ، ويستحيل نساته فى غير موطنه ، ويستحيل أن يعيش فى غير

الكنز الذى يملكه • • • • •

لا تُعجب البورجوازي اعجاباً كاملاً تاماً ، وان كانت ترضيه وتملّقه .
 انه يعدها من السفساف . انه ينشد الروعة ، ينشد « النبل الذي
 لا يوصف » ، ينشد الحساسية . والميلودراما تضم ذلك كله . الميلودراما
 شيء لا غنى للباريسي عنه . وستبقى الميلودراما ما بقي البورجوازي .
 شيء غريب : ان المسرحية الهزلية نفسها يصيها الآن تغير وتحول .
 فرغم أنها ما تزال مرحلة مضحكة ، فان عنصراً آخر هو الوعظ الأخلاقي
 يتسلل اليها ويندس فيها شيئاً بعد شيء . ان البورجوازي يحب الوعظ
 الأخلاقي في كل لحظة ، من أجله ومن أجل « غزائه » . ذلك في نظره
 واجب مقدس ، ذلك في نظره شيء جنوهرى . وما دام البورجوازي
 يسيطر الآن بلا حدود ، ما دام هو القوة ، وما دام كتاب المسرحيات
 الهزلية والميلودرامات خاضعين دائماً للقوة ، تستعبدهم ويتعلقونها ، لذلك
 نرى البورجوازي يتصر رغم أن الضحك يدور عليه وأن السخرية
 تناوله ؟ ولذلك نرى المسرحية تعلن له في النهاية أن كل شيء يجرى
 على ما يرام . لا بد أن هذه النسب تطمئن البورجوازي كثيراً . ان كل
 من يستبد به الجبن فلا يكون مقتنعاً بأن عمله ناجح ، يحس بحاجة أليمة
 الى أن يخدع نفسه بالوهم ، الى أن يعزى نفسه ، الى أن يهدى روعه .
 حتى لقد يأخذ يصدق البشائر . والأمر على هذا النحو هنا في الميلودراما
 تظهر على المسرح صفات كريمة وقدوات رائعة . ليس هذا هزلاً .
 انه انتصار مؤثر لكل ما يحبه « حيبى » كثيراً . ان « حيبى » يحترم
 خاصة الهدوء السياسى وحق الانسان فى أن يجمع المال لينظم بيته على
 أهدأ نحو ممكن . فهذا هو اتجاه الميلودراما الحالية ؛ وان طبع جوستاف
 يناسب هذا الاتجاه . فمن النظر الى جوستاف نستطيع دائماً أن نتحقق
 من المثل الأعلى للنبل العظيم فى نظر « حيبى » ، فى لحظة معينة * .

كان جوستاف ، فى الزمان الماضى ، البعيد ، يظهر على المسرح

شاعراً أو رسّاماً أو عبقرية مجهولة مغبونة مظلومة هي ضحية الاضطهاد .
كان جوستاف يناضل ويكافح في نبل ، وكانت المسرحية تنتهى دائماً
بأن نرى الفيكوتيسة ، المفتونة به سرّاً رغم أنها تقابله بقلة المبالاة وعدم
الاكتراث ، تزوجه اليتيمة التي هي وصية عليها ، أقصد الفتاة القاصر
سيسيل التي لا تملك قرشاً واحداً ولكن يتضح فجأة أنها غنية غنى
عظيماً . كان جوستاف في العادة يتمرد ويرفض المال . ولكن ها هو ذا
عمله يتوّج في « الصالون » بالنجاح . ها هم أولاء ثلاثة أثرياء
مضحكون يظهرّون فجأة عنده فيعرض كل واحد منهم عليه مائة ألف
فرنك ثمناً للوحة مقبلة يرسمها . ويسخر منهم جوستاف باحتقار ،
ويعلن بياس مر ان البشر جميعاً أوغاد لا يستحقون ريشته ، وأنه لن
يهب الفن ، الفن المقدس ، لأناس تافهين لا يعرفون قدر الفن ، أناس
ظلّوا يجهلون عبقريته حتى الآن . ولكن ها هي ذى الفيكوتيسة تظهر
فتعلن له أن سيسيل تموت حباً به وأن عليه اذن أن يرسم لوحات .
عندئذ يحزر جوستاف أن الفيكوتيسة ، التي كانت قبل ذلك عدوته
والتي كانت مساعيتها هي التي جعلت لوحاته تُرفض في « الصالون » ،
يحزر أنها تحبه سرّاً ، وانها انما كانت تنتقم بدافع الغيرة . ويقبل
جوستاف المال من الأثرياء الثلاثة طبعاً ، بعد أن يكون قد شتمهم
وأهانهم ، وذلك أمر يُسرّون هم منه ويظلّون مفتونين به ؛ ثم يهرع
الى عند سيسيل فيقبل أن يأخذ المليون الذي تملكه ، ويغفر للفيكوتيسة
التي تعتزل الحياة بعد ذلك في أطيائها . هكذا يتزوج جوستاف زواجاً
شرعياً ، ويأخذ ينجب ذرية ، ويرتدى صدره أنيقة وقبعة جميلة ، ويتنزّه
في المساء مع « غزالته » قرب نوافير المياه التي ترطب الجو والتي لا بد أن
يذكره خيرها الهادي بما تتصف به سعادته على هذه الأرض من دوام
وبقاء ، وصلابة ومثانة ، وهدوء وسكينة .

وبدلاً من أن يكون جوستاف مستخدماً في محل تجارى ، يحدث أحياناً أن يكون يتيماً مضطهداً تُساء معاملته ، ولكن روحه تفيض « نبلاً لا يوصف » • وفجأة يُكتشف أنه ليس يتيماً ، وإنما هو الابن الشرعى للثرى الكبير روتشيلد ، وها هى ذى الملايين تهوى اليه وتتساقط عليه * • ويرفضها جوستاف بأنفة وشمم وابعاء • لماذا ؟ لأن البلاغة توجب ذلك • عندئذ تظهر مدام بوبريه ، زوجة صاحب البنك الذى يعمل جوستاف مستخدماً عنده ، وهى مولهه بحبه • ها هى ذى تعلن له أن سيسيل تموت من شدة حبها له ، وأن عليه أن يمضى اليها لانقاذها • فيحزر جوستاف أن مدام بوبريه تحبه ، فيأخذ الملايين ، وبعد أن يشتم ويهين جميع الناس بأسوأ الكلام ، لأنه لا يوجد فى الانسانية كلها نبل عظيم كنبه ، يمضى الى سيسيل ويتزوجها • وتسحب زوجة صاحب البنك الى أطيانها • لقد انتصر بوبريه ، لأن زوجته التى كادت تسقط ، ما تزال عفة طاهرة الذيل • وينجب جوستاف ذرية ، ويمضى يتنزه فى المساء قرب نوافير المياه التى ترطب الجو والتى لا بد أن يذكره خيرها الهادى .. الخ الخ.

كذلك كان الأمر فى الماضى • أما الآن فان النبل العظيم « الذى لا يوصف » انما يمثله فى أكثر الأحيان ضابط من سلاح الهندسة أو غيره ، يحمل وسام صليب الشرف طبعاً ، وهو وسام « دفع ثمنه من دمه » • بالمناسبة : ان هذا الشريط الذى يزدان به صدر صاحب الوسام قد أصبح لا يُحتمل ولا يطاق • ان من يحمل هذا الوسام يبلغ من الغرور أنك لا تكاد تستطيع أن تقاربه أو أن تكلمه أو أن تصعبه فى سفر أو فى مسرح ، أو أن تصادفه فى مطعم • انه يزدريك ويحتقرك علانية بوقاحة ، حتى ليكاد يبصق فى وجهك • انه يلهث ويختنق تكبراً وصلفاً وزهواً ، حتى لتشعر من ذلك بغثيان ، ويزيد افراز الصفراء فى جسمك ، وتضطر الى الاستغاثة بطبيب • ولكن الفرنسيين يحبون هذا

كثيراً • ومن الأمور البارزة أيضاً أن مسيو بوبريه قد أصبح المسرح يهتم به اهتماماً شديداً مفرطاً أو قل على الأقل ان المسرح قد أصبح يهتم به الآن اهتماماً أوضح من اهتمامه به في الماضي • ان مسيو بوبريه قد جمع مالا كثيراً بطبيعة الحال ، واقتنى أشياء كثيرة • هو صريح ، بسيط • عاداته البورجوازية وصفته الزوجية تجعله مضحكا بغض الشيء ، ولكنه طيب مستقيم رفيع النفس نبيل « نبلاً لا يوصف » في ذلك المشهد من المسرحية ، الذي يتألم فيه ألماً شديداً من شبهة خيانة « غزالته » له • ومع ذلك فهو يقرر أن يغفر لها بكرم وسخاء • سوف يُكتشف طبعاً أنها طاهرة كحمامة ، وأن كل ما فعلته هو أنها لعبت قليلاً ، هو أنها شُغفت بجوستاف بعض الشغف ، ولكن « حبيبي » الذي ترهقها عظمة نفسه هو أعزُّ عندها من كل شيء • أما سيسيل فهي ، كما في السابق ، فقيرة لا تملك قرشاً واحداً ، ولكن ذلك لا يكون الا في المشهد الأول من المسرحية ، ثم تملك بعد ذلك مليوناً • وجوستاف نبيل النفس ذو أنفة وكبرياء ، كما هو دائماً ، ولكنه أكثر غطرسة ، لأنه عسكري • وهو يحرص على وسامه أكثر من حرصه على أي شيء آخر ، يحرص على هذا الوسام الذي « دفع ثمنه من دمه » ، ويحرص كذلك على سيف أبيه ، ولا ينفك يتحدث عن هذا السيف قائلاً « سيف أبي ، • انه يتكلم عن هذا السيف بمناسبة وبغير مناسبة ، حتى لقد لا تفهم عمَّ يتكلم وماذا يريد أن يقول • وهو يشتم ، ويبصق ، ولكن الجميع يحيونه ، بينما المشاهدون يكونون ويصفقون (يكون فعلاً) • وهو لا يملك قرشاً واحداً بطبيعة الحال : ذلك شرط لا بد منه • ومدام بوبريه مولّهة بحبه طبعاً • وكذلك سيسيل • ولكنه لا يفتن الى حب سيسيل ولا يخطر له هذا الحب على بال • وتظل سيسيل تحترق حباً خلال خمسة فصول من المسرحية • وأخيراً يتساقط ثلج أو شيء من هذا

القبيل • وتريد سيسيل أن ترمى نفسها من النافذة • ولكن يدوَّى
 في الخارج انفجاران • ويدخل جوستاف الى المسرح ببطء ، ممتقع
 الوجه معصوب اليد • ان الشريط « الذي دفع جوستاف ثمنه من دمه »
 يلتصق على معطفه • لقد عوقب الشخص الذي اذاع الوشائيات عن سيسيل
 وأغواها • وينسى جوستاف أخيراً أن سيسيل تحبه ، وأن هذه كلها
 مكائد من مدام بوبريه • ولكن مدام بوبريه صفراء الوجه مذعورة •
 ويحذر جوستاف أنها تحبه • ويدوَّى انفجار جديد • أغلب الظن أن
 بوبريه قد انتحرت ياساً وقنوطاً • وتطلق مدام بوبريه صرخة وتهرع نحو
 الباب ، ولكن بوبريه يظهر بنفسه وقد حمل ثعباناً مقتولاً أو حيواناً آخر
 ما • لقد لُقِّنَ الدرس ، وظهرت العبرة • ان « غزالتى » لن تنساه
 فى يوم من الأيام • وها هى ذى ترتدى على عنق « حبيبى » الذى يغفر
 كل شئ • ولكن يتضح فجأة أن سيسيل تملك مليوناً ، فيثور جوستاف
 من جديد • انه لا يريد أن يتزوج • وها هو ذا يصطنع أوضاعاً ويلفظ
 شتائم • لا بد حتماً من أن يصطنع جوستاف أوضاعاً ومن أن يحتقر
 المليون • والا لم يغفر له البورجوازي قط ، ولما كان هنالك قدر كافٍ
 من « النبل العظيم الذى لا يوصف » • رحماك ! لا يذهبن بكم الظن
 الى أن البورجوازي يتناقض • لا تقلقوا : ان المليون لن يفلت من
 الزوجين السعيدين • انه لا غنى عنه ، وهو يظهر دائماً فى الحاتمة
 مكافأة على الفضيلة • ان البورجوازي يظل وفياً لنفسه • وينتهى
 جوستاف الى قبول المليون وسيسيل • وبعد ذلك تبدأ النزعات التى لا بد
 منها قرب النوافير ، ونرى القبعات الجميلة ، ونسمع خرير المياه ، النخ ،
 النخ • هكذا تنتصر العواطف الحساسة ، ولا سيما « النبل العظيم الذى

لا يوصف « ، ويتنصر بوبريه ، ويتنصر المليون خاصة » ، يتنصر في
صورة قدر محتّم ، في صورة قانون من قوانين الطبيعة يرجع اليه كل
الشرف والمجد والاحترام ، النخ النخ • ويخرج « حبيبي » و « غزالتى »
من المسرح مفتونين وقد هدأت نفساهما وتعزّت روحاهما • ويرافقهما
جوستاف ، وفيما هو يساعد « غزالتى » على ركوب العربة ، يقبّل يدها
المنتهية خلقةً لا يمكن أن أبدأ بها كان كان شرم ،

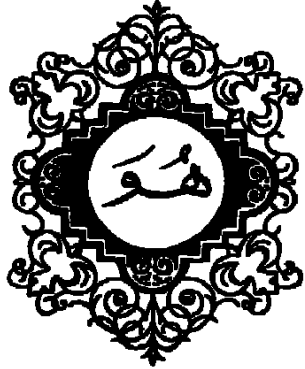
التصريح
١٨٦٥

التمساح (Krocodil) ظهرت في مجلة
« العصر » التي أصدرها دوستويفسكي ، العدد
الثاني من سنة ١٨٦٥ ، ولم تكتمل بسبب
احتجاب هذه المجلة .

حادثة خارقة

أو القصة الحقيقية التي تروى كيف أن سيداً
متقدماً في السن محترماً جداً قد ابتلعه، وهو حي،
تمساح « الممر » ، وما الذي نشأ عن ذلك •

لا مبير ؟ أين لا مبير ؟ هل رأيت
لا مبير ؟



اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ألف وثمانمائة وخمسة وستين ، في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً • في تلك الساعة من ذلك اليوم انما شعرت ايلينا ايفانوفنا (زوجة ايفان ماتفتش ، صديقي العالم الذي أستطيع أن أقول عنه ايضاً انه صاحبي ورفيقي كما أنه قريبي في الوقت نفسه) برغبة مفاجئة في أن نرى التمساح الذي كان يُعرض في « المر » * •

وقد اتفق، أن كان ايفان ما تفتش، حراً في ذلك اليوم نفسه ، لأنه

كان قد حصل على اجازة ؛ حتى لقد كان في جيبه تذكرة سفر الى الخارج بالقطار ، وكان يريد أن يقوم بهذه الرحلة لأنه يشتهي أن يرى أشياء جديدة ، لا لأنه يريد العلاج من مرض • ولم يعارض أية معارضة في ارضاء حب الاطلاع الشديد الذي استبد بنفس امرأته ، لأنه كان يشاظرها حب الاطلاع هذا في حقيقة الأمر •

قال بلهجة راضية :

— هذه فكرة رائعة ! هلمى نرَ التمساح • ففي الوقت الذي نستعد فيه للقيام برحلة الى الخارج ، لا يكون من غير المستحسن أن نطلع منذ الآن في بلادنا نفسها على السكان الأصليين لتلك البلاد •

قال ذلك ، وقدم ذراعه لامرأته ، فاتجه الاثنان نحو « المر » •

وقد شاركتها هذه النزهة بصفتي صديقاً للأسرة ، وعملاً بعادة ألفناها
فلم نخرج عليها ولا تخلفنا عنها •

لم أرَ ايفان ماتفتش ، فى يوم من الأيام ، مشرق المزاج مرح
النفس ، كما رأيته فى ظهر ذلك اليوم الذى لا سبيل الى نسيانه •
آه ! ... اتنا لا نقرأ المستقبل ، ولا نعلم الغيب !

ما ان دخل ايفان ماتفتش « الممر » حتى شعر بنشوة عظيمة
وأحس باعجاب شديد حين رأى عظمة المكان ، فلما وصل الى حيث كان
يُعرض التمساح الذى جىء به الى العاصمة ، أظهر رغبة فى أن يدفع
الخمسة وعشرين كوبكاً التى هى ثمن تذكرة دخولى أنا ، وذلك أمر لم
يسبق أن فعله قبل هذا اليوم قط •

فلما صرنا فى انقاعة الصغيرة التى يُعرض فيها التمساح لاحظنا أن
القاعة لا تضم التمساح فحسب ، بل تضم كذلك ببغاوات من نوع
« الكاكاتوس » ، وعدداً من القروود فى قفص موضوع فى آخر القاعة •
وقرب المدخل ، على طول الجدار الأيسر ، كان يوجد حوض كبير من
التوتياء تغطيه شبكة من أسلاك الحديد ويحتوى قليلاً من الماء • فكان
هذا الحوض مسكناً لتمساح كبير قد رقد فيه جامداً لا يتحرك أكثر
مما تتحرك صقالة خشبية ، وكأنه قد فقد جميع قواه الطبيعية منذ أصبح
يعيش فى جونا الرطب الذى لا يناسب الأجانب البتة •

ان لقاءنا الأول هذا بال مخلوق العجيب لم يثر أنفسنا ، ولم يهز
اهتمامنا •

قالت ايلينا ايفانوفنا بلهجة ممطوطة تعبر عن خيبة الأمل :
- أهذا هو التمساح ؟ اتنى لم أكن أتخيله فى هذه الصورة !
أغلب الظن أنها كانت تحسب التمساح جواهر ماس • وكان

صاحب التمساح ، وهو رجل ألماني ، قد جاء يقف أمامنا وينظر إلينا
في زهو وعُجب وكبرياء •

همس ايفان ماتفتش في أذني يقول :

– من حقه أن يشعر بكبرياء ، لأنه يعرف أنه الوحيد الذي يعرض
على الناس تمساحاً في روسيا •

فمزوت هذا الملاحظة التافهة الى ما كان عليه صديقي من اشراق
المزاج ومرح النفس ، لأن طبعه في العادة أميل الى الحسد والغيرة •

– لا يظهر على تمساحك هذا أنه حي •

كذلك عادت تقول ايلينا ايفانوفنا التي ساءتها ثقة صاحب التمساح
بنفسه ، وجراته ووقاحته في النظر الى غيره • وقد قالت له هذه العبارة
وهي توجه اليه ابتسامة لطيفة رقيقة ، أملأ منها في أن تخفف من غلوائه
وأن تكسر من حدة وقاحته ، وتلك وسيلة مألوفة لدى النساء •

فأجابها الرجل بلغة روسية مكسرة تكسيراً رهيباً :

– عفوك يا سيدتي !

ثم أسرع يرفع شبكة الأسلاك الحديدية ، وأخذ يشاكس التمساح
بعضاً كانت في يده • فمن أجل أن يظهر التمساح أنه حي ، حرك
قدميه وذيله قليلاً ، ورفع بوزه ، وأخرج صوتاً يشبه أن يكون زفرة
طويلة •

فقال الألماني برفق وقد بدا عليه ما يبدو على امرئ آرضي

غروره :

– طيب طيب ، لا تزعل يا كارلشن !

ودمدت ايلينا ايفانوفنا تقول فى غنج ودلال :
 - ما أخبته ، هذا التمساح ! لقد أخافنى ! لقد أخافنى ! أنا واثقة
 بأننى سأراه فى المنام •

قال الألمانى ملاطفاً :
 - لن يستطيع أن يعضك فى المنام يا سيدتى !
 ثم أخذ يضحك ، ولكن ضحكه لم يجد صدى •
 قالت ايلينا ايفانوفنا مخاطبى وحدى :

- هيا بنا نر القروء يا سيمون سيميوفتش • اننى أحب القروء
 كثيراً • أنا أعبد القروء • وها هنا قروء لطيفة جداً • أما هذا التمساح
 فهو رهيب !

صاح ايفان ماتفتش يقول لها وهو يتمايل ويظهر أمامها جماله :
 - لا تخشى شيئاً يا عزيزتى • ان هذا الساكن الوسنان من سكان
 مملكة الفراغة لن يلحق بنا أى أذى !

وبقى ايفان ماتفتش قرب حوض الماء • ثم لم يلبث أن أخذ يدغدغ
 منحرى التمساح بطرف قفازه بغية أن يحمله على أن يزفر زفيراً
 صاحباً ، كما اعترف لنا بذلك فيما بعد •

وسار صاحب التمساح وراء ايلينا ايفانوفنا يتبعها نحو قفص
 القروء • أليست ايلينا ايفانوفنا سيدة ؟! • • • • • هكذا جرى كل شئ اذن
 على خير ما يرام ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بوقوع أى حادث •

افتتت ايلينا ايفانوفنا بالقروء ، وأولتها كل انتباهها ووقفت عليها
 كل اهتمامها • وكانت تطلق صرخات صغيرة فرحة ، وتظاهر بأنها

لا ترى التمساح ، وتسلى باكتشاف مشابهاً بين هذا أو ذاك من هذه الحيوانات وبين فلان أو فلان من أصدقائها ومعارفها . وكنت أبتهج بذلك معها ، لأن تلك المشابهاً كانت واضحة بارزة دائماً . أما الألماني فانه لم يعرف هل كان يجب عليه أن يضحك أو أن لا يضحك ، ولكنه أصبح عابس الهيئة كالح المزاج آخر الأمر .

وفي تلك اللحظة بعينها دوَّت في القاعة صرخة رهيبية ، بل صرخة يمكن أن أصفها بأنها خارقة للطبيعة . واذ لم أعرف كيف أفكر ولا ماذا أقدر ، فقد لبثت متجمداً في مكاني ، حتى اذا رأيت ايلينا ايفانوفنا تصرخ هي أيضاً ، أسرعت ألتفت ، فماذا رأيت ؟

يا لهول ما رأيت ! رأيت ايفان ماتفتش العائر الحظ قد أمسكه التمساحُ بفكيه من وسط جسمه ، ورفعته الى فوق ، فأخذ المسكين يحرك ساقيه في الفضاء حركات أفقية . وسرعان ما اختفى . ولكنني استطعت ، بسبب بقائي ساكناً جامداً لا أتحرك ، استطعت أن ألاحظ جميع تفاصيل الحادث باتباه شديد ، واستطلاع محموم لم أشعر بمثله في يوم من أيام حياتي . لذلك سوف أستطيع أن أروي لكم رواية دقيقة .

قلت لنفسي : « لشد ما كان سيزعجنني أن أكون في محل ايفان ماتفتش ! » .

ولكن فلنمض الى الوقائع : رأيت التمساح يحرك فكيه الرهييبين ببراعة وحذق ، فيشد اليه في أول الأمر قدمي المسكين ايفان ماتفتش ، ثم رأيت يسمعه له بأن يُفلت قليلاً ، لأن صديقي العالم كان يحاول أن ينجو وكان يتشبث بالحوض ، فما ان أفلت صديقي من بين فكي التمساح حتى عاد التمساح يبتله بسرعة حتى الحزام . ثم تركه يفلت مرة ثانية ، واستمر يبلعه مرةً بعد مرة تدريجياً ، بحيث رأينا ايفان ماتفتش يغيب عن

أعيتنا شيئاً بعد شيء ، الى أن بلعه كله فى مرة أخيرة ، فكنا نستطيع أن نميَّز كيف كان يدخل فى جوف التمساح قليلاً قليلاً .

وكدت أصرخ أنا أيضاً لولا أن القدر شاء أن يبذل التمساح جهداً آخر - ولعله فعل ذلك لتضايقه من ضخامة لقمة الغذاء هذه التى لم يألف مثلها - فاذا هو يفتح فمه الفظيع مرة أخيرة ، واذا نحن نستطيع أن نرى وجه قريبي العزيز المصاب الذى سقطت نظارتاه فى بحيرة الماء وغارتا الى القاع . لكأن هذا الرأس لم يعد الى الظهور الا ليلقى نظرة أخيرة على أشياء هذه الأرض وأن يودّع أفراح الحياة آخر وداع .

ولكن رأس قريبي لم يستطع حتى أن يحقق هذا الهدف ، فان التمساح سرعان ما استرد عزيمته ، وبذل كل ما يستطيع من جهد ، فاذا بالرأس يختفى الى الأبد . ان عودة هذا الرأس الانسانى الى الظهور ، حياً فى أغلب الظن ، منظر رهيب شنيع ، ومع ذلك فقد كان فى هذا كله - تُرى أهى سرعة الاخفاء أم هو سقوط النظارتين - أقول لقد كان فى هذا كله عنصر يبلغ من قوة الاضحاك أننى لم أستطع الا أن انفجر ضاحكاً . ولكننى اذ لاحظت أن الضحك فى لحظة كهذه اللحظة خالٍ من الاحتشام - ألسنت صديق الأسرة ؟ - أسرعت أهتف قائلاً :
لايلينا ايفانوفنا فى تعاطف حزين :

- ضاع عزيزنا ايفان ماتفتش !

لن أحاول أن أصف شدة الانفعال الذى اجتاح المرأة الشابة أثناء وقوع هذه الحادثة . وحسبى أن أذكر أنها بعد أن أطلقت تلك الصرخة الأولى ، قد بدت متجمدة مشلولة ، فهى تنظر الى ما يحدث محمقة لا أكثر ، وكأنها غير مبالية ، ثم لم تلبث أن انفجرت تبكى فى نجيب ونسيج ، فأمسكت يديها .

أما صاحب التمساح فقد جُنَّ جنونه فى تلك اللحظة من هول الضربة ، فأخذ يقرع يديه احدهما بالأخرى ، وراح يصيح رافعاً بضربه الى السماء :

— آه ... آه ... تمساحى ! عزيزى كارل ! أمى ! أمى ! أمى !

فلما نادى صاحب التمساح هذا النداء ، فتح الباب الذى يقع فى آخر المكان ، وظهرت الأم واضعةً على رأسها قبعة • انها امرأة متقدمة فى السن ، ترتدى ثياباً زاهية الألوان ولكنها مشعثة • وهُرعَت الأم نحو ابنها الألماني وهي تطلق صرخات حادة •

وكانت جلبةٌ رهيبة وضوضاء فظيعة • وكأن ايلينا قد مسّها جن أو أصابت عقلها لوثة ، فهي لا تزيد على أن تصرخ قائلة : « اقتلوه ! اقتلوه ! » • وهى تندفع تارةً نحوه الألماني وتارةً نحو أمه ، ضارعةً على

لماذا ! أما صاحب التمساح وأمه ، فلم يوليانا أى اهتمام ، ولم يلتفتا إلينا أى التفات ، وانما هما يبكيان على طول الحوض كما يبكى عجلان •

— لقد هلك ! سوف ينفجر بين لحظة وأخرى ! بلع موظفاً بكامله !

كذلك كان يهتف صاحب التمساح • فتعول الأم قائلة :

— عزيزنا كارل ! عزيزنا كارل !

فيضيف صاحب التمساح :

— ها نحن أصبحنا أيتاماً بغير حَبز ! ...

فيقول الألماني وهو يتملص منها :

— وكان يفيظ تمساحي أيضاً • ما كان شأن زوجك بتمساحي حتى يفيظه ؟ لسوف تدفعين لي ثمن كارل اذا هو انفجر ! لقد كان ابني ، كان ابني الوحيد •

أعترف للمقاريء أن أناية هذا الألماني العابر وقسوة قلب أمه قد ساءتاني كثيراً • ومع ذلك فإن الصرخات المتصلة التي كانت تطلقها ايلينا ايفانوفنا قائلة : « اقتلوه » اقتلوه ! ، قد أفلقتني أكثر من ذلك ، وأصبحت تستأثر آخر الأمر بكل انتباهي • لقد ذُعت حقاً ! •

ذلك أنني قد أسأت تأويل هذه الصيحات • فقد خيل لي أن ايلينا ايفانوفتش قد فقدت صوابها الى حين ، ولكنها تريد أن تثار لعزیزها ايفان مانتشش ، فهي تطالب بحقها في ترضية ، وتنادي بأن يعاقب التمساح جلدأ بالسياط • على حين أنها كانت تقصد غير هذا تماماً •

نظرت الى الباب خلسةً وأنا أشعر بشيء من الحجل والاضطراب ، ثم توسلت الى ايلينا ايفانوفنا أن تهدئ روعها ، وأن لا تستعمل ، خاصةً ، تلك الكلمة الفاضحة : « اقتلوه » ، لأن الافصاح عن رغبة رجعية الى هذا الحد ، في مكان كهذا المكان ، وسط « المر » ، بين أناس مثقفين ، على بعد خطوتين من القاعة التي يلقي فيها السيد لافروف * محاضراته العامة في هذه اللحظة نفسها ، ان الافصاح عن مثل هذه الرغبة الرجعية في ظروف كهذه الظروف ليس أمراً غير معقول فحسب ، بل هو أمر غير مقبول أيضاً • ان من الممكن أن يجلب لنا الافصاح عن هذه الرغبة الرجعية سياط النقد اللاذعة يلهب بها السيد ستيانوف * ظهرينا •

وسرعان ما صدقت مخاوفي من سوء الحظ • فما هو ذا الباب الذي

يُخلق الغرفة التي يُعرض فيها التمساح ، ها هو ذا يُشوق ، فيظهر على العتبة شخص له لحية وشاربان ، ويحمل قبعة بيده ؛ وها هو ذا يميل نحونا بالنصف الأعلى من جسمه ، محتفظاً بنصفه الأسفل في الدهليز ، متحاشياً بذلك ضرورة أن يدفع ثمن بطاقة الدخول ؛ وها هو ذا يقول وهو يبذل جهوداً عظيمة في سبيل المحافظة على توازنه ، لابقاء جذعه في الغرفة التي نحن فيها مع ابقاء قدميه في الدهليز :

— يا سيدتي ، ان هذه الرغبة الرجعية التي تجيش في نفسك لا تشرِّف عقلك وذكائك ، ولا يمكن أن تكون الا ثمرة نقص في فوسفور دماغك . لسوف تظلين مزدراة محترقة في مجلة « وقائع التقدم » ، وكذلك في صحائفنا الهجائية النقدية ...

ولكن الرجل لم يستطع أن يكمل كلامه . فان صاحب المحل قد ثاب الى رشده بسرعة ، فلاحظ مرتاعاً وجود هذا الشخص في قاعة التمساح بالمجان ، فهجم على هذا التقدمي المجهول حانقاً ، وطرده بضرباتٍ من قبضة يده . وغاب الرجلان وراء الباب ، وأدركت فجأة أن هذه الجلبة كلها لا محلَّ لها ولا داعى اليها ، فان ايلينا ايفانوفنا بريئة كل البراءة من تلك النية التي ظنَّنت فيها ونُسبت اليها ، أعنى أن تكون راغبةً في اذلال التمساح بمعاقبته ضرباً بالسياط ؛ وكل ما كانت تطالب به هو أن يفتح بطن التمساح لا تقاذ ايفان ماتفتش .

أسرع صاحب المحل يعول قائلاً :

— أنت تريدان اذن موت تمساحي ! ألا انتى لأوثر مائة مرة موت زوجك على موت تمساحي ... ان أبى قد عرض هذا التمساح . وان جدى قد عرضه أيضاً . وأنا أعرضه . وسوف يعرضه ابنى . سيرى

جميع الناس هذا التمساح ! أنا معروف في كل أوروبا التي تجهلك
أنت ، وسوف تدفعين لى غرامة •

وقالت الألمانية وقد حُتَّتْ غَضاً :

عزيزنا كارل سوف ينفجر !

وأضفت أقول بهدوء كبير وأنا أحاول أن أقود ايلينا ايفانوفنا الى
مسكنها :

– ثم ان قتل التمساح لا جدوى منه ، لأن عزيزنا ايفان ماتفتش
لا بد أن يكون الآن مخلقاً فى العالم الآخر •

فما كان أشد دهشة حبيبتي صدمت ايفان ماتفتش بقول

فجأة :

– فى رأى أن الأفضل أن تستعينوا بالشرطة ، لأن تدخل القوة
الحكومية يستطيع وحده اقناع هذا الألماني •

ان هذه الكلمات التى نطق بها ايفان ماتفتش بقوة وصلابة والتى
تدل على أن له بديهة حاضرة خارقة ، قد بلغت من ادهاشنا واذهالنا أننا
لم نشأ فى اللحظة الأولى أن نصدق آذاتنا • ومع ذلك أسرعنا نقرب من
الحوض الذى كان يرقد فيه التمساح ، وأخذنا نصغى الى كلام السجين
المسكين بانتباه شديد وان كان يخالطه شيء من شك وريب •

ليخدع بذلك جمهوراً موجوداً في الغرفة الأخرى ، وتلك لعبة أتبع لى
أن أشهدا ذات مرة أثناء عيد الميلاد عند أناس من أصدقائي •

تمتت ايلينا ايفانوفنا تسأله :

- ايفان ماتفتش ، صديقى ، أنت حى اذن ؟

فأجابها ايفان ماتفتش :

- نعم ، أنا حى ، وعلى أحسن حال من الصحة والعافية ؛ فبفضل
رعاية الله وحمايته ، بلغنى التمساح دون أن يلحق بى أى خراب •
شئ واحد يقلقنى : كيف سينظر رؤسائى الى هذا الأمر ، وكيف عساهم
يواجهونه ؟ ذلك أنتى حصلت على جواز سفر الى الخارج ، وهأنا ذا
الآن فى جوف تمساح ، دون أن يكون ذلك منى مكرراً أو خديعة ...

قاطعت ايلينا ايفانوفنا قائلة :

- ولكن يا صديقى ليس مهماً أن يكون فى ذلك مكر أو أن
لا يكون فيه مكر ، وانما المهم اخراجك ! ...

فصاح صاحب التمساح يقول :

- اخراجه ؟ لن أسمح لأحد بأن يمس تمساحى • سوف يتكاثر
الجمهور هنا بعد الآن تكاثراً عظيماً ، حتى ليسحق الناس بعضهم بعضاً من
شدة الزحام • سأجعل ثمن تذكرة الدخول خمسين كوبكاً ، ولن يكون
كارل فى حاجة الى طعام •

قالت الأم :

- شكراً لله وحمداً !

قال ايفان ماتفتش :

– هما على حق ، فانما ينبغي أن ننظر الى الأمور نظرةً اقتصادية قبل كل شيء •

صرخت أقول :

– يا صديقي ، سأذهب الى رؤسائنا فوراً لتقديم شكوى ، ذلك أنتى أرى أننا لن نستطيع أن نحل هذه القضية وحدنا •

أجاب ايفان ماتفتش :

– هذا رأيى أنا أيضاً ، ولكن من الصعب فى هذه الفترة التى استحكمت فيها أزمة اقتصادية ، أن يُفتح بطن تمساح دون دفع تعويض • ولهذا السبب هناك سؤال لا يمكن تفادى طرحه : كم يطلب صاحب التمساح هذا ثمناً لتمساحه ؟ وهناك سؤال آخر ملحق بالسؤال الأول : من ذا الذى سيدفع المبلغ ؟ ذلك أنك تعرف أنتى لا أملك ثروة ...

جمجمت أقول خجلاً :

– الا أن نأخذ سلفةً على رواتبك ...

ولكن سرعان ما قاطعنى صاحب التمساح قائلاً :

– لن أبيع تمساحى • لن أبيع بثلاثة آلاف روبل ... سوف يكثر الجمهور الآن • يجب أن تدفعوا لى خمسة آلاف روبل •

كان صاحب التمساح يقول هذا الكلام فرحاً كل الفرح • وكان الطمع الشديد والبخل الوقح يُقرءان فى وجهه •

صرخت أقول مستاءً :

– كفى ! أنا ذاهب !

فقال ايلينا ايفانوفنا باكية :

- وأنا أيضاً ، وأنا أيضاً !... سوف أذهب الى آندره أوسيتش
بنفسى ، فأؤثر فيه بدموعى !...

فقاطعها ايفان ماتفتش قائلاً بقوة :

- لا ... لا هذا يا عزيزتى !

ذلك أن ايفان ماتفتش كان يفار على امرأته من هذا الرجل غيرةً
شديدة منذ زمن طويل • كان ايفان ماتفتش يعرف أن زوجته تحب
كثيراً أن تذهب الى رجل مثقف فتأخذ تبكى أمامه ، لأن الدموع تناسبها
كثيراً •

واصل ايفان ماتفتش كلامه مخاطباً اياى :

- لا ، لا أنصحك أنت أيضاً بهذا ! لا يدري أحد ما الذى يمكن
أن ينتج عن مسعى كهذا المسعى • ولكن اذهب اليوم الى تيموتى
سيميوتش ، فهو رجل متخلف العادات ، شديد الغباء ، والأهم من ذلك
أنه على جانب عظيم من الاستقامة • أبلغه سلامى واقصص عليه هذا
الحادث بكل تفاصيله ، وأعطه فى الوقت نفسه سبعة روبلات كان قد
ربحها منى حين لعبنا بالورق آخر مرة معاً • ان هذه البادرة لا يمكن الا
أن تحدث أثراً حسناً فى قلب هذا الشيخ • فقد يسدى الينا عندئذ
بنصيحة حسنة • وبانتظار ذلك ، أعد ايلينا ماتفتشنا الى البيت •

ثم أضاف ايفان ماتفتش مخاطباً امرأته :

- هدئى روعك يا عزيزتى ! ان هذه الصرخات التى تطلقها النساء
تتعبنى ، وأنا أحب أن أرتاح قليلاً • يضاف الى ذلك أن الجو هنا لطيف
حلو ، رغم أننى لم أستطع حتى الآن أن أعرف نفسى فى هذا المأوى
الذى وجدتني فيه على حين فجأة •

— تعرف نفسك ؟ أأنت ترى شيئاً في هذا المكان ؟

كذلك سألته ايلينا ايفانوفنا صائحة بفرح شديد •

فأجابها الأسير الشقى :

— ظلمات كثيفة تحيط بى ، ولكنى أستطيع أن أتمسك ، أستطيع أن أرى بواسطة يديّ أن صح التعبير • الى اللقاء • كونى هادئة ، ولا تحرمى نفسك من التسلية • الى الغد ! أما أنت يا سيميون سيميوتش فتعال الى هذا المساء • ومن أجل أن لا تنسى ذلك ، لأنك شديد الذهول كثير النسيان ، فاربط اصبعك بخيط •

أعترف لكم بأننى لم يسؤنى أن أستطيع الانصراف ، لأننى كنت أشعر بتعب ، ولأن الأمر أخذ يضجرنى • فسارعت أقود ايلينا ايفانوفنا الى خارج المحل •

صاح صاحب التمساح يقول لنا :

— سيكلفك الدخول في هذا المساء خمسة وعشرين روبلاً أيضاً • قالت ايلينا ايفانوفنا وهى تنظر الى وجهها فى جميع مرايا «المرء» ، فتلاحظ بسرور واضح أن هذه الهزة انما زادتها جمالاً :

— يا الهى ! ما اشد طمع هؤلاء الناس !

فأجبتها وأنا أشعر بشيء من الانفعال وكثير من الاعتزاز بسيدتى :

— هذه وجهة النظر الاقتصادية •

فقالت وهى تجر صوتها اللطيف الحلو جراً :

— وجهة النظر الاقتصادية ؟ اتنى لم أفهم شيئاً مما قاله ايفان ماتفتش منذ قليل فى موضوع وجهة النظر الاقتصادية الكريهة هذه ! قلت لها :

– سأشرح لك الأمر •

وأخذت أفيض في الكلام على النتائج المفيدة التي تنتج عن تجمع رموس الأموال الأجنبية في بلادنا ، لا سيما وأنتى كنت قد قرأت في ذلك الصباح نفسه مقالات في هذا الموضوع في جريدة « أبناء سان بطرسبرج » وفي جريدة « الشعرة » • *

فأصفت الى كلامى بعض الوقت ، ثم قاطعتنى قائلة :

– ما أغرب هذا كله ! هلاً كفتت حالاً ، أيها الشقى ، عن قص هذه السخافات كلها ! قل لى : أنا محمرة الوجه كثيراً ؟

فاتهزت هذه الفرصة لأطرى جمالها فقلت :

– لست محمرة الوجه ، بل أنت رائعة فاتنة !
فدمدمت^٥ تقول مفتنة :

– يا لك من رجل خالغ العذار !

ثم أضافت تقول بعد صمت وهى تخنى رأسها على كتفها برقة ورشاقة :

– شدة ما أرئى لحاله ، صديقى المسكين •

ثم قالت بغتة^٦ :

– ولكن رباه ! قل لى : كيف عساه يأكل هناك ... و ... و ...

هبه احتاج الى شيء ما ... فما عساه يفعل ؟

فأجبتها مرتبكاً بعض الارتباك :

– سؤالك يأخذنى على حين غرة •

والحق أن هذا الأمر لم يكن قد خطر لى ببال • ألا ان النساء

ليتفوقن على الرجال تفوقاً كبيراً فى الروح العملية اذن حين يكون الأمر أمر مسائل الحياة !

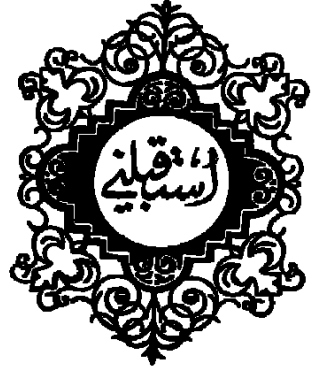
وأضافت السيدة تقول :

- مسكين ! ثم ما الذى حمله على أن يندس هناك ! لا شك أنه محروم من جميع التسلّيات فى وسط تلك الظلمات ! وما قولك فى اننى لا أملك صورة فوتوغرافية له ! آه ... هأنا ذا أرملة أو شبه أرملة ! قالت ذلك وابتسمت ابتسامة ساحرة تدل على مدى ما تبدو لها حالتها الجديدة شائقة •

وأردفت :

- هم ... اننى لأرثى لحاله كثيراً مع ذلك ... هكذا كانت تعبّر عن ذلك القلق الطيعى جداً الذى تشعر به امرأة شابة شائقة زال زوجها منذ قليل • مضيت بها الى بيتها ، فسألتنى أن أمكث معها لتناول العشاء • واستطعت أخيراً ، بعد احتساء فنجان قهوة طيبة ، أن أهدئتها ، وانصرفت فى الساعة السادسة لأذهب الى تيمونى سيميوفتش مقتنعاً بأن جميع الرجال الذين لهم أسرة ولهم فى الوقت نفسه مركز محترم لا بد أن يكونوا فى منازلهم فى تلك الساعة • كتبت هذا الفصل الأول بالأسلوب الذى يناسب قصتى • ولكننى قررت أن استعمل فيما سيلي لهجة أقل رفعةً ، ولكنها طيعية أكثر ، وانى لأنبّه القارئ الى ذلك على النحو الذى توجبه الاستقامة •

٢



تيموتى سيميوتتش المحترم بشيء من الاهتمام ،
ولكن مع شيء من الاضطراب • قادنى الى
غرفة مكتبه ، فأغلق بابها بالحكام ، • حتى
لا يزعجنا الأولاد ، على حد تعبيره • قال

ذلك وقد بدا عليه غير قليل من القلق •

أجلسنى على كرسى قرب مكتبه ، وجلس هو على مقعد ، ولم
حافات معطف المنزل الذى كان يرتديه ، وهو معطف مبطن بالقطن ذو
زنار ، واصطنع هيئة قاسية بل استطيع أن أقول هيئة رسمية ، مع أنه لم
يكن رئيسى ولا رئيس ايفان ماتفتتش ، وانما كان رفيقنا لا أكثر •
ثم قال :

— لاحظ أولاً أُننى لست رئيساً ، وانما أنا مرعوس مثلك ومثل
ايفان ماتفتتش ... ذلك كله لا يعينى ولا أريد أن أتدخل فى شيء •
ذهلت • لا شك انه كان اذن على علم بالقصة كلها قبل أن أصل
اليه • ومع ذلك حكيت له الحكاية تفصيلاً • وكنت أتكلم بلهجة فيها
انفعال ، لأننى كنت أقوم بواجب مقدس نحو صديق حقيقى • فأصغى
الىّ بدون دهشة ، ولكن كانت تبدو عليه امارات ارتياب واضحة •
فلما أنهيت كلامى قال لى :

— هل تصدّق اذا قلت لك اننى كنت أتبأ دائماً بأن حادثاً كهذا
الحادث سيقع لايفان ماتفتتش ؟

فقلت اسأله :

- كيف هذا يا تيموتى سيميوتتش ؟ يخيل الىّ مع ذلك أن هذه الحادثة خارقة للعادة جداً ...

قال :

- موافق • ولكن قل لى : ألم تكن كل حياة ايفان ماتفتش نتيجة الى نتيجة كهذه النتيجة ؟ لقد كان جسوراً جسارة تشبه أن تكون وقاحة • ولم يكن فى فمه كلمة غير كلمة « التقدم » ، وكانت له أفكار أخرى كثيرة ... فانظر الى أين يقودنا ، هذا التقدم !

- ولكن يخيل الىّ أن هذا الحادث الطارىء ، العرضى تماماً ، لا يمكن اعتباره قاعدة عامة تصدق على جميع التقديمين ...

- الأمر كذلك شئت أم أبيت • صدقنى • ليس هذا كله الا نتيجة الافراط فى الثقافة • ان الذين يعرفون أكثر مما يجب أن يعرفوا يحشرون أنفسهم فى كل مكان ، ويمضون حتى الى حيث لا يناديهم أحد ولا يطلبهم أحد •

وأضاف يقول كمن يشعر بأنه أسوأ اليه أو أهين كرامته :

- من الممكن أن تكون أعلم منى بهذا الأمر مع ذلك ، فلست أبلغ مبلغك من الثقافة ، وأنا امرؤ عجوز ، وما دخلت الجيش منذ خمسين سنة الا بصفتى ابن جندى من الجنود !

- ولكنك أسأت فهمى يا تيموتى سيميوتتش • بالعكس تماماً ، ان ايفان ماتفتش يسألك أن تسدى اليه بنصائحك وأن تحميه ، وهو يسألك ذلك والدموع فى عينيه ان صح التعبير !

- هم ... والدموع فى عينيه ! ما هذه الدموع الا دموع التماسيح ، فلا ينبغي للمرء أن يثق بها وأن يركن اليها كثيراً • غريب !

ما كانت حاجته الى السفر الى الخارج ؟ وبأى مال يسافر ؟ انه لا يملك
حتى المال اللازم للسفر !...
قلت بلهجة شاكية :

— ادخر بعض المال بالتوفير يا تيموتى سيميوتش • وقد تقاضى
مكافأته الأخيرة فكنزها ولم يمسسها • ولم يكن فى نيتة أن يغيب الا
ثلاثة أشهر ، ليزور سويسرة ، بلاد غليوم تل ...
— أى غليوم تل ؟ ... هم ...

— كان يريد أن يتمتع بالربيع فى نابولى ، وأن يزور المتاحف ،
ويرى العادات والأخلاق ، ويشاهد الحيوانات ...

— هم ! ... الحيوانات ؟ فى رأى أنه كان لا يريد أن يسافر
الا زهواً وعجباً • الحيوانات ؟ أى حيوانات ؟ أليس فى بلادنا حيوانات
كافية ؟ ان عندنا متاحف ، ومعارض حيوانات ، وجِمَلاً • والدببة تعيش
على بعد خطوتين من بطرسبرج • وهو نفسه يسكن الآن فى جوف
تمساح ...

تمساح ؟ ... متش ! رحماك ! ان هذا الحمار قد أُلْتِ به نازلة !

وهو يناشدك صديقاً ، كما يناشد قريباً له أكبر منه سنأ ... أسألك
النصح ثم تأخذ تلومه وتقرعنه ؟ هلاً رحمت ايلينا ايفانوفنا على
الأقل ؟ ... !

— أعن زوجته تتكلم ؟ انها امرأة رائعة !
كذلك قال تيموتى سيميوتش وقد لان لبناً واضحاً وتشق نفساً
من دخان التبغ • وتابع كلامه يقول :
— هى انسانة رقيقة جداً ... ما أجمل رأسها حين تميل به على
كتفها ! ... وما ألطف تدور جسمها ... انها لذيذة جداً • أمس الأول
كان يتكلم عنها آندره أوسيتش •

- كان يتكلم عنها ؟

- نعم ، ويطريها اطراءً عظيماً • كان يقول : « يا للصدر الناهد !
يا للنظرة النافذة ! يا للشعر الجميل ! هي حلوى من الحلوى ، هذه
السيدة ! » حتى لقد ضحك ... ان هذا السيد ما يزال شاباً • فانظر
كيف يعيش هذا السيد حياته ...

- ولكن ليس هذا هو الموضوع يا تيموتى سيميوتش !

- طبعاً ، طبعاً !

- فما العمل يا تيموتى سيميوتش ؟

- ما حيلتى أنا ؟

- انصحننا ، وجّهنا ، من حيث أن لك خبرة ، من حيث أنك قريب •
كيف يجب علينا أن نتحرك ؟ الى أية جهة يجب علينا أن نلتفت ؟ أنبلغ
الرؤساء ، أم ...

هنا صاح تيموتى سيميوتش بقوة يقول :

- تبلغون الرؤساء ؟ أبداً • اذا كنتم تسألوننى النصيح فأنا أنصحكم
بأن تختقوا هذه القضية ، أن تكتنموها ، أن لا تعملوا الا على نحو خاص
جداً • ان لهذه الحالة صفة خاصة ، وان لها طابعاً مريباً • ان هذه
الحادثة تقع أول مرة ، ولا يمكن الا أن تسىء الى سمعة الموظف الذى
وقعت له • لذلك يجب قبل كل شئ أن لا تتصرفوا فى الأمر الا بكثير
من الحيلة والحذر والحكمة • ينبغى له أن لا يتحرك ... ينبغى له أن
ينتظر ... أن ينتظر ...

- ينتظر ؟ ولكن كيف يا تيموتى سيميوتش ؟ ماذا لو اختنق

فى جوف التمساح ؟

- لماذا يختنق ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة انه استقر هنالك استقراراً

مريحاً ؟

عدت أقصى الحكاية من جديد • وفكّر تيموتى سيميوتشس ملياً •
ثم قال وهو يقلب علبة التبغ بين أصابعه :

- هم ••• يخيل الىّ أنه يحسن صنعا اذا بقى حيث هو ، بدلاً
من أن يسافر الى الخارج • فى وقته متسع للتفكير • طبعاً ••• يجب أن
لا تركه يختنق هناك ، ويجب أن تتخذ الاجراءات اللازمة للمحافظة
على صحته • يجب عليه مثلاً أن يحاذر التعرض للزكام ••• أما فيما
يتعلق بالألماني فأحسب أن الألماني على حق ، بل وأحسب أنه على حق
لكي ••• ان خصه هذا الذي دخل الى تمساحه نفس اذن منه

وليس هو الذى دخل الى تمساح ايفان ماتفتشس الذى لا يملك تمساحاً
على كل حال اذا صدق ظنى • والألماني يملك التمساح ، فلا يمكن
والحالة هذه فتح بطن التمساح دون دفع تعويض للمالك •

- ولكن الأمر أمر انقاذ انسان يا تيموتى سيميوتشس !
- هذا من شأن الشرطة ، فالى الشرطة انما يجب أن تتجهوا •
- ولكن قد يحتاجون اليه فى المكتب فيسألون عنه ويطلبونه •

- يحتاجون الى ايفان ماتفتشس ؟ هى • هى ! أولاً ، هو بعد
الآن فى اجازة • المفروض أنه يزور الآن أوروبا ، وفى وسعنا أن نجهل
ما الذى يعمله فى الواقع • وسيختلف الأمر حين لا يلتحق بعمله فى
الوقت المعين • فعندئذ نسجل غيابه رسمياً ، ونفتح تحقيقاً !•••

- بعد ثلاثة أشهر ! رحماك !•••

- اذا كانت حالته سيئة ، فالذنب فى ذلك ذنبه • من ذا الذى دفعه
الى هناك دفعاً ؟ من ذا الذى حمّله على ذلك حملاً ؟ قد يكون من الواجب
أن نعيّن له حارساً على نفقة الدولة ، وذلك مخالف للأنظمة • ولكن
الأمر الذى يجب أن ننظر فيه قبل كل شيء آخر هو أن التمساح ملك

لصاحبه ، وأن المبدأ الاقتصادي هو موضع البحث تبعاً لذلك . ان المبدأ الاقتصادي يعلو كل شيء . أمس ، كان اجناتى بروكوفتش يتحدث في هذا الموضوع عند لوكاس آندريتش . هل تعرف اجناتى بروكوفتش ؟ انه رأسمالى كبير يتعاطى أعمالاً ضخمة ويجيد التعبير عن آرائه . كان يقول : « نحن فى حاجة الى صناعة . فلا وجود للصناعة عندنا ان صح التعبير . فيجب علينا اذن أن نخلق الصناعة ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نخلق طبقة بورجوازية . ولما كنا لا نملك رموس أموال ، فيجب الاتيان برموس الأموال من الخارج . فعلينا اذن ، قبل كل شيء ، أن نتيح للشركات الأجنبية أن تشتري أراضينا أجزاء أجزاء ، كما يحدث هذا فى كل مكان فى البلاد الأجنبية . ان التملك الجماعى * هو السم القاتل ، هو الآفة الكبرى ، هو خراب روسيا ! ، ، وكان يتكلم بحماسة شديدة . ذلك يناسب هؤلاء الناس الذين هم أغنياء ، ولا يعملون فى وظائف الدولة . . . هو يقول انه لا الصناعة ولا الزراعة يمكن أن تزدهرا ما بقى شيوع التملك هذا . هو يريد أن تشتري الشركات أراضنا كلها أقساماً ، بغية أن تجزئها حصصاً صغيرة جداً تبيعها بعد ذلك فتتألف منها ملكيات فردية . وكان يستعمل لهجة نحاسية قاطعة جازمة وهو ينطق بكلمة : « تف . . . سيم ، ، واذا لم نعد الى البيع ففي امكاننا الاكتفاء بالتأجير . وأضاف يقول : « متى أصبحت أراضنا كلها فى أيدي شركات أجنبية ، سهل تحديد نصيب الفلاح ، وبذلك يكون على الفلاح أن يعمل ليجنى رزقه ، ويكون من الممكن طرده من هذه الأرض أو من تلك عند الضرورة . فاذا شعر بهذا الخطر ، أصبح أكثر احتراماً وأكثر طاعة ، وأنتج من العمل ثلاثة أضعاف ما ينتجه منه الآن بسبب كونه جزءاً من جماعة فيستطيع لذلك أن يستخف بكل شيء . هو يعلم الآن أنه لن يموت جوعاً ، لذلك نراه يتكاسل وينصرف الى السكر .

أما بالأسلوب الجديد فإن المال سيعود إلينا ، وستجىء البورجوازية برعوس أموالها • ثم ان « التايمز » ، الجريدة الأدبية والسياسية التي تصدر في لندن ، قد أعلنت ، في دراسة نشرتها عن صحفنا ، أنه اذا كانت رعوس أموالنا لا تزداد ، فلأننا تعوزنا الثروات الضخمة والبروليتاريا المنتجة • • • • ان اجناتى بروكوفتش يحسن الكلام جداً • انه خطيب حقاً • في نيته أن يقدم مذكرة الى السلطات العليا ، مذكرة سينشرها بعد ذلك في جريدة « الأنباء » • نحن بعيدون عن مشكلات ايفان ماتفتشش الشعرية • • •

قاطعه أقول :

— طيب • فماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفتشش ؟
لقد تركت الرجل المعجوز يثرثر ، لعلنى بأن هذه آفة من آفاته ، وبأنه لا يسوؤه أن يظهر أنه ليس متخلفاً ، وأنه مطلع على كل شيء •
قال :

— ماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفتشش ؟ ولكن كل ما قلته يرتبط به ويدور عليه • اتنا نبذل جميع جهودنا لاجتياز رعوس الأموال الأجنبية الى بلادنا ، فما كادت تتضاعف ثروة مالك التمساح بسبب ايفان ماتفتشش حتى أصبحنا نطمح فى أن نفتح بطن هذا التمساح ! فهل هذا معقول ؟ فى رأى ، من حيث أنا ابن صالح من أبناء الوطن ، أن على ايفان ماتفتشش أن يقتبط وأن يعتر بأنه استطاع أن يضاعف قيمة تمساح أجنبى ضعفين اثنين بدخوله فيه • ضعفين اثنين ؟ بل ثلاثة أضعاف ! واذا نجح صاحب هذا التمساح ، فسيأتى رجل ثانٍ بتمساح آخر ، ثم يجىء ثالث بتمساحين أو ثلاثة ، فتتجمع حولهم رعوس الأموال ، فاذا بنا نرى بداية تشوؤ طبقة بورجوازية • وليس يملك المرء الا أن يشجع هذه الحركة ، بل ليس يفيها المرء حقها من التشجيع مهما شجعها •

صحت أقول :

— ولك: هذه التضححة التي تطلبها من هذا المسكين: ايفان ماتفتش

تكاد تكون فوق طاقة البشر يا تيموتي سيمبوتش •

— أنا لا أطلب شيئاً ، وأرجوك أن تذكر أنني لست رئيساً ، وهذا ما قلته لك من قليل • ويترتب على ذلك أنني لا أطلب شيئاً البتة • وانما أنا أتكلم كلام ابن من أبناء الوطن ، لا كلام جريدة « ابن الوطن » * ، بل كلام ابن أبناء الوطن فحسب • ثم انني أعود فأسألك : ما الذي أمره بأن يحشر نفسه في جوف ذلك التمساح ؟ هل يجوز لرجل جاد ، لرجل ذي رتبة ، لرجل متزوج زواجاً شرعياً ، أن يقوم بمغامرة كهذه المغامرة ؟ ما هذا الذي فعله ؟

— ولكن الأمر مستقل عن ارادته استقلالاً تاماً !

— من يدري ؟ ثم بأي حال يمكن دفع التعويض للمالك التمساح ؟

— من مرتبات ايفان ماتفتش •••

— أهى تكفى ؟

قلت بحزن :

— لا تكفى وا أسفاه يا تيموتي سيمبوتش ! في أول الأمر كان صاحب التمساح يخشى على حيوانه أن ينفجر ، حتى اذا تأكد من أن كل شيء يجري على ما يرام ، أخذ يتجبر ويتغطرس ، وراح يتلذذ بالمطالبة بمضاعفة الثمن الذي طلبه في أول الأمر •

— في وسعه أن يضاعفه ثلاثة أضعاف أو أربعة ! ان الناس سيتدفقون أفواجاً كبيرة ، وأصحاب التماسيح هؤلاء أناس بارعون • ثم اننا في موسم الكرنفال ، والناس يشدون التسلية ، فلهذا السبب نفسه يجب على ايفان ماتفتش أن يظل أمره مجهولاً وأن لا يتعجل • فليعرف

- كيف يمكن أن يكون هناك سابقة وهذا أول تمساح حتى
يؤتى به الى بطرسبرج يا تيموتى سيميوتتش ؟

قال :

- هم ... حقاً ؟

واسترسل فى التفكير من جديد • ثم واصل :

- بمعنى من المعانى يمكن أن تعد ملاحظتك صحيحة ، ويمكن أن
تتخذ أساساً لتابعة القضية • ولكن عليك أن تلاحظ من ناحية أخرى أنه
إذا كان ظهور هذه التماسيح الحية سيورث الموظفين ميلاً الى الاعتكاف
فى جوفها ، فإذا هم يطلبون ، بحجة أن الحياة فيها ممتعة ، أن يوفدوا
اليها بمهمات بغية أن يقضوا هنالك وقتهم راقيدين على جنوبهم ، فسيكون
هذا قدوة سيئة • اعترف بهذه الحقيقة • سيمضى جميع الناس بعدئذ الى
أجواف التماسيح يقبضون مالا ولا يقومون بعمل •

- افعل كل ما تستطيع أن تفعله يا تيموتى سيميوتتش ! وبالمناسبة :
لقد رجاني ايفان ماتفوتش بأن أدفع لك سبعة روبلات يدين لك بها من
ربحك فى لعبه معك •

- آ ... نعم ... لقد خسرنا منذ مدة عند نيكيفور نيكيفورتش
... أتذكر هذا • ما كان أشد مرحة فى ذلك المساء ... وما أكثر
ما أضحكنا ! والآن ...

وتأثر العجوز تأثراً صادقا •

- عدنى بأن تهتم بالأمر يا تيموتى سيميوتتش •

- سأهتم • سأتكلم باسمى أنا • سأعرف كيف أتصرف •

سأظاهر بأننى أستمع وأستفهم • بالناسبة : أسأل عن الثمن الذى يطلبه
صاحب التمساح •

لقد رقبَ تيموتى سيميوتش رقة ملحوظة •

قلت له :

– لن يفوتنى أن أسأل صاحب التمساح عن الثمن الذى يطلبه ،
ثم أجيء اليك فوراً لأطلعك على ما سيقوله لى •

– وزوجته ... ها هى اذن أصبحت وحيدة !... أهى تشعر
بضجر ؟

– فى وسعك أن تزورها يا تيموتى سيميوتش •

– لمَ لا ؟ وقد فكرت فى هذا فعلاً ، وأرى أن المناسبة حسنة...
ولكن ما هذه الفكرة ، ما هذه الفكرة التى راودتهم فذهبوا يرون
التمساح ؟ على أتنى أنوى أن أذهب أنا أيضاً لرؤيته •

– نعم يا تيموتى سيميوتش • اذهب الى هناك •

– سأذهب • ولكننى لا أريد أن يساور ايفسان ماتفتش أى أمل
فى هذا المسعى • اتنى لا أقوم به الا من حيث أنا فرد • هياً ، الى اللقاء •
انا ذاهب الى نيكيفور نيكيفورش • هل تكون هنالك ؟

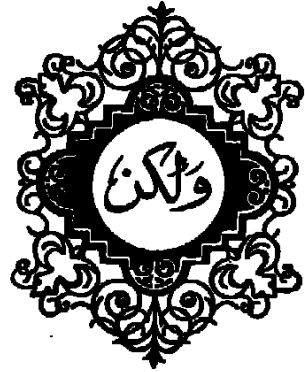
– لا بل سأكون فى زيارة السجين •

– نعم ، السجين ، آه من الحفة والطيش !

ودعّت العجوز • كانت خواطر كثيرة تزدهم فى رأسى • ان
تيموتى سيميوتش رجل طيب ، ولكن هذا لا ينفى أتنى حين تركه

أبهجنى أن أتذكر أنه قد تجاوز الحسين من عمره ، وأن أمثال تيمونى
سيميو تتش ليسوا كثرأ بيتنا •

وطييعى أنتى أسرع أذهب الى « الممر » ، لأحمل الأنباء الى
المسكين ايفان ماتفتتش • يضاف الى ذلك أنتى كنت احترق شوقاً الى أن
أعرف كيف استقر له المقام فى جوف التمساح ، وهل الحياة هنالك
محملة • الحياة فى جوف تمساح ! وكان يخيّل فى بعض اللحظات أنتى
لعبة فى يد حلم شيطانى ! وا أسفاه ! ان الأمر أمر شيطانى حقاً ...



لم يكن حليماً ، بل كان واقفاً لا سبيل الى تفاديه .
والا فهل كان يمكن أن أشرع في شرد قصته ؟

حين وصلت الى «الممر» كان الوقت متأخراً
يقارب الساعة الثامنة . ومن أجل أن أبلغ
الحجرة التي يُعرض فيها التمساح ، اضطررت أن أمرّ بسلم الخدمة ،
لأن الألمانى قد أغلق المحل قبل موعد الاغلاق .

كان الألمانى ، وقد ارتدى رديجتاً عتيقاً متسخاً ، يسير طولاً
وعرضاً ، ويبدو راضياً مرتاحاً أكثر مما كان يبدو كذلك في الصباح .
ان المرء يحس أنه مطمئن . لا بد أن ناساً كثيرين قد جاؤوا . ثم دخلت
الأم ، وكان واضحاً أنها انما دخلت لتراقبني . وأخذت تتهاوس مع ابنها
الذى حملنى فعلاً على أن أدفع له خمسة وعشرين كوبكاً رغم أن المحل
كان قد أغلق . ان هذا الرجل مبالغ فى حب النظام . قال لى :

- ستدفع كلما جئت . ولكنك لن تدفع الا خمسة وعشرين
كوبكاً ، رغم أن كل فرد من أفراد الجمهور العادى سوف يدفع روبلاً
كاملاً ، وذلك لأنك تبدو صديقاً وفاقاً لصاحبك ، وأنا أقدر فيك هذا
الوفاء .

صرخت أقول وأنا أدنو من حوض التمساح ، آملاً أن تصل
كلماتي الى مسامع ايفان ماتفتشش وأن ترضى غروره .

– هل أنت حى ؟ أأنت على قيد الحياة يا صديقى العزيز العالم ؟
فأجابنى بصوت مختنق كأنه صوت آتٍ من تحت سرير ، رغم
اننى كنت قريباً منه كل القرب :

– أنا حى ، وصحتى جيدة . حى وصحتى جيدة . ولكننا ستكلم
على هذا فيما بعد . قل لى قبل كل شئ : كيف تسير أمورنا ؟

تظاهرت بأننى لم أسمع ، وأسرعت أسأله ، بلهجة فيها روح
التعاطف والاشفاق : كيف حاله فى جوف التمساح ؟ وماذا يوجد
هنالك ؟ والحق أن سؤاله عن هذه الأمور لم يكن الا واجباً من واجبات
الصداقة ، بل ولم يكن الا تقيداً بقاعدة من قواعد الأدب والكياسة .
ولكنه فاطمنى نافذ الصبر مستاءً ، ليصرخ قائلاً لى بلهجة الأمر المهددة
فيه ، المألوفة عنده :

– كيف تسير الأمور ؟ الأمور ؟

وبدا لى صوته النحيل مزعجاً جداً .

فحكيت له ، بأدق التفاصيل ، الحديث الذى جرى بينى وبين
تيموتى سيميوتشش ، محاولاً فى الوقت نفسه أن أسبغ على لهجتى شيئاً
من التعبير عن الاستياء والامتعاض .

قال ايفان ماتفتشش يختم الكلام بلهجة فيها ذلك الجفاء نفسه الذى
كان يستعمله دائماً فى مخاطبتى :

– العجوز على حق اننى أحب الناس العمليين ، ولا أطيق
احتمال الضعفاء . على أننى اعترف لك طائعاً بأن فكرتك عن ايفادى
بمهمة ليست سخيفة الى الحد الذى يتراءى للمرء من أول وهلة . ذلك

أنتى أستطيع هنا فعلاً أن أقوم بملاحظات هامة جداً شائقة جداً ، سواء من الناحية العلمية ومن الناحية الأخلاقية ... ولكن هذه القضية تجرى الآن ... لكذلك الحسان ، ولست الرواتب وحدها هي ما يجب

– اجلس فى أى مكان ، ولو على الأرض وأصنع الىّ باتّباع شديد •
زخرت نفسى بغضب قوى ، فتناولت كرسيّاً ، ووضعتّه على أرض
الحجرة مجدّثاً قرعةً صاخبة •

استأنف ايفان ماتفتش كلامه مستمراً على اصطناع لهجة رئيس :

– لقد وفد اليوم جمهور كبير جداً • ورأى صاحب التمساح أن من الضروري اغلاق المحل فى الساعة الثامنة ، أى قبل موعد اغلاقه عادةً ، وذلك ليستطيع أن يحصى الحزنة ، وأن يتخذ الاجراءات اللازمة ليوم الغد • علينا أن نفترض أن علماء الرجال ، وسيدات المجتمع الراقى ، والسفراء ، والمحامين ، وغيرهم ، سيجيئون غداً • وليس هذا كل شيء • ان سكان مختلف المقاطعات والأقاليم من امبراطوريتنا الواسعة الرائعة أغداً سيجيئون نجم العاصمة • وسأصبح محل أنظار الجميع رغم

قلت له فى خبث ومكر ، لأنه أحنقنى بكلامه عن نفسه وحده
وباعتزازه هذا الاعتزاز كله :

- أفلن تشعر بضجر ؟

كنت قد تحيرت فعلاً • ساءلت نفسى وأنا أصرف بأسنانى : « لماذا
يتصنع الأحقق كل هذا التصنع ؟ ألا ان الأولى به أن يبكى بدلاً من
أن يتباهى ويتفاخر ! » •
أجاب عن سؤالى بقسوة :

- لن أشعر بضجر • انتى ، وقد أصبح فى وقتى متسع ، أنصرف
الآن انصرفاً كاملاً الى الأفكار العظيمة الكبرى ، واهتم بمصير الانسان
جملةً • من هذا التمساح انما ستخرج الحقيقة وسيخرج الضياء بعد
اليوم • لا شك فى أننى سأكتشف نظرية جديدة شخصية ، وسأكتشف
علاقات اقتصادية جديدة ، وسيكون من حقى أن اعتر بذلك • لم أستطع
قبل الآن أن انصرف الى هذه المسائل وأن أعكف عليها ، وذلك لقلة
أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة ، ولانشغالى بالتسليات
الاجتماعية التافهة • أما الآن فسوف أحدث ثورة فى كل شئ •
سأكون « فوريه » ، * جديداً ••• بالمناسبة : هل أعطيت تيموتى
سيميونتش السبعة روبلات ؟

قلت وأنا أحاول أن أدخل فى صوتى كل التعبير عما لمثل هذه
التضحية من خطورة :

- نعم أعطيته اياها من جيبى •
فأجابنى بغطرسة :

- سنتحاسب • انتى أتوقع زيادات فى رواتبى • لمن عساهم يزيدون
الرواتب ان لم يزيدوها لى أنا ؟ يخيل الى أنهم يجنون منى الآن فائدة
عظمى • ولكن قل لى : والمرأة ؟

— أتقصد ايلينا ايفانوفنا ؟

فصرخ :

— المرأة !

لا حيلة للانسان مع هذا الشيطان ! وهأنا ذا أقص عليه ، بمذلة ، صارفاً بأسناني ، كيف تركت زوجته • ولكنه لم يرض حتى أن يصنى الى كلامي كاملاً ، بل قاطعني نافداً الصبر قائلاً :

— ان لي آمالاً خاصةً بشأنها • اذا أصبحت أنا • هنا • شهيراً ، فأننى أريد أن تصبح هنالك شهيرة أيضاً • ان العلماء ، والشعراء ، والفلاسفة ، وعلماء المناجم الذين يمرون بمدنيتنا ، ورجال الدولة ، الذين سيجيئون الى ليتحدثوا معى فى الصباح ، سوف يترددون الى صالونها فى المساء • يجب أن تبدأ باستقبال هؤلاء الناس منذ الأسبوع القادم • وستفى رواتبى بالنفقات ما دامت رواتبى مستضاعف ، لا سيما وأن كل ما ستحتاج اليه هو شيء من الشاى وعدد من الخدم • لا داعى الى المزيد ••• لطالما انتظرت فرصة أن أجعل الناس يتحدثون عني ، وأن يذيع صيتى وتطير شهرتى • ولكن كيف كان يمكن تحقيق ذلك وأنا فى ذلك المركز المتواضع والرتبة التافهة ؟ فما هى الا لقمة واحدة يبلعها التمساح ، فاذا بالأمور تعود الى نصابها • سوف يسجلون كل كلمة من كلماتى • ان أيسر تعبير من تعابيري سيحمل الناس على التفكير ، وسيجعلهم يكررونه ويرددونه • وسوف تُطبع أقوالى وتشر • سوف أكون معروفاً مشهوراً • سوف يدركون أخيراً كفاءات هذا الرجل الذى تركوا للتمساح أن يتلمه ! بعضهم سيقول : « هذا رجل لو كان فى بلد اجنبى لعُيِّن وزيراً ، ولاستطاع أن يحكم مملكة بأسرها » ، وسيقول آخرون نادبين متحسرين : « كيف لم يُعهد اليه بمملكة يحكمها ؟ » •

باجيس * أو غيره ؟ • وسوف تكون زوجتى نداءً لى : أنا أملك الذكاء ،
 وهى تملك الجمال والفتنة • سيقول بعضهم : « لانها جميلة انما كانت
 زوجته » ، ولكن الآخرين سيصيحون قائلين : « بل هى جميلة لأنها
 زوجته » • الخلاصة : يجب على ايلينا ايفانوفنا أن تشتري منذ الغد
 « المعجم الأسيكلوبيدى » الذى نُشر باشراف آندره كرايفسكى * ، من
 أجل أن تستطيع التحدث فى جميع المواضيع ، ويجب أن تغنى عناية
 خاصة بأن تقرأ فى كل يوم المقالة الافتتاحية من جريدة « أبناء سان
 بطرسبرج » وأن تقارن بينها وبين افتتاحية جريدة « الشعرة » • أظن أن
 صاحب التمساح هذا لن يرفض أن يأخذنى مع تمساحه بين الفينة
 والفينة الى الصالون المتألق الذى ترتب على عرشه زوجتى ، فأقول هنالك
 أشياء ذكية جداً أكون قد هأتها وأعددتها هنا منذ الصباح • لرجل الدولة
 سأذكر آرائى الحكومية ؛ وللشاعر سأشيد قصائد ؛ ومع السيدات سأكون
 مرحاً فكهاً رقيقاً دون أن أوقظ فى نفوس أزواجهن أى قلق • ولكنى
 سأكون للجميع مثلاً عظيماً على الخضوع للقدر ، وقدوة كبيرة فى الازعان
 لمشيشة الله • سأجعل من زوجتى أديبة مرموقة • سأطريها أعظم الاطراء ،
 وسأثنى عليها أكبر الثناء ، فأحمل الجمهور على أن يفهمها حق فهمها •
 ذلك أننى أعتقد أن زوجتى تملك مزايا عليا وكفاءات فذة ؛ فاذا كان من
 حق الناس أن يقولوا ان آندره الكسندروفتش يضارع فى بلادنا ألفرد
 دوفينى ، فان من حقهم أن يقولوا ان زوجتى تضارع أوجينى تور * •
 أعترف للقارىء بأننى ، رغم أن هذا الجنون مألوف فى ايفان
 ماتفتش معبود فيه ، لم أملك أن أمتنع عن الاعتقاد بأنه يعانى من حمى
 شديدة ، وأنه يهذى • هو الآن ايفان ماتفتش نفسه يرى من خلال
 نظارة مكبرة تضخمه عشرين مرة فى أقل تقدير •

قلت أسأله :

— صديقي ، هل تأمل أن تعيش على هذه الحال مدة طويلة ؟ قل لي :
أأنت في صحة حسنة ؟ كيف تأكل ؟ كيف تنام ؟ كيف تتنفس ؟
لا تؤاخذني على هذا الفضول ، فأنا صديقك ، وحالتك خارقة تثير
الفضول حقاً .

أجاب يقول بفخامة :

— فضول باطل لا طائل تحته ، ولكنني أَرْضَى أن أطفئ أواره
في نفسيك . تسألني كيف دبّرت أمري ورتبت شأنِي في أعماق هذا
التمساح العجيب ؟ فاعلم أولاً أن جوف هذا التمساح خالٍ كل الخلو
فارغ كل الفراغ ، وما كان أشد دهشتي حين لاحظت ذلك ! يخيّل إلى
أنني أقيم في كيس ضخم من المطاط شبيه بتلك الأكياس التي يبيعها
تجار شارع جوروخوفايا ، وكذلك تجار مورسكايا إذا لم يخطئ ظني ،
وتجار شارع فوزنيسنسكي . وما عليك إلا أن تفكر في الأمر قليلاً :
هل كان يمكن أن أدخل جوف التمساح لو لم يكن خالياً كل الخلو على
هذا النحو الذي وضحته لك ؟

صحت أقول مدهوشاً دهشة لها ما يسوّغها طبعاً :

— أهذا ممكن ؟ أمن الممكن أن يكون جوف التمساح خالياً كل
الخلو ؟

قال ايفان ماتفتش مؤكداً بوقار شديد ورصانة عظيمة :

— كلّ الخلو . ومن الجائز أن تكون قوانين الطبيعة نفسها هي التي
شاءت ذلك . ان كل ما يتألف منه التمساح لا يعدو بوزاً ضخماً ذا أنياب
قاطعة جداً ، وذيلًا طويلًا . أما الجوف ، المكان الذي يقع بين هذين
الطرفين ، فليس فيه إلا فراغ مفروش بشيء يشبه المطاط ولعله من
مطاط .

قاطعته خارجاً عن طوري :

- والرئتان ، والبطن ، والأمعاء ، والكبد ، والقلب ؟

- لا وجود لشيء من هذا كله ، ولعل شيئاً من هذا كله لم يوجد في وقت من الأوقات . ليست هذه الأوهام الا ثمرة الحكايات الخيالية التي يرويها مسافرون طائشون . فكما تُنفخ وِسادةٌ بهواء ، كذلك يُنفخ بشخصي فراغٌ هذا التمساح الذي يبلغ من مرونة الانمطاط حداً لا يصدقُه العقل . وعلى هذا النحو يكون في امكانك أنت ، بصفتك صديقَ الأسرة ، أن تأتي فتجلس الى جانبي متى شاء لك كرمك ذلك . ان في المكان متسعاً لك هنا . وأنا أفكر في استدعاء ايلينا ايفانوفنا الى متى دعت الحاجة الى هذا . ثم ان هذا الاكتشاف يتفق كل الاتفاق مع تعاليم العلوم الطبيعية، واليك البرهان على ذلك: لنفرض أنك قد أُتيح لك أن تخلق تمساحاً جديداً : ان هناك سؤالاً ما يلبت أن ينتصب أمامك قبل كل شيء ، وهذا السؤال هو : ما هي الوظيفة الرئيسية للتمساح ؟ وما يلبت الجواب عن هذا السؤال أن يفرض نفسه ، وهو أن الوظيفة الرئيسية للتمساح هي أن يتلع بشرأ . فكيف يجب أن يكون تشكيل التمساح ليقوم بمهمة الابتلاع هذه على أحسن وجه ؟ الجواب محتوم لا مناص منه ، وهو أن جوف التمساح يجب أن يكون فيه متسع لمن سيبتلعهم التمساح ، أي أن جوف التمساح يجب أن يكون فارغاً ، يجب أن يكون خالياً . ولكن الفيزياء قد علمتنا منذ زمن طويل أن الطبيعة تكره الحلاء . فلا بد إذن أن يكون جوف التمساح خالياً في البداية ، على أن لا يظل خالياً هذا الحلو ، ويجب عليه إذن أن يبتلع كل ما قد يجده بغية أن يمتلئ . ذلك هو التعليل الوحيد الممكن لتلك الظاهرة التي نراها عند التماسيح ، أعني ميلها الى الابتلاع . وهناك فروق في البنية والتركيب بين الكائنات الحية . فالانسان كلما كان فراغ رأسه أكبر ، كان شعوره بالحاجة الى ملئه أقل . غير أن هذا هو الاستثناء الوحيد

من القاعدة العامة الأنف ذكرها • هذا كله يبدو لي الآن واضحاً ووضوح
النهار • لقد أدركت هذا كله بقوة فكرى وقوة تجربتى ، اذ غصت الى
أنف لاطمعة انه من التمر ، اذ غصت الى المعلقة لك تنمأ فيها

أسرارها ، واذا سمعت نبضاتها • لاحظ ان علم الاشتقاق اللغوى نفسه
يتفق وما انتهيت اليه ، فان اسم التمساح (الكروكوديل) يعبر عما يتصف
به هذا الحيوان من شراهة • ان كلمة كروكوديل كلمة ايطالية أغلب
الظن أنها من عهد فراعنة مصر القدماء ، وهى مشتقة حتماً من الكلمة
الفرنسية croquer بمعنى « قضم » ، أى أكل ، تفدّى ••• ان فى
نتى أن أشرح هذا كله للجمهور عند القائي محاضرتى القادمة فى صالون
ايلينا ايفانوفنا متى نُقلتُ اليه فى قاربى •

صحت أقول رغم ارادتى ، بغير قليل من الرعب ، لاعتقادي بأن
صاحبى مصاب بحمى وأنه لذلك يهذى ، صحت أقول :

– يا صديقى ، أنت فى حاجة الى أن تتجرع مُسهلاً !

– سخافة ! أهذا لائق فى وضعى الراهن ؟ ومع ذلك كنت على

يقين من أنك ستتكلم عن ضرورة شرب مُسهل !

– ولكن قل لي يا صديقى : كيف تقيم أودك الآن ؟ هل تعشيت

اليوم مثلاً ؟

– لا ، ولكننى لست جائعاً ، ومن الجائز جداً أن لا أطمع بعد اليوم

أبداً • وهذا أمر مفهوم جداً هو أيضاً • فما دمت أشغل كل جوف هذا

التمساح ، فسوف أشبعه مدي الحياة ، وسوف يكون فى الامكان أن يبقى

سنين كثيرة دون أن يتناول أى طعام • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى

فانه لا بد له ، أثناء اشباعى اياه ، أن ينقل الى وبيت فى جميع أنساخ

الحياة التى فى جسمه • وأنت تعلم أن هذه الطريقة هى التى تطبقها

« المتغذرات » من النساء حين تضع فى الليل شرائح نيئة من اللحم على

الوجه ، بمثابة كمادات ، لتبدو نضرة مرنة فتانة بعد حمام الصباح • انتى
 أغدّى التمساح من جسمى ، ولكنى أتلقى منه فى مقابل ذلك غذائى •
 وهكذا يتغذى كل منا بالآخر • ولكن لما كان أمراً صعباً ، حتى على
 تمساح ، أن يهضم رجلاً مثلى ، فلا بد أن يشعر بشيء من الثقل فى
 معدته - رغم أنه ليس بذى معدة • لذلك ترانى أتجاشى ، فى سبيل أن
 لا أزعجه ، أتجاشى أن أستدير ما وسعنى ذلك • ان فى امكانى أن
 أتحرك مستديراً ، ولكنى أمتنع عن ذلك بدافع الروح الانسانية • تلك

ولكنى سأبرهن على أن فى وسع المرء أن يغير مصير الانسانية وان يكن
 راقداً على جنبه ، بل وأنه لا يستطيع تحقيق هذا الهدف والوصول الى
 هذه الغاية الا وهو راقداً على هذا الوضع • ان الكسالى هم الذين يُنضجون
 جميع الأفكار الكبرى وجميع التطورات الفكرية التى تؤيدها جرائدنا
 وتحتجزها مجلاتنا • وذلك هو السبب فيما يقال بحق من أن هذه
 المنشورات انما هى مختبرات • ومهما يكن من أمر ، فلسوف أنشئ من

وضعى الراهن بعض المضايقات ، وان تكن يسيرة تافهة • فان جوف هذا التمساح بارد ولزج ، عدا أن رائحته تشبه رائحة القطران • يخيل الى دائمياً أتتى أشم رائحة خفى المطاط العتيقن اللذين كنت انتعلهما فى السنة الماضية • ولكن هذا كل شيء • فليس فى امكانى أن أشكو من أى مضايقة أخرى •

قلت له :

— ايفان ماتفتش ، هذه معجزات لا أكاد أستطيع أن أصدقها • هل فى نيتك اذن أن لا تعيش بعد اليوم طول حياتك ؟
فأجبنى قائلاً :

— ماهذه السفساف التى تهتم بها ياذا الرأس التافه السخيف؟ أأكون بسيل أن أشرح لك أفكاراً عظيمة وأن أعرض عليك آراء كبرى ، فاذا أنت ... ألا فاعلم اذن أن هذه الأفكار العظيمة التى جاءت تير الليل الذى غصت فيه تُشبعنى أكثر مما يشبعنى أى طعام آخر • أضف الى ذلك أن صاحبنا الممتاز ، مالك التمساح ، قد اهتم بهذا الأمر مع أمه الطيبة ، فقررا أن يدخلنا من بوز التمساح ، فى كل صباح ، أنبوباً أستطيع بواسطته أن أرشف قهوتى أو أن أصيب شيئاً من حساء الخضار • وقد أمرا باعداد الأنبوب • ولكنى أرى أن هذا الأنبوب زائد لا حاجة اليه • اننى آمل أن أعيش ألف سنة على الأقل ، اذا صدق مايقال من أن التماسيح تبلغ هذا المبلغ من طول العمر • حاول منذ الغد أن تعرف هذا من أحد كتب التاريخ الطبيعى ، فمن الجائز أن أكون مخطئاً ، ومن الجائز أن أكون قد التبس على الأمر فخلطت بين التمساح وبين حيوان آخر • هناك شيء واحد يقلقنى : لما كنت أرتدى جوحاً وانتعل حذاءين ، فمن المؤكد أن التمساح لا يستطيع أن يهضمنى • يضاف الى ذلك أتتى حى وأتتى أعارض بكل

ما أملك من قوى ارادتي أن أهُضم هذا الهضم ، لأننى لا أريد بحال من الأحوال أن يطرأ على ما يطرأ على الأطعمة عادةً من تحول، فإن فى ذلك ذلاً لا تطيق نفسى احتماله . ولكن المصيبة أن قماش ملابسى من صنع روسى ، وأنا أخشى لذلك أن لا يصمد لاقامته ألف عام فى جوف هذا الحيوان ، فقد يتحلل آخر الأمر ، فأصبح بلا درع يحمينى ، فيهضمينى التمساح مهما أبذل من مقاومة . لن أسمح له بأن يهضمينى أثناء النهار، ولكن ما حيلتى فى الليل ... حين ينام المرء فتبارحه ارادته ؟ أفلا أتعرض عندئذ لذلك المصير المذل وهو أن أهُضم كما تُهضم قطعة من البطاطس أو من الحلوى أو من لحم العجل ! اننى أشعر بغضب شديد متى تصورت هذا . فمن أجل تحاشي مثل هذه الاحتمالات على الأقل ، يجب تغيير الرسوم الجمركية ، وحماية استيراد الأصواف الانجليزية التى تستطيع لمئاتها أن تحمى من قوى الطبيعة التخريبية مدةً أطول ، أولئك الذين يلبسونها حين يضطرون الى الدخول فى جوف تمساح . لسوف أنقل هذا الرأى الى أحد رجال الدولة عند أول مناسبة ، وسوف أنقله كذلك الى رؤساء تحرير كبريات صحفنا اليومية ، من أجل أن أثير حركةً فى الرأى . وآمل أن أخدم أموراً أخرى كثيرة أيضاً . ولست أشك فى أننى سأرى جمهرة كبيرة من المستطلعين يهرعون الىّ فى كل صباح ، راضين أن يدفعوا خمسة وعشرين كوبكاً فى سبيل أن يعرفوا آرائى فى آخر برقيات الليلة البارحة . وأقول باختصار اننى أرى أن المستقبل يعرض لى فى أن أزهى أشكاله وأسطع ألوانه .

قلت لنفسى : « هى الحمى ! » ، وتابعت أقول بصوت عالٍ حتى يسمعه سماعاً أوضح :

— ولكن ما عساك صانعاً بالحرية يا صديقى ؟ أنت الآن كمن يقيم فى سجن . أفليست الحرية أكبر الخيرات للانسان ؟

أجابنى قائلاً :

- ما أغباك ! صحيح أن المتوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن
الحكماء الحقيقيين يحبون النظام قبل كل شيء * ، فما لم يوجد النظام ...
- رحماك يا ايفان ماتفتش !

زأر يقول غاضباً أشد الغضب من مقاطعته :

- أسكت وأصغ • اننى لم أشعر بقوتى فى يوم من الأيام كشعورى
بها الآن • أنا فى ملجئ الضيق هذا لا أخاف كثيراً الا من النقد الثقيل
الذى تكيهه الصحف الكبرى والا من الصغير الذى تطلقه جرائد الهجاء
اللاذع • وأنا أخشى أن يتخذ منى الهازلون من الناس ، والأغبياء ،
والحاسدون ، والعميون عامة ، أضحوكة يتسكرون عليها • ولكننى
سأخذ اجراءاتى • اننى أنتظر بفارغ الصبر الحكم الذى سيصدره على
الرأى العام وستصدره على الصحافة خاصة منذ الغد • فكن على اطلاع
كامل على هذا كله •

- سأتيك غداً بكدسة من الجرائد •

- قد يكون استباقاً للأمور أن تنتظر شيئاً من الصحف فى الغد ،
فان الأنباء قلماً تظهر فى الصحف الا بعد ثلاثة أيام • ومع ذلك عليك
منذ هذا اليوم أن تأتى الى كل مساء من مدخل الحدم • لقد قررت أن
أخذك سكرتيراً • ستقرأ على الجرائد والمجلات ، ثم أملى عليك آرائى
وأعهد اليك بالمهمات التى يجب أن تقوم بها • لا تنس أن تجيئنى كل
يوم بجميع برقيات أوروبا • ولكن كفى هذا الآن • لا شك أنك نعست •
فارجع الى بيتك ولا تفكر فيما قلته لك فى موضوع النقد • اننى لا أخاف
من النقد ، لأن النقد نفسه يقف الآن فى وضع حرج جداً • حسب
المرة أن يبقى عاقلاً وفاضلاً ليكون كمن يقف على قاعدة وطيبة

لا تتزعزع • لئن لم أكن سقراط ، فسوف أكون ديوجين ، اللهم الا أن أكون الاثنين كليهما في آن واحد ، تلك هي رسالتى المقبلة بين الانسانية •

هكذا كان يتكلم ايفان ماتفتش ، مبرهنًا على أن عقله خفيف عنيد معاً (صحيح أنه كان تحت تأثير الحمى) ، وعلى أنه شبيه بتلك النساء الضعيفات الطبع اللواتى لا يستطعن أن يكتمن سرّاً • ان جميع تلك الملاحظات التى قالها عن التمساح بدت لى جديرةً بالشك • هل من الممكن حقاً أن يكون جوف التمساح فارغاً خالياً ؟ اننى لأراهن على أن كلامه كله لم يكن الا حذلقات مغرور ، وعلى أنه كان يسمى خاصةً الى اذلالى •

أنا أعرف أنه كان مريضاً ، وأن على المرء أن يدارى المرض ، ولكننى أعترف صراحةً بأننى لم أستطع أن أطيق ايفان ماتفتش فى يوم من الأيام • لقد جعلنى خاضعاً لوصايته طول حياتى ومنذ طفولتى • حاولت ألف مرة أن أنهى ذلك الوضع ، غير أن شيئاً ما كان يردنى اليه فى كل مرة ، كما لو كنت آمل أن أقنعه بشيء لا أدرى ما هو ، وأن انتقم لنفسى أخيراً • هى صداقة عجيبة أستطيع أن أقول ان تسعة أعشارها كانت كرهاً لا أكثر • ومع ذلك افترقنا فى هذه المرة على شعور طيب •

قال لى الألمانى بصوت خافت وهو يشيغنى :

— صاحبك من أذكى الرجال •

ذلك أن الألمانى كان قد سمع الحديث الذى جرى بيننا من أوله الى آخره •

قلت له مخافة أن أنسى :

— بالمناسبة : ما هو المبلغ الذى قد تطلبه ثمناً لتمساحك اذا عرض عليك شراؤه ؟

وقد سمع ايفان ماتفتش السؤال ، فانتظر الجواب بكثير من الاهتمام . وتراعى لى بوضوح أنه كان سيستاء أشد الاستياء لو طلب الألماني مبلغاً ضئيلاً . وقد سعل سعالاً خاصاً على كل حال .

لم يشأ الألماني فى أول الأمر أن يسمع شيئاً حتى لقد مضى الى حد الزعل والغضب ، ثم صاح يقول حائقاً. حنقاً شديداً وقد احمر لونه احمراراً قوياً :

— لا أسمع أن يتجرأ أحد فيطلب منى أن أبيع تمساحى . لا أريد أن أفارق تمساحى . لن أقبل بمليون دينار ذهبى ثمناً لهذا التمساح . لقد كان ايرادى منه فى هذا اليوم وحده مائة وثلاثين ديناراً . وسيدر على عشرة آلاف بل ومائة ألف !

كان ايفان ماتفتش يضحك لهذا الكلام سروراً ولذة . وسيطرت أنا على نفسى وملكت شجاعتى فعرضت على هذا الألماني المجنون كل ما فى حساباته من خطأ ، محافظاً على الهدوء والعقل اللازمين لانسان يقوم بواجب الصداقة . قلت للألماني : لو صدق أنه سيجمع مائة ألف دينار ذهبى فى اليوم ، فلن يحتاج الا الى أربعة أيام من أجل أن يكون سكان بطرسبرج جميعاً قد زاروا محله ، ثم ينتهى بعد ذلك كل شيء . وليس يدري المرء من ذا يعيش ومن ذا يموت . فمن الجائز أن ينفجر التمساح ، ومن الجائز أن يمرض ايفان ماتفتش وأن يتوفى ، النخ ، النخ .

ففكر الألماني ثم أجابنى يقول :

— فى هذه الحالة سأطلب من الصيدلى قطرات دواء فلا يموت صاحبك .

قلت :

قطرات الدواء شيء حسن • ولكن تذكر أن من الممكن أن تُرفع قضية • فما عساك تقول إذا ارتأت زوجة ايفان ماتفتش أن تطالب بزواجها الشرعى ؟ أنت تريد أن تغتنى ، ولكن هل أنت مستعد لأن تدفع لايلىنا ايفانوفنا نفقة اعالتها ؟

أجابنى بصوت وقور حازم قاطع :

— ليست هذه نيتى !

وأضافت الأم قائلة بغضب :

— لا ، ليس لدينا هذه النية !

— فلنتظر اذن فى الأمر ملياً : أليس الأفضل لكما أن تقبلا منذ الآن مبلغاً معقولاً هو ربع محقق بدلاً من التعويل على فائدة غير مؤكدة • ثم اننى أحرص على أن ألفت انتباهكما الى أننى لا ألقى هذا السؤال الا من باب حب الاطلاع وحده •

اعتقد الألمانى أن من المفيد أن يشاور أمه ، فمضى بها الى ركن من الشرفة كانت توجد فيه خزانة تضم القرد الذى هو أكبر مجموعة القروء ضخامة وأبشعها صورة •

قال لى ايفان ماتفتش :

— سترى !

شعرت ، من جهتى ، برغبة قوية عنيفة فى أن أهوى على هؤلاء الناس جميعاً ، فأشبعهم ضرباً موجعاً أليماً ، أعنى الألمانى وأمّه ، وخاصةً ايفان ماتفتش هذا الذى كان طموحه الجامع الذى لا حدود له يزعمجنى أكبر ازعاج • ولكن ماذا كان جواب الألمانى الماكر ؟

انه ، عملاً بمشورة أمه ، قد طلب ، ثمناً لتمساحه ، خمسين ألف روبل سنداتٍ من آخر قرض داخلى ، ومنزلاً مبنياً بالحجر فى شارع

جور وخوفاً ، مع صيدلية مجهزة كل التجهيز في ذلك المنزل نفسه ،
بالإضافة الى رتبة كولونيل •

صاح ايغان ماتفتش يقول بلهجة المنتصر :

- رأيت ؟ ألم أقل لك ؟ انه ، باستثناء هذا المطلب الأخير - أعني
باستثناء تسميته كولونيلاً ، وذلك مطلب جنوني - أقول انه باستثناء ذلك
على حق ، لأنه يجيد تقدير القيمة الحالية لحيوانه • ان وجهة النظر
الاقتصادية تفوق كل شيء !

صرخت أقول لهذا الألماني حانقاً :

- عجيب ! كيف تجسر أن تطالب برتبة الكولونيل هذه ؟ ما هو
العمل البطولي الذي قمت به حتى تستحق هذه الرتبة ؟ ما هي الخدمات
التي قدمتها ؟ ما هو المجد العسكري الذي تجللت به ؟ أنت مجنون ؟

قال الألماني مستاءً من الالهانة :

- مجنون ؟ بل انا انسان عاقل جداً ، وما أتم الا حقى أغبياء !
كيف لا يستحق المرء أن يسمّى كولونيلاً وهو يستطيع أن يعرض
تمساحاً في جوفه موظف حى من كبار موظفى الدولة !... هات لى ، ان
استطعت ، روسياً فى امكانه أن يريك تمساحاً فى بطنه موظف حى من
كبار موظفى الدولة !... أنا انسان فذ ، ولست أفهم لماذا لا يمكن أن
أسمّى كولونيلاً !

صحت أقول وأنا أرتعش من الغضب :

- الى اللقاء اذن يا ايغان ماتفتش !

ومضيت مسرعاً حتى لأكاد أركض ركضاً • فلو قد بقيت دقيقة

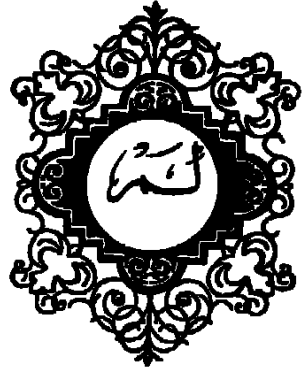
واحدة أخرى لفقدت سيطرتي على نفسي ، ولأصبحت غير مسئول عن تصرفاتي . ان الطموح العجيب الشاذ لدى هذين المخلوقين الأبلهين أمر لا يُطاق .

واستطاعت طراوة الهواء أن تهدى غضبي بمض التهدئة . واخيراً ، بعد أن بصقت خمس عشرة مرة ، يسرةً ويمنة ، استوقفت عربة ، وعدت الى بيتي فخلعت ثيابي ، وارتمت على سريري .

ان ما كان يغيظني ويخرجني عن طوري أكثر من أى شيء آخر هو أنني أصبحت سكرتيراً لايفان ماتفتش . معنى ذلك أنني ، بعد الآن ، سيكون عليّ ، حتى أقوم بما يجب على صديق حقيقي أن يقوم به من واجبات نحو صديقه ، سيكون عليّ أن أجُنَّ في كل مساء !

وشبّت في نفسي رغبة قوية في أن أضرب أحداً ، فما ان أطفأت شمعتي حتى أخذت أضرب رأسي وأجزاء شتى من جسمي بقبضة يدي ضربات متلاحقة . خفّف عني هذا الضرب بعض التخفيف ، ونمت آخر الأمر نوماً عميقاً ، لأنني كنت محطماً . وقضيت الليل أحلم بقرود ، ولكنني في الصباح حلمت بايلينا ايفانوفنا ...

٤



يصعب على أن أفهم أنني إذا حلمت بقرود فأنما يرجع ذلك الى أنني قد رأيت قروداً في القفص، أما حلمي بإيلينا ايفانوفنا فهذا أمر آخر .

ولأذكر الحقيقة على الفور : لقد كنت أحب هذه السيدة . ولكنني أسارع فأضيف أنني كنت أحبها كما يحب أبنته ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ! ... والشئ الذي يقودني الى استخلاص هذه النتيجة هو أنني اشتيت مراراً أن أقبلها على جينها الناعم أو على خديها الورديين ؟ ولكن يجب أن أعترف أنني ما كنت لأرفض أن أقبلها على شفتيها ، رغم أنني لم أقبل ذلك في يوم من الأيام ... لا على شفتيها فحسب ، بل أيضاً على أسنانها اللطيفة التي كانت تبدو أشبه بصف من لؤلؤات صغيرة جميلة متى ضحكت ... وما أكثر ما كانت تضحك ! ...

كان ايفان ماتفتش ، في لحظات انشراحه ، يناديها « يا سخفي اللطيف » ، وهو لقب صادق كل الصدق ، صحيح كل الصحة ، يميزها الى أبعد الحدود . كانت في أكثر تقدير « امرأة سكرة » ، لذلك لم أستطع أن أفهم على أي شئ كان ايفان ما تفتش يعول ويعتمد من أحار أن جعلها فر. روسا سيدة مثل أوجنيه تور .

مهما يكن من أمر ، فإن أحلامي ، اذا صرفنا النظر عن القرود ،

— ذهبتَ تزور من ؟ السجين ؟ أى سجين ؟ آ ... نعم ...
الفتى المسكين ! أهو يشعر بضجر شديد ؟ ... اسمع ... كنت أريد
أن أسألك ... يخيّل الى أنني أستطيع أن أطلب الطلاق الآن ، أليس
كذلك ؟

– الطلاق ؟

كذلك صحت أقول وقد بلغت من الاستياء أنني أوشكت أن أقلب
فنيجان القهوة ، لأنني قلت لنفسى غاضباً : « انه الأسمر » .

ذلك أن هناك رجلاً أسمر ذا شاربين هو موظف فى مصلحة
المباني ، كان يزور الأسرة ويعرف كيف يضحك ايلينا ايفانوفنا . كنت
أنا أكره هذا الرجل وأمقته ، وقدّرت أنه قد اتسع وقته فى الليلة البارحة
اتساعاً كاملاً لأن يراها فى حفلة الرقص التنكرية ، ولأن يقول لها
سخافات كثيرة .

قالت المرأة الجميلة متدفقةً فى كلامها متعجلة ، كأنما هى قد كررت
درساً تحفظه :

– سوف يبقى فى التمساح الى الأبد ، ولن يرجع يوماً ، فهل يكون
علىّ أنا أن أنتظره ؟ يخيّل الىّ أن من واجب الزوج أن يقيم فى بيته
لا فى بطن التمساح .

قلت بانفعال له ما يسوّغه :

– ولكن هذا حادث مستقل عن ارادته كل الاستقلال ...

فصرخت تقول غاضبة :

– آ ... لا ... لا أريد سماع حكاياتك هذه ، لا أريد سماعها !
انك تعارضنى دائماً أيها الشرير ! لا حيلة للمرء معك . لا أريد
نصائحك . لقد قال لى غرباء ان فى وسعى أن أحصل على الطلاق لمجرد
أن ايفان ماتفتش لن يقبض بعد اليوم رواتب .

صحت أقول بلهجة التأثير :

– ايلينا ايفانوفنا ! أأنت حقاً من أسمعها تقول هذا الكلام ، وتحدث

على هذا النحو ؟ من ذلك الرجل الحيث الذى وضع فى رأسك أفكاراً كهذه الأفكار ؟ انه لمن المستحيل أن تحصل امرأة على الطلاق من زوجها لسبب تافه هذه التفاهة وهو أن زوجها أصبح بلا راتب • وماذنب ذلك المسكين ايفان ماتفتش الذى ما يزال يحترق قلبه حباً بك وشوقاً اليك وهو فى أعماق تمساحه ؟ انه يذوب من هذا الحب وهذا الشوق كما تذوب قطعة سكر • أمس مساءً ، بينما كنت أنت تسلين فى حفلة الرقص التكرية ، كان هو يقول انه سيقدر فى آخر الأمر ، عند الضرورة ، أن يستدعيك اليه لأنك زوجته الشرعية ، لتقضى بقربه فى قرارة التمساح ، لا سيما وأن فى المكان تمسحاً لشخصين اثنين وحتى لثلاثة أشخاص ...

ولم ألبث أن قصصت عليها كل ذلك الجزء الشائق من الحديث الذى جرى بينى وبين زوجها فى الليلة البارحة •
فقلت مذهولة :

— كيف ؟ كيف ؟ أتريد أيضاً أن ألحق بايفان ماتفتش فى جوف التمساح ؟ يا لها من فكرة ! كيف تريد أن أدخل الى هنالك بقبعتى وتورتى ذات الأسلاك ؟ رباه ! ألا ان هذا لسخف مستحيل ! بأى وجه أدخل الى هنالك اذا رآنى أحد ؟ هذا مضحك ! وكيف عسانى أغتذى ، وما الذى يمكن أن أصيبه من طعام ؟ وما عسانى أفعل اذا أنا ... يا له من اختراع ! وما هى التسليلات التى يمكن أن أجدها هنالك فأفترج بها عن نفسى ؟ وأنت تقول لى ان الجو هنالك تفوح فيه رائحة المطاط ! وسيكون على أن أبقى راقدة بقربه حين مختصم أو تشتجر ! هه ! يا للهول ! ...

قاطعتها قائلاً بحرارة طبيعية جداً لدى رجل يعرف كيف يقاتل فى سبيل الحقيقة :

— أنا أفهم ، أنا أفهم جميع هذه الحجج الرائعة أيتها العزيزة ايلينا
ايفانوفنا ، ولكنك لا تحسّين حساب ذلك الأمر الهام ، وهو أنه لا يستطيع
أن يعيش بدونك ما دام يطلبك • هذا دليل على ما يحمله لك من حب ،
من حب حارٍ وفي أمين ... انك لم تقدرى قيمة حبه أيتها العزيزة
ايلينا ايفانوفنا !

صرخت تقول وهي تحرّك يدها الصغيرة الجميلة جداً ذات الأصابع
الوردية اللامعة :

— لا أريد ، لا أريد ، لا أريد أن أسمع شيئاً ! انك تُبكيّني أيها
الحبيث ! اذهب أنت الى جوف ذلك التمساح اذا طاب لك هذا • أنت
صديقه • فاذهب اليه اذن ، وارقد الى جانبه حباً بالصدقة ، واقض حياتك
هنالك في مناقشات معه حول موضوعات سخيفة !

قلت بوقار وورصانة أقاطع تلك المرأة المسرفة في الحقة والطيش :

— انك لتخطئين حين تنظرين الى هذا الاحتمال نظرة استهزاء
وسخرية • لقد دعاني ايفان ماتفتش الى اللحاق به • وليس من شك
في أن واجبك يلزمك أنت بهذا ، أما أنا فان ذهبت فانما أذهب كرمأ
وجوداً وسماحة • أمس ، حين كان ايفان ماتفتش يشرح لي ما تتصف
به جدران جوف التمساح من مرونة وقدرة على الانطاط ، أشار صراحةً
الى أن في جوف التمساح متسعاً لا لكما فحسب ، بل وأنا أيضاً ،
بصفتي صديق الأسرة ، وأشار صراحة الى أن في وسعنا أن نستقر نحن
الثلاثة هنالك ، اذا أنا أردت ؟ ولهذا الغرض ...

هتفت ايلينا ايفانوفنا تقول وهي تنظر الى بغير قليل من الدهشة :

— نحن الثلاثة ؟ كيف ؟ أنقيم نحن الثلاثة اذن هناك ؟ ها ها ها ! ..

ما أغياكما كليكما ! لسوف أظل أقربك هنالك طول الوقت أيها الحبيث !
ها ها ها-! ها ها ها! ...

وارتمت بظهرها على مسند الكرسي وطفقت تضحك حتى سالت
الدموع من عينيها • وبلغ ضحكها وبلغت دموعها وبلغ المشهد كله من
الروعة والفتنة واللذة أنني لم أطق صبراً فأخذت أقبل يدها ، فلم
تعارض ولم تقاوم ، وانما راحت تشد أذنيّ علامة المصالحة •

عندئذ عاد إلينا المرح والفرح ، فقصصت عليها بالتفصيل كل خطط
ايفان ماتفتش ومشاريعه ، فسُرّت سروراً عظيماً بفكرة سهرات
الاستقبال في صالونها • ولكنها لفتت انتباهي قائلة :

- غير أنني سأكون والحالة هذه في حاجة الى عدة أثواب جديدة ،
ولا بد أن يرسل اليّ ايفان ماتفتش مبلغاً كبيراً من المال بأقصى سرعة •
ثم أضافت تقول بطريقة :

- ولكن كيف يعملون من أجل أن يأتوني به في قاربه ؟ هذا شيء
مضحك جداً • انني لا أريد أن ينقلوا زوجي وهو في هذا الحوض •
سأشعر من ذلك بخجل أمام ضيوفي ... لا ، لا أريد ، لا أريد ...
قلت لها :

- بالمناسبة ، قبل أن أنسى : هل زارك تيموتي سيميوتش مساءً
أمس ؟

- نعم • وحاول أن يواسيني ويسليني • هل تتصور أننا قضينا
السهرة كلها نلعب بالورق ؟ كان اذا خسر يعطيني حلوى ، واذا خسرت
أنا يقبل يدي • يا للفاجر ! وتصور أنه كاد يجيء معي الى حفلة الرقص
التكرية ! هذا ما حدث فعلاً ! ...

قلت أجيبها :

- هي الحماسة ! ومن الذى لا تستثار حماسه معك أيتها الساحرة
القاتنة !

- هأنت ذا عدت الى ملاطفاتك وأماديحك ! توقع اذن أن أقرصك
حين تهم أن تنصرف ... انتى أجيد القرص الآن ، ما رأيك ؟ آه ...
هل كلمك ايفان ماتقشش كثيراً عنى ؟

- ل ... ل ... لا ... لا كثيراً ... أعترف لك أن أكثر اهتمامه
منصرف الآن الى مصائر الانسانية عامة ، وأنه يريد أن ...

- طيب ، طيب ، لا تكمل كلامك ، لا بد أن يكون هذا باعثاً على
الضحك ... لا ... لا ... غداً في أغليظ الظلم ،

ولكن لا اليوم ... انتى أشعر اليوم بصداق ، وسيكون هناك ناس
كثير ... وسيتهايمسون قائلين : هذه زوجته ! ... استودعك الله ...
هل تذهب في هذا المساء الى هناك ؟ ...

- سأذهب اليه • لقد طلب منى أن أجيء وأن آتية بجرائد •
- حسن جداً • اذهب اليه اذن ، واقرأ له • ولا داعى الى عودتك
اليوم الى ، لأننى أحس بتعب واعياء ... وربما قمت ببعض الزيارات
... استودعك الله أيها الفاجر !

قلت لنفسى : « طيب • لا داعى الى ان أسألها هل يجيء الرجل
الأسمر في هذا المساء ! » •

وفي المكتب ، لم أظهر شيئاً من الهموم التي كانت تقضم نفسى •
ذلك ما يجب أن يكون طبعاً • ولكننى لم ألبث أن لاحظت أن عدة من
جرائدنا التقديمية كانت تتناقلها الأيدي ، وأن الزملاء كانوا يعكفون على
قراءتها بانتباه شديد • وكانت أولى هذه الجرائد التي وصلت الى يدي

«الصحيفة» *، وهى جريدة ليس لها اتجاه سياسى شديد الوضوح ، غير أنها ذات ميول انسانية ، وذلك ما كان يجعل الموظفين فى مكتبنا يشعرون نحوها بشيء من الاحترار ، ولكنهم يقرأونها مع ذلك . واليكم ما وجدته فيها ، وهو أمر أدهشنى :

« هناك شائعات غريبة سرت أوس فى عاصمتنا الكبرى المزدانة بمبانيها الفخمة الرائعة . ومفاد هذه الشائعات أن رجلاً اسمه ن ، هه امه ! صاحب الأطعمة الفاخرة ، قد سئف . أغلب الظن من مطعم

بوريل * ، كما سئم من نادى « . . . سكى » ، فدخل الى «الممر» ، واتجه الى المكان الذى يُعرض فيه تمساح ضخمة ، فطلب أن يُحضّر هذا الحيوان عشاءً له . فبعد أن اتفق مع صاحب التمساح ، أسرع يجلس الى المائدة ، وراح يلتهمه - لا يلتهم صاحب التمساح وهو ألماني متواضع منظم بل يلتهم التمساح - راح يلتهم التمساح حياً ، فهو يقطع من لحم التمساح بسكينه لقمماً ضخمةً يسيل منها الدهن ، فيحملها الى فمه ويزدرددها بشراهة .

« وشيئاً فشيئاً غاب التمساح كله فى تلك الهاوية التى لا قرار لها . وحين فرغ صاحبنا المحب للأطعمة الفاخرة من التهام التمساح أظهر رغبته فى أن يأكل النمى ، وهو الحيوان الذى يرافق التمساح عادةً ، اعتقاداً منه بأن النمى لا يقل عن التمساح طيب مذاق ودسامة لحم .

« اتنا لا نرى أى بأس فى الاقبال على تناول هذا الطعام الجديد الذى عرفه محبو الأطعمة الفاخرة الأجانب منذ زمن طويل ، حتى لقد تنبأنا برواجه فى الماضى . ان اللوردات والسواح الانجليز قد أسروا فى مصر عدداً كبيراً من التماسيح ، وذاقوا ظهورها شرائح مشوية (بفتيك) مبتلةً بالخردل والبصل مع شيء من البطاطس .

« والفرنسيون الذى جاؤوا الى مصر مع فرديناند دى ليسبس يؤثرون

قوائم التماسيح على ظهورها ، ويشوون هذه القوائم فى الرماد الساخن اغاظه للانجليز الذين يسخرون منهم ويتحكمون عليهم • ومن الجائز جداً أن يتعلم الناس عندنا أن يخبوا اكل الظهور والقوائم جميعاً بدرجة واحدة ، وانه ليسرنا أن نرى نشوء هذا الفرع الجديد من فروع الصناعة الغذائية لاغناء وطننا الذى يبلغ هذا المبلغ من القوة والتنوع •

« وفى وسعنا أن نتبأ ، بعد هذا الهضم البطربرجى لأول تمساح ، فى وسعنا أن نتبأ بأنه لن تمر سنة واحدة الا وتستورد بلادنا من هذه التماسيح مئات ومئات • فلماذا لا نحاول أن نؤقلم التمساح فى روسيا ؟ اذا كان نهر نيفا باردا مسرفاً فى البرودة على هذه الحيوانات الهامة التى تنتجها انبلاد الأجنبية ، فان فى العاصمة مياها أخرى كثيرة ، عدا أن الأنهار والبحيرات فى خارج العاصمة لا تعوزنا البتة •

« ألا نستطيع مثلاً أن نتعاطى تربية التماسيح فى بارجولوفو أو فى بافلوفسك أو فى موسكو ، فى غدران بريسنيا وفى ساموتيوكا ؟ * ان التماسيح التى قد نربيتها فى هذه المواطن سوف تكون طعاماً لذيذاً وصحياً لأقواء محبى المأكّل الفاخرة من جهة ، وسوف تكون من جهة أخرى بهجة كبيرة وتسلية عظيمة للسيدات اللواتى يتنزهن فى تلك الأماكن ، وسوف تكون فى الوقت نفسه أمثلةً عملية للتلاميذ فى دروس التاريخ الطبيعى •

« ومن جلودها سنصنع علباً وحقائب ومحافظ للسجائر ومحافظ للأوراق ؛ ان ملايين من الروبلات ، ان ملايين من تلك الأوراق المالية المتسخة التى يحبها التجار حباً عظيماً ، يمكن أن تكون كامنةً فى جلد تمساح • وفى نيتنا ، على كل حال ، أن نعود الى معالجة هذه القضية الهامة ، مراراً وتكراراً • »

ان ما تشتمل عليه هذه المقالة من بعد عن الصحة ومخالفة للواقع

قد ساءنى كثيراً ، رغم أننى توقعت أن أقع فيها على شيء من ذلك • واذ لم أعرف من ذا الذى يمكننى أن أعبر له عن مشاعرى ، فقد التفت ببصرى نحو بروخور سافتش الجالس أمامى ، وفى تلك اللحظة انما أدركت أنه كان ينظر الىّ منذ مدة طويلة ولا شك ، ممسكاً بيده نسخة من جريدة « الشعرة » وكأنه يهم أن يناولنى اياها •

وبدون أن يقول كلمة واحدة تناول جريدة « الورقة » التى مدتها اليه ، وأعطانى جريدة « الشعرة » وهو يدلى بظفره على المقالة التى كان يريد أن يلفت اليها انتباهى • ان بروخور سافتش هذا انسان غريب عجيب • هو رجل متقدم فى السن لم يتزوج ، وليس بينه وبين أى واحد منا علاقات ، ولا يكاد يكلم أحداً من موظفى الدائرة • وان له دائماً ، فى أى أمر الأمور ، رأياً خاصاً ، ولكنه لا يطبق أن يفرض بهذا الرأى الى أى انسان • وهو يعيش وحيداً ، حتى لأكاد أقطع بأن أحداً منا لم يدخل بيته فى يوم من الأيام •

اليكم ما قرأته فى جريدة « الشعرة » ، فى الموضع الذى عينه لى
بشارة من ظفره :

« يعلم الناس جميعاً أننا تقدميون وانسانيون ، وأنا من هذه الناحية نستطيع أن ندعى بأننا نعادل أوروبا • ولكن مهما تكن جهود شعبنا ومهما تكن جهود جريدتنا ، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا ما زلنا بعيدين عن أن نصبح « ناضجين » ، اذا جاز أن نقطع برأى فى هذا الموضوع على أساس حادثة مثيرة للحنق كان « الممر » مسرحها بالأمس ، وكنا قد تنبأنا بها دائماً •

« وصل الى بلادنا رجل أجنبى يملك تمساحاً ، وأخذ يعرض حيوانه فى « الممر » • فسارع فنقول على الفور اتنا نبارك هذا الفرع الجديد من

فروع صناعة مفيدة ، وهو فرع ما يزال ينقص جذع وطننا القوى
المتنوع •

« ولكن اليكم ما حدث : أمس ، في الساعة الرابعة والنصف ، وصل
الى محل ذلك الرجل الأجنبي ، على حين فجأة ، رجلٌ سمين جداً قد
أخذ السكر منه كل مأخذ ، فما ان دفع ثمن تذكرة الدخول ، حتى مضى
يقتحم فم التمساح دون أن ينبّه أحداً ، فلم يملك التمساح الا أن يتلعه ،
ولو بدافع غريزة البقاء وحدها تحاشياً للاختناق . وما كاد الرجل المجهول
فمن فصحف التمساح حتى نام نوماً عميقاً •

الشديدة التي تشتمل عليها معاملة كهذه المعاملة لحيوان منزلي • ان القراء يعلمون أن من الصعب على هذا التمساح أن يهضم كتلة تبلغ هذا المبلغ من الضخامة • فالحيوان المسكين العائر الحظ قابع الآن في مكانه مهدم القوى منتفخ البطن ينتظر الموت وسط آلام مبرحة لا تطاق • ان المحاكم في أوروبا قد بدأت ، منذ زمان طويل ، بمحاكمة أولئك الذين يعاملون الحيوانات المنزلية معاملة خالية من الروح الانسانية • أما في بلادنا ، ورغم شيوع الاضاعة على الطريقة الأوروبية ، ورغم رصف الطرق على الطريقة الأوروبية ، ورغم بناء المنازل على الطريقة الأوروبية ، سينقضي وقت طويل قبل أن نقص من الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال الاجرامية •

« أصبحت المنازل جديدة ، ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة ! *

« بل هل المنازل جديدة حقاً ؟ انا لا نستطيع أن نقول هذا دائماً عن سلالها ؟ فكم من مرة أشرنا في أعمدة هذه الجريدة الى القذارة المؤسفة الموجودة منذ أشهر على درجات السلم الخشبي من عمارة التاجر لوكيانوف الواقع على شارع بطرسبرجسكايا ، هذا السلم الذي هو هيكمل متداع كان يشكل خطراً جدياً على الخادمة آفيميا سكابيداروفا ، التي تضطرها ضرورات عملها الى صعوده دائماً لنقل الماء والحطب الى فوق • وقد حدث ما تنبأنا به بالفعل ، حدث أسس ، في الساعة الثامنة والنصف من المساء ، حين سقطت آفيميا سكابيداروفا وهي تحمل صحيفة الحساء ، فانكسرت ساقها •

« ونحن نتساءل مع ذلك هل سيكون من شأن هذا الحادث أن يدفع لوكيانوف أخيراً الى أن يعزم أمره على اصلاح سلم منزله ... نتساءل هذا التساؤل لعلنا بأن الروسي رجل عبيد •

« وبانتظار ما سيحدث ، فانتا نعلم القارىء أن الخادمة التي كانت
ضحية هذا الاهمال الروسى قد نُقلت الى المستشفى . »

« ولن نملك كذلك من أن نكرر ما سبق أن قلناه مراراً من أن على
البوابين ، حين يزيحون الثلج عن أرصفة شارع فيبورجسكايا ، أن
يتخذوا بعض الاحتياطات تحاشياً لتلويث أحذية المارة بالطين . لماذا
لا يكوّمون الثلج أكداً صغيراً ، كما يفعل الناس فى أوروبا ؟ ... »
النخ ، النخ ، ... »

نظرت الى بروخور سافتش مندهشاً بعض الاندهاش وسألته :

- ما هذا الكلام ؟

- أى كلام ؟

- عجيب ! يشفقون على التمساح بدلاً من أن يرثوا لحال ايفان
ماتفتش !

- سيان أن تكون الشفقة على هذا « الحيوان اللبون » أو على ذاك !
فانما المهم أن يشفقوا ! أليس هذا على الطريقة الأوروبية ؟ ان الناس فى
أوروبا يشفقون على التماسيح أيضاً ! هــ هـ هـ ! ... »

قال بروخور سافتش العجيب هذا الكلام ، ثم استغرق فى أوراقه
ولم ينطق بعد ذلك بكلمة .

وضعت جريدة « الشعرة » فى جيبي ، وجمعت مئونة من الجرائد
لصاحبي المسكين ايفان ماتفتش ، ثم خرجت من الدائرة رغم أن موعد
الخروج ما يزال بعيداً ، وذهبت الى « المر » لأعرف ما يجرى فيه ولو
من بعيد ، ولأجمع مختلف الآراء .

واذ كنت أُنَبِّأُ أن يكون الزحام هنالك شديداً حتى ليكاد الناس يدوس بعضهم بعضاً ، فقد رفعت ياقة معطفي من قبيل التخفي ، لأنني كنت أشعر بشيء من الحجل لا أدري لماذا ، فنحن أناس لما نألف كثرة الكلام عنا •

ولكنني أشعر أنني ليس من حقني أن أذكر احساساتي الخاصة ، المتذلة ، الحالية من الشعر ، تجاه حادث يبلغ هذا المبلغ من البروز والتفرد •

حواش

صفحة

٥ * لا بد من الإشارة الى أن كلمة «القبو» هنا يجب أن تفهم على المجاز لا على الحقيقة ، فإن بطل هذه القصة لا يسكن قبوا ، وإنما هو يسكن غرفة نائية في أقصى المدينة ، كما يتضح ذلك من سياق القصة : هذا الى أن كلمة podpolië الروسية لا تعنى طابق القبو في العبارات المتعددة الطوابق في أيامنا هذه ، وإنما تعنى المكان الذي يقع تحت الأرض الخشبية في بيت مبني من خشب ، وفي ذلك المكان انما تختبئ الفئران في العادة متخفية

القبو هنا بمعناها المجازي انما ترمز الى الخفاء الذي تعتصم به النفس مع أفكارها المستسرة وخواطرها المختبئة .

٢٨ * «كل ما هو جميل ورائع» : تعبير مستمد من الفيلسوف الالماني الشهير «كانت» الذي كان يستشهد به الفلاسفة المثاليون الروس كثيرا .

٣٢ * « رجل الطبيعة والحقيقة » : الإشارة هنا الى جان جاك روسو .

٣٥ * « فإذا برهن لكم مثلا على أنكم من سلالة القروء » : في عام

صفحة

- تنتمى الى المدرسة الواقعية عرضت سنة ١٨٦٣ ، وسيتحدث عنها المؤلف فى « يوميات كاتب » .
- ٤٥ ★ « كما يروق لكل انسان » : الاشارة هنا الى مقالة كتبها تشرنيشفسكى بهذا العنوان ونشرتها مجلة « المعاصر » ، العدد ٧ من سنة ١٨٦٣ .
- ٤٦ ★ « سيجد فى الخير منفعة » : عرض تشرنيشفسكى هذه النظرية التى تنتمى الى المذهب النفعى فى مقالة بعنوان « المذهب الأنتربولوجى فى الفلسفة » ، وقد نشرت المقالة سنة ١٨٦٠ .
- ٤٩ ★ هو هنرى توماس باكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) الذى عرض هذه النظرية عن لتقدم فى كتابه الشهير « تاريخ الحضارة فى انجلترا » الذى ترجم الى الروسية بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٦ .
- ٤٩ ★ الاشارة هنا الى حرب الانفصال .
- ٤٩ ★ الاشارة هنا الى الحرب التى شنتها بروسيا والنمسا على الدانمارك سنة ١٨٦٤ للاستيلاء على هذه الدوقيات الصغيرة .
- ٥٠ ★ « ستنكا (ستيبيان) رازين » : رئيس العصيان الكبير الذى قام به القوقازيون والفلاحون بين ١٦٦٩ - ١٦٧١ ؛ وهو رجل جسر قاس .
- ٥١ ★ « قصر كبير من الكريستال » : يشير دوستويفسكى الى رواية تشرنيشفسكى « ما العمل ؟ » (١٨٦٤) . ففي الحلم الذى تراه بطل الرواية تبدو الاشتراكية عصرا يسوده « ربيع دائم » و « فرح دائم » ، ويبنى فيه « قصر من حديد وكريستال » .
- ٥٧ ★ هو آى . آنايفسكى ، كاتب عجيب الخيال مهووس الطبع ضئيل الموهبة كان النقاد يسخرون منه ويتهمون عليه .
- ٦٢ ★ « للمحيوانات الداجنة » : بالفرنسية فى الاصل .
- ٧٤ ★ هذه الأبيات هى بداية قصيدة من نظم نكراسوف (١٨٤٦) يخاطب بها الشاعر فتاة سقطت ثم بعثها هو بحبه .

صفحة

- ٧٩ ★ « كونستا نجوجلو » : شخصية نتحل بالفضيلة ، تظهر في الجزء الثاني من كتاب جوجول « النفوس الميتة » .

- ٨٠ ★ « ملك اسبانيا » : ان بطل قصة جوجول « يوميات مجنون » يعتقد أنه ملك أسبانيا .

- ١٣٦ ★ « سيلفيو » : بطل قصة بوشكين « طلقة الرصاص » (١٨٣٠) .
و « الحفلة التذكيرية » : مسرحية للشاعر ليرمونتوف (١٨٣٥) .
والحوادث في هذين العملين الادبيين تدور على مبارزة .

- ١٤٣ ★ « ميدان سيبينايا » : يقع هذا الميدان في حي فقير من العاصمة ؛ وكانت تحيط به فنادق ومنازل سيئة السمعة .

- ١٤٤ ★ تقع مقبرة فولكوفو في جنوب سان بطرسبرج بمنطقة مليئة بالمستنقعات .

- ١٧٤ ★ آخر بيت من قصيدة نكراسوف التي اورد المؤلف مطلعها في الصفحة ٨٧

- ١٩٤ ★ « بطرسبورجسكايا ستورونا » (حي بطرسبرج) : يقع هذا الحي على الضفة اليمنى من نهر نيفا وراء قلعة بطرس وبولس .
وهنا انشا بطرس الأكبر عاصمته التي انتقل مركزها بعد ذلك الى الضفة اليسرى ، وظل هذا الحي أكثر تواضعا وأقل سكانا .

- ٢١٠ ★ « الخمر الجديدة في زقاق جديدة » : جاء في انجيل مرقس من أقوال المسيح (الاصحاح الثاني ، ٢٢) : « وليس أحد يجعل خمرًا جديدة في زقاق عتيقة ، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف . بل يجعلون خمرًا جديدة في زقاق جديدة » .

صفحة

الكهنوت ، بأسماء جديدة مشتقة من كلمات يونانية أو لاتينية،
كقولهم آنفيتياتروف . وقد صنع المؤلف على هذا القياس اسمى
بسودونيموف و ماميفروف .

٢٢٠ * من أجل أن يصف دوستويفسكى الاضطراب الشديد لشامل،
فانه يستعير اسم اللوحة التى رسمها الرسام برولوف « آخر
أيام بومبى » .

٢٤٣ * « كاستنكينتش » : النطق العامى لاسم كونستانتينتش .

٢٤٣ * « مفتاح الأحلام » : كتاب تهكمى مؤلفه ن.ف. شتريبينا ،
كانت تتناقله الأيدى فى ذلك الوقت مخطوطا .

٢٤٣ * ايغان بانايف (١٨١٢ - ١٨٦٢) : مؤلف روائى ورجل من رجال
المجتمع كان منذ ١٨٤٧ مديرا لمجلة « المعاصر » .

٢٤٤ * آندره كرايفسكى (١٨١٠ - ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصدر
مجلات شتى ، ولكنه ضئيل الحظ من الثقافة ؛ وقد شرع سنة
١٨٦١ فى نشر « المعجم الموسوعى » بمعاونة الحكومة ، فأثار
ذلك احتجاج الأدباء . وأما الفراكى فهو تاجر كبير كان عضوا
فى هيئة تحرير مجلة « المزارع » سنة ١٨٥٩ .

٢٤٤ * جريدة « جولوفشكا » : اسم تهكمى يطلقه دوستويفسكى على
جريدة ساخرة راديكالية اسمها « الشرارة » .

٣٠٠ * مسز آن رادكليف (١٧٦٤ - ١٨٢٣) ، كاتبة روائية انجليزية
راجت رواياتها المربعة راجا كبيرا فى أوروبا كلها . وقد
ترجمت كتبها الى الروسية ، فى عهد الكسندر الاول ، أكثر
مما ترجمت لغيره .

٣٠٠ * « بلاد العجائب المقدسة » : مطلع قصيدة تدعو الى السلافية
للشاعر الكسى ستيبانوفتش خومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠) ،
عنوانها « أحلام » (١٨٤٣) ، وفيها يقول :

صفحة

لشد ما يحزننى أن أرى الظلمات
تلف الغرب البعيد
« بلاد العجائب المقدسة » •

- ٣٠١ ★ « شارع أشجار الزيزفون » : شارع رئيسى فى برلين •
- ٣٠١ ★ ان صور الجدران فى متحف برلين ، للرسام فلهلم فون كاوباخ (١٨٠٥ - ١٨٧٨) ، كانت تجذب الاهتمام بجدهتها وطرافتها •
- ٣٠٢ ★ فزيفولود فلاديميروفتش كرسstofفسكى (١٨٤٠ - ١٨٩٥) :
ان هذا الشاعر الذى سيتخصص فى الروايات الخفيفة كان قد
بدأ حياته الادبية بقصائد غزلية جنسية جمعت فى ديوان سنة
١٨٦٢ •
- ٣٠٢ ★ يعرف القارىء أن دوستوففسكى قد تخرج مهندسا معماريا من
« المدرسة العسكرية للهندسة » •
- ٣٠٢ ★ نيكولا ميخائيلوفتش كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) : شاعر
وروائى ومؤرخ ، هو الذى أدخل «العاطفية» الى روسيا • ويعد
كتابه «رسائل مسافر» أثرا أدبيا جميلا • ويشير دوستوففسكى
هنا الى فقرة وردت فى رسالة مؤرخة من ايجليزو فى ١٤ آب
(أغسطس) ١٧٨٩ ، وفيها يقول كارامازين : «ابتهجت ابتهاجا
عظيما وكدت أركع مستغفرا نهر الراين أننى تكلمت أمس عن
شلاله بقليل جدا من الاحترام »
- ٣٠٧ ★ هو دينيس ايفانوفتش فونفيزين (١٧٤٤ - ١٧٩٢) ، الخالق
الحقيقى للكوميديا الروسية الحديثة • أحسن آثاره مسرحية
« البريجادير » التى لقيت نجاحا عظيما • وقد قام سنة ١٧٧٨
برحلة الى فرنسا لاستشارة الأطباء بمدينة موبلييه ، فأرسل
الى أصدقائه من ليون وموبلييه وباريس رسائل تشتمل على
تفاصيل شائقة ، ولكنها تدل فى الوقت نفسه على كره شديد
للفرنسيين ، مع أنه قد ظل طول حياته يترجم أو يقلد (كما
يقول بعضهم) هؤلاء الفرنسيين الذين شهر بهم ذلك التشهير •

صفحة

والجملة التي يوردها دوستوفسكي توجد في الرسالة الرابعة والستين الذي أرسلها من ايكس لاشابيل في شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٧٨ الى الجنرال الكونت بطرس ايفانوفتش بانين، وهذا نصها الدقيق : « الفرنسي محروم من العقل ، ولو وتي عقلا لعد ذلك أكبر شقاء ، لأن العقل سيضطره الى التفكير ، بينما هو يستطيع أن يتسلى » .

٣٠٧ * بيساريون جريجوريفتش بيلنسكي (١٨١١ - ١٨٤٨) : ناقد شهير ، كان يمجّد الغرب ويدعو الى الاقتداء بالغرب ، ولا سيما في أواخر حياته .

٣٠٨ * بطرس ياكوفلفتش تشاداييف (١٧٩٤ - ١٨٥٦) : كتب باللغة الفرنسية كتابا بعنوان « رسائل فلسفية » ، وفيه بلغ من التهكم على « الفكرة الروسية » أن نيكولا الأول اعتقد أن من المستحسن أن يعد مصابا بلوثة عقلية . والحق أن دعاة « النزعة الغربية » قد بالغوا مبالغات لعلهم لم يؤمنوا بها في يوم من الايام ، ولعل خصومهم لم يقلوا عنهم غلوا كذلك .

٣٠٨ * آيدتكونن محطة حدود بروسية على خط برلين - بطرسبرج .

٣٠٩ * ان بيلوبياتكين هو بطل قصة كتبها ابان شبابه الشاعر نيكولا الكسيفتش نكراسوف (١٨٢١ - ١٨٧٨) ، وعنوانها : « الثرثار ، يوميات آ . اى . بيلوبياتكين ، مواطن بطرسبرج » ، وهي نوع من السرد لوقائع كتبها المؤلف شعرا مقفى . وهذا هو المقطع الذي يشير اليه دوستوفسكي :

ما دمت أشعر بحماسة شعرية

تشب في نفسي

قدعوني أرسم لكم صورتي

مستمدة من حياتي .

كنت في الماضي شديد الحماسة

أحلم مثلكم تماما ،

وأخلق في الأثير

و « أحب ان أهرب الى سويسرا »
ولكن صانع قدرى
ضربنى بعصاه ضربات كبيرة
فأسقطنى من الأثير
واجلسنى وراء مكتب .

٣١٠ * ان مربية بوشكين هذه قد أطلعتة على الفولكلور الروسى ،
فساهمت كثيرا فى تنمية عاطفته القومية الشعبية . فبفضل
هذا الاتصال الاول بأرض الوطن انما استطاع بوشكين الذى
ربى على الطريقة الفرنسية والذى يعترف بأنه يجيد استعمال
اللغة الفرنسية أكثر من اللغة الروسية ، أن يتحرر شيئا
فشيئا من التأثيرات الاجنبية حتى أصبح أكثر الشعراء الروس
تمثيلا للقومية الروسية .

٣١٠ * اشارة الى قصة الشاعر بوشكين « بنت الضابط » (١٨٣٦) ،
التي كان بطلها المتمرد القوزاقى الشهير بوجاتشيف .

٣١٠ * اشارة الى كتاب بوشكين « أقاصيص المرحوم ايفان بتروفتش
بيلكين » (١٨٣١) التي نسبها بوشكين الى رجل من صغار
مالكي الاطيان .

٣١٠ * اشارة الى رواية بوشكين « أوجين أوجنين » (١٨٢٤ - ١٨٢٨) ،
وهى رواية كتبها بوشكين شعرا وفيها يصف الشاعر تقاليد
الارستقراطية الروسية وصفا ساخرا .

٣١٠ * سيعدد دوستويفسكى فى الفصل التالى بعض هذه الغرائب التي
تعلق بها أهل موسكو ، ولا سيما طريقة قص الذقن ، وكذلك
ما زعم بعضهم أنه « لباس قومى » . فان هذه الغرائب قد أساء
بها « دعاة السلافية » الى عقيدتهم مهما يكن حسن نياتهم .

٣١٢ * دام « المعرض العام » بلندن من اول أيار (مايو) الى اول تشرين
الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ .

٣١٤ * « كوكوشنيك » : قماش مطرز مزدان بلآلى يوضع على الرأس
جزءا من اللباس القومى القديم الذى كانت تلبسه النساء

صفحة

٣١٤ * لعسل دوستويفسكى يشير هنا الى كونستانتان سيرجيفتش
آكساكوف (١٨١٧ - ١٨٦٠) الذى كان من غلاة «السلافية» ،
وقد أخذ عليه تورجنيف هذا الشذوذ فى كتابه « مذكرات
صياد » .

٣١٥ * كان ميشيل افجروففتش سالتيكوف (١٨٢٦ - ١٨٨٩) ،
وهو روائى روسى ساخر ، قد نشر فى سنتى ١٨٥٦ و ١٨٥٧
كتابه « صور من الأرياف » ، باسم مستعار هو اسم شتدرين
الذى أصبح اسما شهيرا .

٣١٦ * جريجورى الكسندروففتش بوتيومكين، أمير توريد ، أثير كاترين
الثانية الشهر (١٧٣٥ - ١٧٩١) . ولعل العبارة التى يوردها
دوستويفسكى هنا « مت يا دنيس ، فلن تكتب شيئا خيرا من
هذا » قد أفلتت منه أثناء العرض الاول لمسرحية « لبريجادير » .

٣١٧ * يروى دوستويفسكى هنا عن الذاكرة بيتين من قصيدة مشهورة
للمشاعر جابرييل رومانوففتش دريافين (١٧٤٣ - ١٨١٦)
بعنوان « الاستيلاء على فارصوفيا » (١٧٩٤) . وفى تلك
القصيدة يقول الشاعر عن سوفوروف :

يقف على الجبال فتتشق الجبال

ويقف على المياه فتغلى المياه .

إذا لمس مدينة تهدمت المدينة .

وبيده يقلب الأبراج فتخترق الأبراج السحاب .

الطبيعة ترتعش وتصفى خوفا منه .

أعواد القصب وحدها يرافى بها .

٣١٨ * « كوزما بروتكوف » : نموذج موظف من ابتكار الشاعر الكسى
كونستانتينوفتش تولستوى (١٨١٧ - ١٨٧٥) وقريبه
الكسى وفلاديمير يمتشوينيكوف . لقد نشروا بهذا الاسم
المستعار تقليدات هزلية لشعراء معاصرين . أما «دفتر جدى»
الذى دسوه فى مجلة « المعاصر » التى يصدرها باناييف
ونكراسوف ، فقد نسبوه الى جد كوزما بروتكوف ، الميجر

صفحة

فيدوت كوزمتش بروتكوف . وقد ضم هذا « الدفتر » سبع عشرة حكاية أو نادرة . والنادرة التي يرويها دوستويفسكى هي الثالثة في المجموعة .

٣٢٠ ★ بيت من قصيدة للشاعر ليرمونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) عنوانها « تأمل » (١٨٤٠) .

٣٢٠ ★ من مسرحية للشاعر جريبويدوف عنوانها « كثير من الذكاء ضرر » ، الفصل الثاني ، المشهد الثاني .

٣٢٣ ★ الكابتن كوبنكين الذي يتحدث عنه جوجول في كتابه « النفوس الميتة » ، الجزء الأول ، الفصل العاشر .

٣٢٥ ★ بازاروف ، كوكشيننا: شخصيتان من شخصيات كتاب تورجنيف « الآباء والأبناء » الذي صدر سنة ١٨٦١ وأثار مساجلات عنيفة .

٣٢٩ ★ تشاتسكى : الشخصية الرئيسية في المسرحية الهزلية الشهيرة التي كتبها الكسندر سيرجيفتش جريبويدوف (١٧٩٥ - ١٨٢٩) وعنوانها « كثير من الذكاء ضرر » (نشرت سنة ١٨٣٣) . وجميع الأسماء التي سيجيء ذكرها بعد ذلك هي أسماء شخصيات في هذه المسرحية . وان شخصية مولتشالين هي نموذج الموظف الوصولى . والشعر المذكور : « ملاذا للعاطفة الجريحة المهانة » ، مستمد من المشهد الختامى لهذه المسرحية (الفصل الخامس ، المشهد الرابع عشر) .

٣٢٩ ★ « السامودور » : تعنى هذه الكلمة شخصا مزهواً بنفسه رغم أنه محدود العقل غبى العناد . وقد راجت هذه الكلمة بفضل المؤلف المسرحى الكسندر نيكولايفتش أوستروفسكى (١٨٢٣ - ١٨٨٦) الذى تزخر مسرحياته بنماذج « للسامودور » أسرة أخاذة .

٣٣٠ ★ ريبتلوف ، سكالوزوبوف ، فاموسوف ، خلستوف ، مولتشالين: شخصيات من مسرحية جريبويدوف الآنف ذكرها .

صفحة

- ٣٣١ ★ كلمة المؤرخ والناقد نيكولا ألكسييفتش بولفوى (١٧٩٦-١٨٤٦)،
وتعنيها الدقيق ما يلي : « أنا أعرف روسيا وأحب روسيا ،
وروسيا تعرفنى وتحبنى » ، وقد جلبت هذه الكلمة لقاتلها
سخریات معاصريه ، ولا سيما بيلنسكى .
- ٣٤٨ ★ من نصين فى رؤيا يوحنا (الاصحاح السابع ، ٩ ؛ والاصحاح
السادس ، ١٠) ، وقد كان دوستويفسكى يكثر من قراءة هذا
السفر .
- ٣٥٧ ★ « الزوجة والزوج وعشيق الزوجة » ، رواية من تأليف بولدوكوك
ترجمت الى الروسية سنة ١٨٣٣ .
- ٣٦٦ ★ انجيل متى (الاصحاح السادس ، ٣٣) .
- ٣٦٧ ★ « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » : هذا هو الشعار
الذى زين به اتين كابييه كتابه الشهير « رحلة الى ايكاريا »
(١٨٤٠) . وفى عام ١٨٤٩ أنشأ كابييه فى تكساس وحدة
انتاجية اشتراكية على مبادئ فورييه ، ثم انتزعت ادارتها منه
بعد منازعات كثيرة ودعوى مدوية .
- والكؤمونة الثانية التى قامت على مبادئ فورييه أنشأها
سنة ١٨٥٣ فى تكساس فكتور كونسيديران .
- ٣٦٨ ★ « أيام حزيان » : اشارة الى ثورة العمال من ٢٣ الى ٢٦ حزيان
(يونية) سنة ١٨٤٨ ، وهى الثورة التى سحقها جافينيكاك .
- ٣٧٠ ★ بعد اخفاق حملة غاريبالدى على روما ، هزمه الجيش الملكى فى
آسبرومونت فى التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس)
١٨٦٢ (ان هذا التاريخ يسمح لنا بتحديد فترة رحلة
دوستويفسكى) .
- ٣٧١ ★ ترأس غاريبالدى الحكومة الثورية فى نابولى منذ السابع من
شهر ايلول (سبتمبر) حتى الثانى من شهر تشرين الثانى
(نوفمبر) سنة ١٨٦٠ .
- ٣٧٦ ★ الاشارة هنا الى الثورة الفرنسية .

صفحة

٣٧٧ ★ الأمير جيروم نابوليون بوناپرت (١٨٢٢ - ١٨٩١) ، قريب نابوليون الثالث ، كان عضوا بمجلس الشيوخ .

..... - إضافة : ١٨٠٩ - ١٨٨٠ - مجلس الشيوخ - عضو

الهيئة التشريعية منذ سنة ١٨٥٨

٣٨٠ ★ « رجل الطبيعة والحقيقة » : استشهاد غير دقيق بعبارة واردة في كتاب روسو « الاعترافات » ، وفيها يقول جان جاك : « أريد أن أرى أقراني البشر رجلا تظهر فيه كل حقيقة الطبيعة . وهذا الرجل هو أنا » .

..... - يستعجده - يستعجده نفسه - كلامه في هذه الصفحة - استعجده

ألفها اميل أوجييه بعنوان « السيد جيران » .

٤٠٣ ★ كان « الممر » بمدينة بطرسبرج يضم متاجر ، ويضم كذلك قاعات للموسيقى والمحاضرات والمعارض .

٤١٠ ★ « بطرس لافروف » (١٨٢٣ - ١٩٠٠) : ناقد وضعي ألقى سنة ١٨٦٠ ثلاث محاضرات عن « أهمية الفلسفة الحديثة » .

٤١٠ - نمكة لاستثنائه في (١٨٠٧ - ١٨٧٧) : هو ديسام كارينكاتوري ،

ومحرر في جرائد هجائية مثل جريدة « الشرارة » وجريدة « اليقظة » .

٤١٧ ★ يستهدف دوستويفسكي هنا جريدة « رسول سان بطرسبرج » التي كان يصدرها ف.ف. كورش ؛ وجريدة « الصوت » التي كان يصدرها كرايفسكي ، مستفيدا من التشابه اللفظي بين الكلمتين الروسييتين Golos (ومعناها الصوت) و Volos (ومعناها الشعرة) .

٤٢٤ ★ « التملك الجماعي » : أوجب قانون الإصلاح الزراعي الصادر سنة ١٨٦١ أن لا تكون الأرض التي يفلحها الأقنان ملكا لهم ،

- صفحة**
- ٤٢٦ ★ « ابن الوطن » : جريدة لبرالية ظهرت منذ ١٨٦٤
- ٤٣٦ ★ « جارنييه باجيس » : (١٨٠٨ - ١٨٧٨) : جمهوري ، عضو في الحكومة المؤقتة سنة ١٨٤٨ ، عضو في الهيئة التشريعية منذ عام ١٨٦٤ .
- ٤٣٦ ★ « آندره كرايفسكي » (١٨١٠ - ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصدر عدة مجلات ، ولكنه ليس على حظ كبير من الثقافة ؛ شرع سنة ١٨٦١ في إصدار « معجم موسوعي » بمعاونة الحكومة ، فآثار ذلك احتجاج الادباء .
- ٤٣٦ ★ « آندره الكسندروفتش » : هو آندره كرايفسكي نفسه الذي تحدثنا عنه في الحاشية السابقة ، والذي كان قليل الحظ من الثقافة ، ولا يمكن أن يشبه بالكاتب والشاعر الفرنسي الفرد دو موسنيه ، بوجه من الوجوه .
- ٤٣٦ ★ « أوجيني تور » : هو الاسم الأدبي المستعار للكونتيسة سالياس دو تورنير ، التي كان اسمها سوخوفو - كوبيلين (١٨١٥ - ١٨٩٢) ، وهي أديبة روسية ، روائية وناقدة .
- ٤٤٣ ★ « ان المتوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن الحكماء الحقيقيين يحبون النظام قبل كل شيء » : استشهاد غير دقيق بجملة وردت في قصة لكارامازين عنوانها «مارتا الحاكمة» نشرت سنة ١٨٠٢ ، وهي تصف زوال استقلال فوفوجورود على يد المستبد حنا الثالث ، وأصل الجملة ما يلي : « الشعوب المتوحشة تحب الاستقلال ، أما الشعوب الحكيمة فانها تحب النظام ، ولا نظام بدون سلطة مستبدة » .
- ٤٥٦ ★ « الصحيفة » : اشارة الى «صحيفة سان بطرسبرج» .
- ٤٥٦ ★ « مطعم بوريل » : مطعم من أشهر مطاعم سان بطرسبرج ، وكان صاحبه رجلا سويسريا .
- ٤٥٧ ★ « بارجولوفو ، بافلوفسك » : من أماكن الاصطياف قرب سان بطرسبرج . أما «غدران بريسناء» فهي توجد في ضاحية تقع في الجنوب الغربي من موسكو ؛ وأما «ساموتيوكا» ،

صفحة

فجدول ماء بمدينة موسكو يجرى فى أنبوب ويغطيه بلاط . ان
سخرية ها هنا واضحة .

٤٥٩ * « ما نزال بعيدىن عن النضج بعدا كبيرا » : جملة للاقتصادى
لامانسكى فى خطاب ألقاه سنة ١٨٥٩ ، وقد راجت هذه الجملة
وجرت بها ألسن الناس كثيرا .

٤٦٠ * « أصبحت المنازل جديدة ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة » :
جواب تشاتسكى فى مسرحية جريبويدف الشهيرة « كثير من
الذكاء ضرر » .

فهرس

٥		تقديم
١٩		فى قبوى
٧٤		بمناسبة الثلج اللاب
١٩٩		قصة اليمة
٢٩٧		ذكرىات شتاء عن مشاعر صيف
٢٩٩		الفصل الأول - بمثابة مقدمة
٣٠٧		الفصل الثانى - فى القطار
٣١٣		الفصل الثالث - أمور نافلة تماما
٣٣٤		الفصل الرابع - أمور غير نافلة بالنسبة الى مسافرين
٣٤٣		الفصل الخامس - « بعل »
٣٥٥		الفصل السادس - بحث فى البورجوازى
٣٧٠		الفصل السابع - تنمة ما سبق
٣٨٦		الفصل الثامن - « حبيبى » و « غزالتى »
٤٠١		التمساح
٤٦٥		حواش

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الثاني</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيوتشكا نرفانوفا	الأنبله - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخارتشين	الأنبله - ٢.
الجارا	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهرج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في تسع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	المرامق - ١.
زوجة آخر، ورجل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	المرامق - ٢.
قرية ستيفانتشيكوفو وسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الأخوة كارامازوف - ١.
مذلون مهانوف	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢.
في قبوي	
قصة اليمعة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأنبدى	

دوستويفسكي

العمل الادبي الكامل

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر في سربوفيف